سید قطب

فی ظلال القرآن

فی ظلال القرآن

بقلم

سید قطب

الجزء الاول

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة وأول سورة البقرة

Marfat.com

في ظلال القرآن

الحياة في ظلال القرآن نعمة . نعمة لايعرفها إلا من ذاقها . نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

والحمد لله . . لقد من عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته مالم أذق قط في حياتي . ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

لقد عشت أسمع الله ـ سبحانه ـ يتحدث إليّ بهذا القرآن . . أنا العبد القليل الصغير . . أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل ؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنزيل ؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم ؟

وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أنظر من عُلو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة . . أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال . . كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال . ولثغة الأطفال . . وأعجب . . مابال هذا الناس ؟ ! مابالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل . النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه ؟

عشت أتملى ـ في ظلال القرآن ـ ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود . . لغاية الوجود كله ، وغاية الوجود الإنساني . . وأقيس إليه تصورات الجاهلية التي تعيش فيها البشرية ، في شرق وغرب ،وفي شمال وجنوب . . وأسأل . . كيف تعيش البشرية في المستنقع الآسن ، وفي الدرك الهابط ، وفي الظلام البهيم . وعندها ذلك المرتع الزكي ، وذلك المرتقى العالي ، وذلك النور الوضيء ؟

وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله ، وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله . . ثم أنظر . . فأرى التخبط الذي تعانيه البشرية في انحرافها عن السنن الكونية ، والتصادم بين التعاليم الفاسدة الشريرة التي تملى عليها وبين

Marfat.com

فطرتها التي فطرها الله عليها . وأقول في نفسي : أي شيطان لئيم هـذا الذي يقود خطاها إلى هذا الجحيم ؟

ياحسرة على العباد ! ! !

وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود .. أكبر في حقيقته ، وأكبر في تعدد جوانبه . . إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده . وإنه الدنيا والآخرة ، لاهذه الدنيا وحدها . . والنشأة الإنسانية ممتدة في شعاب هذا المدى المتطاول . . والموت ليس نهاية الرحلة وإنما هو مرحلة في الطريق . وما يناله الإنسان من شيء في هذه الأرض ليس نصيبه كله ، إنما هو قسط من ذلك النصيب . وما يفوته هنا من الجزاء لايفوته هناك. فلاظلم ولا بخس ولا ضياع .. على أن المرحلة التي يقطعها على ظهر هذا الكوكب إنما هي رحلة في كون حي مأنوس ، وعالم صديق ودود . كون ذي روح تتلقى وتستجيب ، وتتجه إلى الخالق الواحد الذي تتجه إليه روح المؤمن في خشوع : « ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » . . « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ،وإن من شيء إلا يسبح بحمده » .. أي راحة ، وأي سعة وأي أنس، وأي ثقة يفيضها على القلب هذا التصور الشامل الكامل الفسيح الصحيح ؟

وعشت ـ في ظلال القرآن ـ أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية من قبل للإنسان ومن بعد . . إنه إنسان بنفخة من روح الله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . . وهو بهـذه النفخة مستخلف في الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » .. ومسخر له كل مافي الأرض : « وسخر لكم مافي الأرض جميعا » . . ولأن الإنسان بهـذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة . جعلها آصرة العقيدة في الله . . فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي أهله . . ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لاعلى أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج ! .

وللمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب في شعاب الزمان . إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذي يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ،ويعقوب ويوسف،

Marfat.com

وموسى وعيسى ، ومحمد . . عليهم الصلاة والسلام . . « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . .

هذا الموكب الكريم ، الممتد فى شعاب الزمان من قديم ، يواجه ـ كما يتجلى فى ظلال القرآن ـ مواقف متشابهة ، وأزمات متشابهة ، وتجارب متشابهة على تطاول العصور وكر الدهور ، وتغير المكان ، وتعدد الأقوام . يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى ، والاضطهاد والبغى ، والتهديد والتشريد . . ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو ، مطمئن الضمير ، واثقا من نصر الله ، متعلقا بالرجاء فيه ، متوقعا فى كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » . . موقف واحد وتجربة واحدة . وتهديد واحد . ويقين واحد . ووعد واحد للموكب الكريم . . وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون فى نهاية المطاف . وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد . .

* * *

وفى ظلال القرآن تعلمت أنه لامكان فى هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة: « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . . وكل أمر لحكمة . ولكن حكمة الغيب العميقة قد لاتتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . . « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لاتعلمون » . . والأسباب التى تعارف عليها الناس قدتتبعها آثارها وقد لاتتبعها ، والمقدمات التى يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لاتعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هى التى تنشىء الآثار والنتائج ، وإنما هى الإرادة الطليقة التى تنشىء الآثار والنتائج كما تنشىء الأسباب والمقدمات سواء : « لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » . . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . . والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها ؛ والله هو الذى يقدر آثارها ونتائجها . . والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين ، والنجوة من الهواجس والوساوس : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » . .

Marfat.com

ومن ثم عشت ـ فى ظلال القرآن ـ هادىء النفس ، مطمئن السريرة ، قرير الضمير . . عشت أرى يد الله فى كل حادث وفى كل أمر . عشت فى كنف الله وفى رعايته . عشت أستشعر إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها . . « أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ » . . «وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير» .. « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .. « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .. «فعال لما يريد» .. « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره » .. « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » . . « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » .. « ومن يهن الله فماله من مكرم » . . « ومن يضلل الله فماله من هاد » .. إن الوجود ليس متروكا لقوانين آلية صماء عمياء . فهناك دائما وراء السنن الإرادة المدبرة ، والمشيئة المطلقة . . والله يخلق مايشاء ويختار . كذلك تعلمت أن يد الله تعمل . ولكنها تعمل بطريقتها الخاصة ؛ وأنه ليس لنا أن نستعجلها ، ولا أن نقترح على الله شيئا . فالمنهج الإلهى ـ كما يبدو فى ظلال القرآن ـ موضوع ليعمل فى كل بيئة ، وفى كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية ، وفى كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة . . وهو موضوع لهذا الإنسان الذى يعيش فى هذه الأرض، آخذ فى الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغايرة التى تعتريه .. إن ظنه لايسوء بهذا الكائن فيحتقر دوره فى الأرض، أو يهدر قيمته فى صورة من صور حياته ، سواء وهو فرد أو وهو عضو فى جماعة . كذلك هو لايهيم مع الخيال فيرفع هذا الكائن فوق قدره وفوق طاقته وفوق مهمته التى أنشأه الله لها يوم أنشأه . . ولا يفترض فى كلتا الحالتين أن مقومات فطرته سطحية تنشأ بقانون أو تكشط بجرة قلم ! .. الإنسان هو هذا الكائن بعينه . بفطرته وميوله واستعداداته ، يأخذ المنهج الإلهى بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته ، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته ، وهو يقوده فى طريق الكمال الصاعد إلى الله . . ومن ثم فإن المنهج الإلهى موضوع للمدى الطويل ـ الذى يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن ـ ومن ثم لم يكن معتسفا ولا عجولا فى تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج . إن المدى أمامه ممتد فسيح ، لايحده عمر فرد ، ولا تستحثه رغبة فان ، يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غايته البعيدة ؛ كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله فى جيل واحد ، ويتخطون الفطرة

Marfat.com

المتزنة الخطى لأنهم لايصبرون على الخطو المتزن ! وفى الطريق العسوف التى يسلكونها تقوم المجازر ، وتسيل الدماء ، وتتحطم القيم ، وتضطرب الأمور . ثم يتحطمون هم فى النهاية ، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التى لاتصمد لها المذاهب المتعسفة ! فأما الإسلام فيسير هينا لينا مع الفطرة ، يدفعها من هنا ، ويردعها من هناك ، ويقومها حين تميل، ولكنه لايكسرها ولا يحطمها. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة .. والذى لايتم فى هذه الجولة يتم فى الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المئة أو الألف ... فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل . وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها فى التربة، وتتطاول فروعها وتتشابك.. كذلك ينبت الإسلام ويمتد فى بطء وعلى هينة وفى طمأنينة. ثم يكون دائما مايريده الله أن يكون .. والزرعة قد تسفى عليها الرمال ، وقد يأكل بعضها الدود، وقد يحرقها الظمأ ، وقد يغرقها الرى . ولكن الزارع البصير يعلم أنها زرعة للبقاء والنماء ، وأنها ستغالب الآفات كلها على المدى الطويل ؛ فلا يعتسف ولا يقلق ، ولا يحاول إنضاجها بغير وسائل الفطرة الهادئة المتزنة ، السمحة الودود.. إنه المنهج الإلهى فى الوجود كله .. « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

والحق فى منهج الله أصيل فى بناء هذا الوجود . ليس فلتة عابرة ، ولا مصادفة غير مقصودة .. إن الله سبحانه هو الحق . ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأن مايدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » .. وقد خلق الله هذا الكون بالحق لايتلبس بخلقه الباطل : « ماخلق الله ذلك إلا بالحق » .. « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ! » .. والحق هو قوام هذا الوجود فإذا حاد عنه فسد وهلك : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .. ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر ، ولا بد للباطل أن يزهق . ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها إلى تكشف صريح : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق، باقية بقاءه فى الأرض : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال » ... « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة

Marfat.com

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء » . .

أى طمأنينة ينشئها هذا التصور ؟ وأى سكينة يفيضها على القلب ؟ وأى ثقة فى الحق والخير والصلاح ؟ وأى قوة واستعلاء على الواقع الصغير يسكبها فى الضمير ؟

* * *

وانتهيت من فترة الحياة ـ فى ظلال القرآن ـ إلى يقين جازم حاسم . . إنه لاصلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ، ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة . . إلا بالرجوع إلى الله .

والرجوع إلى الله ـ كما يتجلى فى ظلال القرآن ـ له صورة واحدة وطريق واحد .. واحد لاسواه . . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذى رسمه للبشرية فى كتابه الكريم . . إنه تحكيم هذا الكتاب وحده فى حياتها ، والتحاكم إليه وحده فى شؤونها . وإلا فهو الفساد فى الأرض ، والشقاوة للناس ، والارتكاس فى الحمأة ، والجاهلية التى تعبد الهوى من دون الله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

إن الاحتكام إلى منهج الله فى كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار . إنما هو الإيمان .. أو .. فلا إيمان .. « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . . « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون . إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين » . .

والأمر إذن جد . . إنه أمر العقيدة من أساسها . . ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها . .

إن هذه البشرية ـ وهى من صنع الله ـ لاتفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ؛ ولاتعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذى يخرج من يده ـ سبحانه ـ وقد جعل فى منهجه

Marfat.com

وحده مفاتيح كل مغلق ، وشفاء كل داء : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . . ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه . ولا تسلك في أمر نفسها ، وفي أمر إنسانيتها ، وفي أمر سعادتها أو شقوتها ... ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة . . وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه ، فترده إلى المصنع الذي منه خرج ؛ ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه : « إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » . .

ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة . البشرية المسكينة الحائرة، البشرية التي لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير !

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلا في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألم بها من نكبات . .

لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعد ما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة ؛ و « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . .

تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور .. فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته . . لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم ؛ كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً ، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور ، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء .. نعم ! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع ، والبساطة واليسر ، والواقعية والإيجابية ، والتوازن والتناسق ... بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لولا أن الله أراده لها ، وحققه في حياتها . . في ظلال القرآن ، ومنهج القرآن ، وشريعة القرآن .

Marfat.com

ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ؛ ونحى الإسلام عن القيادة . نحى عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى ، فى صورة من صورها الكثيرة . صورة التفكير المادى الذى تتعاجب به البشرية اليوم ، كما يتعاجب الأطفال بالثوب المبرقش واللعبة الزاهية الألوان !

إن هناك عصابة من المضللين الخادعين أعداء البشرية . يضعون لها المنهج الإلهى فى كفة والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفة الأخرى ؛ ثم يقولون لها : اختارى !!! اختارى إما المنهج الإلهى فى الحياة والتخلى عن كل ماأبدعته يد الإنسان فى عالم المادة ، وإما الأخذ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلى عن منهج الله !!! وهذا خداع لئيم خبيث . فوضع المسألة ليس هكذا أبدا . . إن المنهج الإلهى ليس عدوا للإبداع الإنسانى . إنما هو منشىء لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة . . ذلك كى ينهض الإنسان بمقام الخلافة فى الأرض . هذا المقام الذى منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووهبه من الطاقات المكنونة مايكافىء الواجب المفروض عليه فيه ؛ وسخر له من القوانين الكونية مايعينه على تحقيقه؛ ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع . . على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام ، والتقيد بشرطه فى عقد الخلافة ؛ وهو أن يعمل ويتحرك فى نطاق مايرضى الله . فأما أولئك الذين يضعون المنهج الإلهى فى كفة ، والإبداع الإنسانى فى عالم المادة فى الكفة الأخرى . . فهم سيئو النية ، شريرون ، يطاردون البشرية المتعبة الحائرة كلما تعبت من التيه والحيرة والضلال ، وهمت أن تسمع لصوت الحادى الناصح ، وأن تؤوب من المتاهة المهلكة ، وأن تطمئن إلى كنف الله . . .

وهنالك آخرون لاينقصهم حسن النية ؛ ولكن ينقصهم الوعى الشامل ، والإدراك العميق . . هؤلاء يبهرهم ما كشفه الإنسان من القوى والقوانين الطبيعية ، وتروعهم انتصارات الإنسان فى عالم المادة . فيفصل ذلك البهر وهذه الروعة فى شعورهم بين القوى الطبيعية والقيم الإيمانية ، وعملها وأثرها الواقعى فى الكون وفى واقع الحياة ؛ ويجعلون للقوانين الطبيعية مجالا ، وللقيم الإيمانية مجالا آخر ؛ ويحسبون أن القوانين الطبيعية تسير فى طريقها غير متأثرة بالقيم الإيمانية ،وتعطى نتائجها سواء آمن الناس أم كفروا . اتبعوا منهج الله أم خالفوا عنه . حكموا بشريعة الله أم بأهواء الناس !

هذا وهم . . إنه فصل بين نوعين من السنن الإلهية هما فى حقيقتهما غير منفصلين . فهذه

Marfat.com

القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواء بسواء . ونتائجها مرتبطة ومتداخلة ؛ ولا مبرر للفصل بينهما في حس المؤمن وفي تصوره . . وهذا هو التصور الصحيح الذي ينشئه القرآن في النفس حين تعيش في ظلال القرآن . ينشئه وهو يتحدث عن أهل الكتب السابقة وانحرافهم عنها وأثر هذا الانحراف في نهاية المطاف : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . وينشئه وهو يتحدث عن وعد نوح لقومه : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » . . وينشئه وهو يربط بين الواقع النفسي للناس والواقع الخارجي الذي يفعله الله بهم : « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » . .

إن الإيمان بالله ، وعبادته على استقامة ، وإقرار شريعته في الأرض . . . كلها إنفاذ لسنن الله . وهي سنن ذات فاعلية إيجابية ، نابعة من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائر السنن الكونية التي نرى آثارها الواقعية بالحس والاختبار

ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية ، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية . . هذا الافتراق قد لاتظهر نتائجه في أول الطريق ؛ ولكنها تظهر حتما في نهايته . . وهذا ماوقع للمجتمع الإسلامي نفسه . لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية . وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما . وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق ، حتى وصل إلى الحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا . .

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار ، بينما جناحه الآخر مهيض ، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر مايرتكس في المعنى الإنساني ؛ ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية مايصرخ منه العقلاء هناك . . لولا أنهم لايهتدون إلى منهج الله ، وهو وحده العلاج والدواء .

إن شريعة الله للناس هي طرف من قانونه الكلي في الكون . فإنفاذ هذه الشريعة لابد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون . . والشريعة إن هي إلا ثمرة

Marfat.com

الإيمان لاتقوم وحدها بغير أصلها الكبير . فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتسام في بناء المجتمع المسلم . وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني ، ومع ماينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير ، ونظافة في الشعور ، وضخامة في الاهتمامات ، ورفعة في الخلق ، واستقامة في السلوك . . . وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء مانسميه القوانين الطبيعية ومانسميه القيم الإيمانية . . فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود .

والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود . وعمله وإرادته ، وإيمانه وصلاحه ، وعبادته ونشاطه . . . هي كذلك قوى ذات آثار إيجابية في هذا الوجود ؛ وهي مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود . . وكلها تعمل متناسقة ، وتعطي ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق : بينما تفسد آثارها وتضطرب ، وتفسد الحياة معها ، وتنتشر الشقوة بين الناس والتعاسة حين تفترق وتتصادم : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم » . . فالارتباط قائم وثيق بين عمل الإنسان وشعوره وبين ماجريات الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع . ولايوحي بتمزيق هذا الارتباط ،ولايدعو إلى الإخلال بهذا التناسق، ولايحول بين الناس وسنة الله الجارية ، إلا عدو للبشرية يطاردها دون الهدى ؛ وينبغي لها أن تطارده ، وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم ..

* * *

هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن. لعل الله ينفع بها ويهدي. وماتشاءون إلا أن يشاء الله ..

Marfat.com

سورة الفاتحة
مكية وآياتها سبع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا ٱلضَّالِّينَ » ٧

يردد المسلم هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع ، سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى ؛ وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن ؛ وإلى غير حد إذا هو رغب فى أن يقف بين يدى ربه متنفلا ، غير الفرائض والسنن . ولا تقوم صلاة بغير هذه السورة لما ورد فى الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من حديث عبادة ابن الصامت : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

إن فى هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات التصور الإسلامى ، وكليات المشاعر والتوجهات ، مايشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة ، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها . .

* * *

تبدأ السورة : « بسم الله الرحمن الرحيم » . . ومع الخلاف حول البسملة : أهى آية من كل سورة أم هى آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة ، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة ، وبها تحتسب آياتها سبعا . وهناك قول بأن المقصود بقوله تعالى : « ولقد

Marfat.com

آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » .. هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات «من المثانى» لأنها يثنى بها وتكرر فى الصلاة .

والبدء باسم الله هو الأدب الذى أوحى الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أول ما نزل من القرآن باتفاق ، وهو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك ... » .. وهو الذى يتفق مع قاعدة التصور الإسلامى الكبرى من أن الله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .. فهو ـ سبحانه ـ الموجود الحق الذى يستمد منه كلُّ موجود وجودَه ، ويبدأ منه كل مبدوء بداءه . فباسمه إذن يكون كل ابتداء . وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه .

ووصفه ـ سبحانه ـ فى البدء بالرحمن الرحيم ، يستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها .. وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين ، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن . فمن الجائز أن يوصف عبد من عباده بأنه رحيم ؛ ولكن من الممتنع من الناحية الإيمانية أن يوصف عبد من عباده بأنه رحمان . ومن باب أولى أن تجتمع له الصفتان .. ومهما يختلف فى معنى الصفتين : أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة ، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا تقصيه فى هذه الظلال ؛ إنما نخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها .

وإذا كان البدء باسم الله وما ينطوى عليه من توحيد لله وأدب معه يمثل الكلية الأولى فى التصور الإسلامى .. فإن استغراق معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها فى صفتى « الرحمان الرحيم » يمثل الكلية الثانية فى هذا التصور ، ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد .

* * *

وعقب البدء باسم الله الرحمن الرحيم يجىء التوجه إلى الله بالحمد ووصفه بالربوبية المطلقة للعالمين : « الحمد لله رب العالمين » ..

والحمد لله هو الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله .. فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضا من فيوضات النعمة الإلهية التى تستجيش الحمد والثناء . وفى كل لمحة وفى كل لحظة وفى كل خطوة تتوالى آلاء الله وتتواكب وتتجمع ، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان .. ومن ثم كان الحمد لله ابتداء ، وكان الحمد لله ختاما قاعدة من قواعد التصور الإسلامى المباشر : « وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ... » .

ومع هذا يبلغ من فضل الله ـ سبحانه ـ وفيضه على عبده المؤمن ، أنه إذا قال : الحمد لله .

Marfat.com

كتبها له حسنة ترجح كل الموازين .. فى سنن ابن ماجه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : « يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك » . فعضلت الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها . فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا ، إن عبدا قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها . قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : « وما الذى قال عبدى ؟ » قالا : يارب ، إنه قال : لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما : « اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزه بها » . .

والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذى يستجيشه مجرد ذكره لله - كما أسلفنا - أما شطر الآية الأخير : « رب العالمين » فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامى، فالربوبية المطلقة الشاملة هى إحدى كليات العقيدة الإسلامية . . والرب هو المالك المتصرف ، ويطلق فى اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية . والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين - أى جميع الخلائق - والله - سبحانه - لم يخلق الكون ثم يتركه هملا . إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه . وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين . والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة فى كل وقت وفى كل حالة .

والربوبية المطلقة هى مفرق الطرق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل ، والغبش الذى ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة . وكثيرا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون ، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون فى الحياة . ولقد يبدو هذا غريبا مضحكا . ولكنه كان وما يزال . ولقد حكى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . . كما قال عن جماعة من أهل الكتاب : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » . . وكانت عقائد الجاهليات السائدة فى الأرض كلها يوم جاء الإسلام ، تعج بالأرباب المختلفة ، بوصفها أربابا صغارا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون !

فإطلاق الربوبية فى هذه السورة ، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعاً . هى مفرق الطريق بين النظام والفوضى فى العقيدة . لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد ، تقر له بالسيادة المطلقة ، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة ، وعنت الحيرة كذلك بين شتى الأرباب .. ثم لتطمئن

Marfat.com

ضمير هذه العوالم إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة . وإلى أن هذه الرعاية لاتنقطع أبدا ولا تفتر ولا تغيب ، لا كما كان أرقى تصور فلسفي لأرسطو مثلا يقول بأن الله أوجد هذا الكون ثم لم يعد يهتم به، لأن الله أرقى من أن يفكر فيما هو دونه ! فهو لايفكر إلا فى ذاته اوأرسطو - وهذا تصوره - هو أكبر الفلاسفة ، وعقله هو أكبر العقول !

لقد جاء الإسلام وفى العالم ركام من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار . . . يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف ، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة .. والضمير الإنسانى تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون ، ولايستقر منها على يقين :

وكان التيه الذى لاقرار فيه ولايقين ولانور ، هو ذلك الذى يحيط بتصور البشرية لإلهها ، وصفاته وعلاقته بخلائقه ، ونوع الصلة بين الله والإنسان على وجه الخصوص .

ولم يكن مستطاعا أن يستقر الضمير البشرى على قرار فى أمر هذا الكون ، وفى أمر نفسه وفى منهج حياته ، قبل أن يستقر على قرار فى أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته ، وقبل أن ينتهى إلى يقين واضح مستقيم فى وسط هذا العماء وهذا التيه وهذا الركام الثقيل .

ولايدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطلع على ضخامة هذا الركام ، وحتى يرود هذا التيه من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار التى جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشرى ، والتى أشرنا إلى طرف منها فيما تقدم صغير . (وسيجيء فى استعراض سور القرآن الكثير منها ، مما عالجه القرآن علاجا وافيا شاملا كاملا) .

ومن ثم كانت عناية الإسلام الأولى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد التصور الذى يستقر عليه الضمير فى أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخلائق وعلاقة الخلائق به على وجه القطع واليقين .

ومن ثم كان التوحيد الكامل الخالص المجرد الشامل ، الذى لاتشوبه شائبة من قريب ولامن بعيد . . هو قاعدة التصور التى جاء بها الإسلام ، وظل يجلوها فى الضمير ، ويتتبع فيه كل هاجسة وكل شائبة حول حقيقة التوحيد ، حتى يخلصها من كل غبش ، ويدعها مكينة راكزة لايتطرق إليها وهم فى صورة من الصور . . كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح فى صفات الله وبخاصة مايتعلق منها بالربوبية المطلقة ، فقد كان معظم الركام فى ذلك

Marfat.com

تيه الذى تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير .. مما يتعلق بهذا الأمر الخطير ، العظيم الأثر فى الضمير الإنسانى ، وفى السلوك البشرى سواء .

والذى يراجع الجهد المتطاول الذى بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل فى ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته . هذا الجهد الذى تمثله النصوص القرآنية الكثيرة .. الذى يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الركام الثقيل فى ذلك التيه الشامل الذى كانت البشرية كلها تهيم فيه .. قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر ، وإلى كل هذا التدقيق الذى يتتبع كل مسالك الضمير . . ولكن مراجعة ذلك الركام تكشف عن ضرورة ذلك الجهد المتطاول ، كما تكشف عن مدى عظمة الدور الذى قامت به هذه العقيدة ــ وتقوم ــ فى تحرير الضمير البشرى وإعتاقه . وإطلاقه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهام والأساطير !

وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها . . كل هذا لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات ، والأساطير والفلسفات ! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم .. عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة . رحمة حقيقية للقلب والعقل رحمة بما فيها من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق

* * *

« الرحمن الرحيم » .. هذه الصفة التى تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها تتكرر هنا فى صلب السورة ، فى آية مستقلة ، لتؤكد السمة البارزة فى تلك الربوبية الشاملة ؛ ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته . . إنها صلة الرحمة والرعاية التى تستجيش الحمد والثناء . إنها الصلة التى تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة . . فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

إن الرب الإله فى الاسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب فى نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الاغريق . ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير

Marfat.com

المزورة فى « العهد القديم » كالذى جاء فى أسطورة برج بابل فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين (١) .

« مالك يوم الدين » .. وهذه تمثل الكلية الضخمة العميقة التأثير فى الحياة البشرية كلها، كلية الاعتقاد بالآخرة .. والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة .ويوم الدين هو يوم الجزاء فى الآخرة . . وكثيرا ما اعتقد الناس بألوهية الله ، وخلقه للكون أول مرة؛ ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء .. والقرآن يقول عن بعض هؤلاء : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : الله » . . ثم يحكى عنهم فى موضع آخر : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد » !

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ؛ فلا تستبد بهم ضرورات الأرض . وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات . ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم فى عمرهم القصير المحدود ، وفى مجال الأرض المحصور . وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله ، فى الأرض أو فى الدار الآخرة سواء ، فى طمأنينة لله ،وفى ثقة بالخير ، وفى إصرار على الحق، وفى سعة وسماحة ويقين .. ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب ، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببنى الإنسان . بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء على منطق الجاهلية . مفرق الطريق بين الإنسانية فى حقيقتها العليا التى أرادها الله الرب لعباده ، والصور المشوهة المنحرفة التى لم يقدر لها الكمال .

وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية فى تصور البشر . وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير . وما لم يثق الفرد المحدود

---

(١) « وكانت الأرض كلها لسانا واحداً ولغة واحدة . وحدث فى ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك . وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شياً . فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين . وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما . وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دعى اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض » .

Marfat.com

العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها ، وأن يضحى لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها . .

ومايستوى المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا أخلاق ولا سلوك ولا عمل فهما صنفان مختلفان من الخلق ، وطبيعتان متميزتان لاتلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء . . وهذا هو مفرق الطريق . .

* * *

« إياك نعبد وإياك نستعين » . . وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة . فلا عبادة إلا لله ، ولا استعانة إلا بالله .

وهنا كذلك مفرق طريق . . مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية ، وبين العبودية المطلقة للعبيد ! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل . التحرر من عبودية الأوهام ، والتحرر من عبودية النظم ، والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد ، والله وحده هو الذي يُستعان ، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات . .

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية ، ومن القوى الطبيعية . .

فأما القوى الإنسانية – بالقياس إلى المسلم – فهي نوعان: قوة مهتدية، تؤمن بالله ، وتتبع منهج الله . . . وهذه يجب أن يؤازرها ، ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح . . وقوة ضالة لاتتصل بالله ولا تتبع منهجه . وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها .

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية . فهي بضلالها عن مصدرها الأول – قوة الله – تفقد قوتها الحقيقية تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها . وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب ، فما يلبث أن ينطفىء ويبرد ويفقد ناره ونوره ، مهما كانت كتلته من الضخامة. على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » . . غلبتها اتصالها بمصدر القوة الأول ، وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعاً

وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصداقة ، لاموقف التخوف والعداء . ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته ، محكومتان بإرادة الله ومشيئته ، متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه .

Marfat.com

إن عقيدة المسلم توحى إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقا مساعدا متعاونا ؛ وأن سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ، ويتعرف إليها ، ويتعاون وإياها ، ويتجه معها إلى الله ربه وربها . وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا ، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها ، ولم يهتد إلى الناموس الذى يسيرها .

ولقد درج الغربيون – ورثة الجاهلية الرومانية – على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم : « قهر الطبيعة » . . ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية المقطوعة الصلة بالله ، وبروح الكون المستجيب لله . فأما المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم ، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبحة لله رب العالمين . . فيؤمن بأن هنالك علاقة أخرى غير علاقة القهر والجفوة . إنه يعتقد أن الله هو مبدع هذه القوى جميعا . خلقها كلها وفق ناموس واحد ، لتتعاون على بلوغ الأهداف المقدرة لها بحسب هذا الناموس . وأنه سخرها للإنسان ابتداء ويسر له كشف أسرارها ومعرفة قوانينها . وأن على الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر بمعونة من إحداها . فالله هو الذى يسخرها له ، وليس هو الذى يقهرها : « سخر لكم ما فى الأرض جميعا » . .

وإذن فإن الأوهام لن تملأ حسه تجاه قوى الطبيعة ؛ ولن تقوم بينه وبينها المخاوف . . إنه يؤمن بالله وحده ، ويعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده . وهذه القوى من خلق ربه . وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسرارها ، فتبذل له معونتها ، وتكشف له عن أسرارها . فيعيش معها فى كون مأنوس صديق ودود . . وماأروع قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو ينظر إلى جبل أحد : « هذا جبل يحبنا ونحبه » . فى هذه الكلمات كل ما يحمله قلب المسلم الأول محمد – صلى الله عليه وسلم – من ود وألفة وتجاوب ، بينه وبين الطبيعة فى أضخم وأخشن مجاليها .

* * *

وبعد تقرير تلك الكليات الأساسية فى التصور الإسلامى ؛ وتقرير الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة والاستعانة . . يبدأ فى التطبيق العملى لها بالتوجه إلى الله بالدعاء على صورة كلية تناسب جو السورة وطبيعتها :

« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . .

Marfat.com

« اهدنا الصراط المستقيم » .. وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل؛ ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته .. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته . والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول مايطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين . . وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين .

ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم : « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته . لاطريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه . أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا إليه . . إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . .

* * *

وبعد فهذه هي السورة المختارة للتكرار في كل صلاة ، والتي لاتصح بدونها صلاة . وفيها على قصرها تلك الكليات الأساسية في التصور الإسلامي ؛ وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور .

وقد ورد في صحيح مسلم من حديث العلاء ابن عبد الرحمان مولى الحرقة عن أبيه ، عن أبي هريرة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يقول الله تعالى :قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ماسأل . . إذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين . قال الله : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمان الرحيم . قال الله : أثنى علىّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين . قال الله : مجدني عبدي. وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين . قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل . فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم .صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : هذا لعبدي ولعبدي ماسأل » . .

ولعل هذا الحديث الصحيح – بعد ماتبين من سياق السورة ماتبين – يكشف عن سر من أسرار اختيار السورة ليرددها المؤمن سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة ؛ أوماشاء الله أن يرددها كلما قام يدعوه في الصلاة . .

Marfat.com

سورة البقرة

مدنية إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجة الوداع

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة . وهي أطول سور القرآن على الإطلاق . والمرجح أن آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سور أخرى ؛ فمراجعة أسباب نزول بعض آياتها وبعض الآيات من السور المدنية الأخرى - وإن تكن هذه الأسباب ليست قطعية الثبوت - تفيد أن السور المدنية الطوال لم تنزل آياتها كلها متوالية ؛ إنما كان يحدث أن تنزل آيات من سورة لاحقة قبل استكمال سورة سابقة نزلت مقدماتها ؛ وأن المعول عليه في ترتيب السور من حيث النزول هو سبق نزول أوائلها - لا جميعها - وفي هذه السورة آيات من أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا ، في حين أن الراجح أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة

فأما تجميع آيات كل سورة في السورة ، وترتيب هذه الآيات ، فهو توقيفي موحى به . . روى الترمذي - بإسناده - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قلت لعثمان ابن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين ، وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال ؟ وما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ؛ فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ؛ وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ؛ وقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال .

Marfat.com

فهذه الرواية تبين أن ترتيب الآيات فى كل سورة كان بتوقيف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم القرآن ، وفى رواية فيدارسه القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة . ومن الثابت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قرأ القرآن كله على جبريل ـ عليه السلام ـ كما أن جبريل قد قرأه عليه . . ومعنى هذا أنهما قرآه مرتبة آياته فى سوره .

ومن ثم يلحظ من يعيش فى ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة ! شخصية لها روح يعيش معها القلب كالوكان يعيش مع روح حى مميز الملامح والسمات والأنفاس ! ولها موضوع رئيسى أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص . ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها ؛ ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة ، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو . ولها إيقاع موسيقى خاص ـ إذا تغير فى ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة [1] . . وهذا طابع عام فى سور القرآن جميعا . ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة .

* * *

هذه السورة تضم عدة موضوعات . ولكن المحور الذى يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا .. فهى من ناحية تدور حول موقف بنى إسرائيل من الدعوة الإسلامية فى المدينة ، واستقبالهم لها ، ومواجهتهم لرسولها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها . . . وسائر مايتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى . . وهى من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة فى أول نشأتها ؛ وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة فى الأرض ، بعد أن تعلن السورة نكول بنى إسرائيل عن حملها ، ونقضهم لعهد الله بخصوصها ، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقى لإبراهيم ـ عليه السلام ـ صاحب الحنيفية الأولى ، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التى سببت تجريد بنى إسرائيل من هذا الشرف العظيم . . وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين ، كما سيجىء فى استعراضها التفصيلى .

(١) يراجع فصل : « التناسق الفنى » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

ولكي يتضح مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهة، وبين خط سير الدعوة أول العهد بالمدينة، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من الجهة الأخرى .. يحسن أن نلقي ضوءا على مجمل هذه الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء. مع التنبيه الدائم إلى أن هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها - مع اختلاف يسير - على مر العصور وكر الدهور؛ من أعدائها وأوليائها على السواء. مما يجعل هذه التوجيهات القرآنية هي دستور هذه الدعوة الخالد؛ ويبث في هذه النصوص حياة تتجدد لمواجهة كل عصر وكل طور؛ ويرفعها معالم للطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق، بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة .. وهذا هو الإعجاز يتبدى جانب من جوانبه في هذه السمة الثابتة المميزة في كل نص قرآني.

لقد تمت هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم. تمت تحت تأثير ظروف حتمت هذه الهجرة؛ وجعلتها إجراء ضروريا لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدره الله لها بتدبيره. كان موقف قريش العنيد من الدعوة في مكة - وبخاصة بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - وموت أبي طالب كافل النبي وحاميه. كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة تقريبا في مكة وما حولها. ومع استمرار دخول أفراد في الإسلام على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات فإن الدعوة كانت تعتبر قد تجمدت فعلا في مكة وما حولها، بموقف قريش منها، وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل، مما جعل بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار، في ارتقاب نتيجة المعركة بين الرسول وعشيرته الأقربين، وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو ابن هشام وأبو سفيان ابن حرب وغيرهم ممن يمتون بصلة القرابة القوية لصاحب الدعوة. وما كان هناك ما يشجع العرب في بيئة قبلية لعلاقات القرابة عندها وزن كبير، على الدخول في عقيدة رجل تقف منه عشيرته هذا الموقف. وبخاصة أن عشيرته هذه هي التي تقوم بسدانة الكعبة، وهي التي تمثل الناحية الدينية في الجزيرة!

ومن ثم كان بحث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح لها فيها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة. حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة .. وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة.

Marfat.com

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب ، لتكون قاعدة الدعوة الجديدة ، عدة اتجاهات . . سبقها الاتجاه إلى الحبشة ، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل . والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لايستند إلى قرائن قوية . فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاها وقوة ومنعة من المسلمين . غير أن الأمر كان على الضد من هذا ، فالموالى المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا . إنما هاجر رجال ذوو عصبيات ، لهم من عصبيتهم - فى بيئة قبلية - مايعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة؛ وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين ، منهم جعفر ابن أبى طالب - وأبوه وفتيان بنى هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبي -صلى الله عليه وسلم - ومنهم الزبير ابن العوام ، وعبد الرحمان ابن عوف ، وأبو سلمة المخزومى ، وعثمان ابن عفان الأموى . . . وغيرهم . وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدا . . وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة فى أوساط البيوت الكبيرة فى قريش ؛ وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، فرارا من الجاهلية ، تاركين وراءهم كل وشائج القربى ، فى بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزا عنيفا ؛ وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة ،بنت أبى سفيان ، زعيم الجاهلية ، وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها . . ولكن مثل هذه الأسباب لاينفى احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة فى البحث عن قاعدة حرة ، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة . وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ماورد عن إسلام نجاشى الحبشة . ذلك الإسلام الذى لم يمنعه من إشهاره نهائيا إلا ثورة البطارقة عليه ، كما ورد فى روايات صحيحة .

كذلك يبدو اتجاه الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف محاولة أخرى لإيجاد قاعدة حرة أو آمنة على الأقل للدعوة . . وهى محاولة لم تكلل بالنجاح لأن كبراء ثقيف استقبلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوأ استقبال ، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه الشريفتين ، ولم يتركوه حتى آوى إلى حائط (أى حديقة) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة . . وهناك انطلق لسانه بذلك الدعاء الخالص العميق : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى عدو ملكته أمرى ؟ أم بعيد يتجهمنى ؟ إن لم يكن بك غضب على

Marfat.com

فلا أبالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

بعد ذلك فتح الله على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى الدعوة من حيث لا يحتسب ، فكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية . وهما ذواتا صلة قوية بالموضوع الذي نعالجه في مقدمة هذه السورة ، وبالملابسات التي وجدت حول الدعوة في المدينة .

وقصة ذلك في اختصار : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - التقى قبل الهجرة إلى يثرب بسنتين بجماعة من الخزرج في موسم الحج ، حيث كان يعرض نفسه ودعوته على الوافدين للحج ؛ ويطلب حاميا يحميه حتى يبلغ دعوة ربه . وكان سكان يثرب من العرب - الأوس والخزرج - يسمعون من اليهود المقيمين معهم ، أن هنالك نبيا قد أظل زمانه ؛ وكانت يهود تستفتح به على العرب ، أي تطلب أن يفتح لهم على يديه ، وأن يكون معهم على كل من عداهم . فلما سمع وفد الخزرج دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - قال بعضهم لبعض : تعلمن والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه . وأجابوه لما دعاهم . وقالوا له : إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى الله أن يجمعهم بك . ولما عادوا إلى قومهم ، وعرضوا الأمر عليهم ، ارتاحوا له ، ووافقوا عليه .

فلما كان العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج ، فالتقوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبايعوه على الإسلام . وقد أرسل معهم من يعلمهم أمر دينهم .

وفي الموسم التالي وفد عليه جماعة كبيرة من الأوس والخزرج كذلك ، فطلبوا أن يبايعوه ، تمت البيعة بحضور العباس عم النبي - صلى الله عليه وسلم - على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم . وتسمى هذه البيعة الثانية بيعة العقبة الكبرى . . ومما وردت به الروايات في هذه البيعة ما قاله محمد ابن كعب القرظي : قال عبد الله ابن رواحة - رضي الله عنه - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعني ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل !

وهكذا أخذوا الأمر بقوة . . ومن ثم فشا الإسلام في المدينة ، حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله

Marfat.com

الإسلام وأخذ . المسلمون فى مكة يهاجرون إلى المدينة تباعا ، تاركين وراءهم كل شىء ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، من الإيثار والإخاء مالم تعرف له الإنسانية نظيرا قط . ثم هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الصديق . هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التى بحث عنها من قبل طويلا . . وقامت الدولة الإسلامية فى هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

* * *

من أولئك السابقين من المهاجرين والأنصار تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوه القرآن بها فى مواضع كثيرة . وهنا نجد السورة تفتتح بتقرير مقوّمات الإيمان ، وهى تمثل صفة المؤمنين الصادقين إطلاقا . ولكنها أولا تصف ذلك الفريق من المسلمين الذى كان قائما بالمدينة حينذاك : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . .

ثم نجد بعدها مباشرة فى السياق وصفا للكفار؛ وهو يمثل مقومات الكفر على الإطلاق. ولكنه أولا وصف مباشر للكفار الذين كانت الدعوة تواجههم حينذاك ، سواء فى مكة أوفيما حول المدينة ذاتها من طوائف الكفار : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » . .

كذلك كانت هناك طائفة المنافقين . ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التى أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة فى ظروفها التى تمت فيها ، والتى أشرنا إليها من قبل ؛ ولم يكن لها وجود بمكة . فالإسلام فى مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة ، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها . على الضد من ذلك كان الإسلام مضطهدا ، وكانت الدعوة مطاردة ، وكان الذين يغامرون بالانضمام إلى الصف الإسلامى هم المخلصون فى عقيدتهم ، الذين يؤثرونها على كل شىء ويحتملون فى سبيلها كل شىء . فأما فى يثرب التى أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة ـ أى مدينة الرسول ـ فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ؛ ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا ـ وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما ـ

Marfat.com

وفى مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء ، دخل أهلهم وشيعتهم فى الإسلام وأصبحوا هم ولابد لهم لكى يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذى اعتنقه أهلهم وأشياعهم . ومن هؤلاء عبدالله ابن أبى ابن سلول الذى كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة ..

وسنجد فى أول السورة وصفا مطولا لهؤلاء المنافقين ، ندرك من بعض فقراته أن المعنى به فى الغالب هم أولئك الكبراء الذين أرغموا على التظاهر بالإسلام ،ولم ينسوا بعد ترفعهم على جماهير الناس ، وتسمية هذه الجماهير بالسفهاء على طريقة العلية المتكبرين ! : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ؛ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم : لاتفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون . أوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير » ..

وفى ثنايا هذه الحملة على المنافقين ـ الذين فى قلوبهم مرض ـ نجد إشارة إلى « شياطينهم ». والظاهر من سياق السورة ومن سياق الأحداث فى السيرة أنها تعنى اليهود ، الذين تضمنت السورة حملات شديدة عليهم فيما بعد . أما قصتهم مع الدعوة فنلخصها فى هذه السطور القليلة :

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة فى المدينة ؛ وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة . . كان لليهود فى يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأميين من العرب ـ الأوس والخزرج ـ ومع أن مشركى العرب لم يظهروا ميلا لاعتناق ديانة أهل الكتاب

Marfat.com

هؤلاء ، إلا أنهم كانوا يعدونهم أعلم منهم وأحكم بسبب مالديهم من كتاب . ثم كان هناك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام ـ وهى البيئة التى يجد اليهود دائما لهم فيها عملا ! ـ فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعا .. فلقد جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه . ثم إنه أزال الفرقة التى كانوا ينفذون من خلالها للدس والكيد وجر المغانم ، ووحد الصف الإسلامى الذى ضم الأوس والخزرج ، وقد أصبحوا منذ اليوم يعرفون بالأنصار ، إلى المهاجرين ، وألف منهم جميعا ذلك المجتمع المسلم المتضام المتراص الذى لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيرا على الإطلاق .

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن فيهم الرسالة والكتاب . فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائما . فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته ، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب ! فلما وجدوه يدعوهم ـ أول من يدعو ـ إلى كتاب الله ، بحكم أنهم أعرف به من المشركين ، وأجدر بالاستجابة له من المشركين . . أخذتهم العزة بالإثم ، وعدوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة !

ثم إنهم حسدوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسدا شديدا . حسدوه مرتين : مرة لأن الله اختاره وأنزل عليه الكتاب ـ وهم لم يكونوا يشكون فى صحته ـ وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل فى محيط المدينة .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى : ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدنى الذى كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المضعف ! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة ويذوبوا فى المجتمع الإسلامى . وهما أمران ـ فى تقديرهم ـ أحلاهما مر !

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذى تصفه سورة البقرة ، (وسور غيرها كثيرة) فى تفصيل دقيق ، نقتطف هنا بعض الآيات التى تشير إليه .. جاء فى مقدمة الحديث عن بنى إسرائيل هذا النداء العلوى لهم : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم . ولاتكونوا أول كافر به ، ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، وإياى فاتقون . ولاتلبسوا الحق

Marfat.com

بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ » . . وبعد تذكيرهم طويلا بمواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وجحودهم لنعم الله عليهم ، وفسوقهم عن كتابهم وشريعتهم . . ونكثهم لعهد الله معهم . . جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم: « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ » . . « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟ » . . « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » ... « وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم » ... « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » ... « مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » ... « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق » ... « وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم » ... « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ... الخ الخ .

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دمغهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا . مما جعل القرآن يخاطبهم ـ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ـ كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى ـ عليه السلام ـ وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة . سماتهم هي هي ، ودورهم هو هو ، وموقفهم من الحق والخلق موقفهم على مدار الزمان ! ومن ثم يكثر الالتفات في السياق من خطاب قوم موسى ، إلى خطاب اليهود في المدينة ، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين . ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها . وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغداً كما استقبلتها بالأمس تماما ! وكأن هذه

Marfat.com

الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة ، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دس وكيد ، وحرب منوعة المظاهر ، متحدة الحقيقة !

* * *

وهذه السورة التي تضمنت هذا الوصف ، وهذا التنبيه ، وهذا التحذير ، تضمنت كذلك بناء الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض بعد نكول بني إسرائيل عن حملها قديما ، ووقوفهم في وجهها هذه الوقفة أخيرا . .

تبدأ السورة — كما أسلفنا — بوصف تلك الطوائف التي كانت تواجه الدعوة أول العهد بالهجرة — بما في ذلك تلك الإشارة إلى الشياطين اليهود الذين يرد ذكرهم فيما بعد مطولا — وتلك الطوائف هي التي تواجه هذه الدعوة على مدار التاريخ بعد ذلك . ثم تمضي السورة على محورها بخطيه الأساسيين إلى نهايتها . في وحدة ملحوظة ، تمثل الشخصية الخاصة للسورة ، مع تعدد الموضوعات التي تتناولها وتنوعها .

فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى : المتقين . والكافرين . والمنافقين . وبعد الإشارة الضمنية لليهود الشياطين . . نجد دعوة للناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده . وتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله . وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة . . ثم نجد التعجيب من أمر الذين يكفرون بالله : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون ! هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شيء عليم » . .

وعند هذا المقطع الذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعا للناس تجيء قصة استخلاف آدم في الأرض : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » وتمضي القصة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف — وهو عهد الإيمان — : وقلنا: اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

بعد هذا يبدأ السياق جولة واسعة طويلة مع بني إسرائيل — أشرنا إلى فقرات منها فيما سبق — تتخللها دعوتهم للدخول في دين الله وما أنزله الله مصدقا لما معهم مع تذكيرهم بعثراتهم

Marfat.com

وخطاياهم والتوائهم وتلبيسهم منذ أيام موسى ـ عليه السلام ـ وتستغرق هذه الجولة كل هذا الجزء الأول من السورة .

ومن خلال هـذه الجولة ترتسم صورة واضحة لاستقبال بنى إسرائيل للإسـلام ورسوله وكتابه . . لقد كانوا أول كافر به . وكانوا يلبسون الحق بالباطل . وكانوا يأمرون الناس بالبر ـ وهو الإيمان ـ وينسون أنفسهم وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه . وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذر بعضهم بعضا من إطلاع المسلمين على مايعلمونه من أمر النبي وصحة رسالته ! وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفارا . وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم ـ كما كان النصارى يدعون هذا أيضا ـ وكانوا يعلنون عداءهم لجبريل ـ عليه السلام ـ بما أنه هو الذى حمل الوحى إلى محمد دونهم ! وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك فى صحة الأوامر النبوية ومجيئها من عند الله تعالى ـ كما فعلوا عند تحويل القبلة ـ وكانوا مصدر إيحاء وتوجيه للمنافقين . كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

ومن ثم تتضمن السورة حملة قوية على أفاعيلهم هذه ؛ وتذكرهم بمواقفهم المماثلة من نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ومن شرائعهم وأنبيائهم . على مدار أجيالهم . وتخاطبهم فى هذا كأنهم جيل واحد متصل ، وجبلة واحدة لاتتغير ولا تتبدل !

وتنتهى هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع فى إيمانهم لهم ، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد ، المؤوفة الطبع . كما تنتهى بفصل الخطاب فى دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم . وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سنته ، ويتقيدون بعهده مع ربه ؛ وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين به ، بعد ماانحرف اليهود وبدلوا ونكلوا عن حمل أمانة العقيدة ، والخلافة فى الأرض بمنهج الله ؛ ونهض بهذا الأمر محمد والذين معه . وأن هذا كان استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهما يرفعان القواعد من البيت : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

وعند هـذا الحد يبدأ سياق السورة يتجه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى الجماعة

Marfat.com

المسلمة من حوله ؛ حيث يأخذ فى وضع الأسس التى تقوم عليها حياة هذه الجماعة المستخلفة على دعوة الله فى الأرض ، وفى تميز هذه الجماعة بطابع خاص ، وبمنهج فى التصور وفى الحياة خاص .

ويبدأ فى هذا بتعيين القبلة التى تتجه إليها هذه الجماعة . وهى البيت المحرم الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل أن يقيماه ويطهراه ليعبد فيه الله وحده ، . هذه القبلة التى كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يرغب ولايصرح فى الاتجاه إليها : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . .

ثم تمضى السورة فى بيان المنهج الربانى لهذه الجماعة المسلمة .منهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة ، تبين لها أن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء . وأن الإصابة بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ليس شرا يراد بها ، إنما هو ابتلاء ، ينال الصابرون عليه صلوات الله ورحمته وهداه . وأن الشيطان يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء والله يعدهم مغفرة منه وفضلا . وأن الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . . وتبين لهم بعض الحلال والحرام فى المطاعم والمشارب . وتبين لهم حقيقة البر لامظاهره وأشكاله . وتبين لهم أحكام القصاص فى القتلى . وأحكام الوصية. وأحكام الصوم . وأحكام الجهاد . وأحكام الحج . وأحكام الزواج والطلاق مع التوسع فى دستور الأسرة بصفة خاصة . وأحكام الصدقة وأحكام الربا وأحكام الدين والتجارة . . .

وفى مناسبات معينة يرجع السياق إلى الحديث عن بنى إسرائيل من بعد موسى . وعن حلقات من قصة إبراهيم . ولكن جسم السورة – بعد الجزء الأول منها – ينصرف إلى بناء الجماعة المسلمة ،وإعدادها لحمل أمانة العقيدة ،والخلافة فى الأرض بمنهج الله وشريعته . وتميزها بتصورها الخاص للوجود ، وارتباطها بربها الذى اختارها لحمل هذه الأمانة الكبرى .

***

وفى النهاية نرى ختام السورة ينعطف على افتتاحها ، فيبين طبيعة التصور الإيمانى ،

Marfat.com

وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم ، وبالكتب كلها وبالغيب وما وراءه . مع السمع والطاعة :
« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ،
لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف
الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ،
ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ،
واعف عنا واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » . .

ومن ثم يتناسق البدء والختام، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الم ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ

Marfat.com

مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ، وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

« وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَن تَفْعَلُوا ـ فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا : هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(١٩)..

Marfat.com

فى هذا المقطع، الذى يكوّن افتتاح السورة الكبيرة ، نجد الملامح الأساسية للطوائف التى واجهتها الدعوة فى المدينة باستثناء طائفة اليهود التى ترد إشارة صغيرة لها ، ولكنها كافية ، فإن تسميتهم بشياطين المنافقين تشير إلى الكثير من صفاتهم ، ومن حقيقة دورهم ، حتى يرد التفصيل الكامل بعد قليل .

وفى رسم هذه الملامح نجد خصائص التعبير القرآنية ، التى تتجلى فى قيام الكلمة مقام الخط واللون ، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ؛ ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة ..

وهنا .. فى عدد قليل من الكلمات والعبارات فى أول السورة ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس . كل نمط منها نموذج حى لمجموعات ضخمة من البشر نموذج أصيل عميق متكرر فى كل زمان ومكان . حتى ما تكاد البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة .. وهذا هو الإعجاز ..

فى تلك الكلمات القلائل والآيات المعدودات ترتسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . حتى ما يبلغ الوصف المطول والإطناب المفصل شيئاً وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع .

فإذا انتهى السياق من عرض هذه الصور الثلاث دعا الناس .. الناس جميعا .. إلى الصورة الأولى ؛ وناداهم .. ناداهم كافة .. أن يفيئوا إليها . أن يفيئوا إلى عبادة الله الواحد ، والخالق الواحد ، والرازق الواحد ، بلاشركاء ولا أنداد . وتحدى الذين يرتابون فى رسالة النبى – صلى الله عليه وسلم – وتنزيل الكتاب عليه أن يأتوا بسورة من مثله . وأنذرهم إذا تولوا عذابا مفزعا مرهوبا ؛ وبشر المؤمنين وصور ما ينتظرهم من نعيم مقيم .

ثم أخذ يرد على اليهود والمنافقين الذين استنكروا ضرب الله للأمثال فى القرآن ، واتخذوا منه وسيلة للتشكيك فى أنه منزل من عند الله . وحذرهم ماوراء ضرب الأمثال . أن يزيدهم ضلالا – كما يزيد المؤمنين هدى – ثم استنكر أن يكفروا بالله المحيي المميت الخالق المدبر ، العليم بكل شىء فى هذا الوجود ، وهو الذى أنعم على البشر فخلق لهم ما فى الأرض جميعا . واستخلفهم فى هذا الملك الطويل العريض .

Marfat.com

تلك مجمل الخطوط الرئيسية فى هذا الدرس الأول من سورة البقرة . فلنحاول أن نتناول هذا الإجمال بشىء من التفصيل .

* * *

تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة المقطعة : « ألف . لام. ميم » . يليها الحديث عن كتاب الله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » . .

ومثل هذه الأحرف يجىء فى مقدمة بعض السور القرآنية . وقد وردت فى تفسيرها وجوه كثيرة . نختار منها وجها. إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه ــ مع هذا ــ هو ذلك الكتاب المعجز ، الذى لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . الكتاب الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدى جوابا !

والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعا . وهو مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس . . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى مايصوغونه منها لبنة أو آجرة أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز. كائنا فى دقته مايكون .. ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة . تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز . . سر الحياة . . ذلك السر الذى لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر .. وهكذا القرآن . . حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويجعل منها الله قرآنا وفرقانا ، والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق مابين الجسد الخامد والروح النابض . . هو الفرق مابين صورة الحياة وحقيقة الحياة !

« ذلك الكتاب لاريب فيه » . .

ومن أين يكون ريب أوشك ؟ ودلالة الصدق واليقين كامنة فى هذا المطلع ، ظاهرة فى عجزهم عن صياغة مثله ، من مثل هذه الأحرف المتداولة بينهم ، المعروفة لهم من لغتهم ؟

« ذلك الكتاب لاريب فيه . . هدى للمتقين » . .

الهدى حقيقته ، والهدى طبيعته ، والهدى كيانه ، والهدى ماهيته .. ولكن لمن؟ لمن يكون

Marfat.com

ذلك الكتاب هدى ونورا ودليلا ناصحا مبينا ؟ . . للمتقين . . فالتقوى فى القلب هى التى تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب . هى التى تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدى دوره هناك . هى التى تهيئ لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب .

لابد لمن يريد أن يجد الهدى فى القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم . بقلب خالص . ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، أو أن تستهويه ضلالة .. وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها فى هـذا القلب الذى جاء إليـه متقيا ، خائفا ، حساسا ، مهيأ للتلقى . . ورد أن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سأل أبى ابن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال بلى ! قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت . قال : فذلك التقوى . .

فذلك التقوى . . حساسية فى الضمير ، وشفافيـة فى الشعور ، وخشية مستمرة . وحذر دائم . وتوق لأشواك الطريق . . طريق الحياة .. الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامع والمطامح ، وأشواك المخاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لايملك إجابة رجاء ، والخوف الكاذب ممن لايملك نفعا ولا ضرا . وعشرات غيرها من الأشواك !

ثم يأخذ السياق فى بيان صفة المتقين ؛ وهى صفة السابقين من المؤمنين فى المدينة ، كما أنها صفة الخلص من مؤمنى هذه الأمة فى كل حين :

« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون » . .

إن السمة الأولى للمتقين هى الوحـدة الشعورية الإيجابية الفعالة . الوحـدة التى تجمع فى نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة ، واليقين بعـد ذلك بالآخرة . . هذا التكامل الذى تمتاز به العقيدة الإسلاميـة ، وتمتاز به النفس المؤمنة بهـذه العقيدة ، والجدير بأن تكون عليه العقيـدة الأخيرة التى جاءت ليلتقى عليها الناس جميعا ، ولتهيمن على البشرية جميعا ، وليعيش الناس فى ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة ، شاملة للشعور والعمل ، والإيمان والنظام .

Marfat.com

فإذا نحن أخذنا فى تفصيل هذه السمة الأولى للمتقين إلى مفرداتها التى تتألف منها ، انكشفت لنا هذه المفردات عن قيم أساسية فى حياة البشرية جميعا . .

« الذين يؤمنون بالغيب » .. فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التى صدرت عنها ، وصدر عنها هذا الوجود ؛ ولا تقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ماوراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات .

والإيمان بالغيب هو العتبة التى يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذى لا يدرك إلا ماتدركه حواسه ، إلى مرتبة الإنسان الذى يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذى تدركه الحواس - أو الأجهزة التى هى امتداد للحواس - وهى نقلة بعيدة الأثر فى تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتى ؛ ولحقيقة القوى المنطلقة فى كيان هذا الوجود ، وفى إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر فى حياته على الأرض ؛ فليس من يعيش فى الحيز الصغير الذى تدركه حواسه كمن يعيش فى الكون الكبير الذى تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته فى أطوائه وأعماقه ، ويشعر أن مداه أوسع فى الزمان والمكان من كل مايدركه وعيه فى عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه ، حقيقة أكبر من الكون ، هى التى صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الإلهية التى لاتدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول .

وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له ، وما لم توهب القدرة للإحاطة به ، وما لايجدى شيئا أن تنفق فيه . إن الطاقة الفكرية التى وهبها الإنسان ، وهبها ليقوم بالخلافة فى هذه الأرض ، فهى موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة ، تنظر فيها ، وتتعمقها وتتقصاها ، وتعمل وتنتج ، وتنمى هذه الحياة وتجملها ، على أن يكون لها سند من تلك الطاقة الروحية التى تتصل مباشرة بالوجود كله وخالق الوجود ، وعلى أن تدع المجهول حصته فى الغيب الذى لاتحيط به العقول . فأما محاولة إدراك ماوراء الواقع بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها ، دون سند من الروح الملهم والبصيرة المفتوحة ، وترك حصة للغيب لاترتادها العقول . . فأما هذه المحاولة فهى محاولة فاشلة أولا ، ومحاولة عابثة أخيرا . فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال . وعابثة لأنها تبدد

Marfat.com

طاقة العقل التى لم تخلق لمثل هـذا المجال . . ومتى سلم العقل البشرى بالبديهية العقلية الأولى ، وهى أن المحدود لايدرك المطلق ، لزمه ـ احتراما لمنطقه ذاته ـ أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل ؛ وأن عدم إدراكه للمجهول لاينفى وجوده فى ضمير الغيب المكنون ؛ وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخـرى غير طاقة العقل ؛ وأن يتلقى العلم فى شأنه من العليم الخبير الذى يحيط بالظاهر والباطن ، والغيب والشهادة . . وهذا الاحترام لمنطق العقل فى هذا الشأن هو الذى يتحلى به المؤمنون ، وهو الصفة الأولى من صفات المتقين .

لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق فى ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولـكن جماعة الماديين فى هـذا الزمان ، كجماعة الماديين فى كل زمان ، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى . . إلى عالم البهيمة الذى لاوجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا « تقدمية » وهو النكسة التى وقى الله المؤمنين إياها ، فجعل صفتهم المميزة ، صفة : « الذين يؤمنون بالغيب » والحمد لله على نعمائه ، والنكسة للمتنكسين والمرتكسين !

« ويقيمون الصلاة » . . فيتجهون بالعبادة لله وحده ، ويرتفعون بهذا عن عبادة العباد ، وعبادة الأشياء . يتجهون إلى القوة المطلقة بغير حدود ، ويحنون جباههم لله لا للعبيد والقلب الذى يسجد لله حقا ، ويتصل به على مدار الليل والنهار ، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود ، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق فى الأرض وحاجات الأرض ، ويحس أنه أقوى من الخلائق لأنه موصول بخالق الخلائق .. وهذا كله مصدر قوة للضمير ، كما أنه مصدر تحرج وتقوى ، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية ، وجعلها ربانية التصور ، ربانية الشعور ، ربانية السلوك .

« ومما رزقناهم ينفقون » . . فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذى فى أيديهم هو من رزق الله لهم ، لامن خلق أنفسهم ؛ ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عيال الخالق ، والشعور بالآصرة الإنسانية ، وبالأخوة البشرية . . وقيمة هذا كله تتجلى فى تطهير النفس من الشح ، وتزكيتها بالبر . وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لامعترك تطاحن، وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لابين أظفار ومخالب ونيوب !

Marfat.com

والإنفاق يشمل الزكاة والصدقة ، وسائر ماينفق فى وجوه البر . وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذى تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه . وقد ورد فى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإسناده لفاطمة بنت قيس « إن فى المال حقا سوى الزكاة (١) » . . وتقرير المبدإ على شموله هو المقصود فى هذا النص السابق على فريضة الزكاة .

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . . وهى الصفة اللائقة بالأمة المسلمة ، وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منذ فجر البشرية ، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة ، وحادية موكب الإيمان فى الأرض إلى آخر الزمان . وقيمة هذه الصفة هى الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها ، ووحدة رسلها ، ووحدة معبودها .. قيمتها هى تنقية الروح من التعصب الذميم ضد الديانات والمؤمنين بالديانات ماداموا على الطريق الصحيح . . قيمتها هى الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها . هذه الرعاية البادية فى توالى الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد . قيمتها هى الاعتزاز بالهدى الذى تتقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادى فى دياجير الظلام .

« وبالآخرة هم يوقنون » . . وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التى تربط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ؛ والتى تشعر الإنسان أنه ليس لقى مهملا ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ؛ وأن العدالة المطلقة فى انتظاره ، ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفىء إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته فى نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش فى الوجود المديد الرحيب . بين من يشعر أن حياته على الأرض هى كل ماله فى هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هى هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود .

وكل صفة من هذه الصفات – كما رأينا – ذات قيمة فى الحياة الإنسانية ومن ثم كانت هى صفات المتقين . وهناك تساوق وتناسق بين هذه الصفات جميعا ، هو الذى يؤلف منها وحدة

(١) أخرجه الترمذى .

Marfat.com

متناسقة متكاملة . فالتقوى شعور فى الضمير ، وحالة فى الوجدان ، تنبثق منها اتجاهات وأعمال ؛ وتتوحد بها المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة ؛ وتصل الإنسان بالله فى سره وجهره. وتشف معها الروح فتقل الحجب بينها وبين الكلى الذى يشمل عالمى الغيب والشهادة، ويلتقى فيه المعلوم والمجهول . ومتى شفت الروح وانزاحت الحجب بين الظاهر والباطن ، فإن الإيمان بالغيب عندئذ يكون هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة ، واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه . ومع التقوى والإيمان بالغيب عبادة الله فى الصورة التى اختارها ، وجعلها صلة بين العبد والرب ثم السخاء بجزء من الرزق اعترافا بجميل العطاء ، وشعورا بالإخاء . ثم سعة الضمير لموكب الإيمان العريق ، والشعور بآصرة القربى لكل مؤمن ولكل نبى ولكل رسالة ثم اليقين بالآخرة بلا تردد ولا تأرجح فى هذا اليقين .. وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة التى قامت فى المدينة يومذاك ، مؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وكانت هذه الجماعة بهذه الصفات شيئا عظيما . شيئا عظيما حقا يتمثل هذه الحقيقة الإيمانية فيها . ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة فى الأرض ، وفى حياة البشر جميعا . . ومن ثم كان هذا التقرير :

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . .

وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا . والطريق للهدى والفلاح هو هذا الطريق المرسوم .

* * *

فأما الصورة الثانية فهى صورة الكافرين . وهى تمثل مقومات الكفر فى كل أرض وفى كل حين :

« إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » . .

وهنا نجد التقابل تاما بين صورة المتقين وصورة الكافرين . . فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين ، فإن الإنذار وعدم الإنذار سواء بالقياس إلى الكافرين . إن النوافذ المفتوحة فى أرواح المتقين ، والوشائج التى تربطهم بالوجود وبخالق الوجود ، وبالظاهر والباطن والغيب

Marfat.com

والحاضر .. إن هذه النوافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا . وإن الوشائج الموصولة كلها هناك ، مقطوعة كلها هنا :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ختم عليها فلا تصل إليها حقيقة من الهدى ولا صدى . « وعلى أبصارهم غشاوة » .. فلا نور يوصوص لها ولا هدى .! وقد طبع الله على قلوبهم وعلى سمعهم وغشى على أبصارهم جزاء وفاقا على استهتارهم بالإنذار ، حتى تساوى لديهم الإنذار وعدم الإنذار .

إنها صورة صلدة ، مظلمة ، جامدة ، ترتسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة .حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار ..

« ولهم عذاب عظيم » . وهى النهاية الطبيعية للكفر العنيد ، الذى لا يستجيب للنذير ؛ والذى يستوى عنده الإنذار وعدم الإنذار ؛ كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد

* * *

ثم ننتقل – مع السياق – إلى الصورة الثالثة أو إلى النموذج الثالث :

إنها ليست فى شفافية الصورة الأولى وسماحتها . وليست فى عتامة الصورة الثانية وصفاقتها . ولكنها تتلوى فى الحس . وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين .. إنها صورة المنافقين :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وماهم بمؤمنين .يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم : لاتفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون . وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا .وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » ..

لقد كانت هذه صورة واقعة فى المدينة؛ ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجا مكرورا فى أجيال البشرية جميعا . نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس

Marfat.com

الذين لايجدون فى أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح ، أو يجـدون فى نفوسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح . وهم فى الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان الترفع على جماهير الناس ، وعلى تصورهم للأمور ! ومن ثم نميل إلى مواجهة هذه النصوص كالو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية ، موجهة إلى هذا الفريق من المنافقين فى كل جيل . وإلى صميم النفس الإنسانية الثابت فى كل جيل .

إنهم يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر . وهم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين . إنما هم منافقون لايجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم فى مواجهة المؤمنين .

وهم يظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع هؤلاء البسطاء ؛ ولـكن القرآن يصف حقيقة فعلتهم ، فهم لايخادعون المؤمنين ، إنما يخادعون الله كذلك أو يحاولون :

« يخادعون الله والذين آمنوا » . .

وفى هـذا النص وأمثاله نقف أمام حقيقة كبيرة ، وأمام تفضل من الله كريم . . تلك الحقيقة هى التى يؤكدها القرآن دائما ويقررها ، وهى حقيقة الصلة بين الله والمؤمنين . إنه يجعل صفهم صفه ، وأمرهم أمره وشأنهم شأنه . يضمهم سبحانه إليه ، ويأخذهم فى كنفه ، ويجعل عدوهم عدوه ، وما يوجه إليهم من مكر موجها إليه ـ سبحانه ـ وهـذا هو التفضل العلوى الكريم .. التفضل الذى يرفع مقام المؤمنين وحقيقتهم إلى هذا المستوى السامق ؛ والذى يوحى بأن حقيقة الإيمان فى هذا الوجود هى أكبر وأكرم الحقائق ، والذى يسكب فى قلب المؤمن طمأنينة لاحد لها ، وهو يرى الله ـ جل شأنه ـ يجعل قضيته هى قضيته ، ومعركته هى معركته ، وعدوه هو عدوه ، ويأخذه فى صفه ، ويرفعه إلى جواره الكريم . . فماذا يكون العبيد وكيدهم وخداعهم وأذاهم الصغير ؟ !

وهو فى ذات الوقت تهديد رعيب للذين يحاولون خداع المؤمنين والمكر بهم ، وإيصال الأذى إليهم . تهديد لهم بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هى مع الله القوى الجبار القهار . وأنهم إنما يحاربون الله حين يحاربون أولياءه ، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة .

وهـذه الحقيقة من جانبها جديرة بأن يتدبرها المؤمنون ليطمئنوا ويثبتوا ويمضوا فى

Marfat.com

طريقهم لايبالون كيد الكائدين ، ولا خداع الخادعين ، ولا أذى الشريرين . ويتدبرها أعداء المؤمنين فيفزعوا ويرتاعوا ويعرفوا من الذى يحاربونه ويتصدون لنقمته حين يتصدون المؤمنين . .

ونعود إلى هؤلاء الذين يخادعون الله والذين آمنوا بقولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر . ظانين فى أنفسهم الذكاء والدهاء . . ولكن يالاسخرية ! ياللسخرية التى تنصب عليهم قبل أن تكتمل الآية :

« وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون » . .

إنهم من الغفلة بحيث لا يخدعون إلا أنفسهم فى غير شعور إن الله بخداعهم عليم؛ والمؤمنون فى كنف الله فهو حافظهم من هذا الخداع اللئيم . أما أولئك الأغفال فهم يخدعون أنفسهم ويغشونها . يخدعونها حين يظنون أنهم أربحوها وأكسبوها بهذا النفاق ، ووقوها مغبة المصارحة بالكفر بين المؤمنين . وهم فى الوقت ذاته يوردونها موارد التهلكة بالكفر الذى يضمرونه ، والنفاق الذى يظهرونه . وينتهون بها إلى شر مصير !

ولكن لماذا يحاول المنافقون هذه المحاولة ؟ ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟

« فى قلوبهم مرض » . .

فى طبيعتهم آفة . فى قلوبهم علة . وهذا مايحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم . ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه :

« فزادهم الله مرضا » . .

فالمرض ينشىء المرض ، والانحراف يبدأ يسيرا ، ثم تنفرج الزاوية فى كل خطوة وتزداد . سنة لا تتخلف . سنة الله فى الأشياء والأوضاع ، وفى المشاعر والسلوك . فهم صائرون إذن إلى مصير معلوم . المصير الذى يستحقه من يخادعون الله والمؤمنين :

« ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » . .

وصفة أخرى من صفاتهم ـ وبخاصة الكبراء منهم الذين كان لهم فى أول العهد بالهجرة مقام فى قومهم ورياسة وسلطان كعبد الله ابن أبى ابن سلول ـ صفة العناد وتبرير مايأتون من الفساد ، والتبجح حين يأمنون أن يؤخذوا بما يفعلون :

Marfat.com

« وإذا قيل لهم: لاتفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لايشعرون » . .

إنهم لايقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء : « وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض » . . لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد ، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير : « قالوا : إنما نحن مصلحون » . .

والذين يفسدون أشنع الفساد ، ويقولون : إنهم مصلحون ، كثيرون جدا فى كل زمان . يقولونها لأن الموازين مختلة فى أيديهم . ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقيم . والذين لايخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم . لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد فى نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية ، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية . .

ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق :

« ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لايشعرون » .

ومن صفتهم كذلك التطاول والتعالى على عامة الناس ، ليكسبوا لأنفسهم مقاما زائفا فى أعين الناس :

« وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لايعلمون » . .

وواضح أن الدعوة التى كانت موجهة إليهم فى المدينة هى أن يؤمنوا الإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء . إيمان المخلصين الذين دخلوا فى السلم كافة، وأسلموا وجوههم لله ،وفتحوا صدورهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين . . هؤلاء هم الناس الذين كان المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم هذا الإيمان الخالص الواضح المستقيم . .

وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرونه خاصا بفقراء الناس غير لائق بالعلية ذوى المقام ! ومن ثم قالوا : قولتهم هذه : « أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » . . ومن ثم جاءهم الرد الحاسم ، والتقرير الجازم :

Marfat.com

« ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لايعلمون » .

ومتى علم السفيه أنه سفيه ؟ ومتى استشعر المنحرف أنه بعيد عن المسلك القويم ؟ ؟

ثم تجيء السمة الأخيرة التي تكشف عن مدى الارتباط بين المنافقين في المدينة واليهود الحاقدين . . إنهم لايقفون عند حد الكذب والخداع ، والسفه والادعاء ، إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم والتآمر في الظلام :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » . .

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيء براعة . وهو في حقيقته ضعف وخسة فالقوي ليس لئيما ولاخبيثا ، ولاخادعا ولامتآمرا ولاغمازا في الخفاء لمازا . وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة ، ويتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ، ليتقوا الأذى ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى . هؤلاء كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم ـ وهم غالبا ـ اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته ، كما أن هؤلاء كانوا يجدون في اليهود سندا وملاذا . . هؤلاء المنافقون كانوا « إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » ـ أي بالمؤمنين ـ بما نظهره من الإيمان والتصديق !

ومايكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد مايهد الرواسي :

« الله يستهزيء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون » . .

وما أبأس من يستهزيء به جبار السماوات والأرض وماأشقاه ! ! وإن الخيال ليمتد إلى مشهد مفزع رعيب ، وإلى مصير تقشعر من هوله القلوب .

وهو يقرأ : « الله يستهزيء بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون » . . فيدعهم يخبطون على غير هدى في طريق لايعرفون غايته ، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته ، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ ، غافلة عن القبض المكين . . وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير .

وهنا كذلك تبدو تلك الحقيقة التي أشرنا من قبل إليها . حقيقة تولي الله ـ سبحانه ـ

Marfat.com

للمعركة التي يراد بها المؤمنون . وماوراء هذا التولي من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين، المتروكين في عماهم يخبطون ، المخدوعون بمد الله لهم في طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت في عدوانهم، والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك ، وهم غافلون يعمهون !

والكلمة الأخيرة التي تصور حقيقة حالهم ، ومدى خسرانهم :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . . فلقد كانوا يملكون الهدى لو أرادوا . كان الهدى مبذولا لهم . وكان في أيديهم. ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى» ، كأغفل مايكون المتجرون :

« فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . .

* * *

ولعلنا نلمح أن الحيز الذي استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة قد جاء أفسح من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى والصورة الثانية . .

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعاني . . الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة في اتجاهها والصورة الثانية صورة النفس المعتمة السادرة في اتجاهها . أما الصورة الثالثة فهي صورة النفس الملتوية المريضة المعقدة المقلقلة . وهي في حاجة إلى مزيد من اللمسات ، ومزيد من الخطوط كما تتحدد وتعرف بسماتها الكثيرة

على أن هذه الإطالة توحي كذلك بضخامة الدور الذي كان يقوم به المنافقون في المدينة لإيذاء الجماعة المسلمة ، ومدى التعب والقلق والاضطراب الذي كانوا يحدثونه ؛ كما توحي بضخامة الدور الذي يمكن أن يقوم به المنافقون في كل وقت داخل الصف المسلم ، ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ودسهم اللئيم .

وزيادة في الإيضاح يمضي السياق يضرب الأمثال لهذه الطائفة ، ويكشف عن طبيعتها ، وتقلباتها وتأرجحها لتزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحا :

Marfat.com

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً، فلما أضاءت ماحوله، ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون » . .

إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الذين كفروا . ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعد مااستوضحوا الأمر وتبينوه . . لقد استوقدوا النار ، فلما أضاءت لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها . عندئذ «ذهب الله بنورهم» الذى طلبوه ثم تركوه : « وتركهم فى ظلمات لايبصرون» جزاء إعراضهم عن النور !

وإذا كانت الآذان والألسنة والعيون، لتلقى الأصداء والأضواء ،والانتفاع بالهدى والنور، فهم قد عطلوا آذانهم فهم «صم» وعطلوا ألسنتهم فهم « بكم » وعطلوا عيونهم فهم « عمى» . . فلا رجعة لهم إلى الحق ، ولا أوبة لهم إلى الهدى . ولا هداية لهم إلى النور !

ومثل آخر يصور حالهم ويرسم مافى نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة :

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير » . .

إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب . فيه تيه وضلال ،وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء . . صيب من السماء هاطل غزير « فيه ظلمات ورعد وبرق » . . « كلما أضاء لهم مشوا فيه » . . « وإذا أظلم عليهم قاموا » . . أى وقفوا حائرين لايدرون أين يذهبون . وهم مفزعون : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » .

إن الحركة التى تغمر المشهد كله : من الصيب الهاطل ، إلى الظلمات والرعد والبرق ، إلى الحائرين المفزعين فيه ، إلى الخطوات المروعة الوجلة ، التى تقف عندما يخيم الظلام . . إن هذه الحركة فى المشهد لترسم ــ عن طريق التأثير الإيحائى ــ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون . . بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين . بين مايقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة . بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه

Marfat.com

من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية ؛ ويجسم صورة شعورية . وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس (١) .

* * *

وعندما يتم استعراض الصور الثلاث يرتد السياق في السورة نداء للناس كافة . وأمرا للبشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة . الصورة النقية الخالصة . الصورة العاملة النافعة . الصورة المهتدية المفلحة .. صورة المتقين :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » ..

إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم . ربهم الذي تفرد بالخلق ، فوجب أن يتفرد بالعبادة .. وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققوه :

« لعلكم تتقون » .. لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية . صورة العابدين لله . المتقين لله . الذين أدوا حق الربوبية الخالقة ، فعبدوا الخالق وحده ؛ رب الحاضرين والغابرين ، وخالق الناس أجمعين ، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء . بلا ند ولا شريك :

« الذي جعل لكم الأرض فراشا » ..

وهو تعبير يشي باليسر في حياة البشر على هذه الأرض ، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكنا مريحا وملجأ واقيا كالفراش .. والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه . ينسون هذا التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش ، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع . ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليسر والطمأنينة . ولو فقد عنصر واحد من عناصر الحياة في هذا الكوكب ما قام هؤلاء الأناسي في غير البيئة التي تكفل لهم الحياة . ولو نقص عنصر واحد من عناصر الهواء عن قدره المرسوم لشق على الناس أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قدرت لهم الحياة !

(١) يراجع فصل : « التخييل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

Marfat.com

« والسماء بناء » ..

فيها متانة البناء وتنسيق البناء . والسماء ذات علاقة وثيقة بحياة الناس فى الأرض ، وبسهولة هـذه الحياة . وهى بحرارتها وضوئها وجاذبية أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها ، تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها . فلا عجب أن تذكر فى معرض تذكير الناس بقدرة الخالق ، وفضل الرازق ، واستحقاق المعبود للعبادة من العبيد المخاليق .

« وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » ..

وذكر إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به ، مايفتأ يتردد فى مواضع شتى من القرآن فى معرض التذكير بقدرة الله ، والتذكير بنعمته كذلك .. والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعا . فمنه تنشأ الحياة بكل أشكالها ودرجاتها « وجعلنا من الماء كل شىء حى » .. سواء أنبت الزرع مباشرة حين يختلط بالأرض ، أو كون الأنهار والبحيرات العذبة ، أو انساح فى طبقات الأرض فتألفت منه المياه الجوفية ، التى تتفجر عيونا أو تحفر آبارا ، أو تجذب بالآلات إلى السطح مرة أخرى .

وقصة الماء فى الأرض ، ودوره فى حياة الناس ، وتوقف الحياة عليه فى كل صورها وأشكالها .. كل هذا أمر لايقبل المماحكة ، فتكفى الإشارة إليه ، والتذكير به ، فى معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب .

وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى : وحدة الخالق لكل الخلائق : « الذى خلقكم والذين من قبلكم » .. ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة وللإنسان : « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء . وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .. فهذا الكون أرضه مفروشة لهذا الإنسان ، وسماؤه مبنية بنظام، ممونة بالماء الذى تخرج به الثمرات رزقا للناس .. والفضل فى هذا كله للخالق الواحد :

« فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » ..

تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم . وتعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء . وأنه لم يكن له شريك يساعد ، ولاند يعارض . فالشرك به بعد هذا العلم تصرف لايليق !

Marfat.com

والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة ،قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون . فقد تكون الأنداد في صور أخرى خفية . قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة ، وفي الخوف من غير الله في أي صورة . وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أي صورة . . عن ابن عباس قال : « الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتي . ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ماشاء الله وشئت ! وقول الرجل : لولا الله وفلان . . . هذا كله به شرك » . . . وفي الحديث أن رجلا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشاء الله وشئت . قال : « أجعلتني لله ندا ؟ » !

هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله . . فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة ، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة ! ! !

* * *

ولقد كان اليهود يشككون في صحة رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان المنافقون يرتابون فيها ـ كما ارتاب المشركون وشككوا في مكة وغيرها ـ فهنا يتحدى القرآن الجميع . إذ كان الخطاب إلى « الناس » جميعا . يتحداهم بتجربة واقعية تفصل في الأمر بلا مماحكة :

« و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » . .

ويبدأ هذا التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا المجال .. يصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعبودية لله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » . . ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات منوعة متكاملة : فهو أولا تشريف للنبي وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ؛ دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك . وهو ثانيا تقرير لمعنى العبودية ، في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده ، واطراح الأنداد كلها من دونه .

Marfat.com

فهاهو ذا النبي فى مقام الوحى – وهو أعلى مقام – يدعى بالعبودية لله ، ويشرف بهذه النسبة فى هذا المقام .

أما التحدى فمنظور فيه إلى مطلع السورة . . فهذا الكتاب المنزل مصوغ من تلك الحروف التى فى أيديهم ، فإن كانوا يرتابون فى تنزيله ، فدونهم فليأتوا بسورة من مثله ؛ وليدعوا من يشهد لهم بهذا – من دون الله – فالله قد شهد لعبده بالصدق فى دعواه .

وهذا التحدى ظل قائما فى حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبعدها ، وما يزال قائما إلى يومنا هذا . وهو حجة لاسبيل إلى المماحكة فيها . . وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزا واضحا قاطعا . وسيظل كذلك أبدا . سيظل كذلك تصديقا لقول الله تعالى فى الآية التالية :

« فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . .

والتحدى هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان فى الطاقة تكذيبه ماتوانوا عنه لحظة . وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لاسبيل إلى المماراة فيها . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحا ، فلو أنهم جاءوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك فالخطاب للناس جميعا ، ولو أنه كان فى مواجهة جيل من أجيال الناس . . وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية .

على أن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء؛ وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء ؛ وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أوالاجتماعية التى ينشئها البشر . . لايخالجه شك فى أن ماجاء به القرآن فى هذه المجالات كلها شىء آخر ليس من مادة مايصنعه البشر . والمراء فى هذا لاينشأ إلا عن جهالة لاتميز ، أو غرض يلبس الحق بالباطل . .

ومن ثم كان هذا التهديد المخيف لمن يعجزون عن هذا التحدى ثم لايؤمنون بالحق الواضح :

Marfat.com

« فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . .

ففيم هـذا الجمع بين الناس والحجارة ، في هذه الصورة المفزعة الرعيبة ؟ لقد أعدت هذه النار للكافرين . الكافرين الذين سبق في أول السورة وصفهم بأنهم « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » .. والذين يتحداهم القرآن هنا فيعجزون ، ثم لا يستجيبون . . فهم إذن حجارة من الحجارة ! وإن تبدوا في صورة آدمية من الوجهة الشكلية ! فهذا الجمع بين الحجارة من الحجر والحجارة من الناس هو الأمر المنتظر !

على أن ذكر الحجارة هنا يوحي إلى النفس بسمة أخرى في المشهد المفزع : مشهد النار التي تأكل الأحجار . ومشهد الناس الذين تزحمهم هذه الأحجار . . في النار . .

* * *

وفي مقابل ذلك المشهد المفزع يعرض المشهد المقابل . مشهد النعيم الذي ينتظر المؤمنين :

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » . .

وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها – إلى جانب الأزواج المطهرة – تلك الثمار المتشابهة ، التي يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل – إما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل ، وإما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل – فربما كان في هـذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة . . وهي ترسم جوا من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد !

وهذا التشابه في الشكل ، والتنوع في المزية ، سمة واضحة في صنعة الباريء تعالى ، تجعل الوجود أكبر في حقيقته من مظهره . ولنأخذ الإنسان وحده نموذجا كاشفا لهـذه الحقيقة الكبيرة . . الناس كلهم ناس ، من ناحية قاعدة التكوين : رأس وجسم وأطراف . لحم ودم وعظام وأعصاب . عينان وأذنان وفم ولسان . خلايا حية من نوع الخلايا الحية . تركيب متشابه

Marfat.com

في الشكل والمادة .. ولكن أين غاية المدى في السمات والشيات ؟ ثم أين غاية المدى في الطباع والاستعدادات ؟ إن فارق مابين إنسان وإنسان – على هذا التشابه – ليبلغ أحيانا أبعد مما بين الأرض والسماء !

وهكذا يبدو التنوع في صنعة البارئ هائلا يدير الرؤوس : التنوع في الأنواع والأجناس ، والتنوع في الأشكال والسمات ؛ والتنوع في المزايا والصفات .. وكله .. كله مرده إلى الخلية الواحدة المتشابهة التكوين والتركيب .

فمن ذا الذي لايعبد الله وحده ، وهذه آثار صنعته ، وآيات قدرته ؟ ومن ذا الذي يجعل لله أندادا ، ويد الإعجاز واضحة الآثار ، فيما تراه الأبصار ، وفيما لاتدركه الأبصار ؟

* * *

بعد ذلك يجيء الحديث عن الأمثال التي يضربها الله في القرآن :

« إن الله لايستحي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ، ومايضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض . أولئك هم الخاسرون »

وهذه الآيات تشي بأن المنافقين الذين ضرب الله لهم مثل الذي استوقد نارا ومثل الصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق – وربما كان اليهود كذلك والمشركون – قد اتخذوا من ورود هذه الأمثال في هذه المناسبة ، ومن وجود أمثال أخرى في القرآن المكي الذي سبق نزوله وكان يتلى في المدينة ، كالذي ضربه الله مثلا للذين كفروا بربهم « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون » .. وكالذي ضربه الله مثلا لعجز آلهتهم المدعاة عن خلق الذباب : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » ..

أقول : إن هذه الآيات تشي بأن المنافقين – وربما كان اليهود والمشركون – قد وجدوا في هذه المناسبة منفذا للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن ، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لاتصدر عن الله ، وأن الله لايذكر هذه الأشياء الصغيرة

Marfat.com

كالذباب والعنكبوت فى كلامه ! . . وكان هذا طرفا من حملة التشكيك والبلبلة التى يقوم بها المنافقون واليهود فى المدينة ، كما كان يقوم بها المشركون فى مكة .

فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدس ، وبيانا لحكمة الله فى ضرب الأمثال ، وتحذيرا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها ، وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا .

« إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » . .

فالله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل . والمعجزة فى البعوضة هى ذاتها المعجزة فى الفيل . إنها معجزة الحياة . معجزة السر المغلق الذى لايعلمه إلا الله .. على أن العبرة فى المثل ليست فى الحجم والشكل ، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير . وليس فى ضرب الأمثال مايعاب ومامن شأنه الاستحياء من ذكره . والله ـ جلت حكمته ـ يريد بها اختبار القلوب ، وامتحان النفوس :

« فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » . .

ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل مايصدر عنه بما يليق بجلاله ؛ وبما يعرفون من حكمته . وقد وهبهم الإيمان نورا فى قلوبهم ، وحساسية فى أرواحهم ، وتفتحا فى مداركهم ، واتصالا بالحكمة الإلهية فى كل أمر وفى كل قول يجيئهم من عند الله .

« وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . .

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته ، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره . ثم هو سؤال من لايرجو لله وقارا ،ولايتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب . يقولونها فى جهل وقصور فى صيغة الاعتراض والاستنكار ، أو فى صورة التشكيك فى صدور مثل هذا القول عن الله !

هنا يجيئهم الجواب فى صورة التهديد والتحذير بما وراء المثل من تقدير وتدبير :

« يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين » . .

والله ـ سبحانه ـ يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضى فى طريقها ، ويتلقاها عباده ، كل وفق طبيعته واستعداده ، وكل حسب طريقه ومنهجه الذى اتخذه لنفسه . والابتلاء واحد . .

Marfat.com

ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق . . الشدة تسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاء إلى الله وتضرعا وخشية . وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعدا ، وتخرجه من الصف إخراجا . والرخاء يسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن التقي فيزيده الرخاء يقظة وحساسية وشكرا . وأما الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء ويضله الابتلاء . . وهكذا المثل الذي يضربه الله للناس . . « يضل به كثيرا » . . ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله ، « ويهدي به كثيرا » ممن يدركون حكمة الله . « وما يضل به إلا الفاسقين » . . الذين فسقت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق ، فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه !

ويفصل السياق صفة الفاسقين هؤلاء ، كما فصل في أول السورة صفة المتقين ؛ فالمجال ما يزال — في السورة — هو مجال الحديث عن تلك الطوائف ، التي تتمثل فيها البشرية في شتى الصور :

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض . أولئك هم الخاسرون » . .

وأي عهد من عهود الله هو الذي ينقضون ؟ وأي أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون ؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون ؟

لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال ، لأن المجال مجال تشخيص طبيعة ، وتصوير نموذج ؛ لا مجال تسجيل حادثة ، أو تفصيل واقعة . . إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها . فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض ؛ وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع ؛ وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع . . إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة ، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولا تستمسك بعروة ولا تتورع عن فساد . إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة ، فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة . . ومن ثم يكون ضلالهم بالمثل الذي يهدي المؤمنين ؛ وتجيء غوايتهم بالسبب الذي يهتدي به المتقون .

وننظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر الذي كانت الدعوة تواجهه في المدينة في صورة اليهود والمنافقين والمشركين ؛ والذي ظلت تواجهه وماتزال تواجهه اليوم في الأرض مع اختلاف سطحي في الأسماء والعنوانات !

Marfat.com

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » ..

وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة : إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي .. أن يعرف خالقه ، وأن يتجه إليه بالعبادة . وما تزال في الفطرة هذه الجوعة للاعتقاد بالله . ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أندادا وشركاء .. وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم - كما سيجيء - : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يحكموا في حياتهم منهجه وشريعته .. وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسقون . وإذا نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، فكل عهد دون عهد الله منقوض . فالذي يجرؤ على عهد الله لا يحترم بعده عهدا من العهود .

« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » ..

والله أمر بصلات كثيرة .. أمر بصلة الرحم والقربى . وأمر بصلة الإنسانية الكبرى . وأمر قبل هذا كله بصلة العقيدة والأخوة الإيمانية ، التي لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها .. وإذا قطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت العرى ، وانحلت الروابط ، ووقع الفساد في الأرض ، وعمت الفوضى .

« ويفسدون في الأرض » ..

والفساد في الأرض ألوان شتى ، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله ، ونقض عهد الله ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل . ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها . هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتما ، فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ، ومنهج الله بعيد عن تصريفها ، وشريعة الله مقصاة عن حياتها . وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال ، وللحياة والمعاش ؛ وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء .

Marfat.com

إنه الهدم والشر والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله .. ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدى به عباده المؤمنين .

* * *

وعند هذا البيان الكاشف لآثار الكفر والفسوق فى الأرض كلها يتوجه إلى الناس باستنكار كفرهم بالله المحيي المميت الخالق الرازق المدبر العليم :

« كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون ؟ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ؛ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم » . .

والكفر بالله فى مواجهة هذه الدلائل والآلاء كفر قبيح بشع ، مجرد من كل حجة أو سند . . والقرآن يواجه البشر بما لابد لهم من مواجهته ، والاعتراف به ، والتسليم بمقتضياته . يواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم . لقد كانوا أمواتا فأحياهم . كانوا فى حالة موت فنقلهم منها إلى حالة حياة ولا مفر من مواجهة هذه الحقيقة التى لاتفسير لها إلا بالقدرة الخالقة. إنهم أحياء ، فيهم حياة . فمن الذى أنشأ لهم هذه الحياة ؟ من الذى أوجد هذه الظاهرة الجديدة الزائدة على ما فى الأرض من جماد ميت ؟ إن طبيعة الحياة شىء آخر غير طبيعة الموت المحيط بها فى الجمادات . فمن أين جاءت ؟ إنه لاجدوى من الهروب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على العقل والنفس ؛ ولا سبيل كذلك لتعليل مجيئها بغير قدرة خالقة ذات طبيعة أخرى غير طبيعة المخلوقات . من أين جاءت هذه الحياة التى تسلك فى الأرض سلوكا آخر متميزا عن كل ماعداها من الموات ؟ . . لقد جاءت من عند الله . . هذا هو أقرب جواب . . وإلا فليقل من لايريد التسليم : أين هو الجواب !

وهذه الحقيقة هى التى يواجه بها السياق الناس فى هذا المقام :

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ؟ » . .

كنتم أمواتا من هذا الموات الشائع من حولكم فى الأرض ؛ فأنشأ فيكم الحياة « فأحياكم » . . فكيف يكفر بالله من تلقى منه الحياة ؟

« ثم يميتكم » . .

Marfat.com

ولعل هذه لاتلق مراء ولا جدلا ، فهى الحقيقة التى تواجه الأحياء فى كل لحظة ، وتفرض نفسها عليهم فرضا ، ولا تقبل المراء فيها ولا الجدال .

« ثم يحييكم » . .

وهـذه كانوا يمارون فيها ويجادلون ؛ كما يمارى فيها اليوم ويجادل بعض المطموسين ، المتنكسين إلى تلك الجاهلية الأولى قبل قرون كثيرة . وهى ، حين يتدبرون النشأة الأولى ، لاتدعو إلى العجب ، ولا تدعو إلى التـكذيب .

« ثم إليه ترجعون » . .

كما بدأكم تعودون ، وكما ذرأكم فى الأرض تحشرون ، وكما انطلقتم بإرادته من عالم الموت إلى عالم الحياة ، ترجعون إليه ليمضى فيكم حكمه ، ويقضى فيكم قضاءه . .

وهكذا فى آية واحدة قصيرة يُفتح سجل الحياة كلها ويُطوى ، وتُعرض فى ومضة صورة البشرية فى قبضة البارىء : ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت فى الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ، وإليه مرجعها فى الآخرة ، كما كانت منه نشأتها فى الأولى . . وفى هذا الاستعراض السريع يرتسم ظل القدرة القادرة ، ويلق فى الحس إيحاءاته المؤثرة العميقة .

ثم يعقب السياق بومضة أخرى مكملة للومضة الأولى :

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ؛ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ؛ وهو بكل شىء عليم » . .

ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء ،يتحدثون عن القبلية والبعدية .ويتحدثون عن الاستواء والتسوية .. وينسون أن « قبل وبعد » اصطلاحان بشريان لامدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى؛ وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود . . ولا يزيدان . . وما كان الجدل الكلامى الذى ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية ،إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى ، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية ، والعقلية الإسلامية الناصعة . . وما كان لنا نحن اليوم أن نقع فى هذه الآفة ، فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام ! !

Marfat.com

فلنخلص إذن إلى ماوراء هذه التعبيرات من حقائق موحية عن خلق مافى الأرض جميعا للإنسان . ودلالة هذه الحقيقة على غاية الوجود الإنسانى ، وعلى دوره العظيم فى الأرض ، وعلى قيمته فى ميزان الله ، وما وراء هذا كله من تقرير قيمة الإنسان فى التصور الإسلامى ؛ وفى نظام المجتمع الإسلامى . .

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » . .

إن كلمة « لكم » هنا ذات مدلول عميق وذات إيحاء كذلك عميق . إنها قاطعة فى أن الله خلق هذا الإنسان لأمر عظيم . خلقه ليكون مستخلفا فى الأرض ، مالكا لما فيها ، فاعلا مؤثرا فيها . إنه الكائن الأعلى فى هذا الملك العريض ؛ والسيد الأول فى هذا الميراث الواسع . ودوره فى الأرض إذن وفى أحداثها وتطوراتها هو الدور الأول ؛ إنه سيد الأرض وسيد الآلة ! إنه ليس عبدا للآلة كما هو فى العالم المادى اليوم . وليس تابعا للتطورات التى تحدثها الآلة فى علاقات البشر وأوضاعهم كما يدعى أنصار المادية المطموسون ، الذين يحقرون دور الإنسان ووضعه . فيجعلونه تابعا للآلة الصماء وهو السيد الكريم ! وكل قيمة من القيم المادية لايجوز أن تطغى على قيمة الإنسان ، ولاأن تستذله أو تخضعه أو تستعلى عليه ؛ وكل هدف ينطوى على تصغير قيمة الإنسان ، مهما يحقق من مزايا مادية ، هو هدف مخالف لغاية الوجود الإنسانى . فكرامة الإنسان أولا ، واستعلاء الإنسان أولا ، ثم تجىء القيم المادية تابعة مسخرة .

والنعمة التى يمتن الله بها على الناس هنا — وهو يستنكر كفرهم به — ليست مجرد الإنعام عليهم بما فى الأرض جميعا ، ولكنها — إلى ذلك — سيادتهم على مافى الأرض جميعا ، ومنحهم قيمة أعلى من قيم الماديات التى تحويها الأرض جميعا . هى نعمة الاستخلاف والتكريم فوق نعمة الملك والانتفاع العظيم .

« ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات » . .

ولا مجال للخوض فى معنى الاستواء إلا بأنه رمز السيطرة ، والقصد بإرادة الخلق والتكوين . كذلك لامجال للخوض فى معنى السماوات السبع المقصودة هنا وتحديد أشكالها وأبعادها . اكتفاء بالقصد الكلى من هذا النص ، وهو التسوية للكون أرضه وسمائه فى معرض استنكار كفر الناس بالخالق المهيمن المسيطر على الكون ، الذى سخر لهم الأرض بما فيها ، ونسق

Marfat.com

السماوات بما يجعل الحياة على الأرض ممكنة مريحة .

« وهو بكل شيء عليم » ..

بما أنه الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء . وشمول العلم فى هذا المقام كشمول التدبير حافز من حوافز الإيمان بالخالق الواحد ، والتوجه بالعبادة للمدبر الواحد ، وإفراد الرازق المنعم بالعبادة اعترافا بالجميل .

وهكذا تنتهى الجولة الأولى فى السورة . وكلها تركيز على الإيمان ، والدعوة إلى اختيار موكب المؤمنين المتقين ..

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ».

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا : سُبْحَانَكَ ! لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ . فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

« وَقُلْنَا : يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ؛ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ، فَأَخْرَجَهُمَا

Marfat.com

مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .
« قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى : فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ٣٩

يرد القصص فى القرآن فى مواضع ومناسبات . وهذه المناسبات التى يساق القصص من أجلها هى التى تحدد مساق القصة ، والحلقة التى تعرض منها ، والصورة التى تأتى عليها ، والطريقة التى تؤدى بها . تنسيقا للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه . وبذلك تؤدى دورها الموضوعى ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقى إيقاعها المطلوب .

ويحسب أناس أن هنالك تكرارا فى القصص القرآنى ، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى سور شتى . ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه مامن قصة ، أو حلقة من قصة قد تكررت فى صورة واحدة ، من ناحية القدر الذى يساق ، وطريقة الأداء فى السياق . وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ، ينفى حقيقة التكرار .

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقا للحوادث أو تصرفا فيها ، يقصد به إلى مجرد الفن ـ بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع ـ ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة ، مفتوح البصيرة ، هو أن المناسبة الموضوعية هى التى تحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء . والقرآن كتاب دعوة ، ودستور نظام ، ومنهج حياة ، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ . وفى سياق الدعوة يجىء القصص المختار ، بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض ، وقوة الحق ، وجمال الأداء (١) .

(١) يراجع بتوسع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وقصص الأنبياء فى القرآن يمثل موكب الإيمان فى طريقه الممتد الواصل الطويل . ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلا بعد جيل ؛ كما يعرض طبيعة الإيمان فى نفوس هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذى خصهم بهذا الفضل العظيم .. وتتبع هذا الموكب الكريم فى طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونورا وشفافية ؛ ويشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز - عنصر الإيمان - وأصالته فى الوجود . كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيمانى ويميزه فى الحس من سائر التصورات الدخيلة . . ومن ثم كان القصص شطرا كبيرا من كتاب الدعوة الكريم .

فلننظر الآن فى قصة آدم - كما جاءت هنا - فى ضوء هذه الإيضاحات . .

إن السياق - فيما سبق - يستعرض موكب الحياة ، بل موكب الوجود كله . ثم يتحدث عن الأرض - فى معرض آلاء الله على الناس - فيقرر أن الله خلق كل ما فيها لهم . فهنا فى هذا الجو تجىء قصة استخلاف آدم فى الأرض ، ومنحه مقاليدها ، على عهد من الله وشرط ، وإعطاؤه المعرفة التى يعالج بها هذه الخلافة . كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بنى إسرائيل فى الأرض بعهد من الله ؛ ثم عزلهم عن هذه الخلافة وتسليم مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله (كما سيجىء) فتتسق القصة مع الجو الذى تساق فيه كل الاتساق .

فلنعش لحظات مع قصة البشرية الأولى وما وراءها من إيحاءات أصيلة :

* * *

هانحن أولاء - بعين البصيرة فى ومضات الاستشراف - فى ساحة الملأ الأعلى ؛ وهانحن أولاء نسمع ونرى قصة البشرية الأولى :

« وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة » . .

وإذن فهى للمشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد فى الوجود ، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ؛ وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله - بإذن الله - فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه .

Marfat.com

وإذن فقد وهب هـذا الـكائن الجديد من الطاقات الـكامنة ، والاستمدادات المذخورة كفاء مافى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ؛ ووهب من القوى الخفية مايحقق المشيئة الإلهية .

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التى تحكم الأرض ـ وتحكم الـكون كله ـ والنواميس التى تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كى لايقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكى لاتتحطم طاقة الإنسان على صخرة الـكون الضخمة !

وإذن فهى منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان ، فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة . وهو التـكريم الذى شاءه له خالقه الـكريم .

هـذا كله بعض إيحاء التعبير العلوى الجليل : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . . حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ماتم فى الأرض على يد هـذا الـكائن المستخلف فى هذا الملك العريض !

« قالوا : أتجعـل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ » . .

ويوحى قول الملائكة هـذا بأنه كان لديهم من شواهد الحـال ، أو من تجارب سابقة فى الأرض ، أو من إلهام البصيرة ، مايكشف لهم عن شىء من فطرة هـذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ؛ وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد فى الأرض ، وأنه سيسفك الدماء . . ثم هم ـ بفطرة الملائكة البريئة التى لاتتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل ـ يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحـده العلة الأولى للخلق . . وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته !

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، فى بناء هـذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتنويعها ، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيتها وتعديلها ، على يد خليفة الله فى أرضه . هـذا الذى قد يفسد أحيانا ، وقد يسفك الدماء أحيانا ، ليتم من وراء هـذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل . خير النمو الدائم ، والرقى الدائم . خير الحركة

Marfat.com

الهادمة البانية . خير المحاولة التى لا تكف ، والتطلع الذى لايقف ، والتغيير والتطور فى هذا الملك الكبير .

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شىء ، والخبير بمصائر الأمور :

« قال : إنى أعلم مالا تعلمون »

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » . .

هانحن أولاء - بعين البصيرة فى ومضات الاستشراف - نشهد ماشهده الملائكة فى الملأ الأعلى . . هانحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السر الإلهى العظيم الذى أودعه الله هذا الكائن البشرى ، وهو يسلمه مقاليد الخلافة . سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات . سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها - وهى ألفاظ منطوقة - رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة . وهى قدرة ذات قيمة كبرى فى حياة الانسان على الأرض . ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى ، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات ، والمشقة فى التفاهم والتعامل ، حين يحتاج كل فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شىء أن يستحضر هذا الشىء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه . . الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا باستحضار جسم النخلة ! الشأن شأن جبل . فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إلى الجبل ! الشأن شأن فرد من الناس فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بتحضير هذا الفرد من الناس ... إنها مشقة هائلة لاتتصور معها حياة ! وإن الحياة ما كانت لتمضى فى طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات .

فأما الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية ، لأنها لاضرورة لها فى وظيفتهم . ومن ثم لم توهب لهم . فلما علم الله آدم هذا السر ، وعرض عليهم ماعرض لم يعرفوا الأسماء . لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللفظية للأشياء والشخوص . . وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربهم ،

Marfat.com

والاعتراف بعجزهم ، والإقرار بحدود علمهم ، وهو ماعلمهم . . وعرف آدم . . ثم كان هذا التعقيب الذى يردهم إلى إدراك حكمة العليم الحكيم :

« قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ » . .

« وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا » . .

إنه التكريم فى أعلى صوره، لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار مايرفعه على الملائكة . لقد وهب سر المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق . . إن ازدواج طبيعته ، وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة . . إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالا للأمر العلوى الجليل . .

« إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . .

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة : عصيان الجليل سبحانه ! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله . والعزة بالإثم . والاستغلاق عن الفهم .

ويوحى السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، إنما كان معهم . فلو كان منهم ماعصى . وصفتهم الأولى أنهم « لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون » . . والاستثناء هنا لايدل على أنه من جنسهم ، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء ، كما تقول : جاء بنوفلان إلا أحمد . وليس منهم إنما هو عشيرهم ! وإبليس من الجن بنص القرآن ، والله خلق الجان من مارج من نار . وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة .

والآن . لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة . المعركة بين خليقة الشر فى إبليس ، وخليفة الله فى الأرض . المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان . المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار مايستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار مايستسلم الانسان لشهوته ويبعد عن ربه :

« وقلنا : ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولاتقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » . .

Marfat.com

لقد أبيحت لهما كل ثمار الجنة .. إلا شجرة .. شجرة واحدة ، ربما كانت ترمز للمحظور الذى لابد منه فى حياة الأرض . فبغير محظور لاتنبت الإرادة ، ولايتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق ، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط . فالإرادة هى مفرق الطريق والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة ، ولو بدوا فى شكل الآدميين !

« فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه » ..

وبالتعبير المصور : « أزلهما » .. إنه لفظ يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها . وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى !

عندئذ تمت التجربة : نسى آدم عهده ، وضعف أمام الغواية . وعندئذ حقت كلمة الله ، وصرح قضاؤه :

« وقلنا : اهبطوا .. بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ..

وكان هذا إيذانا بانطلاق المعركة فى مجالها المقدر لها . بين الشيطان والإنسان . إلى آخر الزمان .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب فى فطرته ، وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائما عندما يثوب إليها ، ويلوذ بها .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » ..

وتمت كلمة الله الأخيرة ، وعهده الدائم مع آدم وذريته . عهد الاستخلاف فى هذه الأرض ، وشرط الفلاح فيها أو البوار .

« قلنا : اهبطوا منها جميعا . فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها ماتهدأ لحظة وماتفتر . وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار ، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار ...

***

Marfat.com

وبعد فلابد من عودة إلى مطالع القصة . قصة البشرية الأولى .

لقد قال الله تعالى للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .. وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى . ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيم إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لعلنى ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعدادا . كانت إيقاظا للقوى المذخورة فى كيانه . كانت تدريبا له على تلقى الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة ، والندم وطلب المغفرة . . إنها هى هى تجربة البشرية المتجددة المكرورة !

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته ، مزودا بهذه التجربة التى سيتعرض لمثلها طويلا ، استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا . .

وبعد . . مرة أخرى . . فأين كان هذا الذى كان ؟ وما الجنة التى عاش فيها آدم وزوجه حينا من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ . . كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟ .

هذا وأمثاله فى القرآن الكريم غيب من الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ؛ وعلم بحكمته أن لاجدوى للبشر فى معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به ،بالأداة التى وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب. وبقدر ماسخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرفه بأسرارها ، بقدر ماحجب عنه أسرار الغيب ،فيما لاجدوى له فى معرفته. وما يزال الإنسان مثلا على الرغم من كل مافتح له من الأسرار الكونية يجهل ماوراء اللحظة الحاضرة جهلا مطلقا ، ولا يملك بأى أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ، وهل النفس الذى خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه؟ وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر، لأنه لايدخل فى مقتضيات الخلافة ،بل ربما كان معوقا لها لو كشف للإنسان عنه ! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان ، فى طى الغيب الذى لايعلمه إلا الله .

Marfat.com

ومن ثم لم يعد للعقل البشرى أن يخوض فيه ، لأنه لايملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره . وكل جهد يبذل فى هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سدى ، بلا ثمرة ولا جدوى .

وإذا كان العقل البشرى لم يوهب الوسيلة للاطلاع على هذا الغيب المحجوب ؛ فليس سبيله إذن أن يتبجح فينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة . والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست فى طوق وسائله ، ولا هى ضرورية له فى وظيفته !

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة . ولكن أضر منه وأخطر ، التنكر للمجهول كله وإنكاره ، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به . . إنها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذى يعيش فى المحسوس وحده ، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق .

فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه ، وحسبنا مايقص لنا عنه ، بالقدر الذى يصلح لنا فى حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا . ولنأخذ من القصة ماتشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن تصور للوجود وارتباطاته ، ومن إيحاء بطبيعة الإنسان وقيمه وموازينه . . فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى .

وفى اختصار يناسب ظلال القرآن سنحاول أن نمر بهذه الايحاءات والتصورات والحقائق مرورا مجملا سريعا .

إن أبرز إيحاءات قصة آدم ـ كما وردت فى هذا الموضع ـ هو القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان ولدوره فى الأرض ، ولمكانه فى نظام الوجود ، وللقيم التى يوزن بها . ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله ، وحقيقة هذا العهد الذى قامت خلافته على أساسه . .

وتبدى تلك القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان فى الإعلان العلوى الجليل فى الملأ الأعلى الكريم ، أنه مخلوق ليكون خليفة فى الأرض ؛ كما تبدى فى أمر الملائكة بالسجود له . وفى طرد إبليس الذى استكبر وأبى ، وفى رعاية الله له أولا وأخيرا . .

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة فى عالم التصور وفى عالم الواقع على السواء

Marfat.com

وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شيء فيها ـ كما تقدم ذلك نصا ـ فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي ، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعا . ولايجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أوشيء مادي .. لايجوز أن يعتدى على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة ، ولاأن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي ، أوإنتاج أي شيء مادي ، أوتكثير أي عنصر مادي . . فهذه الماديات كلها مخلوقة ـ أومصنوعة ـ من أجله . من أجل تحقيق إنسانيته . من أجل تقرير وجوده الإنساني . فلايجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية ، أونقص مقوم من مقومات كرامته .

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول . فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها ؛ وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها . وليست وسائل الإنتاج ، ولاتوزيع الإنتاج ، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلا سلبيا كما تصوره المذاهب المادية ؛ التي تحقر من دور الإنسان وتصغر ، بقدر ماتعظم في دور الآلة وتكبر !

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض ، عاملا مهما في نظام الكون ، ملحوظا في هذا النظام . فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار ، ومع الشموس والكواكب . . وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض ، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة . . فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية ، ولا تسمح له أن يتعداه ؟ !

ومامن شك أن كلا من نظرة الإسلام هذه ونظرة المادية للإنسان تؤثر في طبيعة النظام الذي تقيمه هذه وتلك للإنسان ؛ وطبيعة احترام المقومات الإنسانية أو إهدارها ؛ وطبيعة تكريم هذا الإنسان أوتحقيره .. وليس مانراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الإنسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الإنتاج المادي وتكثيره، إلا أثرا من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان ، وحقيقة دوره في هذه الأرض !

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في

Marfat.com

وزنه وتقديره ، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية ، وتكبير قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته . فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... » وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية ـ هذا مع أن من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطغى على تلك القيم العليا ـ ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته . بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من استهزاء بكل القيم الروحية ، وإهدار لكل القيم الأدبية . في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان ! (١)

وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله ،وهي مناط التكليف والجزاء . . إنه يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته ، وعدم الخضوع لشهواته ، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه . بينما يملك أن يشقى نفسه ويهبط من عليائه ، بتغليب الشهوة على الإرادة ، والغواية على الهداية ، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه . وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لاشك فيه ، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى . كما أن فيه تذكيرا دائما بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة ، والرفعة والهبوط ، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق !

وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مذكر دائم بطبيعة المعركة. إنها بين عهد الله وغواية الشيطان . بين الإيمان والكفر . بين الحق والباطل . بين الهدى والضلال . . والإنسان هو نفسه ميدان المعركة . وهو نفسه الكاسب أو الخاسر فيها . وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة ؛ وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان ؛ وأنه هو صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان !

وأخيرا تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة . . إن الخطيئة فردية والتوبة فردية . في تصور واضح بسيط لاتعقيد فيه ولا غموض . . ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده ـ كما تقول نظرية الكنيسة ـ وليس هنالك تكفير لاهوتي ، كالذي تقول الكنيسة إن عيسى ـ عليه السلام ـ (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه ، تخليصا لبني آدم من خطيئة

(١) يراجع بتوسع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب

Marfat.com

آدم ! .. كلا ! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة . وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة .. تصور مريح صريح . يحمل كل إنسان وزره ، ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط . . « إن الله تواب رحيم » ..

هذا طرف من إيحاءات قصة آدم - فى هذا الموضع - نكتفى به فى ظلال القرآن . وهو وحده ثروة من الحقائق والتصورات القويمة ؛ وثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة ؛ وثروة من الأسس التى يقوم عليها تصور اجتماعى ،وأوضاع اجتماعية ، يحكمها الخلق والخير والفضيلة .ومن هذا الطرف نستطيع أن ندرك أهمية القصص القرآنى فى تركيز قواعد التصور الإسلامى ، وإيضاح القيم التى يرتكز عليها . وهى القيم التى تليق بعالم صادر عن الله ، متجه إلى الله ، صائر إلى الله فى نهاية المطاف . . عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقى الهدى من الله ، والتقيد بمنهجه فى الحياة . ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقاه من الله ، أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان . وليس هنالك طريق ثالث . . إما الله وإما الشيطان . إما الهدى وإما الضلال . إما الحق وإما الباطل . إما الفلاح وإما الخسران . . وهذه الحقيقة هى التى يعبر عنها القرآن كله ، بوصفها الحقيقة الأولى ، التى تقوم عليها سائر التصورات ، وسائر الأوضاع فى عالم الإنسان . .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ .

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟

Marfat.com

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ؛ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ . وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ .

« وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ، فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَإِذْ قُلْنَا : ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُولُوا : حِطَّةٌ ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ

Marfat.com

ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

« وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا : اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً . قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ . كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

« وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَالنَّصَارَى ، وَالصَّابِئِينَ . . مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا . . فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ .

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . قَالُوا : أَتَتَّخِذُنَا

Marfat.com

هُزُواً ؟ قَالَ : أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا . قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا : ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا . قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ .

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً ، فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٧٤)

ابتداء من هذا المقطع فى السورة يواجه السياق بنى إسرائيل ، أولئك الذين واجهوا الدعوة فى المدينة مواجهة نكرة ؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة ؛ وكادوا لها كيدا موصولا، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة ؛ وتبين لهم أنه فى طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها ، وعزلهم من القيادة الأدبيـة والاقتصادية التى كانت لهم ، منذ وحد الأوس والخزرج ، وسد الثغرات التى كانت تنفذ منها يهود ، وشرع لهم منهجا مستقلا ، يقوم على أساس الكتاب الجديد .. هـذه المعركة التى شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة ، بنفس الوسائل ، ونفس الأساليب ، لايتغير إلا شكلها ؛ أما حقيقتها فباقية ، وأما طبيعتها فواحدة ، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى

Marfat.com

جهه ، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدرا حنونا إلا فى العالم الإسلامى للفتوح، الذى ينكر الاضطهادات الدينيـة والعنصرية ، ويفتح أبوابه لـكل مسالم لايؤذى الإسـلام ولا يـكيد للمسلمين !

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود فى المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد ؛ مذ كان القرآن يصدق ماجاء فى التوراة فى عمومه ؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول ، وعندهم أوصافه فى البشارات التى يتضمنها كتابهم ؛ وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين .

وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بنى إسرائيل ؛ بل هذه الحملة الشاملة لـكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم فى الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد .

* * *

يبدأ هذا الدرس بنداء علوى جليل إلى بنى إسرائيل ، يذكرهم بنعمته ـ تعالى ـ عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفى بعهده معهم ، وإلى تقواه وخشيته ؛ يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لمـا معهم . ويندد بموقفهم منه ، وكفرهم به أول من يكفر ! كما يندد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق ليموهوا على الناس ـ وعلى المسلمين خاصة ـ ويشيعوا الفتنة والبلبلة فى الصف الإسلامى ، والشك والارتياب فى نفوس الداخلين فى الإسلام الجديد . ويأمرهم أن يدخلوا فى الصف . فيقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويركعوا مع الراكعين ، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج فى الدين الجديد بالصبر والصلاة . وينـكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان ، وهم فى الوقت ذاته يأبون أن يدخلوا فى دين الله مسلمين !

ثم يبدأ فى تذكيرهم بنعم الله التى أسبغها عليهم فى تاريخهم الطويل . مخاطبا الحاضرين منهم كما لوكانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى ـ عليه السلام ـ وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال ، متحدة الجبلة. كما هم فى حقيقة الأمر وفق مابدا من صفاتهم ومواقفهم فى جميع العصور !

Marfat.com

ويعاود تخويفهم باليوم الذى يُخاف ، حيث لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها شفاعة ، ولايؤخذ منها فدية ، ولايجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب .

ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم من فرعون وملئه كأنه حاضر . ومشهد النعم الأخرى التى ظلت تتوالى عليهم من تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر بالماء .. ثم يذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية ، مايكاد يردهم عن واحدة منها حتى يعودوا إلى أخرى ، ومايكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا فى خطيئة ، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا فى حفرة .. ونفوسهم هى هى فى التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد ، كما أنها هى هى فى ضعفها عن حمل التكاليف ، ونكولها عن الأمانة ، ونكثها للعهد ، ونقضها للمواثيق مع ربها ومع نبيها .. حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق ، وتكفر بآيات ربها ، وتعبد العجل وتجدف فى حق الله فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة ؛ وتخالف عما أوصاها به الله وهى تدخل القرية فتفعل وتقول غير ماأمرت به ؛ وتعتدى فى السبت ، وتنسى ميثاق الطور ، وتماحل وتجادل فى ذبح البقرة التى أمر الله بذبحها لحكمة خاصة . . .

وهذا كله مع الادعاء العريض بأنها هى وحدها المهتدية ؛ وأن الله لايرضى إلا عنها ، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها ! مما يبطله القرآن فى هذه الجولة ، ويقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من جميع الملل ، فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون . .

* * *

هذه الحملة ـ سواء ماورد منها فى هذا الدرس ومايلى منها فى سياق السورة ـ كانت ضرورية أولا وقبل كل شىء لتحطيم دعاوى يهود ، وكشف كيدها ، وبيان حقيقتها وحقيقة دوافعها فى الدس للإسلام والمسلمين . كما كانت ضرورية لتفتيح عيون المسلمين وقلوبهم لهذه الدسائس والمكايد التى توجه إلى مجتمعهم الجديد ، وإلى الأصول التى يقوم عليها ؛ كما توجه إلى وحدة الصف المسلم لخلخلته وإشاعة الفتنة فيه .

ومن جانب آخر كانت ضرورية لتحذير المسلمين من مزالق الطريق التى عثرت فيها أقدام الأمة المستخلفة قبلهم ، فحرمت مقام الخلافة ، وسلبت شرف القيام على أمانة الله فى الأرض ،

Marfat.com

ومنهجه لقيادة البشر . وقد تخللت هذه الجولة توجيهات ظاهرة وخفية للمسلمين لتحذيرهم من تلك المزالق كما سيجيء فى الشطر الثانى منها .

وما كان أحوج الجماعة المسلمة فى المدينة إلى هذه وتلك . وما أحوج الأمة المسلمة فى كل وقت إلى تلقى هـذه التوجيهات ، وإلى دراسة هـذا القرآن بالعين المفتوحة والحس البصير ، لتتلقى منه تعليمات القيادة الإلهية العلوية فى معاركها التى تخوضها مع أعدائها التقليديين ؛ ولتعرف منها كيف ترد على الكيد العميق الخبيث الذى يوجهونه إليها دائبين ، بأخفى الوسائل ، وأمكر الطرق . وما يملك قلب لم يهتد بنور الإيمان ، ولم يتلق التوجيه من تلك القيادة المطلعة على السر والعلن والباطن والظاهر ، أن يدرك المسالك والدروب الخفية الخبيثة التى يتدسس فيها ذلك الكيد الخبيث المريب . . .

* * *

ثم نلاحظ من جانب التناسق الفنى والنفسى فى الأداء القرآنى ، أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم ، وبالإيحاءات التى أشرنا إليها هناك ، وهذا جانب من التكامل فى السياق القرآنى بين القصص والوسط الذى تعرض فيه [1] :

لقد مضى السياق قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما فى الأرض جميعا للإنسان . ثم بقصة استخلاف آدم فى الأرض بعهد الله الصريح الدقيق ؛ وتكريمه على الملائكة ؛ والوصية والنسيان ، والندم والتوبة ، والهداية والمغفرة ، وتزويده بالتجربة الأولى فى الصراع الطويل فى الأرض ، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة فى إبليس ، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة فى الإنسان المعتصم بالإيمان .

مضى السياق بهذا كله فى السورة . ثم أعقبه بهـذه الجولة مع بنى إسرائيل ، فذكر عهد الله معهم ونكثهم له ؛ ونعمته عليهم وجحودهم بها ؛ ورتب على هـذا حرمانهم من الخلافة ، وكتب عليهم الذلة ، وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم . فكانت هناك صلة ظاهرة بين قصة استخلاف آدم وقصة استخلاف بنى إسرائيل ، واتساق فى السياق واضح وفى الأداء .

والقرآن لا يعرض هنا قصة بنى إسرائيل ، إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار

---

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن وفى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

أو بتطويل مناسب . وقد وردت القصة في السور المكية التي نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر – مع غيرها – لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة . فأما هنا فالقصد هو ماأسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها ، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ماوقعت فيه قبلها يهود . . وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض ؛ وإن كانت الحقائق التي عرضت هنا وهناك عن انحراف بني إسرائيل ومعصيتهم واحدة (كما سيجيء عند استعراض السور المكية السابقة في ترتيب النزول)

ومن مراجعة المواضع التي وردت فيها قصة بني إسرائيل هنا وهناك يتبين أنها متفقة مع السياق الذي عرضت فيه ، متممة لأهدافه وتوجيهاته .. وهي هنا متسقة مع السياق قبلها . سياق تكريم الإنسان ، والعهد إليه والنسيان . متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية ، ووحدة دين الله المنزل إليها ، ووحدة رسالاته ، مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها ، وإلى عواقب الانحراف عن هذه المقومات التي نيطت بها خلافة الإنسان في الأرض ؛ فمن كفر بها كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته ، وارتكس في عالم الحيوان .

وقصة بني إسرائيل هي أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم ؛ والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة ، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى . .

فلننظر بعد هذا الإجمال في استعراض النص القرآني :

* * *

« يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، وإياي فاتقون . ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون

Marfat.com

الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون » ..

إن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التى أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذى قابلوا به هذا الفيض المدرار . . وهنا يذكرهم الله بنعمته التى أنعمها عليهم إجمالا ، قبل البدء فى تفصيل بعضها فى الفقر التالية . يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه - سبحانه - كى يتم عليهم النعمة ويمد لهم فى الآلاء :

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » . .

فأى عهد هذا الذى يشار إليه فى هذا المقام ؟ أهو العهد الأول ، عهد الله لآدم : « فإما يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . . ؟ أم هو العهد الكونى السابق على عهد الله هذا مع آدم . العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه : أن يعرفه ويعبده وحده لاشريك له . وهو العهد الذى لايحتاج إلى بيان ، ولا يحتاج إلى برهان ، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها الدنية ،ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف ؟ أم هو العهد الخاص الذى قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل ، والذى سيجىء فى سياق السورة :« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال: إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى؟ قال :لاينال عهدى الظالمين » ..؟ أمهو العهد الخاص الذى قطعه الله على بنى إسرائيل وقد رفع فوقهم الطور، وأمرهم أن يأخذوا مافيه بقوة ، والذى سيأتى ذكره فى هذه الجولة ؟

إن هذه العهود جميعا إن هى إلا عهد واحد فى صميمها . إنه العهد بين البارىء وعباده أن يصغوا قلوبهم إليه ، وأن يسلموا أنفسهم كلها له . وهذا هو الدين الواحد . وهذا هو الإسلام الذى جاء به الرسل جميعا ؛ وسار موكب الإيمان يحمله شعارا له على مدار القرون .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفردوه بالخشية :

« وإياى فارهبون » . .

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بنى إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ، مصدقا لما

Marfat.com

معهم ؛ وألا يسارعوا إلى الكفر به ، فيصبحوا أول الكافرين ؛ وكان ينبغى أن يكونوا أول المؤمنين :

« وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » . .

فما الإسلام الذى جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – إلا الدين الواحد الخالد . جاء به فى صورته الأخيرة ؛ وهو امتداد لرسالة الله ، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على ما مضى ، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتى ؛ ويوحد بين « العهد القديم [1] » « والعهد الجديد [2] » ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية فى مستقبلها الطويل ؛ ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين ؛ يلتقون على عهد الله ، ودين الله ؛ لايتفرقون شيعا وأحزابا ، وأقواما وأجناسا ؛ ولكن يلتقون عبادا لله ، مستمسكين جميعا بعهده الذى لايتبدل منذ فجر الحياة .

وينهى الله بنى إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقا لما معهم ، شراء الدنيا بالآخرة ، وإيثارا لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم – وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات – ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه . .

« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، وإياى فاتقون » . .

والثمن والمال والكسب الدنيوى المادى .. كله شنشنة يهودية قديمة !! وقد يكون المقصود بالنهى هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة ، وتحريف الأحكام حتى لاتقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء ، كما ورد فى مواضع أخرى ، واستبقاء هذا كله فى أيديهم بصد شعبهم كله عن الدخول فى الإسلام ، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة . . على أن الدنيا كلها – كما قال بعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم فى تفسير هذه الآية – ثمن قليل ، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله ، وإلى عاقبة الإيمان فى الآخرة عند الله .

---

(١) التوراة .

(٢) الإنجيل .

Marfat.com

ويمضى السياق يحذرهم ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه، بقصد بلبلة الأفكار فى المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل . وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » . .

ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق فى كل مناسبة عرضت لهم، كما فصل القرآن فى مواضع منه كثيرة ؛ وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى، وعامل اضطراب وخلخلة فى الصف المسلم . وسيأتى من أمثلة هذا التلبيس الشىء الكثير !

ثم يدعوهم إلى الاندماج فى موكب الإيمان، والدخول فى الصف، وأداء عباداته المفروضة، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم، وهو ماعرفت به يهود من قديم :

« وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واركعوا مع الراكعين » . .

ثم ينكر عليهم — وبخاصة أحبارهم — أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين، وهم فى الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله، المصدق لدينهم القديم :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ؟ أفلا تعقلون ؟ » . .

ومع أن هذا النص القرآنى كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بنى إسرائيل، فإنه فى إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لايخص قوما دون قوم ولايعنى جيلا دون جيل .

إن آفة رجال الدين — حين يصبح الدين حرفة وصناعة لاعقيدة حارة دافعة — أنهم يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ؛ يأمرون بالخير ولايفعلونه ؛ ويدعون إلى البر ويهملونه ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق فى ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف فى حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود ! .

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه، هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك لا فى الدعاة وحدهم ولكن فى الدعوات ذاتها . وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم،

Marfat.com

لأنهم يسمعون قولا جميلا ، ويشهدون فعلا قبيحا ؛ فتملكهم الحيرة بين القول والفعل ؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ؛ وينطفىء في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان ؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة ، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها . ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيما واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق . . إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها ؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها .. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة ، لأنها منبثقة من حياة .

والمطابقة بين القول والفعل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست مع هذا أمرا هينا ، ولا طريقا معبدا . إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة . وإلى صلة بالله ، واستمداد منه ، واستعانة بهديه ؛ فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيرا ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره ، أو عما يدعو إليه غيره . والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته ، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه ؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة ؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى ، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله ؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي ، أقوى من كل قوي . قوي على شهوته وضعفه . قوي على ضروراته واضطراراته . قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه .

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذي كان يواجههم أولا ، ويوجه الناس كلهم ضمنا ، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة . . وفي حالة اليهود كان مطلوبا منهم أن يؤثروا الحق الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة ، وعلى الثمن القليل ـ سواء كان ثمن الخدمات الدينيه أو هو الدنيا كلها ـ وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان ! وكان هذا كله يقتضي قوة وشجاعة وتجردا . واستعانة بالصبر والصلاة :

« واستعينوا بالصبر والصلاة . وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون » ..

والغالب أن الضمير في إنها ضمير الشأن . أي إن هذه الدعوة إلى الاعتراف بالحق في

Marfat.com

وجه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة ، إلا على الخاشعين الخاضعين لله ، الشاعرين بخشيته وتقواه ، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين .

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا ؛ فهو الزاد الذى لابد منه لمواجهة كل مشقة ، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراما للحق وإيثارا له، واعترافا بالحقيقة وخضوعا لها .

فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب . صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة ؛ وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا . . ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذاحزبه أمر فزع إلى الصلاة ،وهو الوثيق الصلة بربه للوصول الروح بالوحى والإلهام . . وما يزال هذا الينبوع الدافق فى متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق ، وريا فى الهجير ، ومددا حين ينقطع المدد ، ورصيدا حين ينفد الرصيد . .

واليقين بلقاء الله - واستعمال ظن ومشتقاتها فى معنى اليقين كثير فى القرآن وفى لغة العرب عامة - واليقين بالرجعة إليه وحده فى كل الأمور . . هو مناط الصبر والاحتمال ؛ وهو مناط التقوى والحساسية . كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم : قيم الدنيا وقيم الآخرة . ومتى استقام الميزان فى هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنا قليلا ، وعرضا هزيلا ؛ وبدت الآخرة على حقيقتها التى لايتردد عاقل فى اختيارها وإيثارها

وكذلك يجد المتدبر للقرآن فى التوجيه الذى قصد به بنو إسرائيل أول مرة ، توجيها دائما مستمر الإيحاء للجميع . .

* * *

ومن ثم عودة إلى نداء بنى إسرائيل، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف بإجمالا قبل الأخذ فى التفصيل :

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » . .

Marfat.com

وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد .

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ؛ وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية ، فيعودوا إلى موكب الإيمان ، وإلى عهد الله ؛ شكراً على تفضيله لآبائهم ، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم الذى يناله المؤمنون .

ومع الإطماع فى الفضل والنعمة ، التحذير من اليوم الذى يأتى وصفه :

« لاتجزى نفس عن نفس شيئاً » . .

فالتبعة فردية، والحساب شخصى، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغنى نفس عن نفس شيئاً . . وهذا هو المبدأ الإسلامى العظيم . مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله . وهو أقوم المبادىء التى تشعر الإنسان بكرامته ، والتى تستجيش اليقظة الدائمة فى ضميره . وكلاهما عامل من عوامل التربية ، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التى يكرمه بها الإسلام .

« ولايقبل منها شفاعة . ولايؤخذ منها عدل » .

فلاشفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً ؛ ولافدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته .

« ولاهم ينصرون » . .

فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه . . وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التى لاتجزى نفس منها عن نفس ، ولايقبل منها شفاعة ،ولايؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب فى أول الآية إلى صيغة الغيبة فى آخرها للتعميم . فهذا مبدأ كلى يناله المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين .

• • •

Marfat.com

بعدئذ بعض بعدد آلاء الله عليهم ، وكيف استقبلوا هذه الآلاء ، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق . وفى مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم :

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » ..

إنه يعيد على خيالهم ويستحيي فى مشاعرهم صورة الكرب الذى كانوا فيه ـ باعتبار أنهم أبناء هذا الأصل البعيد ـ ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب .

يقول لهم : واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون حالة ما كانوا يدعون عذابكم، (من سام الماشية أى جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذى يطعمونهم إياه!! ثم يذكر لونا من هذا العذاب . هو تذبيح الذكور واستحياء الإناث . كى يضعف ساعد بنى إسرائيل و ثقل تبعاتهم !

وقبل أن يعرض مشهد النجاة يعقب بأن ذلك التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم . ليلقى فى حسهم ـ وحس كل من يصادف شدة ـ أن إصابة العباد بالشدة هى امتحان وبلاء ، واختبار وفتنة . وأن الذى يستيقظ لهذه الحقيقة يفيد من الشدة ، ويعتبر بالبلاء ، ويكسب من ورائهما حين يستيقظ . والألم لا يذهب ضياعا إذا أدرك صاحبه أنه يمر بفترة امتحان لها ما بعدها إن أحسن الانتفاع بها . والألم يهون على النفس حين تعيش بهذا التصور وحين تدخر ما فى التجربة المؤلمة من زاد للدنيا بالخبرة والمعرفة والصبر والاحتمال ، ومن زاد للآخرة باحتسابها عند الله ، وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته . ومن ثم هذا التعقيب الوحى : « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

فإذا فرغ من التعقيب جاء بمشهد النجاة بعد مشاهد العذاب . .

« وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . .

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة فى السور المكية التى نزلت من قبل . أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكى ، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها فى صورة مشهد ، ليستعيدوا تصورها ، ويتأثروا بهذا التصور وكأنهم هم

Marfat.com

الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر ، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ على مشهد منهم ومرأى ! وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني المجيب (١)

* * *

ثم يمضي السياق قدما مع رحلة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر ناجين :

« وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . وإذ قال موسى لقومه : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » . .

وقصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل، وعبادته في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عندما ذهب إلى ميعاد ربه على الجبل ، مفصلة في سورة طه السابقة النزول في مكة . وهنا فقط يذكرهم بها ، وهي معروفة لديهم . يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم ، الذي أنقذهم باسم الله ،من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة : « وأنتم ظالمون » . . ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلا جسدا ، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول !

ومع هذا فقد عفا الله عنهم ، وآتى نبيهم الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيه فرقان بين الحق والباطل ، عسى أن يهتدوا إلى الحق البين بعد الضلال .

ولم يكن بد من التطهير القاسي؛ فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لاتقومها إلا كفارة صارمة، وتأديب عنيف . عنيف في طريقته وفي حقيقته :

« وإذ قال موسى لقومه : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم » . .

اقتلوا أنفسكم. ليقتل الطائع منكم العاصي. ليطهره ويطهر نفسه . هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة .. وإنه لتكليف مرهق شاق ، أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه . ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوارة ، التي لاتتماسك عن شر ،

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . .

Marfat.com

ولا تتناهى عن نكر . ولو تناهوا عن المنكر فى غيبة نبيهم ماعبدوا العجل . وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التى تنفعهم وتربيهم !

وهنا تدركهم رحمة الله بعد التطهير :

« فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم » . .

* * *

ولكن إسرائيل هى إسرائيل! هى هى كثافة حس، ومادية فكر، واحتجابا عن مسارب الغيب . . فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة ، والذى طلب هذا هم السبعون المختارون منهم ، الذين اختارهم موسى لميقات ربه ـ الذى فصلت قصته فى السور المكية من قبل ـ ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عيانا . والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذى صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذى يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه ، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب الخوارق للتثبت من صدقه :

« وإذ قلتم : ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . . إن الحس المادى الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة . . أم لعله التعنت والمعاجزة . .

والآيات الكثيرة ، والنعم الإلهية ، والعفو والمغفرة . . كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التى لاتؤمن إلا بالمحسوس ، والتى تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحى بأن فترة الإذلال التى قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا . وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذى ينشئه الطغيان الطويل، والذى يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتها ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد : استخذاء تحت سوط الجلاد ، وتمردا حين يرفع عنها السوط ، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة . . وهكذا كانت إسرائيل ، وهكذا هى فى كل حين . .

ومن ثم يجدفون هذا التجديف . ويتعنتون هذا التعنت :

« وإذ قلتم : ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » :

Marfat.com

ومن ثم يأخذهم الله جزاء ذلك التجديف ، وهم على الجبل فى الميقات المعلوم :

« فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكروا ويشكروا . . ويذكرهم هنا مواجهة بهذه النعمة :

« ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » . .

ويذكرهم برعايته لهم فى الصحراء الجرداء حيث يسر لهم طعاما شهيا لا يجهدون فيه ولا يكدون، ووقاهم هجير الصحراء وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف :

« وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات مارزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

وتذكر الروايات أن الله ساق لهم الغمام يظللهم من الهاجرة . والصحراء بغير مطر ولا سحب، جحيم يفور بالنار ، ويقذف بالشواظ . وهى بالمطر والسحاب رخية ندية تصح فيها الأجسام والأرواح . . وتذكر الروايات كذلك أن الله سخر لهم « المن » يجدونه على الأشجار حلوا كالعسل ، وسخر لهم « السلوى » وهو طائر السمانى يجدونه بوفرة قريب المنال. وبهذا توافر لهم الطعام الجيد ، والمقام المريح ، وأحلت لهم هذه الطيبات . . ولكن أتراهم شكروا واهتدوا . . إن التعقيب الأخير فى الآية يوحى بأنهم ظلموا وجحدوا . وإن كانت عاقبة ذلك عليهم ، فما ظلموا إلا أنفسهم !

« وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

* * *

ويمضى السياق فى مواجهتهم بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود :

« وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجدا ، وقولوا : حطة . نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء ، بما كانوا يفسقون » . .

وتذكر بعض الروايات أن القرية المقصودة هنا هى بيت المقدس، التى أمر الله بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر أن يدخلوها، ويخرجوا منها العمالقة الذين كانوا يسكنونها ،والتى نكص

Marfat.com

بنو إسرائيل عنها وقالوا : « ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . . والتى قالوا بشأنها لنبيهم موسى - عليه السلام - : « إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ! » . . ومن ثم كتب عليهم ربهم التيه أربعين سنة ، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع ابن نون ، فتح المدينة ودخلها . . ولكنهم بدلا من أن يدخلوها سجدا كما أمرهم الله، علامة على التواضع والخشوع، ويقولوا : حطة . . أى حط عنا ذنوبنا واغفر لنا . . دخلوها على غير الهيئة التى أمروا بها ، وقالوا قولا آخر غير الذى أمروا به . .

والسياق يواجههم بهذا الحادث فى تاريخهم ؛ وقد كان مما وقع بعد الفترة التى يدور بها الحديث هنا - وهى عهد موسى - ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة ، قديمه كحديثه ، ووسطه كطرفيه . . كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف !

وأيا كان هذا الحادث ، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه ، ويذكرهم بحادث يعلمونه . . فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة ؛ وأمرهم أن يدخلوها فى هيئة خشوع وخضوع ، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم ؛ ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته . فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود :

« فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » . .

ويخص الذين ظلموا بالذكر . إما لأنهم كانوا فريقا منهم هو الذى بدل وظلم . وإما لتقرير وصف الظلم لهم جميعا ، إذا كان قد وقع منهم جميعا .

« فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

والرجز : العذاب . والفسوق : المخالفة والخروج . . وكانت هذه واحدة من أفاعيل بنى إسرائيل !

* * *

وكما يسر الله لبنى إسرائيل الطعام فى الصحراء والظل فى الهاجرة ، كذلك أفاض عليهم الرى بخارقة من الخوارق الكثيرة التى أجراها الله على يدى نبيه موسى - عليه السلام - والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم فى هذا المقام ، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام :

Marfat.com

« وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » . .

لقد طلب موسى لقومه السقيا . طلبها من ربه فاستجاب له . وأمره أن يضرب حجرا معينا بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدة أسباط بنى إسرائيل، وكانوا يرجعون إلى اثنى عشر سبطا بعدة أحفاد يعقوب ــ وهو إسرائيل الذى ينتسبون إليه ــ وأحفاد إسرائيل ــ أو يعقوب ــ هم المعروفون باسم الأسباط، والذين يرد ذكرهم مكررا فى القرآن ،وهم رءوس قبائل بنى إسرائيل .وكانوا مايزالون يتبعون النظام القبلى، الذى تنسب فيه القبيلة إلى رأسها الكبير.

ومن ثم يقول : « قد علم كل أناس مشربهم » . . أى العين الخاصة بهم من الاثنى عشرة عينا . وقيل لهم ، على سبيل الإباحة والإنعام والتحذير من الاعتداء والإفساد :

« كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » . .

* * *

لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها . فأما الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المن والسلوى : عسلا وطيرا .. ولكن البنية النفسية المفككة ، والجبلة الهابطة المتداعية ، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا فى الصحراء .. لقد أخرجهم الله ــ على يدى نبيهم موسى ــ عليه السلام ــ من الذل والهوان. ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة .. وللحرية ثمن، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التى ناطهم الله بها فدية . ولكنهم لايريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية. حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة. حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة ، فى طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة . إنهم يريدون الأطعمة المنوعة التى ألفوها فى مصر . يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء .. وما إليها ! وهذا مايذكرهم القرآن به . وهم يدعون فى المدينة دعاواهم العريضة :

« وإذ قلتم : ياموسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض

Marfat.com

من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم . . وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . .

ولقد تلقى موسى ـ عليه السلام ـ طلبهم بالاستنكار :

« أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » . .

أتريدون الدنية وقد أراد الله لكم العلية ؟

« اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم » . .

إما بمعنى أن مايطلبونه هين زهيد ، لايستحق الدعاء ؛ فهو موفور فى أى مصر من الأمصار ، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها . . وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التى أخرجتم منها . . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة . إلى حياتكم الخانعة الذليلة . . حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! ودعوا الأمور الكبار التى ندبتم لها . . ويكون هذا من موسى ـ عليه السلام ـ تأنيبا لهم وتوبيخا . .

وأنا أرجح هذا التأويل الذى استبعده بعض المفسرين، أرجحه بسبب ماأعقبه فى السياق من قوله تعالى :

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » . .

فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وعودتهم بغضب الله ، لم يكن ـ من الناحية التاريخية ـ فى هذه المرحلة من تاريخهم ؛ إنما كان فيما بعد ، بعد وقوع ماذكرته الآية فى ختامها :

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

وقد وقع هذا منهم متأخرا بعد عهد موسى بأجيال . إنما عجل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء ! فناسب أن يكون قول موسى لهم ، « اهبطوا مصرا » هو تذكير لهم بالذل فى مصر، وبالنجاة منه ، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التى ألفوها فى دار الذل والهوان !

* * *

Marfat.com

ولم يشهد تاريخ أمة ماشهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة . قد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عددا من أنبيائهم — وهى أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين — وقد كفروا أشنع الكفر ، واعتدوا أشنع الاعتداء ، وعصوا أبشع المعصية . وكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل !

ومع هذا كله فقد كانت لهم دعاوى عريضة عجيبة . كانوا دائما يدعون أنهم هم وحدهم المهتدون ، وهم وحدهم شعب الله المختار ، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله ؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك . . وهنا يكذّب القرآن هذه الدعوى العريضة ، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية،التى تتخلل القصص القرآنى، أوتسبقه أو تتلوه .يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة ، متى انتهت إلى إسلام النفس لله ، والإيمان به إيمانا ينبثق منه العمل الصالح . وأن فضل الله ليس حجرا محجورا على عصبية خاصة ، إنما هو للمؤمنين أجمعين ، فى كل زمان وفى كل مكان ، كل بحسب دينه الذى كان عليه ، حتى تجىء الرسالة التالية بالدين الذى يجب أن يصير المؤمنون إليه :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين — من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا — فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

والذين آمنوا يعنى بهم المسلمين . والذين هادوا هم اليهود — إما بمعنى عادوا إلى الله ، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا — والنصارى هم أتباع عيسى — عليه السلام — والصابئون : الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركى العرب قبل البعثة ،الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام ، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها ، فاهتدوا إلى التوحيد ، وقالوا : إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ، ملة إبراهيم ، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم . فقال عنهم المشركون : إنهم صبأوا — أى مالوا عن دين آبائهم — كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك . ومن ثم سموا الصابئة . وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء فى بعض التفاسير .

والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعا وعمل صالحا ، فإن لهم أجرهم

Marfat.com

عنـد ربهم ، ولا خـوف عليهم ولا هم يحزنون . فالعبرة بحقيقة العقيدة ، لابعصبية جنس أو قوم . . وذلك طبعا قبل البعثة المحمدية . أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير .

* * *

ثم يمضى السياق يستعرض مواقف بنى إسرائيل فى مواجهـة يهود المدينـة بمسمع من المسلمين . .

« وإذ أخـذنا ميثاقـكم ، ورفعنا فوقـكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيـه لعلـكم تتقون . ثم توليتم من بعـد ذلك ، فلولا فضل الله عليـكم ورحمته لـكنتم من الخاسرين » . .

وتفصيل هذا الميثاق وارد فى سور أخرى، وبعضه ورد فى هذه السورة فيما بعد. والمهم هنا هو استحضار المشهد ، والتناسق الفنى والتعبيرى بين قوة رفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد ، وأمرهم أن يأخذوا مافيه بقوة . وأن يعزموا فيه عزيمة . فأمر العقيدة لارخاوة فيه ولا تميع ، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل ولا الرخاوة . إنه عهد الله مع المؤمنين . . وهو جد وحق ، فلا سبيل فيه لغير الجد والحق . . وله تكاليف شاقة ، نعم ! ولـكن هذه هى طبيعته . إنه أمر عظيم . أعظم من كل مافى هـذا الوجود . فلابد أن تقبل عليه النفس إقبال الجاد القاصد العارف بتكاليفه ، المتجمع الهم والعزيمة المصمم على هذه التـكاليف . ولابد أن يدرك صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرخاوة، كما قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد نودى للتـكليف: « مضى عهد النوم ياخديجة » .. وكما قال له ربه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . . وكما قال لبنى إسرائيل :

« خذوا ما آتيناكم بقوة » . «واذكروا مافيه لعلكم تتقون » . .

ولابد مع أخـذ العهد بقوة وجد واستجماع نفس وتصميم . . لابد مع هـذا من تذكر مافيه ، واستشعار حقيقته ، والتـكيف بهذه الحقيقة ، كى لايكون الأمر كله مجرد حماسة وحمية وقوة . فعهد الله منهج حياة ، منهج يستقر فى القلب تصورا وشعورا ، ويستقر فى الحيـاة وضعا ونظاما ، ويستقر فى السلوك أدبا وخلقا ، وينتهى إلى التقوى والحساسية برقابة الله وخشية المصير .

Marfat.com

ولـكن هيهات ! لقد أدركت إسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جبلتها :

« ثم توليتم من بعد ذلك » . .

ثم أدركتها رحمة الله مرة أخرى وشملها فضله العظيم ؟ فأنقذها من الخسار المبين :

« فلولا فضل الله عليـكم ورحمته لـكنتم من الخاسرين » . .

* * *

ومرة أخرى يواجههم بمظهر من مظاهر النـكث والنـكسة ، والتحلل من العهد والعجز عن الاستمساك به ، والضعف عن احتمال تـكاليفه ، والضعف أمام الهوى أو النفع القريب :

« ولقد علمتم الذين اعتدوا منـكم فى السبت ، فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها ، وموعظة للمتقين » . .

وقد فصل القرآن حكاية اعتدائهم فى السبت فى موضع آخر فقال : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا، ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .. فلقد طلبوا أن يـكون لهم يوم راحة مقدس ، فجعل الله لهم يوم السبت راحة مقدسا لا يعملون فيه للمعاش . . ثم ابتلاهم بعد ذلك بالحيتان تـكثر يوم السبت ، وتختفى فى غيره ! وكان ابتلاء لم تصمد له يهود! وكيف تصمد وتدع هذا الصيد القريب يضيع ؟ أتتركه وفاء بعهد واستمساكا بميثاق ؟ إن هذا ليس من طبع يهود !

ومن ثم اعتدوا فى السبت . اعتدوا على طريقتهم الملتوية . راحوا يحوطون على الحيتان فى يوم السبت ، ويقطعونها عن البحر بحاجز ، ولا يصيدونها ! حتى إذا انقضى اليـوم تقدموا وانتشلوا السمك المحجوز !

« فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » ..

لقـد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله ، والنـكوص عن مقـام الإنسان ذى الإرادة . فانتكسـوا بهـذا إلى عالم الحيوان والبهيمة ، الحيوان الذى لاإرادة له ، والبهيمة التى لاترتفع على دعوة البطون ! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التى تجعل من الإنسان إنسانا . خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله.

وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم،

Marfat.com

وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر فى السحنة وتلقى ظلها العميق !

ومضت هذه الحادثة عبرة رادعة للمخالفين فى زمانها وفيما يليه ، وموعظة نافعة للمؤمنين فى جميع العصور :

فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » . .

* * *

وفى نهاية هذا الدرس تجىء قصة « البقرة » . . تجىء مفصلة وفى صورة حكاية ، لا مجرد إشارة كالذى سبق، ذلك أنها لم ترد من قبل فى السور المكية ، كما أنها لم ترد فى موضع آخر ؛ وهى ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة ، وتمحل المعاذير ، التى تتسم بها إسرائيل :

« وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لافارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ماتؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ، إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال : إنه يقول : إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها . قالوا : الآن جئت بالحق . فذبحوها وما كادوا يفعلون . . وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون » . .

وفى هذه القصة القصيرة ــ كما يعرضها السياق القرآنى ــ مجال للنظر فى جوانب شتى . . جانب دلالتها على طبيعة بنى إسرائيل وجبلتهم الموروثة . وجانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . ثم جانب الأداء الفنى فى عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقا مع السياق . .

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه : انقطاع الصلة بين قلوبهم ،وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الإيمان بالغيب ، والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق

Marfat.com

مايأتيهم به الرسل . ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف ، وتلمس الحجج والمعاذير ، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان !

لقد قال لهم نبيهم : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . . وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ . فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين ، برحمة من الله ورعاية وتعليم ؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه ، إنما هو أمر الله ، الذى يسير بهم على هداه .. فماذا كان الجواب ؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب ، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم ! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلا على أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس :

« قالوا : أتتخذنا هزوا ؟ » .

وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله ؛ وأن يردهم برفق ، وعن طريق التعريض والتلميح ، إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق جل علاه ؛ وأن يبين لهم أن ماظنوه به لايليق إلا بجاهل بقدر الله ، لايعرف ذلك الأدب ولايتوخاه :

« قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » ..

وكان فى هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم ، ويرجعوا إلى ربهم ، وينفذوا أمر نبيهم . . ولكنها إسرائيل !

نعم . لقد كان فى وسعهم ـ وهم فى سعة من الأمر ـ أن يعمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها ، فإذا هم مطيعون لأمر الله ، منفذون لإشارة رسوله . ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم ، فإذا هم يسألون : «قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ » . . والسؤال بهذه الصيغة يشى بأنهم مايزالون فى شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم ! فهم أولا : يقولون : « ادع لنا ربك » . . فكأنما هو ربه وحده لاربهم كذلك ! وكأن المسألة لاتعنيهم هم إنما تعنى موسى وربه ! وهم ثانيا : يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم : « ماهى ؟ » والسؤال عن الماهية فى هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء . . ماهى ؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولاسمة . بقرة وكفى !

هنا كذلك يردهم موسى إلى الجادة ، بأن يسلك فى الإجابة طريقا غير طريق السؤال .

Marfat.com

إنه لا يجيبهم بانحرافهم فى صيغة السؤال كى لا يدخل معهم فى جدل شكلى .. إنما يجيبهم كما ينبغى أن يجيب المعلم المربى من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين . يجيبهم عن صفة البقرة :

« قال : إنها بقرة لافارض ولابكر ، عوان بين ذلك » ..

إنها بقرة لاهى عجوز ولاهى شابة ، وسط بين هذا وذلك . ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة :

« فافعلوا ماتؤمرون » ..

ولقد كان فى هذا كفاية لمن يريد الكفاية ؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمح لهم بالأدب الواجب فى السؤال وفى التلقى ، أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم ، لاعجوز ولاصغيرة ، متوسطة السن ، فيخلصوا بها ذمتهم ، وينفذوا بذبحها أمر ربهم ، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق .. ولكن إسرائيل هى إسرائيل !

لقد راحوا يسألون :

« قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ » ..

هكذا مرة أخرى : « ادع لنا ربك » ! ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل :

« قال : إنه يقول ، إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ..

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر فى سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة .. مجرد بقرة .. بل عن بقرة متوسطة السن ، لاعجوز ولاصغيرة، وهى بعد هذا صفراء فاقع لونها؛ وهى بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولاشوهاء : « تسر الناظرين».. وسرور الناظرين لايتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع فى تلك البقرة المطلوبة ؛ فهذا هو الشائع فى طباع الناس : أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا ، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا .

ولقد كان فيما تلكأوا كفاية ، ولكنهم يمضون فى طريقهم ، يعقدون الأمور ، ويشددون على أنفسهم ، فيشدد الله عليهم . لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية :

Marfat.com

« قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » ..

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل

« إن البقر تشابه علينا » ..

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة . فهم يقولون :

« وإنا إن شاء الله لمهتدون » ..

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا ، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا ، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا في سعة منها ، وفي غنى عنها :

« قال : إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها » ..

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر . صفراء فاقع لونها فارهة فحسب . بل لم يعد بد أن تكون ـ مع هذا ـ بقرة غير مذللة ولامدربة على حرث الأرض أوسقى الزرع ؛ وأن تكون كذلك خالصة اللون لاتشوبها علامة .

هنا فقط . . وبعد أن تعقد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق مجال الاختيار :

« قالوا : الآن جئت بالحق » ..

الآن ! كأنما كان كل مامضى ليس حقا . أوكأنهم لم يستيقنوا أن ماجاءهم به هو الحق إلا اللحظة !

« فذبحوها وما كادوا يفعلون » ! !

عندئذ ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف :

« وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون. فقلنا : اضربوه ببعضها. كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون » ..

وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة . جانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة :

Marfat.com

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة .. لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه . ولم يكن هناك شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ؛ وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه ، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح . . وهكذا كان ، فعادت إليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله ، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله ؛ وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين .

ولكن . فيم كانت هذه الوسيلة ، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة ؟ ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

إن البقر يذبح قربانا كما كانت عادة بني إسرائيل . . وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل . وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء . . إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ،التي لايعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و: « كذلك يحيي الله الموتى » .. كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع ؛ وبمثل هذا اليسر الذي لامشقة فيه ولا عسر .

إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس . ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير . . كيف ؟ . . هذا مالا أحد يدريه . ومالا يمكن لأحد إدراكه . . إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية ، لاسبيل إليه في عالم الفانين ! وإن يكن في طوق العقل البشري إدراك دلالته والاتعاظ بها : « ويريكم آياته لعلكم تعقلون » . .

وأخيرا نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق . .

هذه قصة قصيرة نبدؤها ، فإذا نحن أمام مجهول لانعرف ماوراءه . نحن لانعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم .

ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه ، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت مادار بين موسى وربه ؛ على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه ، فكان يسأله،ثم

Marfat.com

يعود إليهم بالجواب . . ولكن سياق القصة لايقول : إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه . . إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله ، التي لايجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل !

ثم ننتهى إلى الباغتة فى الخاتمة ـ كما بوغت بها بنو إسرائيل ـ انتفاض الميت مبعوثا ناطقا، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة ، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة !

ومن ثم يلتقى جمال الأداء التعبيرى بحكمة السياق الموضوعية فى قصة قصيرة من القصص القرآنى الجميل (١) .

* * *

وتعقيبا على هذا المشهد الأخير من القصة ، الذى كان من شأنه أن يستجيش فى قلوب بنى إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى ؛ وتعقيبا كذلك على كل ماسلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات ، تجىء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافل عما تعملون » . .

والحجارة التى يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى . . هى حجارة لهم بها سابق عهد . فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا ! ولكن قلوبهم لاتلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى .. قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة . . ومن ثم هذا التهديد :

« وما الله بغافل عما تعملون » .

وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بنى إسرائيل فى تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة ، والكيد والدس ، والقسوة والجدب ، والتمرد والفسوق . .

---

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ ﴿٧٥﴾ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وإن هم إلا يظنون * فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون .

« وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

« وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وأنتم معرضون * وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل

Marfat.com

عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ،وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟

« وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ،وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ . قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا . قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ !

« قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ

Marfat.com

لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

« قُلْ : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ * وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ؛ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ؛ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ؛ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » (١٠٣)

انقضى المقطع السابق فى السورة فى تذكير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل ؛ وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود ، بعضها باختصار وبعضها بتطويل ؛ وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم فى نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب ، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها .

فالآن يأخذ السياق فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل ،

Marfat.com

ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم فى الكيد والفتنة ؛ ويحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم ، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل . ويدل طول هذا الحديث ، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود !

وبين آن وآخر يلتفت السياق إلى بنى إسرائيل ليواجههم - على مشهد من المسلمين - بما أخذ عليهم من المواثيق ، وبما نقضوا من هذه المواثيق ؛ وبما وقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم ، وقتلهم لهؤلاء الأنبياء الذين لايطاوعونهم على هواهم ، ومن مخالفة لشريعتهم ، ومن التواءتهم وجدالهم بالباطل ، وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص .

يستعرض جدالهم مع الجماعة المسلمة وحججهم ودعاويهم الباطلة ، ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يفضح دعاويهم ، ويفند حججهم ، ويكشف زيف ادعاءاتهم ، ويرد عليهم كيدهم بالحق الواضح الصريح :

فلقد زعموا أن لن تمسهم النار إلا أياما معدودة بحكم مالهم من المكانة الخاصة عند الله ! فلقن الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم قولهم هذا : « قل : أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟ » . .

وكانوا إذا دعوا إلى الإسلام « قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم » . . فلقن الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يفضح دعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم : « قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ؟ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ماآتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! » . .

وكانوا يدعون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس . فلقن الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحداهم بدعوتهم إلى المباهلة أى أن يجتمع الفريقان : هم والمسلمون ، ثم يدعون الله أن يميت الكاذب : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون

Marfat.com

الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . . وقرر أنهم لن يتمنوه أبدا ـ وهذا ماحدث . فقد نكصوا عن المباهلة لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون !

وهكذا يمضى السياق فى هذه المواجهة ، وهذا الكشف ، وهذا التوجيه . . ومن شأن هذه الخطة أن تضعف ـ أو تبطل ـ كيد اليهود فى وسط الصف المسلم ؛ وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم ؛ وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود فى العمل والكيد والادعاء ، على ضوء ماوقع منهم فى تاريخهم القديم .

ومازال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود ومكرهم ماعاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ؛ غير أن الأمة المسلمة لاتنتفع ـ مع الأسف ـ بتلك التوجيهات القرآنية، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها ، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم فى المدنية ، والدين ناشىء ، والجماعة المسلمة وليدة . . ومازال اليهود ـ بلؤمهم ومكرهم ـ يضلون هذه الأمة عن دينها ، ويصرفونها عن قرآنها ، كى لاتأخذ منه أسلحتها الماضية ، وعدتها الواقية . وهم آمنون ماانصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية ، وينابيع معرفتها الصافية .. وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود ؛ سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أم لم يرد ، فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة مادامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها ـ حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية ـ فهذا هو الطريق . وهذه هى معالم الطريق :

* * *

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ؟ » . .

كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هى التى صور الله بها قلوب بنى إسرائيل فى نهاية الدرس الماضى . صورة الحجارة الصلدة التى لاتنض منها قطرة ، ولايليل لها حس ، ولاتنبض

Marfat.com

فيها حياة . . وهى صورة توحى باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية .. وفى ظل هذا التصور ، وظل هذا الإيحاء ، يلتفت السياق إلى المؤمنين ، الذين يطمعون فى هداية بنى إسرائيل ، ويحاولون أن يبثوا فى قلوبهم الإيمان ، وأن يفيضوا عليها النور . . يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحى باليأس من المحاولة ، وبالقنوط من الطمع :

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ؟ » ..

ألا إنه لامطمع ولارجاء فى أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى ، واستعداد آخر . إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلى الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء . وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى . هذه التقوى التى تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله . تحرفه عن علم وإصرار . فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة ، تتحرج من هذا التحريف والالتواء .

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم فى كتابهم هم الأحبار والربانيون ، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى فى التوراة ثم يحرفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات البعيدة التى تخرج به عن دائرته . لاعن جهل بحقيقة مواضعه ، ولكن عن تعمد للتحريف ، وعلم بهذا التحريف . يدفعهم الهوى ، وتقودهم المصلحة ، ويحدوهم الغرض المريض ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد انحرفوا عن الحق الذى جاء به نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ومن باب أولى ـ وهذا خراب ذممهم ، وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون بطلانه ـ أن يعارضوا دعوة الإسلام ، ويروغوا منها ويختلقوا عليها الأكاذيب !

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلاتعقلون ؟ » . .

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وهم يضيفون إلى خراب الذمة ، وكتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه .. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة ؟

وقد كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا : آمنا . . أى آمنا بأن محمدا مرسل، بحكم ما عندهم

Marfat.com

فى التوراة من البشارة به ، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته ، ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم . وهو معنى قوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » . . ولكن : « إذا خلا بعضهم إلى بعض » . . عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم ، فقال بعضهم لبعض : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » . . فتكون لهم الحجة عليكم ؟ . . وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه ؛ فيتصورون أن الله لايأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ! . . وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض فى هذا : « أفلا تعقلون ؟ » . . فيا للسخرية من العقل والتعقل الذى يتحدثون عنه مثل هذا الحديث ! !

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضى فى استعراض مايقولون وما يفعلون :

« أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ » . .

* * *

ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بنى إسرائيل : إنهم فريقان . فريق أمى جاهل ، لايدرى شيئا من كتابهم الذى نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاما وظنونا ، وإلا أمانى فى النجاة من العذاب ، بما أنهم شعب الله المختار ، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام ! وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزوّر على كتاب الله ، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة ، ويكتم منه ما يشاء ، ويبدى منه ما يشاء ويكتب كلاما من عند نفسه يذيعه فى الناس باسم أنه من كتاب الله . . كل هذا ليربح ويكسب ، ويحتفظ بالرياسة والقيادة :

« ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » . .

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا للحق ، وأن يستقيموا على الهدى ،

Marfat.com

وأن يتحرجوا من تحريف مايقف فى طريقهم من نصوص كتابهم نفسه؟ إن هؤلاء لامطمع فى أن يؤمنوا للمسلمين . وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم . الويل والهلاك لهم مما كتبت أيديهم من تزوير على الله ؛ والويل والهلاك لهم مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق !

* * *

من تلك الأمانى التى لاتستقيم مع عدل الله ، ولاتتفق مع سنته ، ولاتتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء . . أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم . . علام يعتمدون فى هذه الأمنية ؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون ؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات ؟ لاشىء إلا أمانى الأميين الجهال ، وأكاذيب المحتالين العلماء ! الأمانى التى يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة ، حين يطول بهم الأمد ، وينقطع مابينهم وبين حقيقة دينهم ، فلايبقى لهم منه إلا اسمه وشكله ، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هـذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم مايعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله :

« وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . قل : أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله مالاتعلمون ؟ » . .

وهذا هو التلقين الإلهى للحجة الدامغة: « أتخذتم عندالله عهدا فلن يخلف الله عهده ؟ » . . فأين هو هذا العهد ؟ « أم تقولون على الله مالاتعلمون ؟ » . . وهذا هو الواقع . فالاستفهام هنا للتقرير . ولكنه فى صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ !

* * *

هنا يأتيهم الجواب القاطع والقول الفصل فى هذه الدعوى ، فى صورة كلية من كليات التصور الإسلامى ، تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان : إن الجزاء من جنس العمل ، ووفق هذا العمل .

« بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . .

Marfat.com

ولابد أن نقف قليلا أمام ذلك التصوير الفنى المعجز لحالة معنوية خاصة ، وأمام هـذا الحـكم الإلهى الجازم نـكشف عن شيء من أسبابه وأسراره :

« بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته . . » . .

الخطيئة كسب ؟ إن المعنى الذهنى المقصود هو اجتراح الخطيئة . ولـكن التعبير يومئ إلى حالة نفسية معروفة . . إن الذى يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ؛ ويحسبها كسبا له ـ على معنى من المعانى ـ ولو أنها كانت كريهة فى حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ماأقدم عليها متحمسا ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ؛لأنه خليق لوكرهها وأحس مافيها من خسارة أن يهرب من ظلها ـ حتى لو اندفع لارتكابها ـ وأن يستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها . وفى هذه الحالة لاتحيط به ، ولا تملأ عليه عالمه، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير . . وفى التعبير : « وأحاطت به خطيئته » . . تجسيم لهذا المعنى . وهذه خاصية من خواص التعبير القرآنى ، وسمة واضحة من سماته ؛ تجعل له وقعا فى الحس يختلف عن وقع المعانى الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التى لاظل لها ولا حركة. وأى تعبير ذهنى عن اللجاجة فى الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذى يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته : يعيش فى إطارها ، ويتنفس فى جوها ، ويحيا معها ولها .

عندئذ . . عندما تغلق منافذ التوبة على النفس فى سجن الخطيئة . . عندئذ يحق ذلك الجزاء العادل الحاسم :

« فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابل من الحكم .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . .

فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب فى صورة العمل الصالح . . وهـذا مايجب أن يدركه من يدعون الإيمان . . وما أحوجنا ـ نحن الذين نقول إنا مسلمون ـأن نستيقن هذه الحقيقة : أن الإيمان لايكون حتى ينبثق منه العمل الصالح. فأما الذين يقولون: إنهم مسلمون ثم يفسدون فى الأرض ، ويحاربون الصلاح فى حقيقته الأولى وهى إقرار منهج الله فى الأرض، وشريعته فى الحياة ، وأخلاقه فى المجتمع ، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شىء ، وليس لهم من

Marfat.com

ثواب الله شيء ، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأمانيّ كأمانيّ اليهود التي بين الله لهم وللناس فيها هذا البيان .

* * *

ثم يمضي السياق يحدث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ، ومواقفهم التي يتجلى فيها العصيان والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق . ويواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين :

« وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون إلا الله ؛ وبالوالدين إحسانا ، وذي القربى واليتامى والمساكين ؛ وقولوا للناس حسنا ؛ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة.. ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم. ثم أقررتم وأنتم تشهدون .. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وماالله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلايخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون » . .

ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبني إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي . فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق .

ومن الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بني إسرائيل ، ذلك الميثاق الذي أخذه عليهم في ظل الجبل ، والذي أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا مافيه ..أن ذلك الميثاق قدتضمن القواعد الثابتة لدين الله . هذه القواعد التي جاء بها الإسلام أيضا ، فتنكروالها وأنكروها .

لقد تضمن ميثاق الله معهم : ألا يعبدوا إلاالله . . القاعدة الأولى للتوحيد المطلق . وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين . وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . كذلك تضمن فريضة الصلاةوفريضة الزكاة . وهذهفي مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه . .

Marfat.com

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هى وحدة دين الله ؛ وتصديق هـذا الدين الأخير لما قبله فى أصوله . والثانية هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ماعاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق .

وهنا – فى هذا الموقف المخجل – يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب ، فيوجه القول إلى بنى إسرائيل . وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى خطاب المؤمنين . ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى :

« ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . .

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات فى سياق القصص وغيره فى هذا الكتاب العجيب !

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل ، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله . .

« وإذ أخذنا ميثاقكم : لاتسفكون دماءكم ، ولاتخرجون أنفسكم من دياركم . ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . .

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون ؟

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان . وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » . .

ولقد كان هذا الذى يواجههم به واقعا قريب العهد قبيل غلبة الإسلام على الأوس والخزرج. كان الأوس والخزرج مشركين ، وكان الحيان أشد مايكون حيان من العرب عداء . وكان اليهود فى المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحى وذاك من المشركين . . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ؛ فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودى اليهودى من الفريق الآخر – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – وكانوا يخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم وينهبون أموالهم ويأخذون سباياهم – وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم – ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى ، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك ،

Marfat.com

عدهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء – وذلك عملا بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكا من بنى إسرائيل إلا أخذته فأعتقته

هذا التناقض هو الذى يواجههم به القرآن ؛ وهو يسألهم فى استنكار :

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ » ..

وهذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا ، والعذاب الأشد فى الآخرة . مع التهديد الخفى بأن الله ليس غافلا عنه ولا متجاوزا :

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون » ..

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعا ، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :

« أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » ..

وكذبوا إذن فى دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياما معدودة.. فهؤلاء هم هناك : « فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون » . .

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا فى هذه المناسبة : هى أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين فى حلف يقتضى مخالفة دينهم وكتابهم . فإن انقسامهم فريقين ، وانضمامهم إلى حلفين ، هى هى خطة إسرائيل التقليدية ، فى إمساك العصا من الوسط ؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال ؛ وضمان صوالح اليهود فى النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك ! وهى خطة من لا يثق بالله ، ولا يستمسك بميثاقه ؛ ويجعل اعتماده كله على الدهاء ، ومواثيق الأرض ، والاستنصار بالعباد لا برب العباد . والإيمان يحرم على أهله الدخول فى حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف شريعتهم ، باسم المصلحة أو الوقاية . فلا مصلحة إلا فى اتباع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم .

* * *

Marfat.com

ثم يمضي السياق يواجه بنى إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء .. أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءوهم بالحق ، الذي لايخضع للأهواء :

« ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ؛ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟ » ..

ولقد كانت حجة بنى إسرائيل فى إعراضهم عن الإسلام ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم .. فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم . ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق ، الذى لايخضع لأهوائهم .

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد آتاه الله الكتاب . ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضهم بعضا ؛ وكان آخرهم عيسى ابن مريم. وقد آتاه الله المعجزات البينات ، وأيده بروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام؟ كان هذا الذى يستنكره عليهم؛ والذى لايملكون هم إنكاره ، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به :

« أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم : ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ » !

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة ، ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة ، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنسانى ذاته. المنطق الذى يقتضى أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنسانى المتقلب ـ مصدر لايميل مع الهوى ، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذى لايتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى ؛ لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى !

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بنى إسرائيل فى هذا ما يحذرهم من الوقوع فى مثله، حتى لاتسلب منهم الخلافة فى الأرض والأمانة التى ناطها بهم الله . فلما وقعوا فى مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل ، وطرحوا منهج الله وشريعته ،وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقا من الهداة

Marfat.com

وكذبوا فريقا ، ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل ، من الفرقة والضعف ، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة .. إلا أن يستجيبوا لله ورسله ، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه ، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم ، وإلا أن يأخذوه بقوة ، ويذكروا مافيه لعلهم يهتدون .

* * *

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يبينه ويقرره ، ثم يجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد ، فإذا هم هم ، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل :

« وقالوا: قلوبنا غلف. بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله ـ بغيا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ـ فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقا لما معهم، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! » ..

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد ، ويتحول ـ في بعض المواضع ـ إلى صواعق وحمم .. إنه يجبههم جبها شديدا بما قالوا وما فعلوا ؛ ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم ، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق ، وأثرتهم البغيضة ، وعزلتهم النافرة ، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير ، وحسدهم أن يؤتي الله أحدا من فضله .. جزاء موقفهم الجحودي المتنكر من الإسلام ورسوله الكريم . .

« وقالوا : قلوبنا غلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون »

قالوا : إن قلوبنا مغلفة لاتنفذ إليها دعوة جديدة ، ولا تستمع إلى داعية جديد ! قالوها تيئيسا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين ، من دعوتهم إلى هذا الدين ؛ أو تعليلا لعدم

Marfat.com

استجابتهم لدعوة الرسول . . ويقول الله ردا على قولتهم : « بل لعنهم الله بكفرهم » . . أى إنه طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم . فهم قد كفروا ابتداء فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى . . « فقليلا مايؤمنون » .. أى قليلا مايقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذى حق عليهم جزاء كفرهم السابق ، وضلالهم القديم. أوأن هذه حالهم : أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان ، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريرا لحقيقتهم . . وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع .

وقد كان كفرهم قبيحا ، لأنهم كفروا بالنبى الذى ارتقبوه ،واستفتحوا به على الكافرين، أى ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم . وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ــ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ــ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به » . .

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته . . ومن ثم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر :

« فلعنة الله على الكافرين » . .

ويفضح السبب الخفى لهذا الموقف الشائن الذى وقفوه ؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التى اختاروها :

« بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » ..

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا . . . لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أويقل . أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع ، وإن بدا تمثيلا وتصويرا . لقد خسروا أنفسهم فى الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم فى الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين . وبماذا خرجوا فى النهاية ؟ خرجوا بالكفر ، هو وحده الذى كسبوه وأخذوه !

وكان الذى حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يختاره الله للرسالة التى انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . وكان

Marfat.com

هذا بغيا منهم وظلما فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب ؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم .

وهذه الطبيعة التي تبدوهنا في يهود هي الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد ؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هومقتطع منها ؛ ولاتشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ، التي تربط البشرية جميعا . وهكذا عاش اليهود في عزلة : يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر ؛ ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقادوالضغائن ؛ ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقادفتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ؛ وحروبا يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم ، ويروون بها أحقادهم التي لاتنطفىء ؛ وهلاكا يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس . . وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة : « بغيا . . أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » . .

« وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا . ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم » . .

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام . كانوا يقولون « نؤمن بما أنزل علينا » . . ففيه الكفاية ، وهو وحده الحق ، ثم يكفرون بما وراءه . سواء ماجاءهم به عيسى عليه السلام ، وماجاءهم به محمد خاتم النبيين .

والقرآن يعجب من موقفهم هذا ، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم « وهو الحق مصدقا لما معهم » . .

ومالهم وللحق ؟ ومالهم أن يكون مصدقا لما معهم امادامو لم يستأثروا هم به؟إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم . لابل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به . . ويلقن الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفا لموقفهم وفضحا لدعواهم :

« قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ » .

لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقا تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟

Marfat.com

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى ـ نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر ـ :

« ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . .

فهل اتخاذكم العجل من بعدما جاءكم موسى بالبينات ، وفي حياة موسى نفسه ، كان من وحى الإيمان ؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ؟

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة . بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » . .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية . . يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين ـ وإلى الناس جميعا ـ فيطلعهم على ما كان منهم . . ثم يلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجبهم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

« قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ! » .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين : « قالوا : سمعنا وعصينا » . .

« وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم » . .

إنهم قالوا : سمعنا . ولم يقولوا عصينا . ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا ؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق . لقد قالوا بأفواههم : سمعنا . وقالوا بأعمالهم : عصينا . والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته . وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق . . وهذا التصوير الحي للواقع يومئ إلى مبدأ كلي من مبادىء الإسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة ، وهي مناط الحكم والتقدير .

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها : « وأشربوا في قلوبهم العجل » فهي صورة فريدة . لقد أشربوا . أشربوا بفعل فاعل سواهم . أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه في قلوبهم ! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة :

Marfat.com

صورة العجل يُدخل فى القلوب إدخالا ، ويحشر فيها حشرا ، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهنى الذى جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه إشرابا فى القلوب ! هنا تبدو قيمة التعبير القرآنى للصور ، بالقياس إلى التعبير الذهنى المفسر . . إنه التصوير . . السمة البارزة فى التعبير القرآنى الجميل .

* * *

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضة . إنهم شعب الله المختار . إنهم وحدهم المهتدون إنهم وحدهم الفائزون فى الآخرة . إنه ليس لغيرهم من الأمم فى الآخرة عند الله نصيب .

وهذه الدعوى تتضمن أن المؤمنين بمحمد — صلى الله عليه وسلم — لا نصيب لهم فى الآخرة. والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبوعود رسولهم ووعود القرآن لهم . . فأمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يدعو اليهود إلى مباهلة . أى بأن يقف الفريقان ويدعوا الله بهلاك الكاذب منهما :

« قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

ويعقب على هذا التحدى بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة ، ولن يطلبوا الموت . لأنهم يعلمون أنهم كاذبون ؛ ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم . وهم يعلمون أن ماقدموه من عمل لايجعل لهم نصيبا فى الآخرة . وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذى طلبوه، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذى قدموه . . ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدى. فهم أحرص الناس على حياة. وهم والمشركون فى هذا سواء:

« ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعمر ألف سنة . وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » .

لن يتمنوه . لأن ماقدمته أيديهم للآخرة لايطمعهم فى ثواب ، ولايؤمنهم من عقاب . إنه مدخر لهم هناك ، والله عليم بالظالمين وما كانوا يعملون .

وليس هذا فحسب . ولكنها خصلة أخرى فى يهود . خصلة يصورها القرآن صورة تفيض

Marfat.com

بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » .. أية حياة . لايهم أن تكون حياة كريمة ولاحياة مميزة على الإطلاق ! حياة فقط ! حياة بهذا التنكير والتحقير ! حياة ديدان أوحشرات ! حياة والسلام ! إنها يهود ، فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء . ومارفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة . فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس ، وعنت الجباه جبنا وحرصا على الحياة . .. أى حياة !

« ومن الذين أشركوا يود أحدهم لويعمر ألف سنة ، وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » . .

يود أحدهم لويعمر ألف سنة . ذلك أنهم لايرجون لقاء الله ، ولايحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة . وماأقصر الحياة الدنيا وماأضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لاتتصل بحياة سواها ؛ ولاتطمع فى غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة . . إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة . نعمة يفيضها الإيمان على القلب . نعمة يهبها الله للفرد الفانى العانى ، المحدود الأجل الواسع الأمل ومايغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة فى روحه ناقصة أومطموسة . فالإيمان بالآخرة ـ فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق ، وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية ،وعلى امتلاء بالحياة لايقف عند حدود الأرض ؛ إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذى لايعلم إلا الله مداه ، وإلى المرتقى السامى الذى يتجه صعدا إلى جوار الله.

***

ويمضى السياق بتلقين جديد من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحداهم به ، ويعلن الحقيقة التى يتضمنها على رؤوس الأشهاد :

« قل : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، فإن الله عدو للكافرين » . .

وفى قمة هذا التحدى نطلع على سمة أخرى من سمات يهود . سمة عجيبة حقا . . لقد بلغ

Marfat.com

هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغا يتجاوز كل حد ، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم فى عقل . . لقد زعموا أن جبريل ينزل بالوحى من عند الله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لج بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة ، فزعموا أن جبريل عدوهم ، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب ؛ وأن هذا هو الذى يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل ! ولو كان الذى ينزل إليه بالوحى هو ميكائيل لآمنوا ، فميكائيل يتنزل بالرخاء والمطر والخصب !

إنها الحماقة المضحكة . ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة . وإلا فما بالهم يعادون جبريل ؟ وجبريل لم يكن بشرا يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصى الله ما أمره !

« قل : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » . .

فما كان له من هوى شخصى ، ولا إرادة ذاتية ، فى أن ينزله على قلبك ، إنما هو منفذ لإرادة الله وإذنه فى تنزيل هذا القرآن على قلبك . . والقلب هو موضع التلقى ، وهو الذى يفقه بعد التلقى ، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ . . والقلب يعبر به فى القرآن عن قوة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال .

نزله على قلبك . . « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » . .

والقرآن يصدق فى عمومه ماسبقه من الكتب السماوية . فأساس دين الله واحد فى جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الإلهية . . وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة ، التى تتفتح له وتستجيب . . وهذه حقيقة ينبغى إبرازها . . إن نصوص القرآن لتسكب فى قلب المؤمن من الإيناس ، وتفتح له من أبواب المعرفة ، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر مالا يكون بغير الإيمان . ومن ثم يجد فيه الهدى ، كما يستروح فيه البشرى . وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة فى مناسبات شتى . . « هدى للمتقين » . . « هدى لقوم يؤمنون » . . « هدى لقوم يوقنون » . . « شفاء ورحمة للمؤمنين » . فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين . .

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون !

Marfat.com

وكانوا - كعادتهم فى تفريق الدين وتفريق الرسل - قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا ! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكال وملائكة الله ورسله ، لبيان وحدة الجميع ، ولإعلان أن من عادى أحدا منهم فقد عاداهم جميعا ، وعادى الله سبحانه ، فعاداه الله . فهو من الكافرين :

« من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » . .

* * *

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يثبته على ما أنزل عليه من الحق ، وما آتاه من الآيات البينات ، مقررا أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون . ويندد ببنى إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد . سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل ، أو عهودهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما يندد بنبذهم لكتاب الله الأخير الذى جاء مصدقا لما معهم :

« ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ؟ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون . . . » . .

لقد كشف القرآن هنا عن علة كفر بنى إسرائيل بتلك الآيات البينات التى أنزلها الله . . إنه الفسوق وانحراف الفطرة . فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات . وهى تفرض نفسها فرضا على القلب المستقيم . فإذا كفر بها اليهود - أو غيرهم - فليس هذا لأنه لا مقنع فيها ولا حجة ، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون .

ثم يلتفت إلى المسلمين - وإلى الناس عامة - منددا بهؤلاء اليهود ، كاشفا عن سمة من سماتهم الوبيئة . . إنهم جماعة متفككة الأهواء - رغم تعصبها الذميم - فهم لا يجتمعون على رأى ، ولا يثبتون على عهد ، ولا يستمسكون بعروة . ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم ، يكرهون أن يمنح الله شيئا من فضله لسواهم ، إلا أنهم - مع هذا - لا يستمسكون بوحدة ، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض ، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تند منهم فرقة فتنقض ما أبرموا ، وتخرج على ما أجمعوا :

Marfat.com

« أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لايؤمنون » . .

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل ، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد . وأخيرا نبذ فريق منهم عهدهم الذى أبرموه مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول مقدمه إلى المدينة ؛ وهو العهد الذى وادعهم فيه بشروط معينة . بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه ؛ وأول من عاب دينه ، وحاول بث الفرقة والفتنة فى الصف المسلم ، مخالفين ماعاهدوا المسلمين عليه . .

وبئس هى من خلة فى اليهود اتقابلها فى المسلمين خلة أخرى على النقيض ؛ يعلنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، وهم يدعلى من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم » (1) .. يسعى بذمتهم أدناهم ، فلايخيس أحد بعهده إذا عاهد ، ولاينقض أحد عقده إذا أبرم . ولقد كتب أبو عبيدة ـ رضى الله عنه ـ وهو قائد الجيش عمر ـ رضى الله عنه ـ وهو الخليفة يقول : إن عبدا أمن أهل بلد بالعراق وسأله رأيه . فكتب إليه عمر : إن الله عظم الوفاء ، فلاتكونون أوفياء حتى تفوا . . فوفوا لهم وانصرفوا عنهم . . وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة . وذلك فرق مابين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون » . .

وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق لكل عهد يعاهدونه . فلقد كان ضمن الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه ، وأن ينصروه ويحترموه . فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد ، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم . يستوى فى هذا النبذ كتاب الله الذى معهم ، والذى يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه ، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضا !

وفى الآية مافيها من سخرية خفية ، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله

(1) رواه الإمام أحمد .

Marfat.com

وراء ظهورهم مفهوما ! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب . هم الذين عرفوا الرسالات والرسل هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور . . وماذا صنعوا ؟ إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ! والمقصود طبعا أنهم جحدوه وتركوا العمل به ، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم . ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ؛ ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة ، تصور هذا التصرف تصويرا بشعا زريا ، ينضح بالكنود والجحود ، ويتسم بالغلظة والحماقة ، ويفيض بسوء الأدب والقحة ؛ ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة . حركة الأيدى تنبذ كتاب الله وراء الظهور . .

* * *

ثم ماذا ؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم ؟ ؟ ألعلهم قد لاذوا بما هو خير منه ؟ ألعلهم قد لجأوا إلى حق لاشبهة فيه ؟ ألعلهم قد استمسكوا بكتابهم الذى جاء القرآن يصدقه ؟ كلا . . لاشىء من هذا كله . . إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لاتستند إلى حقيقة ثابتة .

« واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلاتكفر . فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه – وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله – ويتعلمون مايضرهم ولاينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون . ولوأنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لوكانوا يعلمون » . .

لقد تركوا ماأنزل الله مصدقا لما معهم ؛ وراحوا يتتبعون مايقصه الشياطين عن عهد سليمان ، ومايضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحرا ، وإنه سخر ماسخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه .

والقرآن ينفى عن سليمان – عليه السلام – أنه كان ساحرا ، فيقول :

« وما كفر سليمان » .

فكأنه يعد السحر واستخدامه كفرا ينفيه عن سليمان – عليه السلام – ويثبته للشياطين :

Marfat.com

« ولـكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » ..

ثم ينفى أن السحر منزل من عند الله على الملكين : هاروت وماروت ، اللذين كان مقرهما بابل :

« وماأنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت » ..

ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هـذه الفرية أيضا . فرية تنزيل السحر على الملـكين .

ثم يبين الحقيقة ، وهى أن هـذين الملـكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحـكمة مغيبة . وأنهما كانا يقولان لـكل من يجىء إليهما ، طالبا منهما أن يعلماه السحر :

« وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تـكفر » . .

ومرة أخرى نجد القـرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفرا ؛ ويذكر هذا على لسان الملـكين : هاروت وماروت .

وقد كان بعض الناس يصر على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره . وعندئذ تحق الفتنة على بعض المفتونين :

« فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه » . .

وهو الأذى والشر الذى حذرهم منه الملـكان . .

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الإسلامى الأساسية ؛ وهى أنه لايقع شىء فى هـذا الوجود إلا بإذن الله :

« وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . .

فبإذن الله تعمل الأسباب فعلها وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها . . وهـذه قاعدة كلية فى التصور لابد من وضوحها فى ضمير المؤمن تماما . وأقرب ما يمثل هـذه القاعدة فى مثل هذا المقام ، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق . ولـكن هـذا الاحتراق لايـكون إلا بإذن الله . فالله هو الذى أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لايأذن لحـكمة خاصة يريدها ؛ كما وقع لإبراهيم ـ عليه السلام ـ

Marfat.com

وكذلك هذا السحر الذى يفرقون به بين المرء وزوجه ، ينشىء هـذا الأثر بإذن الله . وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها .. وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار . . كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، فهو يعمل بهذا الإذن ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء . .

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون ، وما يفرقون به بين المرء وزوجه . . إنه شر عليهم هم أنفسهم لا خير :

« ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » . .

ويكفى أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضرا خالصا لا نفع فيه !

« ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » . .

ولقد علموا أن الذى يشتريه لا نصيب له فى الآخرة ، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له فى الآخرة وكل نصيب . .

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة :

« ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » . .

« ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » . .

وينطبق هـذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل ، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان وملكه ، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراء هم ظهريا ، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم .

* * *

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر ، وعما يفرق بين المرء وزوجه ، مما كان أولئك اليهود يجرون خلفه ، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله . .

إنه ما يزال مشاهدا فى كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد . لقد سمى بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها ! . . هذا « التليباثى » ــ التخاطر عن بعد ــ ماهو ؟ وكيف يتم ؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنسانا على أبعاد وفواصل

Marfat.com

لا يصل إليها صوت الإنسان فى العادة ولا بصره ، فيتلقى عنه ، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد ؟

وهذا التنويم المغنطيسى ماهو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة ، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحى إلى الآخر ، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر ، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ؟

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم فى هذه القوى التى اعترف بها ، هو أن أعطاها أسماء ! ولكنه لم يقل قط : ماهى ؟ ولم يقل قط كيف تتم ؟

وثمة أمور كثيرة أخرى يمارى فيها العلم . إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها ؛ وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها فى نطاق تجاربه . هذه الأحلام التنبؤية ـ وفرويد الذى يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها ـ كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول ، ثم إذا هذه النبوءة تصدق فى الواقع بعد حين ؟ وهذه الأحاسيس الخفية التى ليس لها اسم بعد . كيف أحس أن أمرا ماسيحدث بعد قليل أو أن شخصا ما قادم بعد قليل ؛ ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء !

إنه من المكابرة فى الواقع أن يقف إنسان لينفى ببساطة مثل هذه القوى المجهولة فى الكائن البشرى ، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى .

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجرى وراء كل أسطورة .. إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنسانى أمام هذه المجاهيل موقفا مرنا . . لا ينفى على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق ، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه ؛ أو يسلم بأن فى الأمر شيئا فوق طاقته ، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول فى هذا الكون حسابه . .

السحر من قبيل هذه الأمور . وتعليم الشياطين الناس من قبيل هذه الأمور . وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير ، إما فى الحواس والأفكار ، وإما فى الأشياء والأجسام .. وإن كان السحر الذى ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل

Marfat.com

لاحقيقة له : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » ـ ولامانع أن يكون مثل هـذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه . فالانفعالات تنشأ من التأثرات . وإن كانت الوسائل والآثار ، والأسباب والمسببات ، لاتقع كلها إلا بإذن الله ، على النحو الذى أسلفنا .

أما من هما الملـكان : هاروت وماروت ؟ ومتى كانا ببابل ؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود . بدليل أنهم لم يكذبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها . وقد وردت فى القرآن الـكريم إشارات مجملة لبعض الأحـداث التى كانت معروفة عند المخاطبين بها ؛ وكان فى ذلك الإجمال كفاية لأداء الغرض ، ولم يـكن هنالك مايدعو إلى تفصيل أكثر . لأن هـذا التفصيل ليس هو المقصود .

ولا أحب أن نجرى نحن ـ فى ظلال القرآن ـ خلف الأساطير الـكثيرة التى وردت حول قصة الملـكين . فليست هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها .

ولقـد مضى فى تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات مايناسب حالتها وإدراكها فى كل طور من أطـوارها . فإذا جاء الاختبار فى صورة ملـكين ـ أو فى صـورة رجلين طيبين كالملائـكة ـ فليس هذا غريبا ولا شاذا بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة ، التى مرت بها البشرية ، وهى تحبو ، وهى تخطو ، وهى تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة فى غياهب الليل البهيم !

والمفهومات الواضحة المحـكمة فى هذه الآيات تغنى عن السعى وراء المتشابه فيها بالقياس إلينا بعـد ذلك الزمن المديد . وحسبنا أن نلم منها ضلال بنى إسرائيل فى جريهم وراء الأساطير ، ونبذهم كتاب الله المستيقن ، وأن نعرف أن السحر من عمل الشيطان ؛ وأنه من ثم كفر يدان به الإنسان ، ويفقد به فى الآخرة كل نصيب وكل رصيد .

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا : رَاعِنَا ، وَقُولُوا : انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ ! مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ - وَهُوَ مُحْسِنٌ - فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ : لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ : لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ - وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ - كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ؟ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

Marfat.com

عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

« وَقَالُوا : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ، سُبْحَانَهُ ! بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُن فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ : لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ . كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » (١٢٣)

يمضى هذا الدرس فى كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام وللمسلمين ؛ وتحذير الجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم ، وما تكنه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، وما يبيتون لهم من الكيد والضر ؛ ونهى الجماعة المسلمة عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب فى قول أو فعل ؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التى تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم ، وكيدهم ودسهم ، وألاعيبهم وفتنهم ، التى يطلقونها فى الصف الإسلامى .

Marfat.com

ويبدو أن اليهود كانوا يتخذون من نسخ بعض الأوامر والتكاليف ، وتعبيرها وفق مقتضيات النشأة الإسلامية الجديدة ، والظروف والملابسات التي تحيط بالجماعة المسلمة . . يبدو أنهم كانوا يتخذون من هذا ذريعة للتشكيك في مصدر هذه الأوامر والتكاليف ؛ ويقولون للمسلمين : لو كانت من عند الله مانسخت ولا صدر أمر جديد يلغي أو يعدل أمرا سابقا . .

واشتدت هذه الحملة عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا من الهجرة . وكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد اتجه بالصلاة ــ عقب الهجرة ــ إلى بيت المقدس ــ قبلة اليهود ومصلاهم ــ فاتخذ اليهود من هذا التوجه حجة على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هي القبلة ؛ مما جعل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يرغب ولا يصرح في التحول عن بيت المقدس إلى الكعبة ، بيت الله المحرم . وظلت هذه الرغبة تعتمل في نفسه حتى استجاب له ربه فوجهه إلى القبلة التي يرضاها ــ كما سيجيء في سياق السورة ــ ونظرا لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بني إسرائيل فقد عز عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة ، فشنوها حملة دعاية ماكرة في وسط المسلمين ، بالتشكيك في مصدر الأوامر التي يكلفهم بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفي صحة تلقيه عن الوحي . . أي إنهم وجهوا المعول إلى أساس العقيدة في نفوس المسلمين ! ثم قالوا لهم : إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة . وإن كان صحيحا ففيم التحول عنه ؟ أي إنهم وجهوا المعول إلى أساس الثقة في نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله ، وقبل كل شيء في حكمة القيادة النبوية !

ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين . فأخذوا يسألون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قلق وزعزعة ؛ ويطلبون البراهين والأدلة ، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة ، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة . فنزل القرآن يبين لهم أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده ؛ ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف . وينبههم في الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو ردهم كفارا بعد إيمانهم ؛ حسدا من عند أنفسهم على اختيار الله لهم ، واختصاصهم برحمته وفضله ، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم ، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم . ويكشف لهم ماوراء أضاليل اليهود من غرض دفين ! ويفند دعواهم الكاذبة في أن الجنة من حقهم وحدهم . ويقص عليهم التهم المتبادلة بين فريق

Marfat.com

أهل الكتاب إذ يقول اليهود : ليست النصارى على شيء وتقول النصارى ليست اليهود على شيء ؛ وكذلك يقول المشركون عن الجميع !

ثم يقطع نيتهم التي يخفونها من وراء قصة القبلة ؛ وهي منع الاتجاه إلى الكعبة بيت الله ومسجده الأول ، ويعده منعا لمساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيا في خرابها .

ويمضي السياق في هذا الدرس على هذا النحو ، حتى ينتهي إلى أن يضع للمسلمين وجها لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى . . إنه تحويل المسلمين من دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى يتبع ملتهم ، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية ! وهذه هي حقيقة المعركة التي تكمن وراء الأباطيل والأضاليل ، وتتخفى خلف الحجج والأسباب المقنعة !!!

* * *

« يأيها الذين آمنوا لاتقولوا : راعنا . وقولوا : انظرنا ، واسمعوا ، وللكافرين عذاب أليم . مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ماننسخ من آية أوننسها نأت بخير منها أومثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل . ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير » . .

يتجه الخطاب في مطلع هذا الدرس إلى « الذين آمنوا » يناديهم بالصفة التي تميزهم ، والتي تربطهم بربهم ونبيهم ، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية .

وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « راعنا » - من الرعاية والنظر - وأن يقولوا بدلا منها مرادفها في اللغة العربية : « انظرنا » . . ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة ، ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم :

Marfat.com

« ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا: راعنا وقولوا انظرنا. واسمعوا . وللكافرين عذاب أليم » .

وتذكر الروايات أن السبب فى ذلك النهى عن كلمة « راعنا » .. أن سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم فى نطق هذا اللفظ ، وهم يوجهونه للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يؤدى معنى آخر مشتقا من الرعونة . فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مواجهة ، فيحتالون على سبه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن هذا الطريق الملتوى ، الذى لايسلكه إلا صغار السفهاء ! ومن ثم جاء النهى للمؤمنين عن اللفظ الذى يتخذه اليهود ذريعة، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه فى المعنى ، الذى لايملك السفهاء تحريفه وإمالته . كى يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه !

واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشى بمدى غيظهم وحقدهم ،كما يشى بسوء الأدب ، وخسة الوسيلة ، وانحطاط السلوك . والنهى الوارد بهذه المناسبة يوحى برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة ، ودفاعه ـ سبحانه ـ عن أوليائه ، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين .

ثم يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء ، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد ، بسبب مااختصهم به الله من الفضل . ليحذروا أعداءهم ،ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان ، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه :

« مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » . .

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين فى الكفر . . وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم مايكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن ، ويحبوهم بهذه النعمة ، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة فى الأرض،وهى الأمانة الكبرى فى الوجود .

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده،

Marfat.com

حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل - عليه السلام - إذ كان ينزل بالوحي على الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« والله يختص برحمته من يشاء » . .

فالله أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإذا اختص بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به ، فقد علم - سبحانه - أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص

« والله ذو الفضل العظيم » . .

وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة ؛ وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه . وفي هذا التنبيه مايستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا مايستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد . . وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها - ويقودها - اليهود ، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين ، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين !

وكانت الحملة - كما أسلفنا - تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف . وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة . الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين :

« ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . .

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة - كما يدل سياق هذه الآيات ومابعدها - أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف ، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة ، وأحوالها المتطورة . أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة . . سواء كانت هذه أم هذه أم هـذه ، أم هي جميعا المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة . . فإن القرآن يبين هنا بيانا حاسما في شأن النسخ والتعديل ؛ وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها يهود ، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب .

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال - في فترة الرسالة - هو لصالح البشرية ، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها . والله خالق الناس ، ومرسل الرسل ، ومنزل

Marfat.com

الآيات ، هو الذى يقدر هذا . فإذا نسخ آية ألقاها فى عالم النسيان ـ سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكما من الأحكام ، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التى جاء بها الرسل ـ فإنه يأتى بخير منها أو مثلها ! ولا يعجزه شيء ، وهو مالك كل شيء ، وصاحب الأمر كله فى السماوات وفى الأرض .. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات :

« ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ؟ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ؟ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ..

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير ، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير .. ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية ؛ وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة ؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تتفق مع الثقة واليقين . يدل على هذا ما جاء فى الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار :

« أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » ..

فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى فى تعنتهم ، وطلبهم البراهين والخوارق ، وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف ، على نحو ما حكى السياق عنهم فى مواضع كثيرة ..

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق ، وهى الضلال ، واستبدال الكفر بالإيمان ، وهى النهاية التى صار إليها بنو إسرائيل . كما أنها هى النهاية التى يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين !

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ..

وذلك ما يخطه الحقد اللئيم بالنفوس .. الرغبة فى سلب الخير الذى يهتدى إليه الآخرون .. لماذا ؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم . ولكنها لأنها تعلم !

« حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » ..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذى فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، وما زالت تفيض ، وهو الذى انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال . وهو

Marfat.com

الذى يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود وعزعة العقيدة فى نفوسهم ؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذى كانوا فيه ، والذى أنقذهم الله منه بالإيمان ؛ وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التى تحسدهم عليها يهود !

وهنا ـ فى اللحظة التى تتجلى فيها هذه الحقيقة ، وتتكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم ـ هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد ، والشر بالشر ، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتى الله بأمره ، وقتما يريد :

« فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره . إن الله على كل شىء قدير » . .

وامضوا فى طريقكم التى اختارها الله لكم ، واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله . إن الله بما تعملون بصير » . .

وهكذا . . يوقظ السياق القرآنى وعى الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر ، ومكمن الدسيسة ؛ ويعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم . . ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ، ينتظرون أمره ، ويعلقون تصرفهم بإذنه . . وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة ، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة . ويدعها طيبة فى انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة . .

* * *

ثم يمضى فى تفنيد دعاوى أهل الكتاب عامة : اليهود والنصارى ، وقولهم : إنهم هم المهتدون وحدهم ! وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ! على حين يجبه كل فريق منهم الآخر بأنهم ليسوا على شىء ! ويقرر فى ثنايا عرض هذه الدعاوى المريضة حقيقة الأمر ، ويقول كلمة الفصل فى العمل والجزاء :

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم . قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود

Marfat.com

على شيء - وهم يتلون الكتاب - كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم . فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ..

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود ؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود . ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء . ثم يجيبه هؤلاء بهؤلاء ! ويحكى رأى المشركين في الطائفتين جميعا !

« وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » . .

وهذه حكاية قولهم مزدوجة . وإلا فقد كانت اليهود تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا - أى من يهود - وكانت النصارى تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى . .

وهذه القولة كتلك ، لا تستند إلى دليل ، سوى الادعاء العريض ! ومن ثم يلقن الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يجبههم بالتحدى وأن يطالبهم بالدليل :

« قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . .

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد . إنما هو الإسلام والإحسان ، لا الاسم والعنوان :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردا على قولهم: «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» .. فقال : « بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة . طرفيها المتقابلين : « من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » . . فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة ، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة . . و « من أسلم وجهه لله وهو محسن » . . فأخلص ذاته كلها لله ، ووجه مشاعره كلها إليه ، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة .. « من أسلم وجهه لله » . . هنا تبرز سمة الإسلام الأولى : إسلام الوجه - والوجه رمز على الكل - ولفظ أسلم يعنى الاستسلام والتسليم . الاستسلام المعنوى والتسليم العملى . ومع هذا فلابد من

Marfat.com

الدليل الظاهر على هذا الاستسلام : « وهو محسن » . . فسمة الإسلام هى الوحدة بين الشعور والسلوك ، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملى .. بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها ؛ وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ؛ وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله :

« فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ..

الأجر المضمون لايضيع « عند ربهم » . . والأمن الموفور لايساوره خوف،والسرور الفائض لايمسه حزن . . وتلك هى القاعدة العامة التى يستوى عندها الناس جميعا . فلامحسوبية عند الله سبحانه ولامحاباة !

ولقد كانوا – يهودا ونصارى – يطلقون تلك الدعوى العريضة ، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شىء ؛ وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء – وهم يتلون الكتاب – كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ..

والذين لايعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب ؛ وكانوا يرون ماعليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لاترتفع كثيرا على خرافات العرب وأساطيرهم فى الشرك ونسبة الأبناء – أو البنات – لله سبحانه ؛ فكانوا يزهدون فى دين اليهود ودين النصارى ويقولون : إنهم ليسوا على شىء !

والقرآن يسجل على الجميع مايقوله بعضهم فى بعض ؛ عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى فى ملكية الجنة ! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله .

« فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

فهو الحكم العدل ، وإليه تصير الأمور . . وهذه الإحالة إلى حكم الله هى وحدها المجدية فى مواجهة قوم لايستمدون من منطق ، ولا يعتمدون على دليل ، بعد دحض دعواهم العريضة فى أنهم وحدهم أهل الجنة ، وأنهم وحدهم المهديون !

* * *

Marfat.com

ثم يعود إلى تذييل محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة الأوامر والتبليغات النبوية ـ وبخاصة مايتعلق منها بتحويل القبلة ـ ويعدها سعيا فى منع ذكر الله فى مساجده ، وعملا على خرابها :

« ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين . لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » ..

وأقرب مايتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة ؛ وسعى اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة . . أول بيت وضع للناس وأول قبلة . . وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولهما غير هذا الوجه ..

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يوحى بأنه حكم عام فى منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، والسعى فى خرابها. كذلك الحكم الذى يرتبه على هذه الفعلة ،ويقرر أنه هو وحده الذى يليق أن يكون جزاء لفاعليها . وهو قوله :

« أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . .

أى أنهم يستحقون الدفع وللطاردة والحرمان من الأمن ، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذى حدث فى عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الفتح : من دخل المسجد الحرام فهو آمن . . فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش ، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام !) . .ويزيد على هذا الحكم مايتوعدهم به من خزى فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة :

« لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

وهناك تفسير آخر لقوله : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . . أى أنه ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا فى خوف من الله وخشوع لجلاله فى بيوته .فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله ، المناسب لمهابته وجلاله العظيم .. وهو وجه من التأويل جائز فى هذا المقام .

Marfat.com

والذى يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا فى مناسبة تحويل القبلة ، هو الآية الثانية منهما :

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » .

فهى توحى بأنها جاءت ردا على تضليل اليهود فى ادعائهم أن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة ، وضائعة ولا حساب لها عند الله ! والآية ترد عليهم هذا الزعم ، وهى تقرر أن كل اتجاه قبلة ،فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد .وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة ، لا أن وجه الله ـ سبحانه ـ فى جهة دون جهة . والله لايضيق على عباده ، ولا ينقصهم ثوابهم ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم . وفى الأمر سعة والنية لله « إن الله واسع عليم » . . .

* * *

بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية ، وانحرافهم عن التوحيد الذى هو قاعدة دين الله ، وأساس التصور الصحيح فى كل رسالة . ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته . ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب ، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك ، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيمانى الصحيح :

« وقالوا : اتخذ الله ولدا . سبحانه ! بل له ما فى السماوات والأرض، كل له قانتون . بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون . وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . .

وهذه المقولة الفاسدة : « اتخذ الله ولدا » . . ليست مقولة النصارى وحدهم فى المسيح ، فهى كذلك مقولة اليهود فى العزير . كما كانت مقولة المشركين فى الملائكة . ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات ، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاثة التى كانت تناهض الإسلام يومئذ فى الجزيرة ـ ومن عجب أنها لاتزال هى التى تناهضه اليوم تماما ، ممثلة فى الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ، والشيوعية العالمية،وهى أشد كفرا من المشركين فى ذلك الحين ! ـ ومن

Marfat.com

هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى فى أنهم وحدهم المهتدون؛ وهاهم أولاء يستوون مع المشركين!

وقبل أن نمضى إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله - سبحانه - يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعا:

«سبحانه! بل له مافى السماوات والأرض، كل له قانتون. بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن. فيكون» ..

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهى أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعا .. لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: «كن، فيكون» .. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أومادة .. أما كيف تتصل هذه الإرادة التى لانعرف كنهها، بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذى لم يكشف للإدراك البشرى عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. وهى غير مهيأة لإدراكه لأنه لايلزمها فى وظيفتها التى خلقت لها وهى خلافة الأرض وعمارتها .. وبقدر ماوهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التى تفيده فى مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر مازوى عنه الأسرار الأخرى التى لاعلاقة لها بخلافته الكبرى .. ولقد ضربت الفلسفات فى تيه لامنارة فيه، وهى تحاول كشف هذه الأسرار؛ وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشرى الذى لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد. فتجىء هذه الفروض مضحكة فى أرفع مستوياتها. مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وماذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشرى عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شىء يطمأن إليه؛ بل لم يصلوا إلى شىء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامى ويعيش فى ظله. وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا فى هذا التيه بلادليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة المنهج ابتداء. فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية - على وجه خاص -

Marfat.com

أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى ، باءوا بالتعقيد والتخليط ، كما باء أساتذتهم الإغريق ! ودسوا فى التفكير الإسلامى ماليس من طبيعته ، وفى التصور الإسلامى ماليس من حقيقته . . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشرى وراء مجاله ، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه . .

والنظرية الإسلامية : أن الخلق غير الخالق . وأن الخالق ليس كمثله شىء . . ومن هنا تنتفى من التصور الإسلامى فكرة : « وحدة الوجود » على مايفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح - أى بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة - أو أن الوجود إشعاع ذاتى للخالق ، أوأن الوجود هو الصورة المرئية لموجده . . ... أوعلى أى نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس . . والوجود وحدة فى نظر المسلم على معنى آخر :وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذى يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه فى عبادة وخشوع :

« بل له مافى السماوات والأرض كل له قانتون » . .

فلا ضرورة لتصور أن له من بين مافى السماوات والأرض ولدا . . فالكل من خلقه بدرجة واحدة ، وبأداة واحدة :

« بديع السماوات والأرض . وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون » . .

وتوجه الإرادة يتم بكيفية غيرمعلومة للإدراك البشرى ، لأنها فوق طاقة الإدراك البشرى. فمن العبث إنفاق الطاقة فى اكتناه هذا السر ، والخبط فى التيه بلادليل !

وإذ ينتهى من عرض مقولة أهل الكتاب فى ادعاء الولد لله - سبحانه - وتصحيح هذه المقولة وردها ، يتبعها بمقولة المشركين فيها من سوء التصور مايتسق مع سوء التصور عن أهل الكتاب :

« وقال الذين لايعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ! كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .

والذين لايعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين ، إذ لم يكن لديهم علم من كتاب . وكثيرا ماتحدوا النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية .. وذكر هذه المقولة هنامقصود لبيان أن الذين من قبلهم - وهم اليهود وغيرهم - طلبوا

Marfat.com

مثل هذا من أنبيائهم . فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة ، وطلبوا وتمنتوا فى طلب الخوارق المعجزة . فبين هؤلاء وهؤلاء شبه فى الطبيعة ، وشبه فى التصور ، وشبه فى الضلال :

« تشابهت قلوبهم » . .

فلا فضل لليهود على المشركين . وهم متشابهو القلوب فى التصور والعنت والضلال :

« قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . .

والذى يجد راحة اليقين فى قلبه يجد فى الآيات مصداق يقينه ، ويجد فيها طمأنينة ضميره . فالآيات لاتنشىء اليقين ، إنما اليقين هو الذى يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها . ويهيىء القلوب للتلقى الواصل الصحيح .

* * *

وإذ انتهت مقولاتهم ، وفندت أباطيلهم ، وكشفت الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم ، يتجه الخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبين له وظيفته ، ويحدد له تبعاته ، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى ، وطبيعة الخلاف الذى لاحل له إلا بثمن لا يملكه ولا يستطيعه ! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه ؛ وحاشاه !

« إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير . الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » . .

« إنا أرسلناك بالحق » . . وهى كلمة فيها من التثبيت مايقضى على شبهات المضللين ، ومحاولات الكائدين ، وتلبيس الملفقين . وفى جرسها صرامة توحى بالجزم واليقين .

« بشيرا ونذيرا » . . وظيفتك البلاغ والأداء ، تبشر الطائعين وتنذر العصاة ، فينتهى دورك . .

« ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . . الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم ، وتبعتهم على أنفسهم .

وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ، ويكيدون لك ، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك ،

Marfat.com

إلا أن تحيد عن هذا الأمر ، وإلا أن تترك هذا الحق ، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين ، تتخلى عنه إلى ماهم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذى سبق بيانه منذ قليل :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

فتلك هى العلة الأصيلة . ليس الذى ينقصهم هو البرهان ؛ وليس الذى ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق ، وأن الذى جاءك من ربك الحق . ولو قدمت إليهم ماقدمت ، ولو توددت إليهم ماتوددت . . لن يرضيهم من هـذا كله شيء ، إلا أن تتبع ملتهم وتترك مامعك من الحق .

إنها العقدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان .. إنها هى العقيدة . هذه حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحـدة فيما بينها ، ولـكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسـلام والمسلمين !

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها . ولـكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى ، فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة . . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة ـ على حقيقتها ـ خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها . إنما أعلنوها باسم الأرض . والاقتصاد ، والسياسة ، والمراكز العسكرية . . وما إليها . وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حـكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لامعنى لها ! ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! ذلك كى يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها . . بينما هم فى قرارة نفوسهم : الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ـ بإضافة الشيوعية العالمية ـ جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا ، فأدمتهم جميعا ! ! !

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض ولا الغلة . ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الرايات المزيفة كلها إنهم يزيفونها علينا لغرض فى نفوسهم دفين ليخدعونا عن حقيقة

Marfat.com

للمعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا . ونحن بصدد توجيه الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ولأمته ، وهو - سبحانه - أصدق القائلين :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ..

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه . وماسواه فمرفوض ومردود !

ولكن الأمر الحازم ، والتوجيه الصادق :

« قل : إن هدى الله هو الهدى » ..

على سبيل القصر والحصر . هدى الله هو الهدى . وماعداه ليس بهدى . فلابراح منه ، ولافكاك عنه ، ولامحاولة فيه ، ولاترضية على حسابه ، ولامساومة في شيء منه قليل أو كثير ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم ، أوصداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق .

« ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولانصير » ..

بهذا التهديد المفزع ، وبهذا القطع الجازم ، وبهذا الوعيد الرعيب .. ولمن ؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم !

إنها الأهواء .. إن أنت ملت عن الهدى .. هدى الله الذي لاهدى سواه .. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف ؛ وليس نقص الحجة ولاضعف الدليل .

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته ، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك ؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون ، لاأنت ولاالمؤمنون !

« الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » ..

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان ، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود ؟

* * *

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل . كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعد هذه المجابهة وهذا الجدل الطويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم ، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وخطاب المؤمنين ..

Marfat.com

هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة ، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة .. أمانة العقيدة .. التي نيطت بهم من قديم .. وهنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة .. يابني إسرائيل ..

« يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأني فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها عدل،ولاتنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون » ..

« وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ،قَالَ : إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ؟ قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

« وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ : أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا ، وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ ـ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ـ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا،ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ . رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ ، قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

Marfat.com

ٱلعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَقَالُوا : كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُوا : آمَنَّا بِٱللَّهِ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .

« قُلْ : أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ؟ * أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ؟ قُلْ : أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ ؟ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٤٠)

Marfat.com

فى القطاعات التى مضت من هذه السورة كان الجدل مع أهل الكتاب ، دائرا كله حول سيرة بنى إسرائيل ، ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ، ومن مواثيقهم وعهودهم ، ابتداء من عهد موسى - عليه السلام - إلى عهد محمد - صلى الله عليه وسلم - أكثره عن اليهود ، وأقله عن النصارى ، مع إشارات إلى المشركين ، عند السمات التى يلتقون فيها مع أهل الكتاب ، أو يلتقى معهم فيها أهل الكتاب .

فالآن يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى .. يرجع إلى إبراهيم .. وقصة إبراهيم - على النحو الذى تساق به فى موضعها هذا - تؤدى دورها فى السياق ، كما أنها تؤدى دورا هاما فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة فى المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف.

إن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق - عليهما السلام - ويعتزون بنسبتهم إليه ، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة ، وعهده معه ومع ذريته من بعده . ومن ثم يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أيا كان مايعملون !

وإن قريشا لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليهما السلام - وتعتز بنسبتها إليه ؛ وتستمد منها القوامة على البيت ، وعمارة المسجد الحرام ؛ وتستمد كذلك سلطانها الدينى على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها .

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة فى الجنة : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهودا أو نصارى .. ليهتدوا .. « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » .. كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون فى خرابها . وقلنا هناك : إنها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية تحويل القبلة ، وبالدعاية المسمومة التى أثاروها فى الصف الإسلامى بهذه المناسبة .

فالآن يجىء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ؛ والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره .. فى جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة فى ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول هذه النسب وهذه الصلات . ولتقرير قضية القبلة التى ينبغى أن يتجه

Marfat.com

إليها المسلمون . . كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم ـ وهي التوحيد الخالص ـ وبعد مابينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء ؛ وقرب مابين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه ـ وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين . ولتقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدي رسله جميعا ، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس . وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وأن وراثة هذا التراث لاتقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة . فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب ! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر ! ! !

هذه الحقائق التي تمثل شطرا من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي ، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب ؛ وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع . يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم ـ عليه السلام ـ منذ أن ابتلاه ربه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه ، وتنصيبه للناس إماما . . إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام؛ فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعا، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة . سبب الإيمان بالرسالة ، وحسن القيام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح .

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق : أن الإسلام ـ بمعنى إسلام الوجه لله وحده ـ كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة .. هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى . . ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين . . فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها . ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء

Marfat.com

إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ! لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة .. وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته ، لأنهم قد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته .. ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التى ينبغى أن يتجه إليها المسلمون . فالكعبة هى قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم ..

كل ذلك فى نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب ؛ حافل بالإشارات الموحية ، والوقفات العميقة الدلالة ، والإيضاح القوى التأثير . فلنأخذ فى استعراض هذا النسق العالى فى ظل هذا البيان المنير :

* * *

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لاينال عهدى الظالمين » ..

يقول للنبى — صلى الله عليه وسلم — اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف ، فأتمهن وفاء وقضاء .. وقد شهد الله لإبراهيم فى موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذى يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة : « وإبراهيم الذى وفى » .. وهو مقام عظيم ذلك المقام الذى بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل . والإنسان بضعفه وقصوره لايوفى ولايستقيم !

عندئذ استحق ابراهيم تلك البشرى . أوتلك الثقة

« قال : إنى جاعلك للناس إماما » ..

إماما يتخذونه قدوة ، ويقودهم إلى الله ، ويقدمهم إلى الخير ، ويكونون له تبعا ، وتكون له فيهم قيادة .

عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر : الرغبة فى الامتداد عن طريق الذرارى والأحفاد . ذلك الشعور الفطرى العميق ، الذى أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضى فى طريقها المرسوم ، ويكمل اللاحق مابدأه السابق ، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق .. ذلك الشعور الذى يحاول بعضهم تحطيمه أوتعويقه وتكبيله ؛ وهو مركوز فى أصل الفطرة لتحقيق تلك

Marfat.com

الغاية البعيدة المدى . وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث ، تلبية لتلك الفطرة وتنشيطا لها لتعمل ، ولتبذل أقصى مافى طوقها من جهد . وما المحاولات التى تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية فى أساسها ؛ وإلا تكلف وقصر نظر واعتساف فى معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة . وكل علاج يصادم الفطرة لايفلح ولا يصلح ولا يبقى. وهناك غيره من العلاج الذى يصلح الانحراف ولايحطم الفطرة . ولكنه يحتاج إلى هدى وإيمان ، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق، وفكرة عن تكوينها أدق ، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التى تنزع إلى التحطيم والتنكيل ، أكثر مما ترمى إلى البناء والإصلاح :

« قال : ومن ذريتى ؟ » . .

وجاء الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا . . إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب. فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هى وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هى إلا دعوى الجاهلية ، التى تصطدم اصطداما أساسيا بالتصور الإيمانى الصحيح :

« قال : لاينال عهدى الظالمين » . .

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغى . . والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معانى الإمامة : إمامة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة . . وكل معنى من معانى الإمامة والقيادة . فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة فى أية صورة من صورها . ومن ظلم ـ أىَّ لون من الظلم ـ فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها ؛ بكل معنى من معانيها .

وهذا الذى قيل لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهذا العهد بصيغته التى لا التواء فيها ولا غموض . . قاطع فى تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . .

وهذا الذى قيل لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهذا العهد بصيغته التى لاالتواء فيهاولا غموض قاطع كذلك فى تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا

Marfat.com

عن طريق الله ، وربما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . . ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لاتقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لاتقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولارحم إذا انبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات مالم تتصل بعروة العقيدة والعمل . . وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر فى عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة . فعرب الشرك شىء وعرب الإسلام شىء آخر . ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . والذين آمنوا من أهل الكتاب شىء ، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شىء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة . . إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا . . إنما هى هؤلاء ، حين تجمعهم عقيدة واحدة .وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين . . إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم . . وهذا هو التصور الإيمانى ، الذى ينبثق من خلال هذا البيان الربانى ، فى كتاب الله الكريم

* * *

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود » . .

هذا البيت الحرام الذى قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره . . لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعا ، فلا يروعهم أحد ؛ بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم . فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ــ ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره فى تفسيره ــ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعى ، الذى لايثير اعتراضا . وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون ، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، بما أنه بيت الله ، لابيت أحد من الناس . وقد عهد الله ــ صاحب البيت ــ إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود ــ أى الحجاج

Marfat.com

الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون حتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين

* * *

« وإذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا بلدا آمنا، وارزق أهله من الثمرات .. من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. قال: ومن كفر فأمتعه قليلا، ثم أضطره إلى عذاب النار. وبئس المصير » ..

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت. ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير .. إن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له فى الأولى. لقد وعى منذ أن قال له ربه: « لاينال عهدى الظالمين » .. وعى هذا الدرس .. فهو هنا، فى دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات، يحترس ويستثنى ويحدد من يعنى:

« من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ..

إنه إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذى علمه ربه، فيراعيه فى طلبه ودعائه .. وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبينا عن الشطر الآخر الذى سكت عنه. شطر الذين لايؤمنون، ومصيرهم الأليم:

« قال: ومن كفر فأمتعه قليلا، ثم أضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير» ..

* * *

ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذى تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود .. يرسمه مشهودا كما لوكانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما فى آن:

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم » ..

Marfat.com

إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر .. حكاية تحكى :

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » . .

وبينا نحن فى انتظار بقية الخبر ، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا إياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال . إنهما أمامنا حاضران . نكاد نسمع صوتهما يبتهلان :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .. ربنا ... »

فنغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء . . كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة . . وتلك إحدى خصائص التعبير القرآنى الجميل . رد المشهد الغائب الذاهب ، حاضرا يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة .. إنها خصيصة « التصوير الفنى » بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد .

وماذا فى ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود . وهو الأدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيحاء :

« ربنا تقبل منا . إنك أنت السميع العليم » . .

إنه طلب القبول .. هذه هى الغاية . . فهو عمل خالص لله . الاتجاه به فى قنوت وخشوع إلى الله . والغاية المرتجاة من ورائه هى الرضى والقبول . . والرجاء فى قبوله متعلق بأن الله سميع الدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . .

إنه رجاء العون من ربهما فى الهداية إلى الإسلام ؛ والشعور بأن قلوبهما بين أصبعين من أصابع الرحمان ؛ وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الأمة المسلمة . . التضامن .. تضامن الأجيال فى العقيدة : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .. وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . إن أمر العقيدة هو شغله

Marfat.com

الشاغل، وهو همه الأول. وشعور إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بقيمة النعمة التي أسبغ الله عليهما . . نعمة الإيمان . . تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هـذا الإنعام الذي لايكافئه إنعام . . لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمـرات ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمـان ؛ وأن يريهم جميعا مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الـكتاب والحـكمة ويزكيهم. إنك أنت العزيز الحـكيم » . .

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هـذا الرسول الـكريم بعـد قرون وقرون . بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيـل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الـكتاب والحـكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس .. إن الدعوة المستجابة تستجاب ، ولـكنها تتحقق في أوانها الذي يقـدره الله بحكمته . غير أن النـاس يستعجلون ! وغير الواصلين يمـلون ويقنطون !

وبعد فإن لهـذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطـراف . . إن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهما أصل سادني البيت من قريش . . إنهما يقولان باللسان الصريح : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » . . « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » . . كما يقولان باللسان الصريح : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الـكتاب والحـكمة ويزكيهم » .. وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتها الذي تتجه إليه ، وهي أولى به من المشركين . وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين !

وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعى دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . . فليسمع : إن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : « لاينال عهدي الظالمين » .. ولما

Marfat.com

أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : « من آمن بالله واليوم الآخر » . . وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما فى بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم . . فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد ابن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله الوارثة لدين الله .

* * *

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة ؛ وينازعون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ النبوة والرسالة ؛ ويجادلون فى حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . .

هـذه هى ملة إبراهيم . . الإسلام الخالص الصريح . . لايرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . . إبراهيم الذى اصطفاه ربه فى الدنيا إماما ، وشهد له فى الآخرة بالصلاح . . اصطفاه « إذ قال له ربه أسلم » . . فلم يتلكأ ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقى الأمر .

« قال : أسلمت لرب العالمين » . .

هذه هى ملة إبراهيم . . الإسلام الخالص الصريح . . ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها فى عقبه ، وجعلها وصيته فى ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو إسرائيل الذى ينتسبون إليه ، ثم لايلبون وصيته ، ووصية جده وجدهم إبراهيم !

ولقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم فى اختياره الدين لهم :

« يابنى إن الله اصطفى لكم الدين » . .

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل

Marfat.com

الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على مااختاره لهم ، والاجتهاد فى ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

« فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . .

وهاهى ذى الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم . .

* * *

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه . . الوصية التى كررها يعقوب فى آخر لحظة من لحظات حياته ؛ والتى كانت شغله الشاغل الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته ، فليسمعها بنو إسرائيل :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » . .

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوى الإيحاء ، عميق التأثير . . ميت يحتضر . فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار ؟ماهو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت ؟ ماهو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ماهى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ . . إنها العقيدة . . هى التركة . وهى الذخر . وهى القضية الكبرى ، وهى الشغل الشاغل ، وهى الأمر الجلل ، الذى لاتشغل عنه سكرات الموت وصرعاته :

« ماتعبدون من بعدى ؟ » . .

هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله . وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها . وهذه هى الأمانة والذخر والتراث . .

« قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل وإسحاق . إلها واحدا . ونحن له مسلمون » . .

Marfat.com

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه .

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب .وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون » .

والقرآن يسأل بنى إسرائيل : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ؟ » . . فهذا هو الذى كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع به كل حجة لهم فى التمويه والتضليل ؟ ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل !

* * *

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت ، والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة .. حيث لامجال لصلة ، ولامجال لوراثة ، ولامجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

« تلك أمة قدخلت ، لهاما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولاتسألون عما كانوا يعملون » .. فلكل حساب ؛ ولكل طريق ؛ ولكل عنوان؛ ولكل صفة .. أولئك أمة من المؤمنين فلاعلاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتدادا لتلك الأسلاف . هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولأولئك راية . . والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى . . فالتصور الجاهلى لايفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هى صلة الجنس والنسب . أما التصور الإيمانى فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ؛ فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة . . إنهما أمتان مختلفتان فى ميزان الله ، فهما مختلفتان فى ميزان المؤمنين . إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ؛ وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لامن اللصاقات الطين الأرضية !

* * *

فى ظل هذا البيان التاريخى الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم ؛ وقصة البيت الحرام كعبة

Marfat.com

المسلمين ؟ ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ؟ يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم، فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا ، كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل: كذلك تبدو العقيدة الإسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها إلا المتعنتون :

« وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا . قل : بل ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين. قولوا : آمنا بالله ،وما أنزل إلينا ،وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ،وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم ،لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون . قل : أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ » أم تقولون : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون » . .

وإنما كان قول اليهود : كونوا يهودا تهتدوا ؛ وكان قول النصارى : كونوا نصارى تهتدوا . فجمع الله قولهم ليوجه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم جميعا بكلمة واحدة :

« قل : بل ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » . .

قل : بل نرجع جميعا ، نحن وأنتم ، إلى ملة إبراهيم ، أبينا وأبيكم ، وأصل ملة الإسلام ، وصاحب العهد مع ربه عليه . . « وما كان من المشركين » . . بينما أنتم تشركون . .

ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء إلى عيسى ابن مريم ، إلى الإسلام الأخير . ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد :

« قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . .

Marfat.com

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، وبين الرسل جميعا ، هى قاعدة التصور الإسلامى وهى التى تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله فى الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة فى الدرب على هدى ونور . والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله دون تعصب ولا اضطهاد . والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة . حقيقة أن هذه العقيدة هى الهدى . من اتبعها فقد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ؛ ومن ثم يظل فى شقاق مع الشيع المختلفة التى لا تلتقى على قرار :

« فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » . .

وهذه الكلمة من الله ، وهذه الشهادة منه سبحانه ، تسكب فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه . فهو وحده المهتدى . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو الشاق للحق المعادى للهدى . ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدى ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره . ولا عليه من جداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه :

« فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم » .

إنه ليس على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، وبالعلامة التى يضعها الله على أوليائه ، فيعرفون بها فى الأرض :

« صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » . .

صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر . لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنا عند سمة من سمات التعبير القرآنى ذات الدلالة العميقة . . إن صدر هذه الآية من كلام الله التقريرى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » . . أما باقيها فهو من كلام المؤمنين . يلحقه السياق - بالأصل - بكلام البارىء سبحانه فى السياق . وكله قرآن منزل . ولكن الشطر الأول حكاية عن قول الله ، والشطر الثانى حكاية عن قول المؤمنين . وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله فى سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين

Marfat.com

ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم . وأمثال هذا فى القرآن كثير . وهو ذو مغزى كبير .

ثم تمضى الحجة الدامغة إلى نهايتها الحاسمة :

« قل : أتحاجوننا فى الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ » ..

ولامجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته . فهو ربنا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لانشرك به شيئا ، ولانرجو معه أحدا . وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ؛ وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج . .

ومن ثم يضرب السياق عنه ، وينتقل إلى مجال آخر من مجالات الجدل . يظهر أنه هو الآخر غير قابل للمحاجة والمحال :

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ » .

وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية . والله يشهد بحقيقة دينهم — وهو الإسلام كما سبق البيان — :

« قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ » . .

وهو سؤال لاجواب عليه ! وفيه من الاستنكار مايقطع الألسنة دون الجواب عليه !

ثم إنكم لتعلمون أنهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية . وكانوا على الحنيفية الأولى التى لا تشرك بالله شيئا . ولديكم كذلك شهادة فى كتبكم أن سيبعث نبى فى آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم . ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ » . .

والله مطلع على ماتخفون من الشهادة التى ائتمنتم عليها ، وما تقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

Marfat.com

« وما الله بغافل عما تعملون » ..

* * *

وحين يصل السياق إلى هـذه القمة فى الإفحام ، وإلى هـذا الفصل فى القضية ، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة فى كل اتجاه .. عندئذ يعيد الفاصلة التى ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين :

« تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » ..

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الأخيرة فى تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى ، مبدوءا بقوله تعالى : سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الثاني

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من سورة البقرة

Marfat.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ابتداء من هـذا الجزء فى سورة البقرة نجد التركيز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى ـ أمانة العقيدة ، وأمانة الخلافة فى الأرض باسم هـذه العقيدة ـ وإن نكن مازال نلتقى بين الحين والحين بالجدل مع أعداء هذه الجماعة الناهضين لها ـ وفى مقدمتهم بنو إسرائيل ـ ومواجهة دسائسهم وكيدهم وحربهم للعقيدة فى أصولها ، وللجماعة المسلمة فى وجودها . كما نلتقى بالتوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة لمواجهة الحرب المتعددة الأساليب التى يشنها عليها خصومها ؛ وللحذر كذلك من مزالق الطريق التى وقع فيها بنو إسرائيل قبلها .

فأما المادة الأساسية لهذا الجزء ، ولبقية السورة ، فهى إعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة ، وشخصيتها المستقلة . المستقلة بقبلتها ؛ و بشرائعها المصدقة لشرائع الديانات السماوية قبلها والمهيمنة عليها ؛ وبمنهجها الجامع الشامل المتميز كذلك .. وقبل كل شىء بتصورها الخاص للوجود والحياة ، ولحقيقة ارتباطها بربها ، ولوظيفتها فى الأرض ؛ وماتقتضيه هـذه الوظيفة من تكاليف فى النفس والمال ، وفى الشعور والسلوك ، ومن بذل وتضحية ، وتهيؤ للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية ، المتمثلة فى تعليمات القرآن الكريم ، وتوجيهات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلقى ذلك كله بالاستسلام والرضى ، وبالثقة واليقين .

ومن ثم نجد حديثا عن تحويل القبلة ، يتبين منه أنه يراد بهذه الأمة أن تكون أمة وسطا ، أهلها شهداء على الناس والرسول عليهم شهيد ؛ فلها على الناس فى الأرض قيادة وهيمنة ، وإشراف وتوجيه . ونجد دعوة لهذه الأمة إلى الصبر على تكاليف هذه الوظيفة الملقاة على عاتقها ، وهـذا الواجب الذى ستضطلع به للبشرية جميعا ؛ واحتمال ماسيكلفها فى الأنفس والأموال ، والرضى بقدر الله ورد الأمور كلها إليه على كل حال .

ثم نجد بيانا وجلاء لبعض قواعد التصور الإيمانى ، حيث يقرر أن البر هو التقوى والعمل الصالح لا تقليب الوجوه قبل المشرق والمغرب .. وذلك رداً على مايقوم به اليهود من بلبلة ، ومن

Marfat.com

كتمان وتلبيس للحقائق ، وجدال ومراء فيما يعلمون أنه الحق .. ومعظم الحديث فى هذا القطاع يتعلق بتحويل القبلة ، وماثار حوله من ملابسات وأقاويل .

ثم يأخذ السياق فى تقرير النظم العملية والشعائر التعبدية ـ وهما العنصران اللذان تقوم عليهما حياة هذه الأمة ـ وتنظم مجتمعها ليواجه المهام الملقاة على عاتقها ، فنجد شريعة القصاص وأحكام الوصية ، وفريضة الصيام ، وأحكام القتال فى الأشهر الحرام وفى المسجد الحرام، وفريضة الحج ، وأحكام الخمر والميسر ، ودستور الأسرة . . مشدودة كلها برباط العقيدة والصلة بالله .

كذلك نجد فى نهاية هذا الجزء بمناسبة الحديث عن الجهاد بالنفس والمال ، قصة من حياة بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . . فيها عبر كثيرة وتوجيهات موحية بالنسبة للجماعة المسلمة الوارثة لتراث الرسالات قبلها ، ولتجارب الأمم فى هذا التراث .

* * *

ومن مراجعة هذا الجزء ـ بالإضافة إلى الجزء الأول من السورة ـ ندرك طبيعة المعركة التى كان يخوضها القرآن ؛ وطبيعة الغاية التى كان يستهدفها فى بناء الأمة المسلمة. وهى معركة ضخمة مع الدسائس والفتن والألاعيب والبلبلة والتلبيس والكذب؛ ومع الضعف البشرى ، ومداخل الفتنة ومسارب الغواية فى النفس البشرية على السواء . وهى كذلك معركة للبناء والتوجيه وإنشاء التصور الصحيح الذى يمكن أن تقوم عليه الأمة المستخلفة فى الأرض، التى تتولى القيادة الرشيدة للبشرية جميعا .

أما الإعجاز القرآنى فيتجلى فى أن هذه التوجيهات وهذه الأسس التى جاء بها القرآن لكى ينشىء الجماعة المسلمة الأولى ، هى هى ماتزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة فى كل زمان ومكان ؛ وأن المعركة التى خاضها القرآن ضد أعدائها هى ذاتها المعركة التى يمكن أن يخوضها فى كل زمان ومكان . لا بل إن أعداءها التقليديين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم ، هم هم ، ووسائلهم هى هى ، تتغير أشكالها بتغير الملابسات ، وتبقى حقيقتها وطبيعتها ؛ وتحتاج الأمة المسلمة ، فى كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى . كما تحتاج فى بناء تصورها الصحيح وإدراك موقفها من الكون

Marfat.com

والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات ؛ وتجد فيها معالم طريقها واضحة ، كما لا تجدها فى أى مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه . ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل فى حياتها، وقائدها الحقيق فى طريقها الواقعى ، ودستورها الشامل الكامل ، الذى تستمد منه منهج الحياة ، ونظام المجتمع ، وقواعد التعامل الدولى والسلوك الأخلاق والعملى .

وهذا هو الإعجاز ..

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ : لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ؛ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ؛ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ؛ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

Marfat.com

شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِي ، وَلَا تَكْفُرُونِ » (١٥٥)

الحديث فى هذا الدرس يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة ، والملابسات التى أحاطت به ؛ والدسائس التى حاولها اليهود فى الصف المسلم بمناسبته ، والأقاويل التى أطلقوها من حوله ؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل فى نفوس بعض المسلمين ، وفى الصف المسلم على العموم .

ولا توجد رواية قطعية فى هذا الحادث ، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل . والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . وكان هذا فى المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهرا من الهجرة .

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها - بالإجمال - أن المسلمين فى مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة - وليس فى هذا نص قرآنى - وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهى للرسول - صلى الله عليه وسلم - يرجح أنه أمر غير قرآنى . ثم جاء الأمر القرآنى الأخير : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . . فنسخه .

وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس - وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود

Marfat.com

والنصارى – سببا فى اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول فى الإسلام ، إذ أطلقوا فى المدينة ألسنتهم بالقول ، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم فى الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هى القبلة ؛ وأنهم هم الأصل ، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام !

وفى الوقت ذاته كان الأمر شاقا على المسلمين من العرب ، الذين ألفوا فى الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام ؛ وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم . وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر ، واتخاذه حجة عليهم !

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقلب وجهه فى السماء متجها إلى ربه ، دون أن ينطق لسانه بشىء ، تأدبا مع الله ، وانتظارا لتوجيهه بما يرضاه . .

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل فى صدر الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . .

وتقول الروايات : إن هذا كان فى الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة . وأن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة ، كان بعضهم فى منتصف صلاة ، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام فى أثناء صلاتهم ، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة .

عندئذ انطلقت أبواق يهود – وقد عز عليهم أن يتحول محمد – صلى الله عليه وسلم – والجماعة المسلمة عن قبلتهم ، وأن يفقدوا حجتهم التى يرتكنون إليها فى تعاظمهم وفى تشكيك المسلمين فى قيمة دينهم – انطلقت تلقى فى صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق فى قيادتهم وفى أساس عقيدتهم . . قالوا لهم : إن كان التوجه – فيما مضى – إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة ؛ وإن كانت حقا فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل ، وضائعة صلاتكم إليه كلها . . وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر – أو للآيات – لا يصدر من الله ، فهو دليل على أن محمدا لا يتلقى الوحى من الله !

وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة فى نفوس بعض المسلمين وفى الصف الاسلامى من

Marfat.com

مراجعة ما نزل من القرآن فى هذا الموضوع ، منذ قوله تعالى : « ماننسخ من آية أو ننسها » ــ وقد استغرق درسين كاملين فى الجزء الأول ــ ومن مراجعة هذا الدرس فى هذا الجزء أيضا . ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التى سندرسها فيما يلى تفصيلا عند استعراض النص القرآنى .

أما الآن فنقول كلمة فى حكمة تحويل القبلة ، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة بهم يتجهون إليها . فقد كان هذا حادثا عظيما فى تاريخ الجماعة المسلمة ، وكانت له آثار ضخمة فى حياتها . .

لقد كان تحويل القبلة أولا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية فى هذا الدرس : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » . . فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومى . . ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله ، وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالله مباشرة ، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم . . فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه ــ فترة ــ إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به فى الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر ، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ ؛ أو تتلبس بها فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير أى تلبس من قريب أو من بعيد . .

حتى إذا استسلم المسلمون ، واتجهوا إلى القبلة التى وجههم إليها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفى الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم ، صدر الأمر الإلهى الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام . ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه . هى حقيقة الإسلام . حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصا لله ، وليكون تراثا للأمة المسلمة التى نشأت تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث فى بنيه رسولا منهم بالإسلام ، الذى كان عليه هو وبنوه وحفدته . . كما مر فى درس : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » . . فى الجزء الماضى .

Marfat.com

ولقد كان الحديث عن المسجد الحرام : بنائه وعمارته ، وما أحاط بهما من ملابسات ؛ والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وقبلته ، وعهده ووصيته . . كان هذا الحديث الذى سلف فى هذه السورة خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بعد هذه الفترة . فتحويل قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، ودعوا عنده ذلك الدعاء الطويل . . يبدو فى هذا السياق هو الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده مع ربه . فهو الاتجاه الحسى المتساوق مع الاتجاه الشعورى ، الذى ينشئه ذلك التاريخ .

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين ؛ وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده ، كما عهد به يعقوب ــ وهو إسرائيل ــ ولقد علم إبراهيم أن وراثة عهد الله وفضله لاتكون للظالمين .

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام . . فهو تراث لهما ، يرثه من يرثون عهد الله إليهما . . والأمة المسلمة هى الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما ؛ فطبيعى إذن ومنطقى أن ترث بيت الله فى مكة ، وأن تتخذ منه قبلة .

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى ، الذى يتجه إليه اليهود والنصارى ، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة هى التى أشار إليها السياق ، وبيناها فيما سبق . فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة ، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم ــ وهو الإسلام ــ فيشاركوا فى هذه الوراثة . . الآن يجىء تحويل القبلة فى أوانه . تحويلها إلى بيت الله الأول الذى بناه إبراهيم . لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة . حسيها وشعوريها . وراثة الدين ، ووراثة القبلة ،ووراثةالفضل من الله جميعا .

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتميز فى التصور والاعتقاد ؛ والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة . وهذه كتلك لابد من التميز فيها والاختصاص . وقد يكون الأمر واضحا فيما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ ولكنه قد لايكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة . . هنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة .

Marfat.com

إن الذى ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها ، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها . . ربما يبدو له أن فى الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئا من التعصب الضيق ، أو شيئا من التعبد للشكليات ! ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة ، وإدراكا أعمق لطبيعة الفطرة ، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار .

إن فى النفس الإنسانية ميلا فطريا ـ ناشئا من تكوين الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب ـ إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة . فهذه المشاعر المضمرة لاتهدأ أو لاتستقر حتى تتخذ لها شكلا ظاهرا تدركه الحواس ؛ وبذلك يتم التعبير عنها . يتم فى الحس كما تم فى النفس . فتهدأ حينئذ وتستريح ؛ وتفرغ الشحنة الشعورية تفريغا كاملا ؛ وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن ؛ وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل وجنوحها إلى الظواهر والأشكال فى ذات الأوان .

وعلى هذا الأساس الفطرى أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها . فهى لاتؤدى بمجرد النية ، ولا بمجرد التوجه الروحى . ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلا ظاهرا : قياما واتجاها إلى القبلة وتكبيرا وقراءة وركوعا وسجودا فى الصلاة . وإحراما من مكان معين ولباسا معينا وحركة وسعيا ودعاء وتلبية ونحرا وحلقا فى الحج . ونية وامتناعا عن الطعام والشراب والمباشرة فى الصوم . . وهكذا فى كل عبادة حركة ، وفى كل حركة عبادة ، ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها ، وينسق بين طاقاتها ، ويستجيب للفطرة جملة بطريقة تتفق مع تصوره الخاص .

ولقد علم الله أن الرغبة الفطرية فى اتخاذ أشكال ظاهرة للقوى المضمرة هى التى حادت بالمنحرفين عن الطريق السليم . فجعلت جماعة من الناس ترمز للقوة الكبرى برموز محسوسة مجسمة من حجر وشجر ، ومن نجوم وشمس وقمر ، ومن حيوان وطير وشىء . . حين أعوزهم أن يجدوا متصرفا منسقا للتعبير الظاهر عن القوى الخفية . . فجاء الإسلام يلبى دواعى الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة ، مع تجريد الذات الإلهية عن كل تصور حسى وكل تحيز الجهة . فيتوجه الفرد إلى قبلة حين يتوجه إلى الله بكليته . . بقلبه وحواسه وجوارحه . . فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان فى التوجه إلى الله الذى لايتحيز فى مكان ؛ وإن يكن الإنسان يتخذ له قبلة من مكان !

Marfat.com

ولم يكن بد من تميز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كى يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه . . فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ؛ كما أنه بدوره ينشىء شعورا بالامتياز والتفرد .

ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم ، التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة . كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء. ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ماوراء الشكليات . كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة . وهذه البواعث هى التى تفرق قوما عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصورا عن تصور ، وضميرا عن ضمير ، وخلقا عن خلق ، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن اليهود والنصارى لايصبغون ، فخالفوهم » (١) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد خرج على جماعة فقاموا له : « لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا » (٢) .

وقال - صلوات الله وسلامه عليه - : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا : عبدالله ورسوله (٣) » .

نهى عن تشبه فى مظهر أولباس . ونهى عن تشبه فى حركة أوسلوك . ونهى عن تشبه فى قول أو أدب .. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذى يميز تصورا عن تصور ، ومنهجا فى الحياة عن منهج ، وسمة للجماعة عن سمة .

ثم هو نهى عن التلقى من غير الله ومنهجه الخاص الذى جاءت هذه الأمة لتحققه فى الأرض . نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أى قوم آخرين فى الأرض . فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هى التى تتدسس فى النفس لتقلد هـذا المجتمع المعين . والجماعة المسلمة قامت لتكون فى مكان القيادة للبشرية ؛ فينبغى لها أن تستمد تقاليدها - كما تستمد عقيدتها - من المصدر الذى اختارها

---

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبوداود . (٢) رواه أبو داود وابن ماجه (٣) أخرجه البخارى .

Marfat.com

للقيادة .. والمسلمون هم الأعلون . وهم الأمة الوسط . وهم خير أمة أخرجت للناس . فمن أين إذن يستمدون تصورهم ومنهجهم ؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم ؟ إلا يستمدوها من الله فهم سيستمدونها من الأدنى الذى جاءوا ليرفعوه !

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق فى التصور ، وأقوم منهج فى الحياة . فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه . وما كان تعصبا أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أى أساس آخر ؛ وعلى منهجه هو لا على أى منهج آخر ؛ وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى . فالذى يدعوك إلى الوحدة فى الله ، والوحدة فى الأرفع من التصور ، والوحدة فى الأفضل من النظام ؛ ويأبى أن يشترى الوحدة بالحيدة عن منهج الله ، والتردى فى مهاوى الجاهلية .. ليس متعصبا . أو هو متعصب . ولكن للخير والحق والصلاح !

والجماعة المسلمة التى تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه . إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة فى الصلاة . فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز . رمز للتميز والاختصاص . تميز التصور ، وتميز الشخصية ، وتميز الهدف ، وتميز الاهتمامات ، وتميز الكيان .

والأمة المسلمة ــ اليوم ــ بين شتى التصورات الجاهلية التى تعج بها الأرض جميعا ، وبين شتى الأهداف الجاهلية التى تستهدفها الأرض جميعا ، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التى تشغل بال الناس جميعا ، وبين شتى الرايات الجاهلية التى ترفعها الأقوام جميعا .. الأمة المسلمة اليوم فى حاجة إلى التميز بشخصية خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة ؛ والتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يتلبس بتصورات الجاهلية السائدة ؛ والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور ؛ والتميز براية خاصة تحمل اسم الله وحده ، فتعرف بأنها الأمة الوسط التى أخرجها الله للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها ..

إن هذه العقيدة منهج حياة كامل . وهذا المنهج هو الذى يميز الأمة المستخلفة الوارثة لتراث العقيدة ، الشهيدة على الناس ، المكلفة بأن تقود البشرية كلها إلى الله .. وتحقيق هذا المنهج فى حياة الأمة المسلمة هو الذى يمنحها ذلك التميز فى الشخصية والكيان ، وفى الأهداف

Marfat.com

والاهتمامات ، وفى الراية والعلامة . وهو الذى يمنحها مكان القيادة الذى خلقت له ، وأخرجت للناس من أجله . وهى بغير هــذا المنهج ضائعة فى الغمار ، مبهمة الملامح ، مجهولة السمات ، مهما اتخذت لها من أزياء ودعوات وأعلام !

ثم نعود من هذا الاستطراد بمناسبة تحويل القبــلة لنواجه النصوص القرآنية بالتفصيل :

* * *

« سيقول السفهاء من الناس : ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قل:لله المشرق والمغرب، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتــكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا . وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وإن كانت لــكبيرة إلا على الذين هدى الله . وما كان الله ليضيع إيمانــكم . إن الله بالناس لرؤوف رحيم » .

من السياق القرآنى ومن سياق الأحداث فى المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود . فهم الذين أثاروا الضجة التى أثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا . وهم الذين أثاروا هــذا التساؤل : « ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ » وهى المسجد الأقصى .

عن البراء ابن عازب ــ رضى الله عنه ــ قال : أول ماقدم رسول الله ــ صلى الله عليه‌وسلم ــ المدينة نزل على أجداده ــ أوقال أخواله ــ من الأنصار ؛ وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أوسبعة عشر شهرا ؛ وكان يعجبه أن تــكون قبلته قبل البيت،وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ؛ وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فمر على أهل مسجد وهم راكعون . فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الــكعبة ، فداروا كما هم قبل البيت . وكانت اليهود قد أعجبهم إذكان يصلى قبل بيت المقدس ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنــكروا ذلك ، فنزلت : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ...» فقال السفهاء ــ وهم اليهود ــ « ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها (١) » .

وسنلاحظ أن علاج القرآن لهذا التساؤل ولتلك الفتنة يشى بضخامة آثار تلك الحملة فى

(١) أخرجه مالك والشيخان والترمذى .

Marfat.com

نفوس بعض المسلمين وفى الصف المسلم فى ذلك الحين ..

والذى يظهر من صيغة التعبير هنا :

« سيقول السفهاء من الناس : ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ » .

أن هذا كان تمهيداً لإعلان تحويل القبلة فى المقطع التالى فى هذا الدرس ، وأخذاً للطريق على الأقاويل والتساؤلات التى علم الله أن السفهاء سيطلقونها .. أوكان ردا عليها بعد إطلاقها ، - كما جاء فى الحديث السابق - اتخذ هذه الصيغة للإيحاء بأن ماقالوه كان مقدرا أمره ، ومعروفة خطته ، ومعدة إجابته . وهى طريقة من طرق الرد أعمق تأثيرا .

وهو يبدأ فى علاج آثار هذا التساؤل ، والرد عليه بتلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - مايواجههم به ، ويقرر به الحقيقة فى نصابها ؛ وفى الوقت نفسه يصحح التصور العام للأمور.

« قل : لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ..

إن المشرق لله والمغرب لله . فكل متجه فهو إليه فى أى اتجاه . فالجهات والأماكن لا فضل لها فى ذاتها . إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه .. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فإذا اختار لعباده وجهة ، واختار لهم قبلة ، فهى إذن المختارة.وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم ..

بذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات ، وحقيقة المصدر الذى يتلقى منه البشر التوجهات ، وحقيقة الاتجاه الصحيح وهو الاتجاه إلى الله فى كل حال .

***

ثم يحدث هذه الأمة عن حقيقتها الكبيرة فى هذا الكون ، وعن وظيفتها الضخمة فى هذه الأرض ، وعن مكانها العظيم فى هذه البشرية ، وعن دورها الأساسى فى حياة الناس ؛ مما يقتضى أن تكون لها قبلتها الخاصة ، وشخصيتها الخاصة ؛ وألا تسمع لأحد إلا لربها الذى اصطفاها لهذا الأمر العظيم :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » ..

إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ؛ وتضع لهم

Marfat.com

الموازين والقيم؛ وتبدى فيهم رأيها فيكون هو الرأى المعتمد؛ وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل فى أمرها، وتقول: هـذا حق منها وهـذا باطل. لا التى تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها. وهى شهيدة على الناس، وفى مقام الحكم العـدل بينهم.. وبينما هى تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول هو الذى يشهد عليها؛ فيقرر لها موازينها وقيمها؛ ويحكم على أعمالها وتقاليدها؛ ويزن مايصدر عنها، ويقول فيه الكلمة الأخيرة.. وبهذا تتحدد حقيقة هـذه الأمة ووظيفتها.. لتعرفها، ولتشعر بضخامتها. ولتقدر دورها حق قدره، وتستعد له استعدادا لائقا..

وإنها للأمة الوسط بكل معانى الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادى الحسى..

« أمة وسطا » .. فى التصور والاعتقاد.. لاتغلو فى التجرد الروحى ولافى الارتكاس المادى. إنما تتبع الفطرة الممثلة فى روح متلبس بجسد، أوجسد تتلبس به روح. وتعطى لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها فى الوقت الذى تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط فى عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، فى قصد وتناسق واعتدال.

« أمة وسطا » .. فى التفكير والشعور.. لاتجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة.. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك.. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول؛ ثم تنظر فى كل نتاج للفكر والتجريب؛ وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، فى تثبت ويقين.

« أمة وسطا » .. فى التنظيم والتنسيق.. لاتدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب؛ وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحى الوجدان.. ولكن مزاج من هذا وذاك.

« أمة وسطا » .. فى الارتباطات والعلاقات.. لاتلغى شخصية الفرد ومقوماته، ولا

Marfat.com

تلاشى شخصيته فى شخصية الجماعة أو الدولة ؛ ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لاهم له إلا ذاته . . إنما تطلق من الدوافع والطاقات مايؤدى إلى الحركة والنماء ؛ وتطلق من النوازع والخصائص مايحقق شخصية الفرد وكيانه . ثم تضع من الكوابح مايقف دون الغلو ، ومن المنشطات مايثير رغبة الفرد فى خدمة الجماعة ؛ وتقرر من التكاليف والواجبات مايجعل الفرد خادما للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد فى تناسق واتساق .

« أمة وسطا » . . فى المكان . . فى سرة الأرض ، وفى أوسط بقاعها . وما تزال هذه الأمة التى غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب ، وجنوب وشمال . وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا ، وتشهد على الناس جميعا ؛ وتعطى ماعندها لأهل الأرض قاطبة ؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك ؛ وتتحكم فى هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

« أمة وسطا » . . فى الزمان . . تنهى عهد طفولة البشرية من قبلها ؛ وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها . وتقف فى الوسط تنفض عن البشرية ماعلق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها ؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى ؛ وتزاوج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلى المستمر فى النماء ؛ وتسير بها على الصراط السوى بين هذا وذاك .

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذى وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذى اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هى التى اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها ، ولابد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ، ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة الراشدة .

* * *

وإذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التى كانوا عليها ، بمناسبة تحويلهم الآن عنها :

Marfat.com

« وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ..

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التى يأخذ الله بها هـذه الجماعة الناشئة ، التى يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة فى الأرض تحت راية العقيدة . إنه يريد لها أن تخلص له ؛ وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها ؛ وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ومن كل رغابها الدفينة ؛ وأن تتعرى من كل رداء لبسته فى الجاهلية ، ومن كل شعار اتخذته ، وأن ينفرد فى حسها شعار الإسلام وحده لايتلبس به شعار آخر ، وأن يتوحد المصدر الذى تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر .

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به فى نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ؛ وشابت عقيدة جدهم إبراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبية الجنس ، إذ كان البيت يعتبر فى ذلك الحين بيت العرب المقدس .. والله يريده أن يكون بيت الله المقدس ، لايضاف إليه شعار آخر غير شعاره ، ولايتلبس بسمة أخرى غير سمته .

لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجههم إلى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا ؛ ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – ثانيا ، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله ، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة !

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة .. إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها فى القلب شريكا؛ ولاتقبل شعارا غير شعارها المفرد الصريح ؛ إنها لاتقبل راسبا من رواسب الجاهلية فى أية صورة من الصور . جل أم صغر . وهـذا هو إيحاء ذلك النص القرآنى : « وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .. والله – سبحانه – يعلم كل مايكون قبل أن يكون . ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس ، حتى يحاسبهم عليه ، ويأخذهم به . فهو – لرحمته بهم – لايحاسبهم على مايعلمه من أمرهم ، بل على مايصدر عنهم ويقع بالفعل منهم .

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية ، والتجرد من كل سمة وكل شعار له

Marfat.com

بالنفس عُلقة .. أمر شاق ، ومحاولة عسيرة .. إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، وإلا أن يعين الله هـذا القلب فى محاولته فيصله به ويهديه إليه :

« وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » ..

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر فى أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ؛ وأن تتجرد لله تسمع منه وتطيع ، حيثما وجهها الله تتجه ، وحيثما قادها رسول الله تقاد .

* * *

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم .. إنهم ليسوا على ضلال ، وإن صلاتهم لم تضع، فالله سبحانه لا يعنت العباد ، ولا يضيع عليهم عبادتهم التى توجهوا بها إليه ؛ ولا يشق عليهم فى تكليف يجاوز طاقتهم التى يضاعفها الإيمان ويقويها :

« وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ..

إنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ؛ وإنه يهدى المؤمنين ، ويعدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان ، حين تصدق منهم النية ، وتصح العزيمة . وإذا كان البلاء مظهراً لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل رحمته : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ..

بهـذا يسكب فى قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين ..

* * *

بعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله — صلى الله عليه وسلم — فى أمر القبلة ؛ ويعلن عن هذه القبلة مع تحذير المسلمين من فتنة يهود ، وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم .. فى صورة تكشف عن مدى الجهد الذى كان يبذل لإعداد تلك الجماعة المسلمة ، ووقايتها من البلبلة والفتنة :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ؛

Marfat.com

وما الله بغافل عما يعملون . ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ، وماأنت بتابع قبلتهم ، ومابعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين . ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ، إن الله على كل شيء قدير . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون . ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة . إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » . .

وفى مطلع هذه الآيات نجد تعبيرا مصورا لحالة النبى - صلى الله عليه وسلم - :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء » . .

وهو يشى بتلك الرغبة القوية فى أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التى كان عليها . بعدما كثر لجاج اليهود وحجاجهم ؛ ووجدوا فى اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس .. فكان - صلى الله عليه وسلم - يقلب وجهه فى السماء ، ولا يصرح بدعاء ، تأدبا مع ربه ، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا ، أو أن يقدم بين يديه شيئا .

ولقد أجابه ربه إلى مارضيه . والتعبير عن هذه الاستجابة يشى بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود :

« فلنولينك قبلة ترضاها » . .

ثم يعين له هذه القبلة التى علم - سبحانه - أنه يرضاها :

« فول وجهك شطر المسجد الحرام » . .

قبلة له ولأمته . من معه منها ومن يأتى من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

« وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . .

من كل اتجاه ، فى أنحاء الأرض جميعا . . قبلة واحدة تجمع هذه الأمة وتوحد بينها على

Marfat.com

اختلاف مواطنها ، واختلاف مواقعها من هذه القبلة ، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها .. قبلة واحدة ، تتجه إليها الأمة الواحدة فى مشارق الأرض ومغاربها . فتحس أنها جسم واحد، وكيان واحد ، تتجه إلى هدف واحد ، وتسعى لتحقيق منهج واحد . منهج ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا ، وتؤمن برسول واحد ، وتتجه إلى قبلة واحدة .

وهكذا وحد الله هذه الأمة . وحدها فى إلهها ورسولها ودينها وقبلتها . وحدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات . ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها ؛ ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها ، ولو تفرقت فى مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها .. إنها الوحدة التى تليق ببنى الإنسان ؛ فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب ، وقبلة العبادة ، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة !

***

ثم .. ماشأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة ؟

« وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » ..

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذى رفع قواعده إبراهيم . جد هذه الأمة الوارثة وجد المسلمين أجمعين . وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لامرية فيه ..

ولكنهم مع هذا سيفعلون غير مايوحيه هذا العلم الذى يعلمونه . فلا على المسلمين منهم ؛ فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم :

« وما الله بغافل عما يعملون » ..

إنهم لن يقتنعوا بدليل ، لأن الذى ينقصهم ليس هو الدليل ؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه :

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك » ..

فهم فى عناد يقوده الهوى ، وتؤرثه المصلحة ، ويحدوه الغرض .. وإن كثيرا من طيبى القلوب ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لايعرفونه ، أو لأنه لم يقدم

Marfat.com

إليهم فى صورة مقنعة . . وهذا وهم . . إنهم لايريدون الإسلام لأنهم يعرفونه ! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ؛ ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لايفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل . عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجه ، ويحاربونه من وراء ستار . ويحاربونه بأنفسهم ويستترون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار . . وهم دائما عند قول الله تعالى لنبيه الكريم : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك » .

وفى مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذى ترمز هذه القبلة له ، يقرر حقيقة شأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقفه الطبيعى :

« وما أنت بتابع قبلتهم » . .

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا . واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجاه هذا الأمر . وفيه إيحاء قوى للجماعة المسلمة من ورائه . فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التى اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه ؛ ولن ترفع راية غير رايتها التى تنسبها إلى ربها ؛ ولن تتبع منهجا إلا المنهج الإلهى الذى ترمز له هذه القبلة المختارة . . هذا شأنها مادامت مسلمة ؛ فإذا لم تفعل فليست من الإسلام فى شىء . . إنما هى دعوى . .

ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض ؛ فهم ليسوا على وفاق ، لأن الأهواء تفرقهم :

« وما بعضهم بتابع قبلة بعض » . .

والعداء بين اليهود والنصارى ، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة ، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء .

وما كان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا شأنه وهذا شأن أهل الكتاب ، وقد علم الحق فى الأمر ، أن يتبع أهواءهم بعد ماجاءه من العلم :

« ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » . .

Marfat.com

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم ، فى هـذا الخطاب الإلهى من الله سبحانه إلى نبيه الكريم الذى حدثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود . .

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدى الله وتوجيهه ؛ ويتعلق بقاعدة التميز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه . ومن ثم يجىء الخطاب فيه بهـذا الحزم والجزم ، وبهـذه المواجهة والتحذير . . « إنك إذاً لمن الظالمين » . .

إن الطريق واضح ، والصراط مستقيم . فإما العلم الذى جاء من عند الله . وإما الهوى فى كل ماعداه . وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله . وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب . وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد .

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين ، فى غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة ، تستدعى هـذه الشدة فى التحذير ، وهذا الجزم فى التعبير .

* * *

وبعد هـذه الوقفة العابرة نعود إلى السياق ؛ فنجده لايزال يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق فى هـذا الشأن وفى غيره هو ماجاء به القرآن ، وما أمر به الرسول . ولكنهم يكتمون الحق الذى يعلمونه ، للهوى الذى يضمرونه :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . .

ومعرفة الناس بأبنائهم هى قمة المعرفة ، وهى مثل يضرب فى لغة العرب على اليقين الذى لاشبهة فيه . . فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذى جاء به النبى – صلى الله عليه وسلم – ومنه هـذا الذى جاء به فى شأن القبلة ، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذى يعلمونه علم اليقين . . فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب . وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئا فى أمر دينهم ، الذى يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين .

* * *

Marfat.com

وهنا يوجه الخطاب إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب :

« الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما امترى يوما ولا شك . وحينما قال له ربه فى آية أخرى : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » قال : « لا أشك ولا أسأل » . .

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه – صلى الله عليه وسلم – يحمل إيحاء قويا إلى من وراءه من المسلمين . سواء منهم من كان فى ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم ، ومن يأتى بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود فى أمر دينهم .

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ؛ ونحن – فى بلاهة منقطعة النظير – روح نستفتى المستشرقين – من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار – فى أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا ، ونأمنهم على القول فى تراثنا ؛ ونسمع لما يدسونه من شكوك فى دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا ، وسيرة أوائلنا ؛ ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون فى جامعاتهم ، ثم يعودون إلينا مدخولى العقل والضمير . .

إن هذا القرآن قرآننا . قرآن الأمة المسلمة . وهو كتابها الخالد الذى يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره . وأهل الكتاب هم أهل الكتاب ، والكفار هم الكفار . والدين هو الدين !

ونعود إلى السياق فنراه يصرف المسلمين عن الاستماع لأهل الكتاب والانشغال بتوجيهاتهم ، ويوحى إليهم بالاستقامة على طريقهم الخاص ووجهتهم الخاصة . فلكل فريق وجهته ، وليستبق المسلمون إلى الخير لا يشغلهم عنه شاغل ، ومصيرهم جميعا إلى الله القادر على جمعهم وعلى مجازاتهم فى نهاية المطاف :

« ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ، إن الله على كل شىء قدير » . .

وبهذا يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس وفتن وتأويلات

Marfat.com

وأقاويل . . يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات . مع تذكر أن مرجعهم إلى الله ، وأن الله قدير على كل شيء ، لا يعجزه أمر ، ولا يفوته شيء .

إنه الجد الذى تصغر إلى جواره الأقاويل والأباطيل . .

* * *

ثم يعود فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويع التعقيب :

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك ، وماالله بغافل عما تعملون » . .

والأمر فى هذه المرة يخلو من الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم ؛ ويتضمن الاتجاه إلى المسجد الحرام حيثما خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحيثما كان ؛ مع توكيد أنه الحق من ربه . ومع التحذير الخفى من الميل عن هذا الحق . التحذير الذى يتضمنه قوله : « وماالله بغافل عما تعملون » . . وهو الذى يشى بأنه كانت هناك حالة واقعة وراءه فى قلوب بعض المسلمين تقتضى هذا التوكيد وهذا التحذير الشديد .

* * *

ثم توكيد للمرة الثالثة بمناسبة غرض آخر جديد ؛ وهو إبطال حجة أهل الكتاب ، وحجة غيرهم ممن كانوا يرون المسلمين يتوجهون إلى قبلة اليهود ، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من فضل دينهم على دين محمد ، وأصالة قبلتهم ومن ثم منهجهم . أو من مشركى العرب الذين كانوا يجدون فى هذا التوجيه وسيلة لصد العرب الذين يقدسون مسجدهم وتنفيرهم من الإسلام الذى يتجه أهله شطر قبلة بنى إسرائيل !

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة ، إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ، ولعلكم تهتدون » . .

وهو أمر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يولى وجهه شطر المسجد من حيث خرج ، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا . وبيان لعلة هذا التوجيه :

Marfat.com

« لئلا يكون للناس عليكم حجة » . .

وتهوين لما بعد ذلك من أقاويل الظالمين الذين لايقفون عند الحجة والمنطق؛ إنما ينساقون مع العناد واللجاج . فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم ، فسيظلون إذن فى لجاجهم . فلا على المسلمين منهم :

« فلا تخشوهم . . واخشونى » . .

فلاسلطان لهم عليكم ، ولايملكون شيئا من أمركم ، ولاينبغى أن تحفلوهم فتميلوا عما جاءكم من عندى ، فأنا الذى أستحق الخشية بما أملك من أمركم فى الدنيا والآخرة . . ومع التهوين من شأن الذين ظلموا ، والتحذير من بأس الله ، يجىء التذكير بنعمة الله ، والإطماع فى إتمامها على الأمة المسلمة ، حين تستجيب وتستقيم :

« ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » . .

وهو تذكير موح ، وإطماع دافع ، وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم . .

ولقد كانت النعمة التى يذكرهم بها حاضرة بين أيديهم ، يدركونها فى أنفسهم ، ويدركونها فى حياتهم، ويدركونها فى مجتمعهم وموقفهم فى الأرض ومكانهم فى الوجود . .

كانوا هم أنفسهم الذين عاشوا فى الجاهلية بظلامها ورجسها وجهالتها ، ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى نور الإيمان وطهارته ومعرفته . فهم يجدون فى أنفسهم أثر النعمة جديدا واضحا عميقا .

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا فى الجاهلية قبائل متناحرة ، ذات أهداف صغيرة واهتمامات محدودة . ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى الوحدة تحت راية العقيدة ، وإلى القوة والمنعة ،وإلى الغايات الرفيعة والاهتمامات الكبيرة التى تتعلق بشأن البشرية كلها لابشأن ثأر فى قبيلة ! فهم يجدون أثر النعمة من حولهم كما وجدوه فى أنفسهم .

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا فى الجاهلية فى مجتمع هابط دنس مشوش التصورات مضطرب القيم .. ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى مجتمع الإسلام النظيف الرفيع ، الواضح التصور والاعتقاد ، المستقيم القيم والموازين .. فهم يجدون أثر النعمة فى حياتهم العامة كما وجدوه فى قلوبهم وفى مكانهم من الأمم حولهم .

Marfat.com

فإذا قال الله لهم : « ولأتم نعمتى عليكم » .. كان فى هذا القول تذكير موح ،وإطماع دافع وتلويح بفضل عظيم بعد فضل عظيم ..

ونجد فى تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديدا فى كل مرة . . فى المرة الأولى كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد تقلب وجهه فى السماء وضراعته الصامتة إلى ربه . . وفى الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه يوافق الرغبة والضراعة . . وفى الثالثة كان لقطع حجة الناس ، والتهوين من شأن من لايقف عند الحق والحجة ..

ولكننا – مع هذا – نلمح وراء التكرار أنه كانت هناك حالة واقعة فى الصف الإسلامى تستدعى هذا التكرار ، وهذا التوكيد ، وهذا البيان ، وهذا التعليل ؛ مما يشى بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل ، وأثرها فى بعض القلوب والنفوس . هذا الأثر الذى كان يعالجه القرآن الكريم ؛ ثم تبقى النصوص بعد ذلك على مدى الزمان تعالج مثل هذه الحالة فى شتى صورها ؛ فى المعركة الدائبة التى لاتهدأ ولاتفتر ولاتلين !

* * *

واستطراداً مع هذا الغرض نرى السياق يستطرد فى تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ، بإرسال هذا النبى منهم إليهم ، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم ، سادن المسجد الحرام قبلة المسلمين ؛ وبربطهم – سبحانه – به مباشرة فى نهاية الحديث :

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » . .

والذى يلفت النظر هنا ، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التى سبقت فى السورة ، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل . دعوته أن يبعث الله فى بنيه من جيرة البيت ، رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم ، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين ، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفى هذا مافيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثا إنما هو قديم ؛ وأن قبلتهم ليست

Marfat.com

طارئة إنما هى قبلة أبيهم إبراهيم ؛ وأن نعمة الله عليهم سابغة فهى نعمة الله التى وعدها خليله وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد .

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم ، وتميزكم بشخصيتكم هى إحدى الآلاء المطردة فيكم . سبقتها نعمة إرسال رسول منكم :

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم » ..

فهو التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم ، وأن يختار الرسول الأخير منكم ، وقد كانت يهود تستفتح به عليكم !

« يتلو عليكم آياتنا » ..

فما يتلو عليكم هو الحق . . والإيحاء الآخر هو الإشعار بعظمة التفضل فى أن يخاطب الله العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله .وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته . فمن هم هؤلاء الناس ؟ من هم وماهم ؟ حتى يخاطبهم الله سبحانه بكلماته ، ويتحدث إليهم بقوله، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة ؟ من هم وماهم لولا أن الله يتفضل ؟ ولولا أن فضل الله يفيض ؟ ولولا أنه ـ سبحانه ـ منذ البدء منحهم فضل النفخة من روحه ليكون فيهم مايستأهل هذا الإنعام ، ومايستقبل هذا الإفضال ؟

« ويزكيكم » ..

ولولا الله مازكى منهم من أحد ، ولاتطهر ولاارتفع . ولكنه أرسل رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطهرهم . يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التى تثقل الروح الإنسانى وتطمره. ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلاترتكس أرواحهم فى الحمأة . والذين لايطهر الإسلام أرواحهم فى جنبات الأرض كلها قديما وحديثا يرتكسون فى مستنقع آسن وبىء من الشهوات والنزوات تزرى بإنسانية الإنسان ؛ وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة ، وهى أنظف كثيرا مما يهبط إليه الناس بدون الإيمان ! ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب .. وهى كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر ،ويلطخ المجتمع والحياة . ويطهر حياتهم من الظلم والبغى . وينشر العدل النظيف الصريح ، الذى لم

Marfat.com

تستمتع به البشرية كما استمتعت فى ظل الإسلام وحكم الإسلام ومنهج الإسلام . ويطهرهم من سائر اللوثات التى تلطخ وجه الجاهلية فى كل مكان من حولهم ،وفى كل مجتمع لا يزكيه الإسلام بروحه ومنهجه النظيف الطهور ..

« ويعلمكم الكتاب والحكمة » ..

وفيها شمول لما سبق من تلاوة الآيات وهى الكتاب ؛ وبيان للمادة الأصيلة فيه ، وهى الحكمة ، والحكمة ثمرة التعلم بهذا الكتاب ؛ وهى ملكة يتأتى معها وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة ، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات .. وكذلك تحققت هذه الثمرة ناضجة لمن رباهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزكاهم بآيات الله .

« ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون » ..

وكان ذلك حقا فى واقع الجماعة المسلمة ؛ فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة ؛ تصلح لحياة القبيلة فى الصحراء ، أو فى تلك المدن الصغيرة المنعزلة فى باطن الصحراء . فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة ، خبيرة بصيرة عالمة .. وكان هذا القرآن ـ مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن ـ هو مادة التوجيه والتعليم . وكان مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن ـ هو الجامعة الكبرى التى تخرج فيها ذلك الجيل الذى قاد البشرية تلك القيادة الحكيمة الراشدة . القيادة التى لم تعرف لها البشرية نظيرا من قبل ولا من بعد فى تاريخ البشرية الطويل (١) .

ومازال هذا المنهج الذى خرج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان ، لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين ، ولو آمنت حقا بهذا القرآن، ولو جعلته منهجا للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان !

* * *

---

(١) يراجع فى خصائص هذه القيادة الراشدة كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للأستاذ أبو الحسن الندوى ص ٨٢ ـ ص ٩٦ .

Marfat.com

وفى آخر هذا الدرس يتفضل الله على المسلمين تفضلا آخر ، وهو يدعوهم إلى شكره ويحذرهم من كفره . يتفضل عليهم فيضمن لهم أن يذكرهم إذا هم ذكروه .

« فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون » ..

يا للتفضل الجليل الودود ! الله . جل جلاله . يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئا لذكرهم له فى عالمهم الصغير .. إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه فى هذه الأرض الصغيرة . . وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ! والله حين يذكرهم يذكرهم فى هذا الكون الكبير . . وهو الله .. العلى الكبير .. أى تفضل ! وأى كرم ! وأى فيض فى السماحة والجود !

« فاذكرونى أذكركم » .

إنه الفضل الذى لا يفيضه إلا الله الذى لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب لعطاياه. الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء .

وفى الصحيح : يقول الله تعالى : « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » .

وفى الصحيح أيضا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل: « يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة ـ أو قال فى ملأ خير منه ـ وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة . .

إنه ذلك الفضل الذى لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب ..

وذكر الله ليس لفظا باللسان ، إنما هو انفعال القلب معه أو بدونه ، والشعور بالله ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثرا ينتهى إلى الطاعة فى حده الأدنى ، وإلى رؤية الله وحده ولا شىء غيره لمن يهبه الله الوصول ويذيقه حلاوة اللقاء ..

« واشكروا لى ولا تكفرون » . .

والشكر لله درجات ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته . وتنتهى بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر فى كل حركة بدن ، وفى كل لفظة لسان ، وفى كل خفقة قلب ، وفى كل خطرة جنان .

Marfat.com

والنهى عن الكفر هنا إلماع إلى الغاية التى ينتهى إليها التقصير فى الذكر والشكر ؛ وتحذير من النقطة البعيدة التى ينتهى إليها هذا الخط التعيس ! والعياذ بالله !

ومناسبة هذه التوجيهات والتحذيرات فى موضوع القبلة واضحة . وهى النقطة التى تلتقى عندها القلوب لعبادة الله ، والتميز بالانتساب إليه ، والاختصاص بهذا الانتساب .

وهى كذلك واضحة فى مجال التحذير من كيد يهود ودسها ؛ وقد سبق أن الغاية الأخيرة لكل الجهود هى رد المؤمنين كفارا ، وسلبهم هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم ..نعمة الإيمان أكبر الآلاء التى ينعم الله بها على فرد أوجماعة من الناس . وهى بالقياس إلى العرب خاصة النعمة التى أنشأت لهم وجودا ، وجعلت لهم دورا فى التاريخ ، وقرنت اسمهم برسالة يؤدونها للبشرية ، وكانوا بدونها ضائعين ، ولولاها لظلوا ضائعين ، وهم بدونها أبدا ضائعون . فمالهم من فكرة يؤدون بها دورا فى الأرض غير الفكرة التى انبثقت منها ؛ وماتنقاد البشرية لقوم لايحملون فكرة تقود الحياة وتنميها . وفكرة الإسلام برنامج حياة كامل ، لا كلمة تقال باللسان بلارصيد من العمل الإيجابى المصدق لهذه الكلمة الطيبة الكبيرة .

وتذكر هذه الحقيقة واجب على الأمة المسلمة ليذكرها الله فلاينساها . ومن نسيه الله فهو مغمور ضائع لاذكر له فى الأرض ، ولاذكر له فى الملأ الأعلى . ومن ذكر الله ذكره ، ورفع من وجوده وذكره فى هذا الكون العريض .

ولقد ذكر المسلمون الله فذكرهم ، ورفع ذكرهم ، ومكنهم من القيادة الراشدة .ثم نسوه فنسيهم فإذا هم همل ضائع ، وذيل تافه ذليل .. والوسيلة قائمة . والله يدعوهم فى قرآنه الكريم : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون » ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » ﴿١٥٧﴾

Marfat.com

بعد تقرير القبلة ، وإفراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة ، التى تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك .. كان أول توجيه لهذه الأمة ذات الشخصية الخاصة والكيان الخاص ، هذه الأمة الوسط الشهيدة على الناس .. كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . والاستعداد لبذل التضحيات التى يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، والخوف والجوع ، ومكابدة أهوال الجهاد لإقرار منهج الله فى الأنفس ، وإقراره فى الأرض بين الناس . وربط قلوب هذه الأمة بالله ، وتجردها له ، ورد الأمور كلها إليه .. كل أولئك فى مقابل رضى الله ورحمته وهدايته ، وهى وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن ، الذى يدرك قيمة هذا الجزاء ..

* * *

« يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . إن الله مع الصابرين » ..

يتكرر ذكر الصبر فى القرآن كثيرا ؛ ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذى تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ؛ والذى يقتضيه القيام على دعوة الله فى الأرض بين شتى الصراعات والعقبات؛ والذى يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب ، مجندة القوى ، يقظة للداخل والخارج .. ولابد من الصبر فى هذا كله .. لابد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصى ، والصبر على جهاد المشاقين لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض . .

وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصبر ، أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد ومدد . ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ؛ فهى المعين الذى لاينضب ، والزاد الذى لا ينفد . المعين الذى يجدد الطاقة ، والزاد الذى يزود القلب ؛ فيمتد حبل الصبر ولاينقطع . ثم يضيف إلى الصبر ، الرضى والبشاشة ، والطمأنينة ، والثقة ، واليقين .

إنه لابد للإنسان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى ، يستمد منها العون

Marfat.com

حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة . حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة . حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهى عنيفة . حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود ؛ ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب . حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا ، ولاشعاع فى الأفق ولامعلم فى الطريق ..

هنا تبدو قيمة الصلاة .. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفانى والقوة الباقية . إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذى لايغيض . إنها مفتاح الكنز الذى يغنى ويقنى ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضى الصغير إلى مجال الواقع الكونى الكبير . إنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .. ومن هنا كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا كان فى الشدة قال : « أرحنا بها يابلال » . . ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله .

إن هذا المنهج الإسلامى منهج عبادة . والعبادة فيه ذات أسرار . ومن أسرارها أنها زاد الطريق . وأنها مدد الروح . وأنها جلاء القلب . وأنه حيثما كان تكليف كانت العبادة هى مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف فى حلاوة وبشاشة ويسر .. إن الله سبحانه حينما انتدب محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ للدور الكبير الشاق الثقيل ، قال له :

« ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا .. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » . . فكان الإعداد للقول الثقيل ، والتكليف الشاق ، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن . . إنها العبادة التى تفتح القلب ، وتوثق الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان .

ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام . . إلى الصبر وإلى الصلاة ..

ثم يجىء التعقيب بعد هذا التوجيه :

« إن الله مع الصابرين » . .

معهم . يؤيدهم ، ويثبتهم ، ويقويهم ، ويؤنسهم ، ولايدعهم يقطعون الطريق وحدهم ،

Marfat.com

ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة ، وقوتهم الضعيفة . إنما يمدهم حين ينفد زادهم ، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق . . وهو يناديهم فى أول الآية ذلك النداء الحبيب : « ياأيها الذين آمنوا » .. ويختم النداء بذلك التشجيع العجيب : « إن الله مع الصابرين » .

والأحاديث فى الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبته للسياق القرآنى هنا فى إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبئها والقيام بدورها :

عن خباب ابن الأرتّ ـ رضى الله عنه ـ قال : شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة . فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، مايصده ذلك عن دينه . . والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (١) ..

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « كأنى أنظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحكى نبيا من الأنبياء عليهم السلام ، ضربه قومه فأدموه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » (٢) .

وعن يحى ابن وثاب ، عن شيخ من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالطهم ولايصبر على أذاهم » (٣) .

* * *

والآن والجماعة المسلمة فى المدينة مقبلة على جهاد شاق لإقرار منهج الله فى الأرض، ولأداء دورها المقسوم لها فى قدر الله، ولتسلم الراية والسير بها فى الطريق الشاق الطويل . . الآن يأخذ القرآن فى تعبئتها تعبئة روحية ، وفى تقويم تصورها لما يجرى فى أثناء هذا الجهاد من

(١) أخرجه البخارى وأبوداود والنسائى .
(٢) أخرجه الشيخان .
(٣) أخرجه الترمذى.

Marfat.com

جذب ودفع ، ومن تضحيات وآلام ؛ وفى إعطائها الموازين الصحيحة التى تقدر بها القيم فى هذه المعركة الطويلة تقديرا صحيحا :

« ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله : أموات بل أحياء ولـكن لاتشعرون » ..

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء فى معركة الحق . شهداء فى سبيل الله . قتلى أعزاء أحياء. قتلى كراما أزكياء ـ فالذين يخرجون فى سبيل الله ، والذين يضحون بأرواحهم فى معركة الحق، هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس ـ هؤلاء الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا . إنهم أحياء . فلايجوز أن يقال عنهم : أموات . لايجوز أن يعتبروا أمواتا فى الحس والشعور ، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان . إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه . فهم لابد أحياء .

إنهم قتلوا فى ظاهر الأمر ، وحسبما ترى العين . ولـكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لاتقررها هذه النظرة السطحية الظاهرة .. إن سمة الحياة الأولى هى الفاعلية والنمو والامتداد . وسمة الموت الأولى هى السلبية والخمود والانقطاع . . وهؤلاء الذين يقتلون فى سبيل الله فاعليتهم فى نصرة الحق الذى قتلوا من أجله فاعلية مؤثرة ، والفكرة التى من أجلها قتلوا ترتوى بدمائهم وتمتد ، وتأثر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد . فهم مازالون عنصرا فعالا دافعا مؤثرا فى تـكييف الحياة وتوجيهها ، وهذه هى صفة الحياة الأولى . فهم أحياء أولا بهذا الاعتبار الواقعى فى دنيا الناس .

ثم هم أحياء عند ربهم ـ إما بهذا الاعتبار ، وإما باعتبار آخر لاندرى نحن كنهه . وحسبنا إخبار الله تعالى به : « أحياء ولـكن لاتشعرون » .. لأن كنه هـــذه الحياة فوق إدراكنا البشرى القاصر المحدود . ولـكنهم أحياء .

أحياء . ومن ثم لايغسلون كما يغسل الموتى ، ويكفنون فى ثيابهم التى استشهدوا فيها . فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة . وثيابهم فى الأرض ثيابهم فى القبر لأنهم بعد أحياء .

أحياء . فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء . أحياء يشاركون فى حياة الأهل

Marfat.com

والأحياء والأصدقاء . أحياء فلايصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم ، ولا يتعاظمها الأمر ، ولايهولنها عظم الفداء .

ثم هم بعد كونهم أحياء مكرمون عندالله ، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه :

فى صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة . فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ياربنا . وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لايتركون من أن يسألوا قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى — لما يرون من ثواب الشهادة — فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لايرجعون » . .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : مامن أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ، وله ماعلى الأرض من شىء . إلا الشهيد ، ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة . (أخرجه مالك والشيخان)

ولكن من هم هؤلاء الشهداء الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين يقتلون « فى سبيل الله » . . فى سبيل الله وحده ، دون شركة فى شارة ولاهدف ولاغاية إلا الله . فى سبيل هذا الحق الذى أنزله . فى سبيل هذا المنهج الذى شرعه . فى سبيل هذا الدين الذى اختاره .. فى هذا السبيل وحده ، لافى أى سبيل آخر ، ولاتحت أى شعار آخر ، ولاشركة مع هدف أوشعار . وفى هذا شدد القرآن وشدد الحديث ، حتى ماتبقى فى النفس شبهة أوخاطر . . غير الله . .

عن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . . (أخرجه مالك والشيخان) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رجلا قال : يارسول الله : رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من الدنيا ؟ فقال : « لاأجر له » . فأعاد عليه ثلاثا . كل ذلك يقول : « لاأجر له » . (أخرجه أبو داود)

Marfat.com

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تضمن الله تعالى لمن خرج فى سبيل الله . لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى . . فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة . والذى نفس محمد بيده ، ما من كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم ، لونه لون دم وريحه ريح مسك . والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله عز وجل أبدا . ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة فيتبعونى ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » (أخرجه مالك والشيخان) .

فهؤلاء هم الشهداء . هؤلاء الذين يخرجون فى سبيل الله ، لا يخرجهم إلا جهاد فى سبيله ، وإيمان به ، وتصديق برسله .

ولقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتى فارسى يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته فى مجال الجهاد :

عن عبد الرحمن ابن أبى عقبة عن أبيه (وكان مولى من أهل فارس) قال : (شهدت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحدا . فضربت رجلا من المشركين ، فقلت : خذها وأنا الغلام الفارسىّ . فالتفت إلىّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « هلا قلت : وأنا الغلام الأنصارى ؟ إن ابن أخت القوم منهم ، وإن مولى القوم منهم ») (أخرجه أبو داود) .

فقد كره له صلى الله عليه وسلم أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين . . وهذا هو الجهاد . وفيه وحده تكون الشهادة ، وتكون الحياة للشهداء . .

* * *

ثم يمضى السياق فى التعبئة لمواجهة الأحداث ، وفى تقويم التصور لحقيقة الأحداث :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون » . .

Marfat.com

ولابد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. لابد من هذا البلاء ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة ، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف . والعقائد الرخيصة التى لايؤدى أصحابها تكاليفها لايعز عليهم التخلى عنها عند الصدمة الأولى . فالتكاليف هنا هى الثمن النفسى الذى تعز به العقيدة فى نفوس أهلها قبل أن تعز فى نفوس الآخرين . وكلما تألموا فى سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها.. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها . كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها .. إنهم عندئذ سيقولون فى أنفسهم : لولم يكن ماعند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ماقبلوا هذا البلاء ، ولاصبروا عليه .. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين إليها .. وعندئذ يجئ نصر الله والفتح ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ..

ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى . فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ؛ وتفتح فى القلب منافذ ومسارب ماكان ليعلمها المؤمن فى نفسه إلا تحت مطارق الشدائد . والقيم والموازين والتصورات ماكانت لتصح وتدق وتستقيم إلا فى جو المحنة التى تزيل الغبش عن العيون ، والران عن القلوب .

وأهم من هذا كله ، أو القاعدة لهذا كله .. الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها ، وتتوارى الأوهام وهى شتى ، ويخلو القلب إلى الله وحده . لايجد سندا إلا سنده . وفى هذه اللحظة فقط تنجلى الغشاوات ، وتتفتح البصيرة ، وينجلى الأفق على مد البصر .. لاشئ إلا الله .. لاقوة إلا قوته .. لاحول إلا حوله .. لاإرادة إلا إرادته .. لاملجأ إلا إليه .. وعندئذ تلتقى الروح بالحقيقة الواحدة التى يقوم عليها تصور صحيح ..

والنص القرآنى هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق :

« وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون » ..

إنا لله .. كلنا .. كل مافينا .. كل كياننا وذاتيتنا .. لله .. وإليه المرجع والمآب فى كل أمر

Marfat.com

وفى كل مصير .. التسليم .. التسليم المطلق .. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه بالحقيقة الوحيدة ، وبالتصور الصحيح .

هؤلاء هم الصابرون .. الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل ..

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل :

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » ..

صلوات من ربهم .. يرفعهم بها إلى المشاركة فى نصيب نبيه الذى يصلى عليه هو وملائكته سبحانه .. وهو مقام كريم .. ورحمة .. وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون ..

وكل أمر من هذه هائل عظيم ..

* * *

وبعد .. فلابد من وقفة أمام هذه الخاتمة فى تلك التعبئة للصف الإسلامى . التعبئة فى مواجهة المشقة والجهد ، والاستشهاد والقتل ، والجوع والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . التعبئة فى هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف .

إن الله يضع هذا كله فى كفة . ويضع فى الكفة الأخرى أمرا واحدا .. صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . . إنه لايعدهم هنا نصرا ، ولايعدهم هنا تمكينا ، ولايعدهم هنا مغانم ، ولايعدهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمته وشهادته .. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها . فكان من ثم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية ـ حتى الرغبة فى انتصار العقيدة ـ كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته .. كان عليهم أن يمضوا فى طريقهم لايتطلعون إلى شىء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون .. هذا هو الهدف ، وهذه هى الغاية ، وهذه هى الثمرة الحلوة التى تهفو إليها قلوبهم وحدها . . فأما مايكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم ، إنما هو لدعوة الله التى يحملونها .

إن لهم فى صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء . جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات. وجزاء على الخوف والجوع والشدة . وجزاء على القتل والشهادة . . إن الكفة ترجح بهذا

Marfat.com

العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء . أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور ..

هذه هى التربية التى أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهى فى التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين .

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ؛ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

Marfat.com

ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ! كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ .

« يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ.

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَاأَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ! أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ ، وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ . فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَاأَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ مَايَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ،وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ . فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ! * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِي ٱلْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

« لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ؛ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ ، وَآتَى ٱلْمَالَ ـ عَلَىٰ حُبِّهِ ـ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ، وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ

Marfat.com

وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ».(١٧٧)

يستهدف هذا الدرس تصحيح عدد من القواعد التى يقوم عليها التصور الإيمانى الصحيح؛ مع الاستمرار فى مواجهة يهود المدينة الذين لايكفون عن تلبيس الحق بالباطل فى هذه القواعد؛ وكتمان الحق الذى يعلمونه فى شأنها ؛ وإيقاع البلبلة والاضطراب فيها .. ولكن السياق يتخذ فى هذا الدرس أسلوب التعميم ؛ وعرض القواعد العامة ، التى تشمل اليهود وغيرهم ممن يرصدون للدعوة . وكذلك يحذر المسلمين من المزالق التى تترصدهم فى طريقهم بصفة عامة .

ومن ثم نجد بيانا فى موضوع الطواف بالصفا والمروة ، بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية . وهو بيان يتصل كذلك بمسألة الاتجاه إلى المسجد الحرام فى الصلاة ، وإقرار شعائر الحج إلى هذا البيت .

لذلك يليه فى السياق بيان فى شأن أهل الكتاب الذين يكتمون ماأنزل الله من البينات والهدى ؛ وحملة عنيفة عليهم ؛ مع فتح باب التوبة لمن يريد أن يتوب . فأما الذين يصرون على الكفر فيعدهم اللعنة الجامعة ، والعذاب الشديد الدائم .

ثم بيان لوحدانية الله ، وتوجيه إلى الآيات الكونية الشاهدة بهذه الحقيقة . وتنديد بمن يتخذون من دون الله أندادا . وعرض مشهد من مشاهد القيامة للتابعين منهم والمتبوعين . يتبرأ بعضهم من بعض وهم يرون العذاب .

وبمناسبة ما كان يجادل فيه اليهود من الحلال والحرام فى المطاعم والمشارب ، مما نزل به القرآن وبيانه عندهم فيما يكتمونه من التوراة .. تجىء دعوة إلى الناس كافة للاستمتاع بالطيبات التى أحلها الله؛ وتحذير من الشيطان الذى يأمرهم بالسوء والفحشاء . تليها دعوة خاصة للذين آمنوا للاستمتاع بما أحل الله لهم والامتناع عما حرم عليهم ، وبيان هذه المحرمات التى يجادل فيها اليهود ويماحلون وهم يعلمون .

Marfat.com

ومن ثم حملة عنيفة على الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا . وتهديد رعيب عما ينتظرهم في الآخرة من إهمال وغضب واحتقار .

وفي نهاية الدرس يرد بيان عن حقيقة البر يتضمن قواعد الإيمان والعمل الصالح ، يصحح به التصور الإيماني ؛ فليس هو شكليات ظاهرية، وتقليبا للوجوه قبل المشرق والمغرب، ولكنه شعور وعمل وارتباط بالله في الشعور والعمل .. وتبدو الملاقة بين هذا البيان والجدل الذي ثار حول القبلة واضحة .

وهكذا نجد السياق ما يزال في المعركة .. المعركة في داخل النفوس لتصحيح التصورات والموازين . والمعركة مع الكيد والدس والبلبلة التي يقوم بها أعداء المسلمين ..

* * *

« إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » ..

هناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية ، أقربها إلى المنطق النفسي المستفاد من طبيعة التصور الذي أنشأه الإسلام في نفوس المجموعة السابقة إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار .. الرواية التي تقول : إن بعض المسلمين تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة في الحج والعمرة ، بسبب أنهم كانوا يسعون بين هذين الجبلين في الجاهلية ، وأنه كان فوقهما صنمان هما إساف ونائلة . فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون في الجاهلية .

قال البخاري : حدثنا محمد ابن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ابن سليمان : قال سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية . فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .. وقال الشعبي : كان أساف على الصفا ، وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

ولم يرد تحديد لتاريخ نزول هذه الآية . والأرجح أنها نزلت متأخرة عن الآيات الخاصة بتحويل القبلة . ومع أن مكة قد أصبحت دار حرب بالنسبة للمسلمين ، فإنه لا يبعد أن بعض

Marfat.com

المسلمين كانوا يتمكنون أفرادا من الحج ومن العمرة . وهؤلاء هم الذين تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة . . وكان هـذا التحرج ثمرة التعليم الطويل ، ووضوح التصور الإيمانى فى نفوسهم ، هـذا الوضوح الذى يجعلهم يتحرزون ويتوجسون من كل أمر كانوا يزاولونه فى الجاهلية . إذ أصبحت نفوسهم من الحساسية فى هـذه الناحية بحيث تفزع من كل ما كان فى الجاهلية ، وتتوجس أن يكون منهيا عنه فى الإسلام . الأمر الذى ظهر بوضوح فى مناسبات كثيرة . .

كانت الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزا وتغلغلت فيها إلى الأعماق ، فأحدثت فيها انقلاباً نفسيا وشعوريا كاملا ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز إلى ماضيهم فى الجاهلية ؛ ويحسون أن هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالا كاملا ، فلم يعد منهم ، ولم يعودوا منه ؛ وعاد دنسا ورجسا يتحرزون من الإلمام به !

وإن المتابع لسيرة هذه الفترة الأخيرة فى حياة القوم ليحس بقوة أثر هذه العقيدة العجيب فى تلك النفوس . يحس التغير الكامل فى تصورهم للحياة . حتى لكأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمسك بهذه النفوس فهزها هزة نفضت عنها كل رواسبها ، وأعادت تأليف ذراتها على نسق جديد ؛ كما تصنع الهزة الكهربية فى تأليف ذرات الأجسام على نسق آخر غير الذى كان !

وهذا هو الإسلام . . هذا هو : انسلاخا كاملا عن كل ما فى الجاهلية ، وتحرجا بالغا من كل أمر من أمور الجاهلية ، وحذرا دائما من كل شعور وكل حركة كانت النفس تأتيها فى الجاهلية . حتى يخلص القلب للتصور الجديد بكل مايقتضيه . . فلما أن تم هذا فى نفوس الجماعة المسلمة أخذ الإسلام يقرر مايريد الإبقاء عليه من الشعائر الأولى ، مما لايرى فيه بأسا . ولكن يربطه بعروة الإسلام بعد أن نزعه وقطعه عن أصله الجاهلى . فإذا أتاه المسلم فلايأتيه لأنه كان يفعله فى الجاهلية ؛ ولكن لأنه شعيرة جديدة من شعائر الإسلام ، تستمد أصلها من الإسلام.

وهنا نجد مثالا من هذا المنهج التربوى العميق . إذ يبدأ القرآن بتقرير أن الصفا والمروة من شعائر الله :

Marfat.com

« إن الصفا والمروة من شعائر الله » ..

فإذا اطوف بهما مطوف ، فإنما يؤدى شعيرة من شعائر الله ؛ وإنما يقصد بالطواف بينهما إلى الله . ولقد انقطع مابين هـذا الطواف الجديد وطواف الجاهلية الموروث ؛ وتعلق الأمر بالله - سبحانه - لا بأساف ونائلة وغيرهما من أصنام الجاهلية !

ومن ثم فلاحرج ولاتأثم . فالأمر غير الأمر ، والاتجاه غير الاتجاه :

« فمن حج البيت أواعتمر فلاجناح عليه أن يطوف بهما » ..

وقد أقر الإسلام معظم شعائر الحج التى كان العرب يؤدونها ، ونفى كل مايمت إلى الأوثان وإلى أوهام الجاهلية ، وربط الشعائر التى أقرها بالتصور الإسلامى الجديد ، بوصفها شعائر إبراهيم التى علمه ربه إياها (وسيأتى تفصيل هذا عند الـكلام على فريضة الحج فى موضعه من سياق السورة) .. فأما العمرة فـكالحج فى شعائرهافيما عدا الوقوف بعرفة دون توقيت بمواقيت الحج . وفى كلا الحج والعمرة جعل الطواف بين الصفا والمروة من شعائرهما .

ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير إطلاقا :

« ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » ..

فيلمح إلى أن هذا الطواف من الخير ، وبذلك ينفى من النفوس كل حرج ، ويطيب القلوب بهذه الشعائر ، ويطمئنها على أن الله يعدها خيرا ، ويجازى عليها بالخير . وهو يعلم ماتنطوى عليه القلوب من نية وشعور .

ولابد أن نقف لحظة أمام ذلك التعبير الموحى : « فإن الله شاكر . . . » . . إن المعنى المقصود أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب عليه . ولـكن كلمة « شاكر » تلقى ظلالا ندية وراء هذا المعنى المجرد . تلقى ظلال الرضى الـكامل ، حتى لـكأنه الشكر من الرب للعبد . ومن ثم توحى بالأدب الواجب من العبد مع الرب . فإذا كان الرب يشكر لعبده الخير ، فماذا يصنع العبد ليوفى الرب حقه من الشكر والحمد ؟؟ تلك ظلال التعبير القرآنى التى تلمس الحس بكل مافيها من الندى والرفق والجمال .

* * *

Marfat.com

ومن بيان مشروعية الطواف بالصفا والمروة ينتقل السياق إلى الحملة على الذين يكتمون ماأنزل الله من البينات والهدى، وهم اليهود الذين سبق الحديث عنهم طويلا فى سياق السورة . مما يوحى بأن دسائسهم لم تنقطع حول مسألة الاتجاه إلى المسجد الحرام وفرض الحج إليه أيضا :

« إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم . إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون » . .

ولقد كان أهل الكتاب يعرفون مما بين أيديهم من الكتاب مدى مافى رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حق ، ومدى مافى الأوامر التى يبلغها من صدق، ومع هـذا يكتمون هذا الذى بينه الله لهم فى الكتاب . فهم وأمثالهم فى أى زمان ، ممن يكتمون الحق الذى أنزله الله ، لسبب من أسباب الكتمان الكثيرة ، ممن يراهم الناس فى شتى الأزمنة وشتى الأمكنة ، يسكتون عن الحق وهم يعرفونه ، ويكتمون الأقوال التى تقرره وهم على يقين منها ، ويجتنبون آيات فى كتاب الله لا يبرزونها بل يسكتون عنها ويخفونها لينحوا الحقيقة التى تحملها هذه الآيات ويخفوها بعيدا عن سمع الناس وحسهم ، لغرض من أغراض هذه الدنيا .. الأمر الذى نشهده فى مواقف كثيرة ، وبصدد حقائق من حقائق هذا الدين كثيرة . . « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » . .

كأنما تحولوا إلى ملعنة ، ينصب عليها اللعن من كل مصدر ، ويتوجه إليها ـ بعدالله ـ من كل لاعن !

واللعن : الطرد فى غضب وزجر ، وأولئك الخلق يلعنهم الله فيطردهم من رحمته، ويطاردهم اللاعنون من كل صوب . فهم هكذا مطاردون من الله ومن عباده فى كل مكان ..

« إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا . فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم » .

هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة ـ نافذة التوبة ـ يفتحها فتنسم نسمة الأمل

Marfat.com

فى الصدور ، وتقود القلوب إلى مصدر النور ، فلا تيئس من رحمة الله ، ولا تقنط من عفوه. فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن ، صادق النية . وآية صدق التوبة الإصلاح فى العمل ، والتبيين فى القول ، وإعلان الحق والاعتراف به والعمل بمقتضاه . . ثم ليثق برحمة الله وقبوله للتوبة ، وهو يقول . « وأنا التواب الرحيم » وهو أصدق القائلين .

فأما الذين يصرون ولا يتوبون حتى تفلت الفرصة وتنتهى المهلة ، فأولئك ملاقون ماأوعد الله من قبل به ، بزيادة وتفصيل وتوكيد :

« إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » . .

ذلك أنهم أغلقوا على أنفسهم ذلك الباب المفتوح ، وتركوا الفرصة تفلت ، والمهلة تنقضى ، وأصروا على الكتمان والكفر والضلال : « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . . فهى لعنة مطبقة لاملجأ منها ولا صدر حنون !

ولم يذكر السياق لهم عذابا آخر غير هذه اللعنة المطبقة ؛ بل عدها عذابا لا يخفف عنهم ، ولا يؤجل موعده ولا يمهلون فيه . وإنه لعذاب دونه كل عذاب . عذاب المطاردة والنبذ والجفوة . فلا يتلقاهم صدر فيه حنان ، ولا عين فيها قبول ، ولا لسان فيه تحية . إنهم ملعونون مطرودون منبوذون من العباد ومن رب العباد فى الأرض وفى الملإ الأعلى على السواء . . وهذا هو العذاب الأليم المهين . .

* * *

بعد ذلك يمضى السياق فى إقامة التصور الإيمانى على قاعدته الكبيرة . قاعدة التوحيد . ويعرض من مشاهد الكون مايشهد بهذه الحقيقة شهادة لاتقبل الجدل . ثم يندد بمن يتخذون من دون الله أندادا ؛ ويصور موقفهم المتخاذل يوم يرون العذاب ، فيتبرأ بعضهم من بعض ؛ فلا ينفعهم هذا التبرؤ ، ولا تفيدهم حسراتهم ولا تخرجهم من النار .

«وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء

Marfat.com

فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا، وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وماهم بخارجين من النار » ..

إن وحدة الألوهية هى القاعدة الكبيرة التى يقوم عليها التصور الإيمانى . فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله ـ تختلف التصورات حول ذاته وحول صفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لاتنفى وجوده ـ ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة، حقيقة وجود إله، إلا فى هذه الأيام الأخيرة حين نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة ، منقطعة عن أصل الفطرة ، تنكر وجود الله . وهى نابتة شاذة لاجذور لها فى أصل هـذا الوجود ؛ ومن ثم فمصيرها حتما إلى الفناء والاندثار من هذا الوجود . هـذا الوجود الذى لايطيق تكوينه ، ولا تطيق فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق المقطوعة الجذور !

لذلك اتجه السياق القرآنى دائما إلى الحديث عن وحدة الألوهية ، بوصفها التصحيح الضرورى للتصور ، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور .. ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية ، المنبثقة من هذا التصور .. تصور وحدة الألوهية فى هذا الوجود :

« وإلهكم إله واحد » .. « لاإله إلا هو » .. « الرحمن الرحيم » ..

ومن وحدانية الألوهية التى يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذى يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ؛ ويتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ؛ ويتوحد المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ؛ ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق .

وهنا والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم فى الأرض ، يعيد ذكر هذه الحقيقة التى تكرر ذكرها مرات ومرات فى القرآن المكى ، والتى ظل القرآن يعمق جذورها

Marfat.com

ويمد فى آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل ، وكل جوانب الحياة والوجود ... يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقيم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف .. ثم يذكر من صفات الله هنا : « الرحمن الرحيم » ..فمن رحمته السابغة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف .

وهذا الكون كله شاهد بالوحدانية وبالرحمة فى كل مجاليه :

« إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض .. لآيات لقوم يعقلون » ..

وهذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون . العجائب التى تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإيحاءاتها للقلب والحس ، وهى دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذى يراه أول مرة مفتوح العين ، متوفز الحس ، حى القلب. وكم فى هذه المشاهد المكرورة من عجيب وكم فيها من غريب . وكم اختلجت العيون والقلوب وهى تطلع عليها أول مرة ؛ ثم ألفتها ففقدت هزة المفاجأة ، ودهشة المباغتة ، وروعة النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب .

تلك السماوات والأرض . . هـذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة ، والعوالم المجهولة .. هذا التناسق فى مواقعها وجريانها فى ذلك الفضاء الهائل الذى يدير الرؤوس.. هذه الأسرار التى توصوص للنفس وتلتف فى رداء المجهول . . هذه السماوات والأرض حتى دون أن يعرف الإنسان شيئا عن حقيقة أبعادها وأحجامها وأسرارها التى يكشف الله للبشر عن بعضها حينما تنمو مداركهم وتسعفهم أبحاث العلوم . .

واختلاف الليل والنهار .. تعاقب النور والظلام .. توالى الإشراق والعتمة . ذلك الفجر وذلك الغروب .. كم اهتزت لها مشاعر ، وكم وجفت لها قلوب ، وكم كانت أعجوبة الأعاجيب .. ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار . إلا القلب المؤمن الذى تتجدد فى حسه هـذه المشاهد ؛ ويظل أبدا يذكر يد الله فيها فيتلقاها فى كل مرة بروعة الخلق الجديد .

والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس .. وأشهد ماأحسست مافى هذه اللفتة من عمق

Marfat.com

قدر ماأحسست ونقطة صغيرة فى خضم المحيط تحملنا وتجرى بنا ، والموج المتلاطم والزرقة المطلقةمن حولنا . والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك . ولاشئ إلا قدرة الله ، وإلا رعاية الله ، وإلا قانون الكون الذى جعله الله ، يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرعيب !

وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض .. وكلها مشاهد لوأعاد الإنسان تأملها ـ كما يوحى القرآن للقلب المؤمن ـ بعين مفتوحة وقلب واع ، لارتجف كيانه من عظمة القدرة ورحمتها .. تلك الحياة التى تنبعث من الأرض حينما يجودها الماء .. هذه الحياة المجهولة الكنه، اللطيفة الجوهر ، التى تدب فى لطف ، ثم تتبدى جاهرة معلنة قوية .. هذه الحياة من أين جاءت ؟كانت كامنة فى الحبة والنواة ! ولكن من أين جاءت إلى الحبة والنواة ؟ أصلها ؟ مصدرها الأول ؟ إنه لايجدى الهرب من مواجهة هذا السؤال الذى يلح على الفطرة .. لقد حاول الملحدون تجاهل هذا السؤال الذى لاجواب عليه إلا وجود خالق قادر على إعطاء الحياة للموات . وحاولوا طويلا أن يوهموا الناس أنهم فى طريقهم إلى إنشاء الحياة ـ بلاحاجة إلى إله ! ـ ثم أخيرا إذا هم فى أرض الإلحاد الجاحد الكافر ينتهون إلى نفض أيديهم والإقرار بما يكرهون : استحالة خلق الحياة ! وأعلم علماء روسيا الكافرة فى موضوع الحياة هو الذى يقول هذا الآن ! ومن قبل راغ دارون صاحب نظرية النشوء والارتقاء من مواجهة هذا السؤال !

ثم تلك الرياح المتحولة من وجهة إلى وجهة ، وذلك السحاب المحمول على هواء ، المسخر بين السماء والأرض ، الخاضع للناموس الذى أودعه الخالق هذا الوجود .. إنه لايكفى أن تقول نظرية ماتقوله عن أسباب هبوب الريح ، وعن طريقة تكون السحاب .. إن السر الأعمق هو سر هذه الأسباب .. سر خلقة الكون بهذه الطبيعة وبهذه النسب وبهذه الأوضاع ، التى تسمح بنشأة الحياة ونموها وتوفير الأسباب الملائمة لها من رياح وسحاب ومطر وتربة .. سر هذه الموافقات التى يعد المعروف منها بالآلاف ، والتى لواختلت واحدة منها مانشأت الحياة

Marfat.com

أوماسارت هـذه السيرة . . سر التدبير الدقيق الذى يشى بالقصد والاختيار ، كما يشى بوحدة التصميم ورحمة التدبير ..

« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

نعم لوألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة ، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد ، ونظرة مستطلعة ، وقلب نوّره الإيمان . ولوسار فى هـذا الكون كالرائد الذى يهبط إليه أول مرة . تلفت عينه كل ومضة ، وتلفت سمعه كل نأمة ، وتلفت حسه كل حركة ، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التى ماتنى تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر ..

إن هذا هو مايصنعه الإيمان . هذا التفتح . هذه الحساسية . هذا التقدير للجمال والتناسق والكمال . . إن الإيمان رؤية جديدة للكون ، وإدراك جديد للجمال ، وحياة على الأرض فى مهرجان من صنع الله ، آناء الليل وأطراف النهار . .

ومع هـذا فإن هناك من لاينظر ولايتعقل ، فيحيد عن التوحيد الذى يوحى به تصميم الوجود ، والنظر فى وحدة الناموس الكونى العجيب :

« ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله » . .

من الناس من يتخذ من دون الله أندادا . . كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارا وأشجارا ، أونجوما وكواكب ، أوملائكة وشياطين . . وهم فى كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أوأشخاص أوشارات أو اعتبارات .. وكلها شرك خفى أو ظاهر ، إذا ذكرت إلى جانب اسم الله ، وإذا أشركها المرء فى قلبه مع حب الله . فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذى لا يكون إلا لله ؟

إن المؤمنين لايحبون شيئا حبهم لله . لا أنفسهم ولاسواهم . لاأشخاصا ولااعتبارات ولاشارات ولاقيما من قيم هذه الأرض التى يجرى وراءها الناس :

« والذين آمنوا أشد حبا لله » ..

أشد حبا لله ، حبا مطلقا من كل موازنة ، ومن كل قيد . أشد حبا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه .

Marfat.com

والتعبير هنا بالحب تعبير جميل ، فوق أنه تعبير صادق . فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هى صلة الحب . صلة الوشيجة القلبية ، والتجاذب الروحى . صلة المودة والقربى. صلة الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود .

« ولو يرى الذين ظلموا ـ إذ يرون العذاب ـ أن القوة لله جميعا ، وأن الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ! كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وماهم بخارجين من النار » ..

أولئك الذين اتخذوا من دون الله أندادا . فظلموا الحق ، وظلموا أنفسهم . . لو مدوا بأبصارهم إلى يوم يقفون بين يدى الله الواحد ! لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذى ينتظر الظالمين ! لو يرون لرأوا « أن القوة لله جميعا » فلا شركاء ولا أنداد . . « وأن الله شديد العذاب » .

لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين . ورأوا العذاب . فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب ، وانشغل كل بنفسه تابعا كان أم متبوعا . وسقطت الرياسات والقيادات التى كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلا على وقاية تابعيها . وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة ، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب .

« وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا » . .

وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين فى القيادات الضالة . وتمنوا لو يردون لهم الجميل ! لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة فى حقيقتها ، التى خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب !

إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين . بين المحبين والمحبوبين ! وهنا يجىء التعقيب الممض المؤلم :

« كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وماهم بخارجين من النار » ..

***

Marfat.com

بعد هذا يمضى السياق يدعو الناس إلى التمتع بطيبات الحياة ، والبعد عن خبائثها ، محذرا من اتباع الشيطان ، الذى يأمرهم بالخبائث ، والادعاء على الله فى التحليل والتحريم بغير إذن منه ولاتشريع ؛ ويحذرهم من التقليد فى شأن العقيدة بغير هدى من الله ، ويندد بالذين يدعون من دون الله مالايعقل ولايسمع . . وبهذا يلتقى موضوع هذه الفقرة بموضوع الفقرة السابقة فى السياق :

« ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله مالاتعلمون . وإذا قيل لهم : اتبعوا ماأنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ؟ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لايعقلون » . .

لما بين الله - سبحانه - أنه الإله الواحد ، وأنه الخالق الواحد - فى الفقرات السابقة - وأن الذين يتخذون من دون الله أندادا سينالهم ماينالهم . . شرع يبين هنا أنه الرازق لعباده ، وأنه هو الذى يشرع لهم الحلال والحرام . . وهذا فرع عن وحدانية الألوهية كما أسلفنا . فالجهة التى تخلق وترزق هى التى تشرع فتحرم وتحلل . وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك .

وهنا يبيح الله للناس جميعا أن يأكلوا مما رزقهم فى الأرض حلالا طيبا - إلا ماشرع لهم حرمته وهو المبين فيما بعد - وأن يتلقوا منه هو الأمر فى الحل والحرمة ، وألا يتبعوا الشيطان فى شىء من هذا ، لأنه عدوهم ؛ ومن ثم فهو لايأمرهم بخير ، إنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل ؛ ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم ، دون أمر من الله ، مع الزعم بأن هـذا الذى يقولونه هو شريعة الله . . كما كان اليهود مثلا يصنعون ، وكما كان مشركو قريش يدعون :

« ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان.إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالاتعلمون » . .

Marfat.com

وهذا الأمر بالإباحة والحل لما فى الأرض - إلا المحظور القليل الذى ينص عليه القرآن نصا - يمثل طلاقة هذه العقيدة ، وتجاوبها مع فطرة الكون وفطرة الناس فالله خلق مافى الأرض للإنسان ، ومن ثم جعله له حلالا ، لايقيده إلا أمر خاص بالحظر ، وإلا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد . ولكن الأمر فى عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة ، واستجابة للفطرة بلا كزازة ولاحرج ولاتضيق .. كل أولئك بشرط واحد ، هو أن يتلق الناس مايحل لهم ومايحرم عليهم من الجهة التى ترزقهم هذا الرزق . لامن إيحاء الشيطان الذى لايوحى بخير لأنه عدو للناس بين العداوة . لايأمرهم إلا بالسوء وبالفحشاء ، وإلا بالتجديف على الله ، والافتراء عليه ، دون تثبت ولايقين !

« وإذا قيل لهم : اتبعوا ماأنزل الله قالوا : بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا » . .

وسواء كان هؤلاء الذين تعنيهم الآية هم المشركون الذين تكرر منهم هذا القول كلما دعوا إلى الإسلام ، وإلى تلق شرائعهم وشعائرهم منه ، وهجر ماألفوه فى الجاهلية مما لايقره الإسلام. أو كانوا هم اليهود الذين كانوا يصرون على ماعندهم من مأثور آبائهم ويرفضون الاستجابة للدين الجديد جملة وتفصيلا .. سواء كانواهؤلاء أم هؤلاء فالآية تندد بتلق شىءفى أمر العقيدة من غير الله ؛ وتندد بالتقليد فى هذا الشأن والنقل بلا تعقل ولاإدراك :

« أولوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ؟ » .

أولوكان الأمر كذلك ، يصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ؟ فأى جمود هذا وأى تقليد ؟ !

ومن ثم يرسم لهم صورة زرية تليق بهذا التقليد وهذا الجمود ، صورة البهيمة السارحة التى لاتفقه مايقال لها ، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لاتفقه ماذا يعنى ! بل هم أضل من هذه البهيمة ، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح ، وهم صم بكم عمى :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لايعقلون » !

صم بكم عمى . ولوكانت لهم آذان وألسنة وعيون . ماداموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون .

Marfat.com

فكأنها لاتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان وألسنة وعيون .

وهذه منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره ، ويغلق منافذ المعرفة والهداية ، ويتلقى فى أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التى ينبغى أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة . .

* * *

وهنا يتجه بالحديث ـ خاصة ـ إلى الذين آمنوا . يبيح لهم الأكل من طيبات مارزقهم . ويوجههم إلى شكر المنعم على نعمه . ويبين لهم ماحرم عليهم ، وهو غير الطيبات التى أباحها لهم. ويندد بالذين يجادلونهم فى هذه الطيبات والمحرمات من اليهود . وهى عندهم فى كتابهم :

« ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل به لغير الله . فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم . إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك مايأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ، ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » . .

إن الله ينادى الذين آمنوا بالصفة التى تربطهم به سبحانه ؛ وتوحى إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ؛ وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام . ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم ؛ فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات ، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم ـ وهو الذى أفاض عليهم الرزق ابتداء ـ ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلاشريك . فيوحى إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد . . كل أولئك فى آية واحدة قليلة الكلمات :

« ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » . .

ثم يبين لهم المحرمات من المآكل نصا وتحديدا باستعمال أداة القصر « إنما » . .

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل به لغير الله » . .

والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم ، فضلا على ماأثبته الطب ـ بعد فترة طويلة من

Marfat.com

تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله ـ من تجمع الميكروبات والمواد الضارة فى الميتة وفى الدم ، ولاندرى إن كان الطب الحديث قد استقصى مافيهما من الأذى أم إن هناك أسبابا أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس .

فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم . . والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم . . ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن فى لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة) . ويقول الآن قوم : إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت ، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التى توفرها وسائل الطهو الحديثة . . وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة . فمن ذا الذى يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها ؟ أفلا تستحق الشريعة التى سبقت هذا العلم البشرى بعشرات القرون أن نثق بها ، وندع كلمة الفصل لها ، ونحرم ماحرمت ، ونحلل ماحللت. وهى من لدن حكيم خبير ؟ !

أما ماأهل به لغير الله . أى ماتوجه به صاحبه لغيرالله . فهو محرم ، لالعلة فيه ، ولكن للتوجه به لغيرالله . محرم لعلة روحية تنافى صحة التصور ، وسلامة القلب ، وطهارة الروح ، وخلوص الضمير ، ووحدة المتجه .. فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذاالمعنى المشترك للنجاسة . وهو ألصق بالعقيدة من سائر المحرمات قبله . وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلاشريك ..

ومن هنا تتجلى علاقة التحليل والتحريم فى هذه الآيات ، بالحديث عن وحدانية الله ورحمته كذلك فى الآيات السابقة . فالصلة قوية ومباشرة بين الاعتقاد فى إله واحد ، وبين التلقى عن أمر الله فى التحليل والتحريم .. وفى سائر أمور التشريع ..

ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات ، فيبيح فيها المحظورات ، ويحل فيها المحرمات بقدر ماتنتفى هذه الضرورات ، بغير تجاوز لها ولاتعد لحدودها :

« فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم » . .

Marfat.com

وهو مبدأ عام ينصب هنا على هـذه المحرمات . ولـكنه بإطلاقه يصح أن يتناول سواها في سائر المقامات . فأيما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة ، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور في الحدود التي تدفع هذه الضرورة ولا زيادة . على أن هناك خلافا فقهيا حول مواضع الضرورة .. هل فيها قياس ؟ أم هي الضرورات التي نص عليها الله بأعيانها . . وحول مقدار ماتدفع به الضرورة ؛ هل هو أقل قدر من المحظور أم أكلة أوشربة كاملة .. ولا ندخل نحن في هذا الخلاف الفقهي . وحسبنا هذا البيان في ظلال القرآن .

* * *

ولقد جادل اليهود جدالا كثيرا حول ماأحله القرآن وماحرمه . فقد كانت هناك محرمات على اليهود خاصة وردت في سورة أخرى : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ماحملت ظهورها أو الحوايا أو مااختلط بعظم » . . بينما كانت هذه مباحة للمسلمين . ولعلهم جادلوا في هذا الحل . وكذلك روى أنهم جادلوا في المحرمات المذكورة هنا مع أنها محرمة عليهم في التوراة . . وكان الهدف دائما هو التشكيك في صحة الأوامر القرآنية وصدق الوحي بها من الله .

ومن ثم نجد هنا حملة قوية على الذين يكتمون ماأنزل الله من الـكتاب :

« إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الـكتاب ، ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك مايأكلون في بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الـكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الـكتاب لفي شقاق بعيد » .

والتنديد بكتمان ماأنزل الله من الـكتاب كان المقصود به أولا أهل الـكتاب . ولـكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة ، يكتمون الحق الذي يعلمونه ، ويشترون به ثمنا قليلا . إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الـكتمان ، ويخشون عليها من البيان . وإما هو الدنيا كلها — وهي ثمن قليل حين تقاس إلى مايخسرونه من رضى الله ، ومن ثواب الآخرة .

Marfat.com

وفى جو الطعام ماحرم منه وماحلل ، يقول القرآن عن هؤلاء :

« مايأكلون فى بطونهم إلا النار » ..

تنسيقا للمشهد فى السياق . وكأنما هذا الذى يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار فى بطونهم ! وكأنما هم يأكلون النار ! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار فى الآخرة ، فإذا هى لهم لباس ، وإذا هى لهم طعام !

وجزاء ماكتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم فى مهانة وازدراء والتعبير القرآنى عن هذا الإهمال وهذه المهانة وهذا الازدراء هو قوله :

« لايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم » ..

لتجسيم الإهمال فى صورة قريبة لحس البشر وإدراكهم .. لا كلام ولا اهتمام ولاتطهير ولا غفران . .

« ولهم عذاب أليم » ..

وتعبير آخر مصور موح :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة » . .

فكأنما هى صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب . . فما أخسرها من صفقة وأغباها ! ويالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا ! وإنها لحقيقة . فقد كان الهدى مبذولا لهم فتركوه وأخذوا الضلالة . وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب . .

« فما أصبرهم على النار ! » . .

فيالطول صبرهم على النار ، التى اختاروها اختيارا ، وقصدوا إليها قصدا .

فياللتهكم الساخر من طول صبرهم على النار !

وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة . جريمة كتمان الكتاب الذى أنزله الله ليعلن للناس ، وليحقق فى واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجا . فمن كتمه فقد عطله عن العمل . وهو الحق الذى جاء للعمل :

Marfat.com

« ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » ..

فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو فى وفاق مع الحق ، وفى وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفى وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل .

« وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » ..

شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم .. ولقد كانوا كذلك ؛ ومايزالون . وتلحق بهم كل أمة تختلف فى كتابها ، فلا تأخذ به جملة ، وتمزقه تفاريق .. وعدالله الذى يتحقق على مدار الزمان وٌاختلاف الأقوام . ونحن نرى مصداقه واقعاً فى هذا العالم الذى نعيش فيه

* * *

وأخيرا وفى آية واحدة يضع قواعد التصور الإيمانى الصحيح ، وقواعد السلوك الإيمانى الصحيح ؛ ويحدد صفة الصادقين المتقين :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ؛ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين؛وآتى المال - على حبه -ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؛ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ؛ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ..

والراجح أن هناك صلة بين هذا البيان وبين تحويل القبلة وماثار حوله من جدل طويل . ولقد سبق الكلام عن حكمة تحويل القبلة . فالآن يصل السياق إلى تقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضية وحول سائر القضايا الجدلية التى يثيرها اليهود حول شكليات الشعائر والعبادات، وكثيرا ما كانوا يثيرون الجدل حول هذه الأمور .

إنه ليس القصد من تحويل القبلة ، ولا من شعائر العبادة على الإطلاق ، أن يولى الناس وجوههم قبل المشرق والمغرب ... نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام .. وليست غاية البر - وهو الخير جملة - هى تلك الشعائر الظاهرة . فهى فى ذاتها - مجردة عما يصاحبها فى القلب من المشاعر وفى الحياة من السلوك - لاتحقق البر ، ولاتنشئ الخير . . إنما البر تصور وشعور

Marfat.com

وأعمال وسلوك . تصور ينشئ أثره فى ضمير الفرد والجماعة ؛ وعمل ينشئ أثره فى حياة الفرد والجماعة . ولايغنى عن هذه الحقيقة العميقة تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب . . سواء فى التوجه إلى القبلة هـذه أم تلك ؛ أو فى التسليم من الصلاة يمينا وشمالا ؛ أو فى سائر الحركات الظاهرة التى يزاولها الناس فى الشعائر .

« ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين . .. الآية » .

ذلك هو البر الذى هو جماع الخير . . فماذا فى تلك الصفات من قيم تجعل لها هـذا الوزن فى ميزان الله ؟

ما قيمة الإيمان بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين ؟

إن الإيمان بالله هو نقطة التحول فى حياة البشرية من العبودية لشتى القوى ، وشتى الأشياء ، وشتى الاعتبارات . . إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس من كل عبودية ، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس فى الصف الواحد أمام المعبود الواحد ؛ ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار ..وهى نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام،ومن التيه إلى القصد،ومن التفـكك إلى وحدة الاتجاه . فهذه البشرية دون إيمان بالله الواحد ، لاتعرف لها قصدا مستقيما ولا غاية مطردة ، ولا تعرف لها نقطة ارتـكاز تتجمع حولها فى جد وفى مساواة ، كما يتجمع الوجود كله ، واضح النسب والارتباطات والأهداف والعلاقات . . والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة فى الجزاء ؛ وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان . وبأن الخير لا يعدم جزاءه ولو بدا أنه فى هـذه الأرض لايلقى الجزاء . . والإيمان بالملائـكة طرف من الإيمان بالغيب الذى هو مفرق الطريق بين إدراك الإنسان وإدراك الحيوان ، وتصور الإنسان لهـذا الوجود وتصور الحيوان . الإنسان الذى يؤمن بما وراء الحس والحيوان المقيد بحسه لايتعداه [1] . . والإيمان بالـكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعا وبالرسل أجمعين ؛ وهو الإيمان بوحـدة البشرية ، ووحدة إلهها ، ووحـدة دينها ، ووحـدة منهجها الإلهى . . ولهـذا الشعور قيمة فى شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات .

(١) يراجع تفسير الآيات الأولى من سورة البقرة فى الجزء الأول من الطبعة الثانية المنقحة.

Marfat.com

وما قيمة إيتاء المال – على حبه والاعتزاز به – لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؟

إن قيمته هى الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة . انعتاق الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى عن الإنفاق ، ويقبض النفوس عن الأريحية ، ويقبض الأرواح عن الانطلاق . فهى قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال . وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال ، لافى الرخيص منه ولا الخبيث . فيتحرر من عبودية المال، هذه العبودية التى تستذل النفوس ، وتنكس الرؤوس . ويتحرر من الحرص . والحرص يذل أعناق الرجال . وهى قيمة إنسانية كبرى فى حساب الإسلام ، الذى يحاول دائما تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج فى محيط الجماعة وارتباطاتها ، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس ؛ وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس فى المجتمعات ! . . ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية فى محيط الجماعة . . هذه الصلة لذوى القربى فيها تحقيق لمروءة النفس، وكرامة الأسرة ، ووشائج القربى . والأسرة هى النواة الأولى للجماعة . ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم . . وهى لليتامى تكافل بين الكبار والصغار فى الجماعة ، وبين الأقوياء فيها والضعفاء ؛ وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين ؛ وحماية للأمة من تشرد صغارها ، وتعرضهم للفساد ، وللنقمة على المجتمع الذى لم يقدم لهم برا ولا رعاية . . وهى للمساكين الذين لايجدونماينفقون – وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضنا بماء وجوههم – احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم ، وصيانة لهم من البوار ، وإشعار لهم بالتضامن والتكافل فى محيط الجماعة المسلمة ، التى لايهمل فيها فرد ، ولا يضيع فيها عضو . . وهى لابن السبيل – المنقطع عن ماله وأهله – واجب للنجدة فى ساعة العسرة ، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والدار ؛ وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل ، وبأن الأرض كلها وطن ، يلقى فيها أهلا بأهل ، ومالا بمال ، وصلة بصلة ، وقرارا بقرار . . وهى للسائلين إسعاف لعوزهم ، وكف لهم عن المسألة التى يكرهها الإسلام . وفى الإسلام لايسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملا ، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل ، وأن يقنع ولا يسأل . فلا سائل إلا حيث يعييه العمل والمال . . وهى فى الرقاب إعتاق وتحرير لمن

Marfat.com

أوقعه سوء عمله فى الرق بحمل السيف فى وجه الإسلام – حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة . ويتحقق هذا النص إما بشراء الرقيق وعتقه ، وإما بإعطائه مايؤدى به ما كاتب عليه سيده فى نظير عتقه . والإسلام يعلن حرية الرقيق فى اللحظة التى يطلب فيها الحرية ، ويطلب مكاتبته عليها – أى أداء مبلغ من المال فى سبيلها . ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له ، ويصبح مستحقا فى مصارف الزكاة ، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة . . كل أولئك ليسارع فى فك رقبته ، واسترداد حريته . .

وإقامة الصلاة ؟ ماقيمتها فى مجال البر الذى هو جماع الخير ؟

إن إقامة الصلاة شىء غير التولى قبل المشرق والمغرب . إنها توجه الإنسان بكليته إلى ربه ، ظاهرا وباطنا ، جسما وعقلا وروحا . إنها ليست مجرد حركات رياضية بالجسم ، وليست مجرد توجه صوفى بالروح . فالصلاة الإسلامية تلخص فكرة الإسلام الأساسية عن الحياة . إن الإسلام يعترف بالإنسان جسما وعقلا وروحا فى كيان ؛ ولا يفترض أن هناك تعارضا بين نشاط هذه القوى المكونة فى مجموعها للإنسان ؛ ولا يحاول أن يكبت الجسم لتنطلق الروح ، لأن هذا الكبت ليس ضروريا لانطلاق الروح . ومن ثم يجعل عبادته الكبرى . . الصلاة . . مظهراً لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعا فى ترابط واتساق . يجعلها قياما وركوعا وسجودا تحقيقا لحركة الجسد ؛ ويجعلها قراءة وتدبرا وتفكيرا فى المعنى والمبنى تحقيقا لنشاط العقل ؛ ويجعلها توجها واستسلاما لله تحقيقا لنشاط الروح . . كلها فى آن . . وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة ، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة . . فى كل ركعة وفى كل صلاة .

وإيتاء الزكاة ؟ . . إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التى جعلها الله حقا فى أموال الأغنياء للفقراء ؛ بحكم أنه هو صاحب المال ، وهو الذى ملكه للفرد بعقد منه ، من شروطه إيتاء الزكاة . وهى مذكورة هنا بعد الحديث عن إيتاء المال – على حبه – لمن ذكرتهم الآية من قبل على الإطلاق ؛ مما يشير إلى أن الإنفاق فى تلك الوجوه ليس بديلا من الزكاة ، وليست الزكاة بديلة منه . . وإنما الزكاة ضريبة مفروضة ، والإنفاق تطوع طليق . . والبر لايتم إلا

Marfat.com

بهـذه وتلك . وكلتاهما من مقومات الإسـلام . وما كان القرآن ليذكر الزكاة منفردة بعـد الإنفاق إلا وهى فريضة خاصة لا يسقطها الإنفاق ، ولا تغنى هى عن الإنفاق .

والوفاء بالعهد ؟ إنه سمة الإسـلام التى يحرص عليها ، ويكررها القرآن كثيرا ؛ ويعدها آية الإيمان ، وآية الآدمية وآية الإحسان . وهى ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة فى علاقات الأفراد وعلاقات الجماعات وعلاقات الأمم والدول . تقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله . وبغير هـذه السمة يعيش كل فرد مفزعا قلقا لا يركن إلى وعد ، ولا يطمئن إلى عهد ، ولا يثق بإنسان . ولقـد بلغ الإسـلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمة لم تصعد إليها البشرية فى تاريخها كله ، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدى الإسلام .

والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ؟ . . إنها تربية للنفوس وإعداد ، كى لا تطير شعاعا مع كل نازلة ، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة ؛ ولا تنهار جزعا أمام الشدة . إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسرا . إنه الرجاء فى الله والثقة بالله والاعتماد على الله . ولا بد لأمة تناط بهـا القوامة على البشرية ، والعـدل فى الأرض والصلاح ، أن تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر فى البأساء والضراء وحين الشدة . الصبر فى البؤس والفقر . والصبر فى المرض والضعف . والصبر فى القـلة والنقص . والصبر فى الجهاد والحصار . والصبر على كل حال . كى تنهض بواجبها الضخم ، وتؤدى دورها المرسوم ، فى ثبات وفى ثقة وفى طمأنينة وفى اعتدال .

ويبرز السياق هـذه الصفة . . صفة الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس . . يبرزها بإعطاء كلمة « الصابرين » وصفا فى العبارة يدل على الاختصاص . فما قبلها من الصفات مرفوع أما هى فمنصوبة على الاختصاص بتقدير : « وأخص الصابرين » . . وهى لفتة خاصة لها وزنها فى معرض صفات البر . . لفتة خاصة تبرز الصابرين وتميزهم ، وتخصص هذه السمة من بين سمات الإيمان بالله والملائـكة والـكتاب والنبيين وإيتاء المال ـ على حبه ـ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهـد . . وهو مقـام للصابرين عظيم ، وتقـدير لصفة الصبر فى ميزان الله ، يلفت الأنظار . . (١)

---

(١) يراجع تفسير الآيات : يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . . . إلى قوله تعالىـ : أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » . . . فى الدرس الماضى فى هذا الجزء .

Marfat.com

وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد ، وتكاليف النفس والمال ، وتجعلها كلا لايتجزأ ، ووحدة لا تنفصم . وتضع على هذا كله عنوانا واحدا هو « البر » أو هو « جماع الخير » أو هو « الإيمان » كما ورد فى بعض الأثر . والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامى ولمبادىء المنهج الإسلامى المتكامل لايستقيم بدونها إسلام .

ومن ثم تعقب الآية على من هذه صفاتهم بأنهم :

« أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » . .

أولئك الذين صدقوا ربهم فى إسلامهم . صدقوا فى إيمانهم واعتقادهم ، وصدقوا فى ترجمة هذا الإيمان والاعتقاد إلى مدلولاته الواقعة فى الحياة .

وأولئك هم المتقون الذين يخشون ربهم ويتصلون به ، ويؤدون واجبهم له فى حساسية وفى إشفاق . .

وننظر نحن من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية التى يريد الله أن يرفع الناس إليها بمنهجه الرفيع القويم . . ثم ننظر إلى الناس وهم ينأون عن هذا المنهج ويتجنبونه ، ويحاربونه ، ويرصدون له العداوة ، ولكل من يدعوهم إليه . . ونقلب أيادينا فى أسف . ونقول ماقال الله سبحانه : ياحسرة على العباد !

ثم ننظر نظرة أخرى فتنجلى هذه الحسرة ، على أمل فى الله وثيق ، وعلى يقين فى قوة هذا المنهج لايتزعزع ، ونستشرف المستقبل فإذا على الأفق أمل . أمل وضيء منير . أن لابد لهذه البشرية من أن تفيء – بعد العناء الطويل – إلى هذا المنهج الرفيع ، وأن تتطلع إلى هذا الأفق الوضيء . . والله المستعان .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى : الْحُرُّ بِالْحُرِّ ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ، وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ . فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

Marfat.com

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ـ إِن تَرَكَ خَيْراً ـ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ؛ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ؛ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ؛ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ؛ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ؛ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ، عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، وَعَفَا عَنكُمْ ، فَٱلآنَ بَاشِرُوهُنَّ ، وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ؛ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱللَّيْلِ ؛ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي ٱلْمَسَاجِدِ . تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

Marfat.com

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (١٨٨)

يتضمن هذا الدرس جانبا من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم الذى كان ينشأ فى المدينة نشأته الأولى ، كما يتضمن جانبا من العبادات المفروضة . . هذه وتلك مجموعة متجاورة فى قطاع واحد من قطاعات السورة . وهذه وتلك مشدودة برباط واحد إلى تقوى الله وخشيته. حيث يتكرر ذكر التقوى فى التعقيب على التنظيمات الاجتماعية والتكاليف التعبدية سواء بسواء . . وحيث تجىء كلها عقب آية البر التى استوعبت قواعد التصور الإيمانى وقواعد السلوك العملى فى نهاية الدرس السابق .

فى هذا الدرس حديث عن القصاص فى القتلى وتشريعاته . وفيه حديث عن الوصية عند الموت . . ثم حديث عن فريضة الصوم وشعيرة الدعاء وشعيرة الاعتكاف . . وفى النهاية حديث عن التقاضى فى الأموال .

وفى التعقيب على القصاص ترد إشارة إلى التقوى : « ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب لعلكم تتقون » . .

وفى التعقيب على الوصية ترد الإشارة إلى التقوى كذلك : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ـ إن ترك خيرا ـ الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » . .

وفى التعقيب على الصيام ترد الإشارة إلى التقوى أيضا : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . .

ثم ترد نفس الإشارة بعد الحديث عن الاعتكاف فى نهاية الحديث عن أحكام الصوم : « تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . .

ولا تبعد التعقيبات القليلة الباقية فى الدرس عن معنى التقوى ، واستجاشة الحساسية والشعور بالله فى القلوب . فتجىء هذه التعقيبات : ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم

Marfat.com

تشكرون » .. « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . . « إن الله سميع عليم » .. « إن الله غفور رحيم » . .

وهو اطراد يوجه النظر إلى حقيقة هذا الدين . . إنه وحدة لاتتجزأ . . تنظيماته الاجتماعية ، وقواعده التشريعية ، وشعائره التعبدية .. كلها منبثقة من العقيدة فيه ؛ وكلها نابعة من التصور الكلى الذى تنشئه هذه العقيدة ؛ وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله ؛ وكلها تنتهى إلى غاية واحدة هى العبادة : عبادة الله الواحد . الله الذى خلق ، ورزق ، واستخلف الناس فى هذا الملك ، خلافة مشروطة بشرط : أن يؤمنوا به وحده ؛ وأن يتوجهوا بالعبادة إليه وحده ؛ وأن يستمدوا تصورهم ونظمهم وشرائعهم منه وحده .

وهذا الدرس بمجموعة الموضوعات التى يحتويها ، والتعقيبات التى يتضمنها ، نموذج واضح لهذا الترابط المطلق فى هذا الدين . .

* * *

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » . .

النداء للذين آمنوا . . بهذه الصفة التى تقتضى التلقى من الله ، الذى آمنوا به ، فى تشريع القصاص . وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص فى القتلى ، بالتفصيل الذى جاء فى الآية الأولى . وفى الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة ، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة ، كما يستجيش فى قلوبهم شعور التقوى ؛ وهو صمام الأمن فى مجال القتلى والقصاص .

وهذه الشريعة التى تبينها الآية : أنه عند القصاص للقتلى – فى حالة العمد – يقتل الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى .

« فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . .

Marfat.com

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلا من قتل الجانى . ومتى قبل ولى الدم هذا ورضيه ، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة . ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال . تحقيقا لصفاء القلوب ، وشفاء لجراح النفوس ، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء .

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة :

« ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » . .

ولم يكن هذا التشريع مباحا لبنى إسرائيل فى التوراة . إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند التراضى والصفاء .

« فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . .

وفوق العذاب الذى يتوعده به فى الآخرة . . يتعين قتله ، ولا تقبل منه الدية . لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول ، نكث للعهد ، وإهدار للتراضى ، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب . ومتى قبل ولى الدم الدية ، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدى .

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام ؛ وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها ؛ ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع . . إن الغضب للدم فطرة وطبيعة . فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص . فالعدل الجازم هو الذى يكسر شرة النفوس ، ويفثأ حنق الصدور ، ويردع الجانى كذلك عن التمادى . ولكن الإسلام فى الوقت ذاته يحبب فى العفو ، ويفتح له الطريق ، ويرسم له الحدود ؛ فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامى فى حدود التطوع ، لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها مالا تطيق .

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة . نسختها آية المائدة التى نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . الآية » . . قال ابن كثير فى التفسير : « وذكر فى سبب نزولها مارواه الإمام أبو محمد ابن أبى حاتم . حدثنا أبو زرعة . حدثنا يحي ابن عبد الله بن بكير . حدثنى عبد الله ابن لهيعة . حدثنى عطاء ابن دينار . عن

Marfat.com

سعيد ابن جبير فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ـ يعنى إذا كان عمدا ـ الحر بالحر . . . وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية ـ قبل الإسلام بقليل . فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ؛ فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا . فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال ، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، وللمرأة منا الرجل منهم . فنزل فيهم : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » . . منسوخة نسختها : « النفس بالنفس » . . وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله : النفس بالنفس » . .

والذى يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس . وأن لكل منها مجالا غير مجال الأخرى . وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردى من فرد معين على فرد معين ، أومن أفراد معينين على فرد أوأفراد معينين كذلك . فيؤخذ الجانى مادام القتل عمدا .. فأما الآية التى نحن بصددها فمجالها مجال الاعتداء الجماعى ـ كحالة ذينك الحيين من العرب ـ حيث تعتدى أسرة على أسرة ، أوقبيلة على قبيلة ، أوجماعة على جماعة . فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء .. فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك ، والعبد من هذه بالعبد من تلك ، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك . وإلا فكيف يكون القصاص فى مثل هذه الحالة التى يشترك فيها جماعة فى الاعتداء على جماعة ؟

وإذا صح هذا النظر لايكون هناك نسخ لهذه الآية ، ولاتعارض فى آيات القصاص .

ثم يكمل السياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة :

« ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » ..

إنه ليس الانتقام ، وليس إرواء الأحقاد . إنما هو أجل من ذلك وأعلى . إنه للحياة ، وفى سبيل الحياة ، بل هو فى ذاته حياة . . ثم إنه للتعقل والتدبر فى حكمة الفريضة ، ولاستحياء القلوب واستجاشتها لتقوى الله . .

والحياة التى فى القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء . فالذى يوقن

Marfat.com

أنه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل . . جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل . شفائها من الحقد والرغبة فى الثأر . الثأر الذى لم يكن يقف عند حد فى القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما فى حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن فى واقع حياتنا اليوم ، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل ؛ ولاتكف عن المسيل . .

وفى القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حى ، يشترك مع القتيل فى سمة الحياة . فإذا كف القصاص الجانى عن إزهاق حياة واحدة ، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان فى هذا الكف حياة . حياة مطلقة . لاحياة فرد ، ولاحياة أسرة ، ولاحياة جماعة .. بل حياة ..

ثم ـ وهو الأهم والعامل المؤثر الأول فى حفظ الحياة ـ استجاشة شعور التدبر لحكمة الله ، ولتقواه :

« لعلكم تتقون » ..

هذا هو الرباط الذى يعقل النفوس عن الاعتداء . الاعتداء بالقتل ابتداء ، والاعتداء فى الثأر أخيرا . . التقوى . . حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله ؛ وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه .

إنه بغير هذا الرباط لاتقوم شريعة ، ولايفلح قانون ، ولايتحرج متحرج ، ولا تكفى التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع فى قوة أكبر من قوة الإنسان !

وهذا مايفسر لنا ندرة عدد الجرائم التى أقيمت فيها الحدود على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجانى نفسه طائعا مختارا . . لقد كانت هنالك التقوى .. كانت هى الحارس اليقظ فى داخل الضمائر ، وفى حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود . . إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب . . وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى،

Marfat.com

تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور . نظيف الحركة نظيف السلوك . لأنها تقيم محكمتها الأولى فى داخل الضمير !

« حتى إذا جمحت السورة البهيمية فى حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة ، وكان ذلك حيث لاتراقبه عين ولاتتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، وخيالا مروعا ، لايرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله ، وعقوبة الآخرة » (١) .

إنها التقوى .. إنها التقوى ..

* * *

ثم يجىء تشريع الوصية عند الموت .. والمناسبة فى جوها وجو آيات القصاص حاضرة :

« كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ـ إن ترك خيرا ـ الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم . فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم » ..

وهذه كذلك كانت فريضة . الوصية للوالدين والأقربين . إن كان سيترك وراءه خيرا . وفسر الخير بأنه الثروة . واختلف فى المقدار الذى تجب عنده الوصية . والأرجح أنها مسألة اعتبارية بحسب العرف . فقال بعضهم لايترك خيرا من يترك أقل من ستين دينارا ، وقيل ثمانين وقيل أربعمائة . وقيل ألف . . والمقدار الذى يعتبر ثروة تستحق الوصية لاشك يختلف من زمان إلى زمان ، ومن بيئة إلى بيئة .

وقد نزلت آيات المواريث بعد نزول آيات الوصية هذه . وحددت فيها أنصبة معينة للورثة ، وجعل الوالدان وارثين فى جميع الحالات . ومن ثم لم تعد لهما وصية لأنه لاوصية لوارث . لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلاوصية لوارث » (٢)

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبى الحسن على الحسنى الندوى . ص ٦٢ طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) رواه أصحاب السنن .

Marfat.com

أما الأقربون فقد بقى النص بالقياس إليهم على عمومه . فمن ورثته آيات الميراث فلاوصية له ؛ ومن لم يرث بقى نص الوصية هنا يشمله . . وهذا هو رأى بعض الصحابة والتابعين نأخذ به .

وحكمة الوصية لغير الورثة تتضح فى الحالات التى توجب فيها صلة القرابة البر ببعض الأقارب ، على حين لاتورثهم آيات الميراث لأن غيرهم يحجبهم . وهى لون من ألوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة . ومن ثم ذكر المعروف وذكر التقوى :

« بالمعروف حقا على المتقين » ..

فلايظلم فيها الورثة ، ولايهمل فيها غير الورثة ؛ ويتحرى التقوى فى قصد واعتدال ، وفى بر وإفضال .. ومع هذا فقد حددت السنة نسبة الوصية ، فحصرتها فى الثلث لا تتعداه والربع أفضل . كى لايضار الوارث بغير الوارث . وقام الأمر على التشريع وعلى التقوى ، كما هى طبيعة التنظيمات الاجتماعية التى يحققها الإسلام فى تناسق وسلام .

فمن سمع الوصية فهو آثم إن بدلها بعد وفاة المورث ، وهذا من التبديل برىء :

« فمن بدله بعد ماسمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه . إن الله سميع عليم » ..

وهو ـ سبحانه ـ الشهيد بما سمع وعلم . الشهيد للمورث فلايؤاخذ بما فعل من ورائه . والشهيد على من بدل فيؤاخذه بإثم التبديل والتغيير .

إلا حالة واحدة يجوز فيها للوصى أن يبدل من وصية الموصى . ذلك إذا عرف أن الموصى إنما يقصد بوصيته محاباة أحد ، أوالنكاية بالوريث . فعندئذ لاحرج على من يتولى تنفيذ الوصية أن يعدل فيها بما يتلافى به ذلك الجنف ، وهو الحيف ، ويرد الأمر إلى العدل والنصف :

« فمن خاف من موص جنفا أوإثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم » ..

والأمر موكول إلى مغفرة الله ورحمته لهذا ولذاك . ومشدود إلى مراعاة الله فى كل حال، فهى الضمان الأخير للعدل والإنصاف .

Marfat.com

وهكذا نجد الأمر فى الوصية مشدودا إلى تلك العروة التى شد إليها من قبل أمر القصاص فى القتلى . والتى يشد إليها كل أمر فى التصور الإيمانى وفى المجتمع الإسلامى على السواء .

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن يفرض الصوم على الأمة التى يفرض عليها الجهاد فى سبيل الله ، لتقرير منهجه فى الأرض ، وللقوامة به على البشرية ، وللشهادة على الناس . فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ؛ ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد ؛ كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها ، واحتمال ضغطها وثقلها ، إيثاراً لما عندالله من الرضى والمتاع .

وهذه كلها عناصر لازمة فى إعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك ؛ والذى تتناثر على جوانبه الرغاب والشهوات ؛ والذى تهتف بالسالكيه آلاف المغريات !

وذلك كله إلى جانب ماتكشف على مدار الزمان من آثار نافعة للصوم فى وظائف الأبدان . ومع أنى لاأميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلهية فى العبادات ـ بصفة خاصة ـ بما يظهر للعين من فوائد حسية ، إذ الحكمة الأصيلة فيها هى إعداد هذا الكائن البشرى لدوره على الأرض ، وتهيئته للكمال المقدر له فى حياة الآخرة . . مع هذا فإننى لاأحب أن أنفى ماتكشف عنه الملاحظة أو يكشف عنه العلم من فوائد لهذه الفرائض والتوجيهات ؛ وذلك ارتكانا إلى الملحوظ والمفهوم من مراعاة التدبير الإلهى لكيان هذا الإنسان جملة فى كل ما يُفرض عليه وما يوجه إليه . ولكن فى غير تعليق لحكمة التكليف الإلهى بهذا الذى يكشف عنه العلم البشرى . فمجال هذا العلم محدود لايتسع ولا يرتقى إلى استيعاب حكمة الله فى كل مايروض به هذا الكائن البشرى . أو كل مايروض به هذا الكون بطبيعة الحال :

« ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ، أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ؛ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ؛ فمن تطوع خيرا فهو خير له ؛ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر

Marfat.com

رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون » . .

إن الله — سبحانه — يعلم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون ودفع واستجاشة لتنهض به وتستجيب له ؛ مهما يكن فيه من حكمة ونفع ، حتى تقتنع به وتراض عليه .

ومن ثم يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين ، المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة ؛ ثم يقرر لهم — بعد ندائهم ذلك النداء — أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله فى كل دين ، وأن الغاية الأولى هى إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . .

وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم . . إنها التقوى . . فالتقوى هى التى تستيقظ فى القلوب وهى تؤدى هذه الفريضة ، طاعة لله ، وإيثارا لرضاه . والتقوى هى التى تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ، ولو تلك التى تهجس فى البال ، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ، ووزنها فى ميزانه . فهى غاية تتطلع إليها أرواحهم . وهذا الصوم أداة من أدواتها ، وطريق موصل إليها . ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه عن طريق الصيام . . « لعلكم تتقون » . .

ثم يثنى بتقرير أن الصوم أيام معدودات ، فليس فريضة العمر وتكليف الدهر . ومع هذا فقد أعفى من أدائه المرضى حتى يصحوا ، والمسافرون حتى يقيموا ، تخفيفا وتيسيرا :

« أياما معدودات . فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » . .

وظاهر النص فى المرض والسفر يطلق ولا يحدد . فأى مرض وأى سفر يسوغ الفطر ، على أن يقضى المريض حين يصح والمسافر حين يقيم . وهذا هو الأولى فى فهم هذا النص القرآنى المطلق ، والأقرب إلى المفهوم الإسلامى فى رفع الحرج ومنع الضرر . فليست شدة

Marfat.com

المرض ولا مشقة السفر هى التى يتعلق بها الحكم إنما هى المرض والسفر إطلاقا ، لإرادة اليسر بالناس لا العسر . ونحن لاندرى حكمة الله كلها فى تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر ؛ فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ويجهلها البشر فى المرض والسفر ؛ وقد تكون هناك مشقات أخرى لاتظهر للحظتها ، أو لاتظهر للتقدير البشرى . . وما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فنحن لانتأولها ؛ ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتها .فوراءها قطعا حكمة . وليس من الضرورى أن نكون نحن ندركها .

يبقى أن القول بهذا يخشى أن يحمل المترخصين على شدة الترخص ؛ وأن تهمل العبادات المفروضة لأدنى سبب . مما جعل الفقهاء يتشددون ويشترطون . ولكن هذا ـ فى اعتقادى ـ لايبرر التقييد فيما أطلقه النص . فالدين لايقود الناس بالسلاسل إلى الطاعات ، إنما يقودهم بالتقوى . وغاية هذه العبادة خاصة هى التقوى . والذى يفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة لاخير فيه منذ البدء ، لأن الغاية الأولى من أداء الفريضة لا تتحقق . وهذا الدين دين الله لادين الناس . والله أعلم بتكامل هذا الدين ، بين مواضع الترخص ومواضع التشدد ؛ وقد يكون وراء الرخصة فى موضع من المصلحة مالا يتحقق بدونها . بل لابد أن يكون الأمر كذلك . ومن ثم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ المسلمون برخص الله التى رخصها لهم . وإذا حدث أن فسد الناس فى جيل من الأجيال فإن إصلاحهم لايتأتى من طريق التشدد فى الأحكام ؛ ولكن يتأتى من طريق إصلاح تربيتهم وقلوبهم واستحياء شعور التقوى فى أرواحهم . وإذا صح التشدد فى أحكام المعاملات عند فساد الناس كعلاج رادع ، وسد للذرائع ، فإن الأمر فى الشعائر التعبدية يختلف ، إذ هى حساب بين العبد والرب ، لاتتعلق به مصالح العباد تعلقا مباشرا كأحكام المعاملات التى يراعى فيها الظاهر . والظاهر فى العبادات لايجدى مالم يقم على تقوى القلوب . وإذا وجدت التقوى لم يتلفت متلفت ، ولم يستخدم الرخصة إلا حيث يرتضيها قلبه ، ويراها هى الأولى ، ويحس أن طاعة الله فى أن يأخذ بها فى الحالة التى يواجهها. أما تشديد الأحكام جملة فى العبادات أو الميل إلى التضييق من إطلاق الرخص التى أطلقتها النصوص ، فقد ينشىء حرجا لبعض المتحرجين . فى الوقت الذى لايجدى كثيرا فى تقويم

Marfat.com

التفلتين . . والأولى على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التى أرادها الله فى هذا الدين . فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من مصالح قريبة وبعيدة . . وهذا هو جماع القول فى هذا المجال .

بقى أن نثبت هنا بعض ماروى من السنه فى حالات متعددة من حالات السفر ، فى بعضها كان التوجيه إلى الفطر وفى بعضها لم يقع نهى عن الصيام . . وهى بمجموعها تساعد على تصور ما كان عليه السلف الصالح من إدراك للأمر ، قبل أن تأخذ الأحكام شكل التقعيد الفقهى على أيدى الفقهاء المتأخرين . وصورة سلوك أولئك السلف – رضوان الله عليهم – أملأ بالحيوية . وألصق بروح هذا الدين وطبيعته ، من البحوث الفقهية ؛ ومن شأن الحياة معها وفى جوها أن تنشئ فى القلب مذاقا حيا لهذه العقيدة وخصائصها :

١ – عن جابر – رضى الله عنه – قال : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عام الفتح إلى مكة فى رمضان ، فصام حتى بلغ « كراع الغميم » فصام الناس . ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس ، ثم شرب . فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس قد صام ، فقال : أولئك العصاة . أولئك العصاة » . . (أخرجه مسلم والترمذى)

٢ – وعن أنس – رضي الله عنه – قال : كنا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر . فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، ومنا من يتقى الشمس بيده . فسقط الصوام وقام المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب ، فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – ذهب المفطرون اليوم بالأجر » . . (أخرجه الشيخان والنسائى) .

٣ – وعن جابر – رضى الله عنه – قال : كان النبى – صلى الله عليه وسلم – فى سفر ، فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه . فقال : ماله ؟ فقالوا : رجل صائم . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ليس من البر الصوم فى السفر » . . (أخرجه مالك والشيخان وأبو داود والنسائى) .

٤ – وعن عمرو ابن أمية الضمرى – رضى الله عنه – قال : قدمت على رسول الله – صلى

Marfat.com

الله عليه وسلم ـ من سفر . فقال : انتظر الغداء ياأبا أمية . قلت : يارسول الله إنى صائم . قال: إذاً أخبرك عن المسافر . إن الله تعالى وضع عنه الصيام ونصف الصلاة » . (أخرجه النسائى) . .

٥ ـــ وعن رجل من بنى عبدالله ابن كعب ابن مالك اسمه أنس ابن مالك . قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله تعالى وضع شطر الصلاة عن المسافر وأرخص له فى الإفطار وأرخص فيه للمرضع والحبلى إذا خافتا على ولديهما » . (أخرجه أصحاب السنن).

٦ ـــ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سأل حمزة ابن عمرو الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصوم فى السفر . (وكان كثير الصيام) فقال : « إن شئت فصم ، وإن شئت فأفطر » . (أخرجه مالك والشيخان وأبوداود والترمذى والنسائى) وفى رواية أخرى وكان جلدا على الصوم .

٧ ـــ وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنا الصائم ومنا المفطر . فلاالصائم يعيب على المفطر ، ولاالمفطر يعيبُ علىالصائم » . . (أخرجه مالك والشيخان وأبو داود) .

٨ ـــ وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رمضان فى حر شديد ، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ؛ ومافينا صائم إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وابن رواحة رضى الله عنه . . (أخرجه الشيخان وأبو داود) .

٩ ـــ وعن محمد ابن كعب قال : أتيت أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ فى رمضان وهو يريد سفرا . وقد رحلت له راحلته ، ولبس ثياب سفره ، فدعا بطعام فأكل . فقلت له : سنة ؟ قال : نعم . ثم ركب . . (أخرجه الترمذى) .

١٠ ـــ وعن عبيد ابن جبير قال : كنت مع أبى بصرة الغفارى ـ صاحب رسول الله صلى الله عليــه وسلم ـ رضى الله عنه فى سفينة من الفسطاط فى رمضان . فدفع فقرّب غداؤه، فقال : اقترب . قلت : ألست ترى البيوت ؟ قال : أترغب عن سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فأكل وأكلت . . (أخرجه أبوداود) .

Marfat.com

١١ — وعن منصور الكلبي : أن دحية ابن خليفة ـ رضى الله عنه ـ خرج من قرية من دمشق إلى قدر قرية عقبة من الفسطاط ، وذلك ثلاثة أميال، فى رمضان . فأفطر وأفطر معه ناس كثير . وكره آخرون أن يفطروا . فلما رجع إلى قريته قال : والله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظن أن أراه . إن قوما رغبوا عن هدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه . اللهم اقبضنى إليك .. (أخرجه أبو داود) .

فهذه الأحاديث فى جملتها تشير إلى تقبل رخصة الإفطار فى السفر فى سماحة ويسر . وترجح الأخذ بها. ولاتشترط وقوع المشقة للأخذ بها كما يشير إلى ذلك الحديثان الأخيران بوجه خاص، وإذا كان الحديث الثامن منها يشير إلى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده ظل مرة صائما مع المشقة هو وعبدالله ابن رواحة ، فقد كانت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصوصيات فى العبادة يعفى منها أصحابه . كنهيه لهم عن مواصلة الصوم وهو كان يواصل أحيانا . أى يصل اليوم باليوم بلا فطر . فلما قالوا له فى هذا ، قال : « إنى لست مثلكم ، إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى » . . (أخرجه الشيخان) وثابت من الحديث الأول أنه أفطر وقال عن الذين لم يفطروا : أولئك العصاة . أولئك العصاة . وهذا الحديث متأخر ـ فى سنة الفتح ـ فهو أحدث من الأحاديث الأخرى . وأكثر دلالة على الاتجاه المختار ..

والصورة التى تنشأ فى الحس من مجموع هذه الحالات . . أنه كانت هناك مراعاة لحالات واقعية ، تقتضى توجيها معينا ـ كما هو الشأن فى الأحاديث التى تروى فى الموضوع العام الواحد، ونجد فيها توجيهات متنوعة ـ فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يربى وكان يواجه حالات حية . ولم يكن يواجهها بقوالب جامدة !

ولكن الانطباع الأخير فى الحس فى أمر الصوم فى السفر هو استحباب الفطر ، دون تقيد بحصول المشقة بالفعل. .أما المرض فلم أجد فيه شيئا إلا أقوال الفقهاء، والظاهر أنه مطلق فى كل مايثبت له وصف المرض . بلاتحديد فى نوعه وقدره ولاخوف شدته . على وجوب القضاء يوما بيوم فى المرض والسفر . من غير موالاة فى أيام القضاء على الرأى الأرجح .

وقد استطردت هذا الاستطراد لا لأخوض فى خلافات فقهية ؛ ولكن لتقرير قاعدة فى

Marfat.com

النظر إلى الشعائر التعبدية ، . . . . إلا الوثيق بإنشاء حالة شعورية هى الغاية المقدمة منها . وهذه الحالة هى التى تحكم سلوك المتعبد ؛ وعليها الاعتماد الأول فى تربية ضميره ، وحسن أدائه للعبادة وحسن سلوكه فى الحياة . . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أن نأخذ هـذا الدين ـ كما أراده الله ـ بتكاليفه كلها ، طاعة وتقوى ؛ وأن نأخذه جملة بعزائمه ورخصه ، متكاملا متناسقا ، فى طمأنينة إلى الله ، ويقين بحكمته ، وشعور بتقواه .

ثم نعود إلى استكمال السياق :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

وفى أول الأمر كان تكليف الصوم شاقا على المسلمين ـ وقد فرض فى السنة الثانية من الهجرة قبيل فرض الجهاد ـ فجعل الله فيه رخصة لمن يستطيع الصوم بجهد ـ وهو مدلول يطيقونه ـ فالإطاقة الاحتمال بأقصى جهد ـ جعل الله هـذه الرخصة ، وهى الفطر مع إطعام مسكين . . ثم حببهم فى التطوع بإطعام المساكين إطلاقا ، إما تطوعا بغير الفدية ، وإما بالإكثار عن حد الفدية ، كأن يطعم اثنين أو ثلاثة أو أكثر بكل يوم من أيام الفطر فى رمضان : « فمن تطوع خيرا فهو خير له » . . ثم حببهم فى اختيار الصوم مع المشقة ـ فى غير سفر ولا مرض ـ : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . . لما فى الصوم من خير فى هـذه الحالة . يبدو منه لنا عنصر تربية الإرادة ، وتقوية الاحتمال ، وإيثار عبادة الله على الراحة . وكلها عناصر مطلوبة فى التربية الإسلامية . كما يبدو لنا منه ما فى الصوم من مزايا صحية ـ لغير المريض ـ حتى ولو أحس الصائم بالجهد .

وعلى أية حال فقد كان هذا التوجيه تمهيدا لرفع هذه الرخصة عن الصحيح المقيم وإيجاب الصيام إطلاقا . كما جاء فيما بعد . وقد بقيت للشيخ الكبير الذى يجهده الصوم ، ولا ترجى له حالة يكون فيها قادرا على القضاء . . فأخرج الإمام مالك أنه بلغه أن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ كبر حتى كان لا يقدر على الصيام فكان يفتدى . . وقال ابن عباس : ليست منسوخة . هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا . . وعن

Marfat.com

ابن أبى ليلى قال : دخلت على عطاء فى رمضان وهو يأكل ، فقال : قال ابن عباس نزلت هـذه الآية فنسخت الأولى إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر . فالنسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بالآية الآتية : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ... »

وتحبيب آخر فى أداء هذه الفريضة للصحيح المقيم .. إنها صوم رمضان : الشهر الذى أنزل فيه القرآن ـ إما بمعنى أن بدء نزوله كان فى رمضان ، أو أن معظمه نزل فى أشهر رمضان ـ والقرآن هو كتاب هذه الأمة الخالد ، الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، فأنشأها هذه النشأة وبدلها من خوفها أمنا ، ومكن لها فى الأرض ، ووهبها مقوماتها التى صارت بها أمة ، ولم تكن من قبل شيئا . وهى بدون هـذه المقومات ليست أمة وليس لها مكان فى الأرض ولا ذكر فى السماء . فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذى نزل فيه القرآن :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .. فمن شهد منكم الشهر فليصمه . ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » . .

وهـذه هى الآية الموجبة الناسخة لرخصة الإفطار والفدية بالنسبة للصحيح المقيم ـ فيما عدا الشيخ والشيخة كما أسلفنا :

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . .

أى من حضر منكم الشهر غير مسافر . أو من رأى منكم هلال الشهر والمستيقن من مشاهدة الهلال بأية وسيلة أخرى كالذى يشهده فى إيجاب الصوم عليه عدة أيام رمضان .

ولما كان هذا نصا عاما فقد عاد ليستثنى منه من كان مريضا أو على سفر :

« ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » . .

وتحبيب ثالث فى أداء الفريضة ، وبيان لرحمة الله فى التكليف وفى الرخصة سواء :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . .

وهذه هى القاعدة الكبرى فى تكاليف هـذه العقيدة كلها . فهى ميسرة لا عسر فيها . وهى توحى للقلب الذى يتذوقها ، بالسهولة واليسر فى أخـذ الحيـاة كلها ؛ وتطبع نفس المسلم

Marfat.com

بطابع خاص من السماحة التى لاتكلف فيها ولا تعقيد . سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة وكأنما هى مسيل الماء الجارى ، ونمو الشجرة الصاعدة فى طمأنينة وثقة ورضاء . مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لاالعسر بعباده المؤمنين .

وقد جعل الصوم للمسافر والمريض فى أيام أخر ، لكى يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر ، فلا يضيع عليه أجرها :

« ولتكملوا العدة » .

والصوم على هذا نعمة تستحق التكبير والشكر :

« ولتكبروا الله على ماهداكم . ولعلكم تشكرون » . .

فهذه غاية من غايات الفريضة . . أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذى يسره الله لهم . وهم يجدون هذا فى أنفسهم فى فترة الصيام أكثر من كل فترة . وهم مكفوفو القلوب عن التفكير فى المعصية ، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها . وهم شاعرون بالهدى ملموسا محسوسا . ليكبروا الله على هذه الهداية ، وليشكروه على هذه النعمة . ولتفىء قلوبهم إليه بهذه الطاعة . كما قال لهم فى مطلع الحديث عن الصيام : « لعلكم تتقون » . .

وهكذا تبدو منة الله فى هذا التكليف الذى يبدو شاقا على الأبدان والنفوس . وتتجلى الغاية التربوية منه ، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذى أخرجت هذه الأمة لتؤديه ، أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير .

* * *

وقبل أن يمضى السياق فى بيان أحكام تفصيلية عن مواعيد الصيام ، وحدود المتاع فيه وحدود الإمساك . . نجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفايا السريرة . نجد العوض الكامل الحبيب المرغوب عن مشقة الصوم ، والجزاء العجل على الاستجابة لله . . نجد ذلك العوض وهذا الجزاء فى القرب من الله ، وفى استجابته للدعاء . . تصوره ألفاظ رفافة شفافة تكاد تنير :

Marfat.com

« وإذا سألك عبادى عنى، فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لى، وليؤمنوا بى، لعلهم يرشدون » . .

فإنى قريب . . أجيب دعوة الداع إذا دعان . . أية رقة ؟ وأى انعطاف ؟ وأية شفافية ؟ وأى إيناس ؟ وأين تقع مشقة الصوم ومشقة أى تكليف فى ظل هذا الود ، وظل هذا القرب ، وظل هذا الإيناس ؟

وفى كل لفظ فى التعبير فى الآية كلها تلك النداوة الحبيبة :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان » . .

إضافة العباد إليه ، والرد المباشر عليهم منه . . لم يقل : فقل لهم : إنى قريب . . إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال . . قريب . . ولم يقل أسمع الدعاء . . إنما عجل بإجابة الدعاء : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » . .

إنها آية عجيبة . . آية تسكب فى قلب المؤمن النداوة الحلوة ، والود المؤنس ، والرضى المطمئن ، والثقة واليقين . . ويعيش منها المؤمن فى جناب رضى ، وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين .

وفى ظل هذا الأنس الحبيب ، وهذا القرب الودود ، وهذه الاستجابة الوحية . . يتوجه الله عباده إلى الاستجابة له ، والإيمان به ، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح .

« فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هى لهم كذلك . . وهى الرشد والهدى والصلاح . فالله غنى عن العالمين .

والرشد الذى ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشد . فالمنهج الإلهى الذى اختاره الله للبشر هو المنهج الوحيد الراشد القاصد ؛ وما عداه جاهلية وسفه لا يرضاه راشد ، ولا ينتهى إلى رشاد . واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له هم ويرشدون . وعليهم أن يدعوه ولا يستعجلوه . فهو يقدر الاستجابة فى وقتها بتقديره الحكيم .

أخرج أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث ابن ميمون ــ بإسناده ــ عن سلمان الفارسى

Marfat.com

ـ رضى الله عنــه ـ عن النبي ـ صلى الله عليــه وسلم ـ أنه قال : « إن الله تعالى ليستحى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردها خائبتين » .

وأخرج الترمذى عن عبدالله ابن عبد الرحمن الدارمى ـ بإسناده ـ عن ابن ثوبان : ورواه عبدالله ابن الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عبادة ابن الصامت : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ماعلى ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو كف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أوقطيعة رحم » .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «يستجاب لأحدكم مالم يعجل. يقول : دعوت فلم يستجب لى ! » . .

وفى صحيح مسلم : عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « لايزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أوقطيعة رحم مالم يستعجل » قيل : يارسول الله وماالاستعجال . قال : « يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » .

والصائم أقرب الدعاة استجابة ، كما روى الإمام أبوداود الطيالسى فى مسنده ـ بإسناده ـ عن عبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: « سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» .. فكان عبدالله ابن عمر إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجه فى سننه ـ بإسناده ـ عن عبدالله ابن عمر كذلك قال:قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن للصائم عند فطره دعوة ماترد »وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ثلاثة لاترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » . .

ومن ثم جاء ذكر الدعاء فى ثنايا الحديث عن الصيام .

* * *

ثم يمضى السياق يبين للذين آمنوا بعض أحكام الصيام . فيقرر لهم حل المباشرة للنساء فى ليلة الصوم مابين المغرب والفجر ، وحل الطعام والشراب كذلك ، كما يبين لهم مواعيد الصوم من الفجر إلى الغروب ، وحكم المباشرة فى فترة الاعتكاف فى المساجد :

Marfat.com

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ؛ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ؛ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد . تلك حدود الله فلا تقربوها . كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

وفى أول فرض الصوم كانت المباشرة والطعام والشراب تمتنع لونام الصائم بعد إفطاره . فإذا صحا بعد نومه من الليل - ولوكان قبل الفجر - لم تحل له المباشرة ولم يحل له الطعام والشراب . وقد وقع أن بعضهم لم يجد طعاما عند أهله وقت الإفطار ، فغلبه النوم ، ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل . ثم جهد فى النهار التالى وبلغ أمره إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - كما وقع أن بعضهم نام بعد الإفطار أونامت امرأته ، ثم وجد فى نفسه دفعة للمباشرة ففعل وبلغ أمره إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وبدت المشقة فى أخذ المسلمين بهذا التكليف، فردهم الله إلى اليسر وتجربتهم حاضرة فى نفوسهم ، ليحسوا بقيمة اليسر وبعدى الرحمة والاستجابة .. ونزلت هذه الآية . نزلت تحل لهم المباشرة مابين المغرب والفجر :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ..

والرفث مقدمات المباشرة ، أو المباشرة ذاتها ، وكلاهما مقصود هنا ومباح .. ولكن القرآن لايمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفافة ، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقا ونداوة، وتنأى بها عن غلظ المعنى الحيوانى وعرامته ، وتوقظ معنى الستر فى تيسير هذه العلاقة :

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ..

واللباس ساتر وواق .. وكذلك هذه الصلة بين الزوجين . تستر كلا منهما وتقيه . والإسلام الذى يأخذ هذا الكائن الإنسانى بواقعه كله ، ويرتضى تكوينه وفطرته كما هى ، ويأخذ بيده إلى معارج الارتفاع بكليته .. الإسلام وهذه نظرته يلبى دفعة اللحم والدم . وينسم عليها هذه النسمة اللطيفة ، ويدثرها بهذا الدثار اللطيف .. فى آن ..

ويكشف لهم عن خبيئة مشاعرهم ، وهو يكشف لهم عن رحمته بالاستجابة لهواتف فطرتهم :

Marfat.com

« علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم . فتاب عليكم وعفا عنكم » ..

وهذه الخيانة لأنفسهم التي يحدثهم عنها ، تتمثل في الهواتف الحبيسة ، والرغبات المكبوتة؛ أوتتمثل في الفعل ذاته،وقد ورد أن بعضهم أتاه .. وفي كلتا الحالتين لقد تاب عليهم وعفا عنهم، منذ ظهر ضعفهم وعلمه الله منهم .. فأباح لهم ما كانوا يختانون فيه أنفسهم :

« فالآن باشروهن » ..

ولكن هذه الإباحة لاتمضى دون أن تربط بالله ، ودون توجيه النفوس في هذا النشاط لله أيضاً :

« وابتغوا ما كتب الله لكم » ..

ابتغوا هذا الذي كتبه الله لكم من المتعة بالنساء ، ومن المتعة بالذرية ، ثمرة المباشرة . فكلتاهما من أمر الله ، ومن المتاع الذي أعطاكم إياه ، ومن إباحتها وإتاحتها يباح لكم طلبها وابتغاؤها . وهي موصولة بالله فهي من عطاياه . ومن ورائها حكمة ، ولها في حسابه غاية . فليست إذن مجرد اندفاع حيواني موصول بالجسد ، منفصل عن ذلك الأفق الأعلى الذي يتجه إليه كل نشاط .

بهذا ترتبط المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما ، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما . وبهذا تنظف هذه العلاقة وترق وترقى . . ومن مراجعة مثل هذه الإيحاءات في التوجيه القرآني وفي التصور الإسلامي ندرك قيمة الجهد المثمر الحكيم الذي يبذل لترقية هذه البشرية وتطويرها ، في حدود فطرتها وطاقتها وطبيعة تكوينها . وهذا هو المنهج الإسلامي للتربية والاستعلاء والنماء . المنهج الخارج من يد الخالق . وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وكما أباح المباشرة أباح الطعام والشراب في الفترة ذاتها :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » ..

أي حتى ينتشر النور في الأفق وعلى قمم الجبال . وليس هو ظهور الخيط الأبيض في السماء وهو مايسمى بالفجر الكاذب . وحسب الروايات التي وردت في تحديد وقت الإمساك نستطيع

Marfat.com

أن نقول : إنه قبل طلوع الشمس بقليل . وإننا نمسك الآن وفق المواعيد المعروفة فى قطرنا هذا قبل أوان الإمساك الشرعى ببعض الوقت . . ربما زيادة فى الاحتياط . .

قال ابن جرير ـ بإسناده ـ عن سمرة ابن جندب : قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لايغرنكم نداء بلال وهذا البياض ، حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر » . . ثم رواه من حديث شعبة وغيره عن سواد ابن حنظلة عن سمرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لايمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ، ولكنه الفجر المستطير فى الأفق » . . والفجر المستطير فى الأفق يسبق طلوع الشمس بوقت قليل . . وكان بلال ـ رضى الله عنه ـ يبكر فى الأذان لتنبيه النائم ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن متأخرا للإمساك . وإلى هذا كانت الإشارة إلى أذان بلال . .

ثم يذكر حكم المباشرة فى فترة الاعتكاف فى المساجد . والاعتكاف ـ بمعنى الخلوة إلى الله فى المساجد ، وعدم دخول البيوت إلا لضرورة قضاء الحاجة ، أو ضرورة الطعام والشراب ـ يستحب فى رمضان فى الأيام الأخيرة . وكانت سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العشر الأواخر منه . . وهى فترة تجرد لله . ومن ثم امتنعت فيها المباشرة تحقيقا لهذا التجرد الكامل ، الذى تنسلخ فيه النفس من كل شىء ، ويخلص فيه القلب من كل شاغل :

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » . .

سواء فى ذلك فترة الإمساك وفترة الإفطار .

وفى النهاية يربط الأمر كله بالله على طريقة القرآن فى توجيه كل نشاط وكل امتناع . كل أمر وكل نهى . كل حركة وكل سكون :

« تلك حدود الله فلا تقربوها » . .

والنهى هنا عن القرب . . لتكون هناك منطقة أمان . فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والإنسان لايملك نفسه فى كل وقت ؛ فأحرى به ألا يعرض إرادته للامتحان بالقرب من المحظورات المشتهاة ، اعتمادا على أنه يمنع نفسه حين يريد . ولأن المجال هنا مجال حدود للملاذ والشهوات كان الأمر : « فلا تقربوها » . والمقصود هو المواقعة لا القرب . ولكن هذا التحذير على هذا النحو له إيحاؤه فى التحرج والتقوى :

Marfat.com

« كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

وكذلك تلوح التقوى غاية يبين الله آياته للناس ليبلغوها . وهى غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا ، المخاطبون بهذا القرآن فى كل حين .

* * *

وفى ظل الصوم ، والامتناع عن الأكل والشرب ، يرد تحذير من نوع آخر من الأكل : أكل أموال الناس بالباطل ، عن طريق التقاضى بشأنها أمام الحكام اعتمادا على المغالطة فى القرائن والأسانيد ، واللحن بالقول والحجة . حيث يقضى الحاكم بما يظهر له ، وتكون الحقيقة غير مابدا له . ويجىء هـذا التحذير عقب ذكر حدود الله ، والدعوة إلى تقواه ، ليظللها جو الخوف الرادع عن حرمات الله :

« ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ..

ذكر ابن كثير فى تفسير الآية : « قال على ابن أبى طلحة وعن ابن عباس : هذا فى الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام . وكذا روى عن مجاهد وسعيد ابن جبير ، وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومقاتل ابن حيان وعبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم أنهم قالوا : لاتخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إنما أنا بشر ، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار ، فليحملها أو ليذرها » ..

وهكذا يتركهم لما يعلمونه من حقيقة دعواهم . فحكم الحاكم لايحل حراما ، ولايحرم حلالا . إنما هو ملزم فى الظاهر . وإثمه على المحتال فيه .

وهكذا يربط الأمر فى التقاضى وفى المال بتقوى الله . كما ربط فى القصاص ، وفى الوصية وفى الصيام . فكلها قطاعات متناسقة فى جسم المنهج الإلهى المتكامل . وكلها مشدودة إلى تلك العروة التى تربط قطاعات المنهج كله . . ومن ثم يصبح المنهج الإلهى وحدة واحدة .

Marfat.com

لاتتجزأ ولاتتفرق . ويصبح ترك جانب منه وإعمال جانب ، إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعض .. فهو الكفر فى النهاية . والعياذ بالله ..

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ . قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ؛ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ، وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ؛ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنتُمْ ، فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

Marfat.com

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ، فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ، فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » (٢٠٣)

هذا الدرس ــ كسابقه ــ استطراد فى بيان فرائض هذه الأمة وتكاليفها ، ونظم حياتها ، وأحكام شريعتها فيما بينها ، وشريعتها مع غيرها من الأمم حولها .

ويتضمن هذا الدرس بيانا عن الأهلة ــ جمع هلال ــ كما يتضمن تصحيحا لعادة جاهلية وهى إتيان البيوت من ظهورها بدلا من أبوابها فى مناسبات معينة . ثم بيانا عن أحكام القتال عامة ، وأحكام القتال فى الأشهر الحرم ، وعند المسجد الحرام خاصة . وفى النهاية بيانا لشعائر الحج والعمرة كما أقرها الإسلام وهذبها ، وعدل فيها كل مايمت إلى التصورات الجاهلية .

وهكذا نرى هنا ــ كما رأينا فى الدرس السابق ــ أحكاما تتعلق بالتصور والاعتقاد ، وأحكاما تتعلق بالشعائر التعبدية ، وأحكاما تتعلق بالقتال .. كلها تتجمع فى نطاق واحد ، وكلها يعقب عليها تعقيبات تذكر بالله وتقواه .

Marfat.com

فى موضوع إتيان البيوت من ظهورها يجىء تعقيب يصحح معنى البر ؛ وأنه ليس في الحركة الظاهرة إنما هو فى التقوى : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

وفى القتال بصفة عامة يوجههم إلى عدم الاعتداء ، ويربط هذا بحب الله وكرهه . « إن الله لا يحب المعتدين » ..

وفى القتال فى الشهر الحرام يعقب بتقوى الله : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ..

وفى الإنفاق يعقب بحب الله للمحسنين : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ..

وفى التعقيب على بعض شعائر الحج يقول : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » ..

وفى التعقيب الآخر على بيان مواقيت الحج والنهى عن الرفث فيه والفسوق والجدال يقول: « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » ..

وحتى فى توجيه الناس لذكر الله بعد الحج يجىء التعقيب : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » ..

وهكذا نجد هذه الأمور المتعددة مرتبطة ارتباطا وثيقا ، ناشئا من طبيعة هذا الدين، الذى لا تنفصل فيه الشعائر التعبدية، عن المشاعر القلبية ، عن التشريعات التنظيمية؛ ولا يستقيم إلا بأن يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة ، وشؤون القلب وشؤون العلاقات الاجتماعية والدولية ؛ وإلا أن يشرف على الحياة كلها ، فيصرفها وفق تصور واحد متكامل ، ومنهج واحد متناسق ، ونظام واحد شامل ، وأداة واحدة هى هـذا النظام الخاص الذى يقوم على شريعة الله فى كافة الشؤون .

• • •

وهناك ظاهرة فى هذه السورة تطالعنا منذ هذا المقطاع . تطالعنا فى صورة مواقف يسأل فيها المسلمون نبيهم – صلى الله عليه وسلم – عن شؤون شتى ، هى الشؤون التى تصادفهم

Marfat.com

فى حياتهم الجديدة ، ويريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصورهم الجديد ، ووفق نظامهم الجديد . وعن الظواهر التى تلفت حسهم الذى استيقظ تجاه الكون الذى يعيشون فيه . .

فهم يسألون عن الأهلة .. ماشأنها ؟ مابال القمر يبدو هلالا ، ثم يكبر حتى يستدير بدرا ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يرتد هلالا ، ثم يختفى ليظهر هلالا من جديد ؟

ويسألون ماذا ينفقون ؟ من أى نوع من مالهم ينفقون ؟وأى قدر وأية نسبة مما يملكون ؟

ويسألون عن القتال فى الشهر الحرام وعند المسجد الحرام . هل يجوز ؟

ويسألون عن الخمر والميسر ماحكمهما ؟ وقد كانوا أهل خمر فى الجاهلية وأهل ميسر !

ويسألون عن المحيض ؟ وعلاقتهم بنسائهم فى فترته . ثم يسألون عن أشياء فى أخص علاقاتهم بأزواجهم ، وأحيانا تسأل فيها الزوجات أنفسهن .

وقد وردت أسئلة أخرى فى موضوعات متنوعة فى سور أخرى من القرآن أيضا . .

وهذه الأسئلة ذات دلالات شتى :

فهى أولا دليل على تفتح وحيوية ونمو فى صور الحياة وعلاقاتها ؛ وبروز أوضاع جديدة فى المجتمع الذى جعل يأخذ شخصيته الخاصة ؛ ويتعلق به الأفراد تعلقا وثيقا ؛ فلم يعودوا أولئك الأفراد المبعثرين ، ولا تلك القبائل المتناثرة . إنما عادوا أمة لها كيان ، ولها نظام ، ولها وضع يشد الجميع إليه ؛ ويهم كل فرد فيه أن يعرف خطوطه وارتباطاته . . وهى حالة جديدة أنشأها الإسلام بتصوره ونظامه وقيادته على السواء . . حالة نمو اجتماعى وفكرى وشعورى وإنسانى بوجه عام .

وهى ثانيا دليل على يقظة الحس الدينى ، وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس ، مما يجعل كل أحد يتحرج أن يأتى أمرا فى حياته اليومية قبل أن يستوثق من رأى العقيدة الجديدة فيه ؛ فلم تعد لهم مقررات سابقة فى الحياة يرجعون إليها ؛ وقد أخلصت قلوبهم من كل مألوفاتهم فى الجاهلية ؛ وفقدوا ثقتهم بها ؛ ووقفوا ينتظرون التعليمات الجديدة فى كل أمر من أمور الحياة . . وهذه الحالة الشعورية هى الحالة التى ينشئها الإيمان الحق . عندئذ تتجرد النفس

Marfat.com

من كل مقرراتها السابقة وكل مألوفاتها ؛ وتقف موقف الحذر من كل ما كانت تأتيه فى جاهليتها ؛ وتقوم على قدم الاستعداد لتلقى كل توجيه من العقيدة الجديدة ، لتصوغ حياتها الجديدة على أساسها ، مبرأة من كل شائبة . فإذا تلقت من العقيدة الجديده توجيها يقر بعض جزئيات من مألوفها القديم تلقته جديدا مرتبطا بالتصور الجديد . إذ ليس من الحتم أن يبطل النظام الجديد كل جزئية فى النظام القديم ؛ ولكن من المهم أن ترتبط هذه الجزئيات بأصل التصور الجديد ، فتصبح جزءا منه ، داخلا فى كيانه ، متناسقا مع بقية أجزائه . . كما صنع الإسلام بشعائر الحج التى استبقاها . فقد أصبحت تنبثق من التصور الإسلامى ، وتقوم على قواعده ، وانبتت علاقتها بالتصورات الجاهلية نهائيا .

والدلالة الثالثة تؤخذ من تاريخ هذه الفترة ؛ وقيام اليهود فى المدينة والمشركين فى مكة بين الحين والحين بمحاولة التشكيك فى قيمة النظم الإسلامية ؛ وانتهاز كل فرصة للقيام بحملة مضللة على بعض التصرفات والأحداث ـ كما وقع فى سرية عبد الله ابن جحش وما قيل من اشتباكها فى قتال مع المشركين فى الأشهر الحرم ـ مما كان يستدعى بروز بعض الاستفهامات والإجابة عليها ، بما يقطع الطريق على تلك المحاولات ؛ ويسكب الطمأنينة واليقين فى قلوب المسلمين . . ومعنى هذه الدلالة أن القرآن كان دائما فى المعركة . سواء تلك المعركة الناشئة فى القلوب بين تصورات الجاهلية وتصورات الإسلام ؛ والمعركة الناشئة فى الجو الخارجى بين الجماعة المسلمة وأعدائها الذين يتربصون بها من كل جانب .

هذه المعركة كتلك ماتزال قائمة . فالنفس البشرية هى النفس البشرية ؛ وأعداء الأمة المسلمة هم أعداؤها . . والقرآن حاضر . . ولا نجاة للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة إلا بإدخال هذا القرآن فى المعركة ، ليخوضها حية كاملة كما خاضها أول مرة . . وما لم يستيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح !

وأقل ماتنشئه هذه الحقيقة فى النفس . . أن تقبل على هذا القرآن بهذا الفهم وهذا الإدراك وهذا التصور . أن تواجهه وهو يتحرك ويعمل وينشىء التصور الجديد ، ويقاوم تصورات الجاهلية ، ويدفع عن هذه الأمة ، ويقيها العثرات . لا كما يواجهه الناس اليوم نغمات

Marfat.com

حلوة ترتل ، وكلاما جميلا يتلى ، وينتهى الأمر . . إنه لأمر غير هـذا نزّل الله القرآن . . لقد نزله لينشىء حياة كاملة ، ويحركها ، ويقودها إلى شاطىء الأمان بين الأشواك والعثرات ، ومشقات الطريق ؛ التى تتناثر فيها الشهوات كما تتناثر فيها العقبات . . والله المستعان . .

* * *

والآن نواجه النصوص القرآنية فى هذا الدرس بالتفصيل :

« يسألونك عن الأهلة . قل : هى مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى . وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » . .

تقول بعض الروايات : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل ذلك السؤال الذى أسلفناه عن الأهـلة : ظهورها ونموها وتناقصها . . ما بالها تصنع هـذا ؟ وتقول بعض الروايات : إنهم قالوا : يارسول الله لم خلقت الأهلة ؟ وقد يكون هذا السؤال فى صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب . فقال الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« قل : هى مواقيت للناس والحج » . .

مواقيت للناس فى حلهم وإحرامهم ، وفى صومهم وفطرهم ، وفى نكاحهم وطلاقهم وعدتهم ، وفى معاملاتهم وتجاراتهم وديونهم .. وفى أمور دينهم وأمور دنياهم على سواء .

وسواء كان هذا الجواب ردا على السؤال الأول أو على السؤال الثانى ، فهو فى كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملى لا إلى مجرد العلم النظرى ؛ وحدثهم عن وظيفة الأهـلة فى واقعهم وفى حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم وهى داخلة فى مدلول السؤال : مابال القمر يبدو هلالا . . . الخ . كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر فى المجموعة الشمسية أو فى توازن حركة الأجرام السماوية . وهى داخلة فى مضمون السؤال : لماذا خلق الله الأهلة ؟ فما هو الإيحاء الذى ينشئه هذا الاتجاه فى الإجابة ؟

لقد كان القرآن بصدد إنشاء تصور خاص ، ونظام خاص ، ومجتمع خاص . . كان بصدد إنشاء أمة جديدة فى الأرض ، ذات دور خاص فى قيادة البشرية ، لتنشىء نموذجا معينا من

Marfat.com

المجتمعات غير مسبوق ؛ ولتعيش حياة نموذجية خاصة غير مسبوقة ؛ ولتقر قواعد هـذه الحياة في الأرض ؛ وتقود إليها الناس .

والإجابة «العلمية» عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علما نظريا في الفلك ؛ إذا هم استطاعوا ـ بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين ـ أن يستوعبوا هـذا العلم . ولقد كان ذلك مشكوكا فيه كل الشك ، لأن العلم النظرى من هـذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات .

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية ، ولا تفيدها كثيرا في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها . وليس مجالها على أية حال هو القرآن . إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية . ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوى أو طبي .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ؛ أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم !

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله . إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية . وإن وظيفته أن ينشىء تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ؛ وأن يقيم على أساس هـذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته . . ومن بينها طاقته العقلية ، التي تقوم هي بعـد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل ـ بالبحث العلمى ـ في الحـدود المتاحة للإنسان ـ وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ماتصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال .

إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته : تصوره واعتقاده ، ومشاعره ومفهوماته ، وسلوكه وأعماله ، وروابطه وعلاقاته .. أما العلوم المادية ، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه ، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته . بما أنها أساس خلافته في الأرض ، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه .. والقرآن يصحح له فطرته كي لاتنحرف ولاتفسد ؛ ويصحح له النظام الذى يعيش فيه كي يسمح له باستخدام طاقاته الموهوبة له ؛ ويزوده

Marfat.com

بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطه بخالقه ، وتناسق تكوينه ، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه ـ وهو أى الإنسان أحد أجزائه ـ ثم يدع له أن يعمل فى إدراك الجزئيات والانتفاع بها فى خلافته .. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتى .

وإنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ماليس منه ، وأن يحملوا عليه مالم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات فى علوم الطب والكيمياء والفلك وماإليها .. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه !

إن القرآن كتاب كامل فى موضوعه . وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها . . لأنه هو الإنسان ذاته الذى يكشف هذه المعلومات وينتفع بها . : والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل فى الإنسان . والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه . بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره . كما يعالج بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه . وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور ، ويوجد المجتمع الذى يسمح له بالنشاط ، يتركه القرآن يبحث ويجرب ، ويخطىء ويصيب ، فى مجال العلم والبحث والتجريب . وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح .

كذلك لايجوز أن نعلق الحقائق النهائية التى يذكرها القرآن أحيانا عن الكون فى طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه ، وطبيعة التناسق بين أجزائه . . لايجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التى يذكرها القرآن ، بفروض العقل البشرى ونظرياته، ولاحتى بما يسميه « حقائق علمية » مما ينتهى إليه بطريق التجربة القاطعة فى نظره .

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . أما ما يصل إليه البحث الإنسانى ـ أياكانت الأدوات المتاحة له ـ فهى حقائق غير نهائية ولاقاطعة ؛ وهى مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها . . فمن الخطأ المنهجى ـ بحكم المنهج العلمى الإنسانى ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية . وهى كل مايصل إليه العلم البشرى !

هذا بالقياس إلى « الحقائق العلمية » . . والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التى تسمى « علمية » . . ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية ؛ وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره ؛ وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه . .

Marfat.com

وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها .. فهذه كلها ليست « حقائق علمية » حتى بالقياس الإنسانى . وإنما هى نظريات وفروض . كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أوالاجتماعية . إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدرا أكبر من الظواهر ، أو يفسر تلك الظواهر تفسيرا أدق ! ومن ثم فهى قابلة دائما للتغير والتعديل والنقص والإضافة ؛ بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة !

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة ـ أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا ـ تحتوى أولا على خطأ منهجى أساسى . كما أنها تنطوى على معان ثلاثة كلها لايليق بجلال القرآن الكريم ..

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع . ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم . أو الاستدلال له من العلم . على حين أن القرآن كتاب كامل فى موضوعه ، ونهائى فى حقائقه . والعلم مازال فى موضوعه ينقض اليوم ماأثبته بالأمس ، وكل مايصل إليه غير نهائى ولامطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته . وهى أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق ـ بقدر ماتسمح طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهى . حتى لايصطدم الإنسان بالكون من حوله ؛ بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه فى خلافته . نواميسه التى تتكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق مايهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة !

والثالثة : هى التأويل المستمر ـ مع التمحل والتكلف ـ لنصوص القرآن كى نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التى لاتثبت ولاتستقر . وكل يوم يجد فيها جديد .

وكل أولئك لايتفق وجلال القرآن ، كما أنه يحتوى على خطأ منهجى كما أسلفنا . .

ولكن هذا لايعنى ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ـ ومن حقائق ـ عن الكون والحياة والإنسان فى فهم القرآن .. كلا ! إن هذا ليس هو الذى عنينا بذلك البيان . ولقد قال

Marfat.com

الله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل تتدبر كل ما يكشفه العلم فى الآفاق وفى الأنفس من آيات الله . وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية فى تصورنا .

فكيف ؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة ؟ هنا ينفع المثال :

يقول القرآن الكريم مثلا : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » .. ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات منحوظة بدقة فى هذا الكون . . الأرض بهيئتها هذه وبعد الشمس عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها ؛ وبسرعة حركتها هذه ، وبميل محورها هذا ، وبتكوين سطحها هذا ... وبآلاف من الخصائص . . هى التى تصلح للحياة وتوائمها . . فليس شىء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة . . هذه الملاحظات تفيدنا فى توسيع مدلول : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » وتعميقه فى تصورنا . . فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه .. وهكذا ..

هذا جائز ومطلوب . . ولكن الذى لا يجوز ولا يصح علميا ، هذه الأمثلة الأخرى :

يقول القرآن الكريم : « خلق الإنسان من سلالة من طين » . . ثم توجد نظرية فى النشوء والارتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة ، وأن هذه الخلية نشأت فى الماء ، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان .. فنحمل نحن هذا النص القرآنى ونلهث وراء النظرية . لنقول : هذا هو الذى عناه القرآن !!!

لا .. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية . فقد دخل عليها من التعديل فى أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائيا . وقد ظهر فيها من النقص المبنى على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التى تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ، ما يكاد يبطلها . وهى معرضة غدا للنقض والبطلان . . بينما الحقيقة القرآنية نهائية . وليس من الضرورى أن يكون هذا معناها . فهى تثبت فقط أصل نشأة الإنسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة . وهى نهائية فى النقطة التى تستهدفها وهى أصل النشأة الإنسانية .. وكفى .. ولا زيادة . .

Marfat.com

ويقول القرآن الكريم : « والشمس تجرى لمستقر لها » . . فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس وهى أنها تجرى . . ويقول العلم : إن الشمس تجرى بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميلا فى الثانية . ولكنها فى دورانها مع المجرة التى هى واحدة من نجومها تجرى جميعا بسرعة ١٧٠ ميلا فى الثانية .. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هى عين مدلول الآية القرآنية . إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان.. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية — فى أن الشمس تجرى — وكفى . . فلا نعلق هذه بتلك أبدا .

ويقول القرآن الكريم : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .. ثم تظهر نظرية تقول : إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها . . فنحمل النص القرآنى ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية . ونقول : هذا ماتعنيه الآية القرآنية !

لا .. ليس هذا هو الذى تعنيه ! فهذه نظرية ليست نهائية . وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض فى مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمى ! أما الحقيقة القرآنية فهى نهائية ومطلقة . وهى تحدد فقط أن الأرض فصلت عن السماء . . كيف ؟ ماهى السماء التى فصلت عنها ؟ هذا ما لاتتعرض له الآية .. ومن ثم لايجوز أن يقال عن أى فرض من الفروض العلمية فى هذا الموضوع : إنه المدلول النهائى المطابق للآية !

وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة ، فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح فى الانتفاع بالكشوف العلمية فى توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها ، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق .. وفرق بين هذا وذاك .

* * *

ثم نعود إلى النص القرآنى :

« وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » . .

والارتباط بين شطرى الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أن الأهلة هى مواقيت للناس والحج،

Marfat.com

وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني . . في الصحيحين - بإسناده - عن البراء - رضي الله عنه - قال : « كان الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت ، فجاء رجل منهم فدخل من قبل بابه ، فكأنه عير بذلك . فنزلت : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ؛ ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » . .

ورواه أبو داود عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه . . فنزلت هذه الآية .

وسواء كانت هذه عادتهم في السفر بصفة عامة ، أو في الحج بصفة خاصة وهو الأظهر في السياق ، فقد كانوا يعتقدون أن هذا هو البر - أي الخير أو الإيمان - فجاء القرآن ليبطل هذا التصور الباطل ، وهذا العمل المتكلف الذي لا يستند إلى أصل ، ولا يؤدي إلى شيء . وجاء يصحح التصور الإيماني للبر . . فالبر هو التقوى . هو الشعور بالله ورقابته في السر والعلن . وليس شكلية من الشكليات التي لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان . ولا تعني أكثر من عادة جاهلية .

كذلك أمرهم بأن يأتوا البيوت من أبوابها . وكرر الإشارة إلى التقوى ؛ بوصفها سبيل الفلاح :

« فأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » . .

وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة - هي التقوى - وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق في الدنيا والآخرة ؛ وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيماني ؛ ووجه المؤمنين إلى إدراك نعمة الله عليهم في الأهلة التي جعلها الله مواقيت للناس والحج . . كل ذلك في آية واحدة قصيرة . .

* * *

بعد ذلك يجيء بيان عن القتال بصفة عامة ، وعن القتال عند المسجد الحرام وفي الأشهر الحرم بصفة خاصة ، كما تجيء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ، وهي مرتبطة بالجهاد كل الارتباط :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم

Marfat.com

حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ؛ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين . وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . .

ورد فى بعض الروايات أن هذه الآيات هى أول مانزل فى القتال . نزل قبلها الإذن من الله للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار بأنهم ظلموا . وأحس المؤمنون بأن هذا الإذن هو مقدمة لفرض الجهاد عليهم ، وللتمكين لهم فى الأرض ، كما وعدهم الله فى آيات سورة الحج : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » . .

ومن ثم كانوا يعرفون لم أذن لهم بأنهم ظلموا ، وأعطيت لهم إشارة الانتصاف من هذا الظلم ، بعد أن كانوا مكفوفين عن دفعه وهم فى مكة ، وقيل لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . . وكان هذا الكف لحكمة قدرها الله . . نستطيع أن نحدس بعض أسبابها على سبيل التقدير البشرى الذى لا يحصى ولا يستقصى .

وأول مانراه من أسباب هذا الكف ، أنه كان يراد أولا تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر امتثالا للأمر ، وخضوعا للقيادة ، وانتظاراً للإذن . وقد كانوا فى الجاهلية شديدى الحماسة ، يستجيبون لأول ناعق ، ولا يصبرون على الضيم . . وبناء الأمة المسلمة التى تنهض بالدور العظيم الذى نيطت به هذه الأمة يقتضى ضبط هذه الصفات النفسية ، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر ، وتطاع فيما تقدر وتدبر ، حتى لو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب التى تعودت الاندفاع والحماسة والخفة للهيجاء عند أول داع . . ومن ثم استطاع رجال من طراز

Marfat.com

عمر ابن الخطاب فى حميته ، وحمزة ابن عبد المطلب فى فتوته ، وأمثالهما من أشداء المؤمنين الأوائل أن يصبروا للضيم يصيب الفئة المسلمة ؛ وأن يربطوا على أعصابهم فى انتظار أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهى تقول لهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . . ومن ثم وقع التوازن بين الاندفاع والتروى ، والحماسة والتدبر ، والحمية والطاعة . . فى هذه النفوس التى كانت تعد لأمر عظيم . .

والأمر الثانى الذى يلوح لنا من وراء الكف عن القتال فى مكة . . هو أن البيئة العربية ، كانت بيئة نخوة ونجدة . وقد كان صبر المسلمين على الأذى ، وفيهم من يملك رد الصاع صاعين ، مما يثير النخوة ويحرك القلوب نحو الإسلام ؛ وقد حدث بالفعل عند ما أجمعت قريش على مقاطعة بنى هاشم فى شعب أبى طالب ، كى يتخلوا عن حماية الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه عند ما اشتد الاضطهاد لبنى هاشم ، ثارت نفوسٌ نجدة ونخوةً ، ومزقت الصحيفة التى تعاهدوا فيها على المقاطعة . وانتهى هذا الحصار تحت تأثير هذا الشعور الذى كانت القيادة الإسلامية فى مكة تراعيه فى خطة الكف عن المقاومة ، فيما يبدو لنا من خلال دراسة السيرة كحركة .

ومما يتعلق بهذا الجانب أن القيادة الإسلامية لم تشأ أن تثير حربا دموية داخل البيوت . فقد كان المسلمون حينذاك فروعا من البيوت . وكانت هذه البيوت هى التى تؤذى أبناءها وتفتنهم عن دينهم ؛ ولم تكن هناك سلطة موحدة هى التى تتولى الإيذاء العام . ولو أذن للمسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم يومذاك ، لكان معنى هذا الإذن أن تقوم معركة فى كل بيت ، وأن يقع دم فى كل أسرة .. مما كان يجعل الإسلام - فى نظر البيئة العربية - يبدو دعوة تفتت البيوت ، وتشعل النار فيها من داخلها . . فأما بعد الهجرة فقد انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة ، تواجه سلطة أخرى فى مكة ، تجند الجيوش وتقود الحملات ضدها .. وهذا وضع متغير عما كان عليه الوضع الفردى فى مكة ، بالنسبة لكل مسلم فى داخل أسرته .

هذه بعض الأسباب التى تلوح للنظرة البشرية من وراء الحكمة فى كف المسلمين فى مكة عن دفع الفتنة والأذى . وقد يضاف إليها أن المسلمين إذ ذاك كانوا قلة ، وهم محصورون فى مكة ، وقد يأتى القتل عليهم لو تعرضوا لقتال المشركين ، فى صورة جماعة ذات قيادة حربية ظاهرة . فشاء الله أن يكثروا ، وأن يتحيزوا فى قاعدة آمنة ، ثم أذن لهم بعد هذا فى القتال ..

Marfat.com

وعلى أية حال فقد سارت أحكام القتال بعد ذلك متدرجة وفق مقتضيات الحركة الإسلامية فى الجزيرة (ثم خارج الجزيرة) . وهذه الآيات المبكرة فى النزول قد تضمنت بعض الأحكام الموافقة لمقتضيات الموقف فى بدء المناجزة بين المعسكرين الأساسيين . معسكر الإسلام ومعسكر الشرك . وهى فى الوقت ذاته تمثل بعض الأحكام الثابتة فى القتال بوجه عام ؛ ولم تعدل من ناحية المبدأ إلا تعديلا يسيرا فى سورة براءة .

* * *

ولعله يحسن أن نقول كلمة مجملة عن الجهاد فى الإسلام ، تصلح أساسا لتفسير آيات القتال هنا ، وفى المواضع القرآنية الأخرى ، قبل مواجهة النصوص القرآنية فى هذا الموضع بصفة خاصة :

لقد جاءت هذه العقيدة فى صورتها الأخيرة التى جاء بها الإسلام ؛ لتكون قاعدة للحياة البشرية فى الأرض من بعدها ؛ ولتكون منهجا عاما للبشرية جميعها ؛ ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية فى طريق الله وفق هذا المنهج ، المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ولغاية الوجود الإنسانى ، كما أوضحها القرآن الكريم ، المنزل من عندالله . قيادتها إلى هذا الخير الذى لاخير غيره فى مناهج الجاهلية جميعا ، ورفعها إلى هذا المستوى الذى لاتبلغه إلا فى ظل هذا المنهج ، وتمتيعها بهذه النعمة التى لاتعدلها نعمة ، والتى تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها ، ولايعتدى عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير ، والحيلولة بينها وبين ماأراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال .

ومن ثم كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهى الشامل، وألاتقف عقبة أوسلطة فى وجه التبليغ بأى حال من الأحوال .

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارا فى اعتناق هذا الدين ؛ لاتصدهم عن اعتناقه عقبة أوسلطة . فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان ، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضى فى طريقها . وكان عليه أن يعطى من العهود مايكفل لها الحرية والاطمئنان ؛ ومايضمن للجماعة المسلمة المضى فى طريق التبليغ بلاعدوان . .

Marfat.com

فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأى وسيلة من وسائل الفتنة. لا بالأذى ولا بالإغراء . ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة. وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة . ضمانا لحرية العقيدة ، وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وإقرارا لمنهج الله فى الحياة ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام .

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجب آخر على الجماعة المسلمة ؛ وهو أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس فى حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة وتفتن الناس عنها . وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنة لقوة فى الأرض ؛ ويكون الدين لله . . لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان . ولكن بمعنى استعلاء دين الله فى الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ؛ ولا يخاف قوة فى الأرض تصده عن دين الله أن يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه . وبحيث لا يكون فى الأرض وضع أو نظام يحجب نور الله وهداه عن أهله ويضلهم عن سبيل الله . بأية وسيلة وبأية أداة .

وفى حدود هذه المبادىء العامة كان الجهاد فى الإسلام .

وكان لهذه الأهداف العليا وحدها ، غير متلبسة بأى هدف آخر ، ولا بأى شارة أخرى .

إنه الجهاد للعقيدة . لحمايتها من الحصار ؛ وحمايتها من الفتنة ؛ وحماية منهجها وشريعتها فى الحياة؛ وإقرار رايتها فى الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء ؛ وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى فى الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه .

وهذا هو الجهاد الوحيد الذى يأمر به الإسلام ، ويقره ويثيب عليه ؛ ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء ؛ والذين يحتملون أعباءه أولياء .

* * *

وهذه الآيات من سورة البقرة فى هذا الدرس كانت تواجه وضع الجماعة المسلمة فى المدينة مع مشركى قريش الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم ، وآذوهم فى دينهم ، وفتنوهم فى عقيدتهم؛ وهى ـ مع هذا ـ تمثل قاعدة أحكام الجهاد فى الإسلام :

Marfat.com

وتبدأ الآيات بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم ومايزالون يقاتلونهم ، وبقتال من يقاتلهم فى أى وقت وفى أى مكان . ولكن دون اعتداء :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين » ..

وفى أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال ، والراية التى تخاض تحتها المعركة فى وضوح وجلاء :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ..

إنه القتال لله ، لا لأى هدف آخر من الأهداف التى عرفتها البشرية فى حروبها الطويلة . القتال فى سبيل الله . لافى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض ؛ ولافى سبيل المغانم والمكاسب ؛ ولافى سبيل الأسواق والخامات ؛ ولافى سبيل تسويد طبقة على طبقة أوجنس على جنس . . إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام . القتال لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وإقرار منهجه فى الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضلال والفساد . وماعدا هذه فهى حرب غير مشروعة فى حكم الإسلام ؛ وليس لمن يخوضها أجر عندالله ولامقام .

ومع تحديد الهدف ، تحديد المدى :

« ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين » ..

والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لايشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولاعلى الجماعة المسلمة ، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين . . كما يكون بتجاوز آداب القتال التى شرعها الإسلام ، ووضع بها حدا للشناعات التى عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء . تلك الشناعات التى ينفر منها حس الإسلام ، وتأباها تقوى الإسلام .

وهذه طائفة من أحاديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ووصايا أصحابه ، تكشف عن طبيعة هذه الآداب ، التى عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام :

عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : « وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قتل النساء والصبيان » .. (أخرجه مالك والشيخان وأبوداود والترمذى) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه » .. (أخرجه الشيخان) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إن وجدتم فلانا وفلانا (رجلين من قريش) فأحرقوهما بالنار » . فلما أردنا الخروج قال : « كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا ، وإن النار لايعذب بها إلا الله تعالى فإن وجدتموهما فاقتلوهما » .. (أخرجه البخارى وأبوداود والترمذى) .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أعفّ الناس قِتلةً أهل الإيمان » .. (أخرجه أبوداود) .

وعن عبدالله ابن يزيد الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ قال : « نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن النُّهْبَى والمثلة » .. (أخرجه البخارى)

وعن ابن يعلى قال : غزونا مع عبد الرحمن ابن خالد ابن الوليد ، فأتى بأربعة أعلاج من العدو ، فأمر بهم فقتلوا صبرا بالنبل . فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فقال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهى عن قتل الصبر . فوالذى نفسى بيده ، لو كانت دجاجة ماصَبَرْتُهَا . فبلغ ذلك عبد الرحمن ، فأعتق أربع رقاب (١) .. (أخرجه أبو داود) .

وعن الحارث ابن مسلم ابن الحارث عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ قال : بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سرية ؛ فلما بلغنا المغار (٢) استحثثت فرسى فسبقت أصحابى ؛ فتلقانى أهل الحى بالرنين . فقلت لهم : قولوا : لاإله إلا الله تُحْرَزُوا (٣) . فقالوها . فلامنى أصحابى ، وقالوا : حرمتنا الغنيمة ! فلما قدمنا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبروه بالذى صنعت .

Marfat.com

فدعانى فحسن لى ماصنعت . ثم قال لى : « إن الله تعالى قد كتب لك بكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر » . . (وأخرجه أبو داود) . .

وعن بريدة قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ، وبمن معه من المسلمين خيرا . ثم قال له : « اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » . . (أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى) .

وروى مالك عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه قال فى وصيته لجنده : « ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما » . .

فهذه هى الحرب التى يخوضها الإسلام ؛ وهذه هى آدابه فيها ؛ وهذه هى أهدافه منها . . وهى تنبثق من ذلك التوجيه القرآنى الجليل :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين » . .

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لاينصرون بعددهم - فعددهم قليل - ولا ينصرون بعدتهم وعتادهم - فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم - إنما هم ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم. فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم وتوجيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذى يرتكنون إليه . ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل . . ولما فار الغضب برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر بحرق فلان وفلان (رجلين من قريش) عاد فنهى عن حرقهما ، لأنه لايحرق بالنار إلا الله .

---

(١) قتل الصبر : القتل بصفحة السيف لابشفرته . وفيه نوع من التعذيب بالموت البطىء . . وأعتق عبد الرحمن ابن خالد ابن الوليد أربع رقاب وهى كفارة القتل الخطأ .
(٢) أى مكان الإغارة على العدو .
(٣) تحفظوا وتصانوا وتحرم دماؤكم وأموالكم .

Marfat.com

ثم يمضي السياق في توكيد القتال لهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين وفتنوهم في دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، والمضي في القتال حتى يقتلوهم على أية حالة ، وفي أي مكان وجدوهم . باستثناء المسجد الحرام . إلا أن يبدأ الكفار فيه بالقتال . وإلا أن يدخلوا في دين الله فتكف أيدي المسلمين عنهم ، مهما كانوا قد آذوهم من قبل وقاتلوهم وفتنوهم :

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » ..

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية . ومن ثم فهي أشد من القتل . أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة . ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه . وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد ، ويسن تشريعات تبيح المحرمات كالزنا والخمر ، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه ؛ بينما يقبح لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله . ويجعل من هذه الأوضاع فروضا حتمية لا يملك الناس التفلت منها .

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة ، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية .. هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام ، ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني . فغاية الوجود الإنساني هي العبادة (ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله) . وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد . فالذي يسلبه هذه الحرية ، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة ، يجني عليه مالا يجني عليه قاتل حياته . ومن ثم يدفعه بالقتل .. لذلك لم يقل : وقاتلوهم . إنما قال : « واقتلوهم » .. « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » .. أي حيث وجدتموهم . في أية حالة كانوا عليها ؛ وبأية وسيلة تملكونها - مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار .

ولا قتال عند المسجد الحرام ، الذي كتب الله له الأمن ، وجعل جواره آمنا استجابة لدعوة خليله إبرهيم (عليه السلام) وجعله مثابة يثوب إليها الناس فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام .. لاقتال عند المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لايرعون حرمته ، فيبدأون بقتال

Marfat.com

للمسلمين عنده . وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم . . فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين ، الذين يفتنون الناس عن دينهم ، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام ، الذى عاشوا فى جواره آمنين .

« فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » . .

والانتهاء الذى يستأهل غفران الله ورحمته ، هو الانتهاء عن الكفر ، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين . فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون . ولكنه لا يؤهل لمغفرة الله ورحمته . فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار فى الإيمان ، لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان .

وما أعظم الإسلام ، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة ، ويسقط عنهم القصاص والدية ، بمجرد دخولهم فى الصف المسلم ، الذى قتلوا منه وفتنوا ، وفعلوا بأهله الأفاعيل ! ! !

وغاية القتال هى ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذى يعيشون فيه بوجه عام ، وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات . وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، ويهابه أعداؤه ، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ؛ ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تلحق به الأذى والفتنة . . والجماعة المسلمة مكلفة إذن أن تظل تقاتل حتى تقضى على هذه القوى المعتدية الظالمة ؛ وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . .

وإذا كان النص — عند نزوله — يواجه قوة المشركين فى شبه الجزيرة ، وهى التى كانت تفتن الناس ، وتمنع أن يكون الدين لله ، فإن النص عام الدلالة ، مستمر التوجيه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . ففى كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين ، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها فى أمان . والجماعة المسلمة مكلفة فى كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة ؛ وتطلق الناس أحرارا من قهرها ، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله .

Marfat.com

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة ، بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل .. هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في اعتبار الإسلام ؛ وينشىء مبدأ عظيما يعني في حقيقته ميلادا جديدا للإنسان على يد الإسلام . ميلادا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته ، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة ، فترجح كفة العقيدة . كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء « الإنسان » .. إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنا عن دينه ، ويؤذون مسلما بسبب إسلامه . أولئك الذين يحرمون البشرية أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله .. وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم ، وأن تقتلهم حيث وجدتهم « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ..

وهذا المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائما . وما تزال العقيدة تواجه من يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور . وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان .. وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور ، وفي أي شكل من الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل ؛ وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سنه الإسلام ، فكان ميلادا جديدا للإنسان ..

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ؛ فلا عدوان عليهم . ـ أي لا مناجزة لهم ـ لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين :

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (١)

ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانا من باب المشاكلة اللفظية . وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين .

ثم يبين حكم القتال في الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام :

---

(١) نزل فيما بعد في سورة براءة ، الأمر بقتال المشركين في كافة الجزيرة العربية حتى يقولوا : لا إله إلا الله .. وهذا هو التعديل الذي اطرد مع مقتضيات موقف الإسلام والجماعة المسلمة . لتخلص الجزيرة للإسلام . فلا يدع وراءه أعداء له وهو يواجه عداوات الروم والفرس خارج الجزيرة .

Marfat.com

« الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ماعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين » . .

فالذى ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التى يكفلها له الشهر الحرام . وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام فى المكان ؛ كما جعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام فى الزمان . تصان فيها الدماء والحرمات والأموال ، ولايمس فيها حى بسوء . فمن أبى أن يستظل بهذه الواحة وأرادأن يحرم المسلمين منها ، فجزاؤه أن يحرم هو منها . والذى ينتهك الحرمات لاتصان حرماته ، فالحرمات قصاص . . ومع هـذا فإن إباحة الرد والقصاص للمسلمين توضع فى حدود لايعتدونها . فما تباح هذه المقدسات إلا للضرورة وبقدرها :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ماعتدى عليكم » . .

بلاتجاوز ولامغالاة . . والمسلمون موكولون فى هذا إلى تقواهم . وقد كانوا يعلمون ـ كما تقدم ـ أنهم إنما ينصرون بعون الله . فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين . بعد أمرهم بالتقوى .. وفى هذا الضمان كل الضمان . .

* * *

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال . ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال ، ومركب القتال ، وزاد القتال . . لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند . إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال . وهذا ماتصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم . إنهالاتحتاج حينئذ أن تنفق لتحمى نفسها من أهلها أومن أعدائها ، إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها !

ولكن كثيرا من فقراء المسلمين الراغبين فى الجهاد ، والذود عن منهج الله وراية العقيدة، لم يكونوا يجدون مايزودون به أنفسهم ، ولامايتجهزون به من عدة الحرب ومركب الحرب . وكانوا يجيئون إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد ، الذى لايبلغ على الأقدام . فإذا لم يجد مايحملهم عليه « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون » ... كما حكى عنهم القرآن الكريم .

من أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية والنبوية إلى الإنفاق فى سبيل الله . الإنفاق لتجهيز الغزاة . وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق فى معظم المواضع ..

Marfat.com

وهنا يعد عدم الإنفاق تهلكة ينهى عنها المسلمين :

« وأنفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . .

والإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف. وبخاصة فى نظام يقوم على التطوع ، كما كان يقوم الإسلام .

ثم يرتقى بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان :

« وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . .

ومرتبة الإحسان هى عليا المراتب فى الإسلام . وهى كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة ، فإنها تفعل الطاعات كلها ، وتنتهى عن المعاصى كلها ، وتراقب الله فى الصغيرة والكبيرة ، وفى السر والعلن على السواء .

وهذا هو التعقيب الذى ينهى آيات القتال والإنفاق ، فيكل النفس فى أمر الجهاد إلى الإحسان . أعلى مراتب الإيمان . .

* * *

بعد ذلك يجىء الحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما . والتسلسل فى السياق واضح بين الحديث عن الأهلة وأنها مواقيت للناس والحج ؛ والحديث عن القتال فى الأشهر الحرم وعن المسجد الحرام ؛ والحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما فى نهاية الدرس نفسه :

« وأتموا الحج والعمرة لله . فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى . ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله . فمن كان منكم مريضا أوبه أذى من رأسه ففدية من صيام أوصدقة أونسك. فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام . واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب . . الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلارفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج . وماتفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ،

(١) فى الصحيحين من حديث الإيمان .

Marfat.com

واتقون ياأولى الألباب .. ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم . فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ،واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم .. فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا . فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب .. واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقو الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » ..

وليس لدينا تاريخ محدد لنزول آيات الحج هذه إلا رواية تذكر أن قوله تعالى : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » نزلت فى الحديبية سنة ست من الهجرة . كذلك ليس لدينا تاريخ مقطوع به لفرضية الحج فى الإسلام . سواء على الرأى الذى يقول بأنه فرض بآية : « وأتموا الحج والعمرة لله » .. أو بآية « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .. الواردة فى سورة آل عمران . فهذه كذلك ليس لدينا عن وقت نزولها رواية قطعية الثبوت . وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية فى كتاب : « زاد المعاد » أن الحج فرض فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ؛ ارتكانا منه إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حج حجة الوداع فى السنة العاشرة ؛ وأنه أدى الفريضة عقب فرضها إما فى السنة التاسعة أو العاشرة . . ولكن هذا لا يصلح سندا . فقد تكون هناك اعتبارات أخرى هى التى جعلت الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤخر حجه إلى السنة العاشرة. وبخاصة إذا لاحظنا أنه أرسل أبابكر – رضى الله عنه – أميرا على الحج فى السنة التاسعة . وقد ورد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما رجع من غزوة تبوك هم بالحج ؛ ثم تذكر أن المشركين يحضرون موسم الحج على عادتهم ، وأن بعضهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم . . ثم نزلت براءة ، فأرسل – صلى الله عليه وسلم – على ابن أبى طالب – كرم الله وجهه – يبلغ مطلع براءة للناس، وينهى بها عهود المشركين، ويعلن يوم النحر إذا اجتمع الناس بمنى : « أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو إلى مدته » .. ومن ثم لم يحج – صلى الله عليه وسلم – حتى تطهر البيت من المشركين ومن العرايا . .

وهناك ما يستأنس به على أن فريضة الحج وشعائره قد أقرها الإسلام قبل هذا . وقد ورد أن

Marfat.com

الفريضة كتبت فى مكة قبل الهجرة . ولكن هذا القول قد لا يجد سندا قويا . إلا أن آيات سورة الحج المكية - على الأرجح - ذكرت معظم شعائر الحج ، بوصفها الشعائر التى أمر الله إبراهيم بها . وقد ورد فيها : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .. « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » .. « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها ، وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولادماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم ، وبشر المحسنين » ..

وقد ذكر فى هذه الآيات أو أشير إلى الهدى والنحر والطواف والإحلال من الإحرام وذكر اسم الله . وهى شعائر الحج الأساسية . وكان الخطاب موجها إلى الأمة المسلمة موصولة بسيرة أبيهم إبراهيم . مما يشير إلى فرضية الحج فى وقت مبكر ، باعتباره شعيرة إبراهيم الذى إليه ينتسب المسلمون . فإذا كانت قد وجدت عقبات من الصراع بين المسلمين والمشركين - وهم سدنة الكعبة إذ ذاك - جعلت أداء الفريضة متعذرا بعض الوقت ، فذلك اعتبار آخر . وقد رجحنا فى أوائل هذا الجزء أن بعض المسلمين كانوا يؤدون الفريضة أفرادا فى وقت مبكر ؛ بعد تحويل القبلة فى السنة الثانية من الهجرة .

وعلى أية حال فحسبنا هذا عن تاريخ فرض الحج ، لنواجه الآيات الواردة هنا عن شعائره، وعن التوجيهات الكثيرة فى ثناياها .

* * *

« وأتموا الحج والعمرة لله - فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى - ولاتحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله . فمن كان منكم مريضا أوبه أذى من رأسه ففدية من صيام أوصدقة أونسك . فإذا أمنتم : فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم - تلك عشرة كاملة . ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » ..

Marfat.com

وأول مايلاحظ فى بناء الآية هو تلك الدقة التعبيرية فى معرض التشريع ،وتقسيم الفقرات فى الآية لتستقل كل فقرة ببيان الحكم الذى تستهدفه . ومجيء الاستدراكات على كل حكم قبل الانتقال إلى الحكم التالى .. ثم ربط هذا كله فى النهاية بالتقوى ومخافة الله . .

والفقرة الأولى فى الآية تتضمن الأمر بإتمام أعمال الحج والعمرة إطلاقا متى بدأ الحاج أو المعتمر فأهل بعمرة أو بحج أو بهما معا ؛ وتجريد التوجه بهما لله :

« وأتموا الحج والعمرة لله » . .

وقد فهم بعض المفسرين من هذا الأمر أنه إنشاء لفريضة الحج . وفهم بعضهم أنه الأمر بإتمامه متى بدئ – وهذا هو الأظهر – فالعمرة ليست فريضة عند الجميع ومع هذا ورد الأمر هنا بإتمامها كالحج . مما يدل على أن المقصود هو الأمر بالإتمام لا لإنشاء الفريضة بهذا النص . ويؤخذ من هذا الأمر كذلك أن العمرة – ولو أنها ابتداء ليست واجبة – إلا أنه متى أهل بها المعتمر فإن إتمامها يصبح واجبا . والعمرة كالحج فى شعائرها ماعدا الوقوف بعرفة . والأشهر أنها تؤدى على مدار العام . وليست موقوتة بأشهر معلومات كالحج .

ويستدرك من هذا الأمر العام بإتمام الحج والعمرة حالة الإحصار . من عدو يمنع الحاج والمعتمر من إكمال الشعائر – وهذا متفق عليه – أو من مرض ونحوه يمنع من إتمام أعمال الحج والعمرة – واختلفوا فى تفسير الإحصار بالمرض والراجح صحته – :

« فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » . .

وفى هذه الحالة ينحر الحاج أو المعتمر ماتيسر له من الهدى ويحل من إحرامه فى موضعه الذى بلغه – ولو كان لم يصل بعد إلى المسجد الحرام ولم يفعل من شعائر الحج والعمرة إلا الإحرام عند الميقات (وهو المكان الذى يهل منه الحاج أو المعتمر بالحج أو العمرة أو بهما معا ، ويترك لبس المخيط من الثياب ، ويحرم عليه حلق شعره أو تقصيره أو قص أظافره كما يحرم عليه صيد البر وأكله . . .)

وهذا ما حدث فى الحديبية عندما حال المشركون بين النبى – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من المسلمين دون الوصول إلى المسجد الحرام ، سنة ست من الهجرة ؛ ثم عقدوا معه صلح الحديبية ، على أن يعتمر فى العام القادم . فقد ورد أن هذه الآية نزلت ؛ وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر المسلمين الذين معه أن ينحروا فى الموضع الذى بلغوا إليه ويحلوا من إحرامهم

Marfat.com

فتلبثوا فى تنفيذ الأمر ، وشق على نفوسهم أن يحلوا قبل أن يبلغ الهدى محله ـ أى مكانه الذى ينحر فيه عادة ـ حتى نحر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هديه أمامهم وأحل من إحرامه . . ففعلوا (١) . .

وماستيسر من الهدى ، أى ماتيسر ، والهدى من النعم ، وهى الإبل والبقر والغنم والمعز ، ويجوز أن يشترك عدد من الحجاج فى بدنة أى ناقة أو بقرة ، كما اشترك كل سبعة فى بدنة فى عمرة الحديبية ، فيكون هـذا هو ماستيسر ؛ ويجوز أن يهدى الواحد واحدة من الضأن أو المعز فتجزىء .

والحكمة من هذا الاستدراك فى حالة الإحصار بالعدو كما وقع فى عام الحديبية ، أو الإحصار بالمرض ، هى التيسير . فالغرض الأول من الشعائر هو استجاشة مشاعر التقوى والقرب من الله ، والقيام بالطاعات المفروضة . فإذا تم هذا ، ثم وقف العدو أو المرض أو مايشبهه فى الطريق فلايحرم الحاج أو المعتمر أجر حجته أو عمرته . ويعتبر كأنه قد أتم . فينحر مامعه من الهدى ويحل . وهذا التيسير هو الذى يتفق مع روح الإسلام وغاية الشعائر وهدف العبادة .

وبعد هذا الاستدراك من الأمر الأول العام ، يعود السياق فينشىء حكما جديدا عاما من أحكام الحج والعمرة .

« ولاتحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله » . .

وهذا فى حالة الإتمام وعدم وجود الإحصار . فلايجوز حلق الرؤوس ـ وهو إشارة إلى الإحلال من الإحرام بالحج أو العمرة أو منهما معا ـ إلا بعد أن يبلغ الهدى محله . وهو مكان نحره . بعد الوقوف بعرفة ، والإفاضة منها . والنحر يكون فى منى فى اليوم العاشر من ذى الحجة ، وعندئذ يحل المحرم . أما قبل بلوغ الهدى محله فلاحلق ولاتقصير ولاإحلال .

واستدراكا من هذا الحكم العام يجىء هذا الاستثناء :

« فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » . .

ففى حالة ماإذا كان هناك مرض يقتضى حلق الرأس ، أو كان به أذى من الهوام التى تكون فى الشعر حين يطول ولايمشط ، فالإسلام دين اليسر والواقع يبيح للمحرم أن يحلق شعره ، ـ قبل أن يبلغ الهدى الذى ساقه عند الإحرام محله ، وقبل أن يكمل أفعال الحج ـ وذلك فى

(١) يراجع تفصيل هذا فى تفسير سورة الفتح فى الجزء السادس والعشرين.

Marfat.com

مقابل فدية : صيام ثلاثة أيام ، أوصدقة بإطعام ستة مساكين ، أوذبح شاة والتصدق بها . وهذا التحديد لحديث النبي – صلى الله عليه وسلم – قال البخارى – بإسناده إلى كعب ابن عجرة – قال: حملت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – والقمل يتناثر على وجهى . فقال : « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة ؟ قلت : لا . قال : صم ثلاثة أيام ، أوأطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك » . .

ثم يعود إلى حكم جديد عام فى الحج والعمرة :

« فإذا أمنتم ، فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى » . .

أى فإذا لم تحصروا ، وتمكنتم من أداء الشعائر ، فمن أراد التمتع بالعمرة إلى الحج فلينحر ماستيسر من الهدى . . وتفصيل هذا الحكم : أن المسلم قد يخرج للعمرة فيهل محرما عند الميقات . حتى إذا فرغ من العمرة – وهى تتم بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة – أحرم للحج وانتظر أيامه . وهذا إذا كان فى أشهر الحج ، وهى شوال وذوالقعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة .. هذه صورة من صور التمتع بالحج إلى العمرة . والصورة الثانية هى أن يحرم من الميقات بعمرة وحج معا . فإذا قضى مناسك العمرة انتظر حتى يأتى موعد الحج . وهذه هى الصورة الثانية للتمتع – وفى أى من الحالتين على المعتمر المتمتع أن ينحر ماستيسر من الهدى بعد العمرة ليحل منها ؟ ويتمتع بالإحلال مابين قضائه للعمرة وقضائه للحج . وماستيسر يشمل المستطاع من الأنعام سواء الإبل والبقر أوالغنم والمعز .

فإذا لم يجد ماستيسر من الهدى فهناك فدية :

« فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم . تلك عشرة كاملة » . .

والأولى أن يصوم الأيام الثلاثة الأولى قبل الوقوف بعرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة . أما الأيام السبعة الباقية فيصومها بعد عودته من الحج إلى بلده .. « تلك عشرة كاملة » .. ينص عليها نصا للتوكيد وزيادة البيان . . ولعل حكمة الهدى أوالصوم هى استمرار صلة القلب بالله ، فيما بين العمرة والحج ، فلا يكون الإحلال بينهما مخرجا للشعور عن جو الحج ، وجو الرقابة ، وجو التحرج ، الذى يلازم القلوب فى هذه الفريضة . .

ولما كان أهل الحرم عماره المقيمين فيه لاعمرة لهم . . إنما هو الحج وحده .. لم يكن لهم تمتع ، ولا إحلال بين العمرة والحج . ومن ثم فليس عليهم فدية ولاصوم بطبيعة الحال :

Marfat.com

« ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » ..

وعند هذا المقطع من بيان أحكام الحج والعمرة يقف السياق ليعقب تعقيبا قرآنيا ، يشد به القلوب إلى الله وتقواه :

« واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » ..

وهذه الأحكام ضمان القيام بها هو هذه التقوى ، وهى مخافة الله، وخشية عقابه . والإحرام بصاحبه تحرج . فإذا أباح لهم الإحلال فترة أقام تقوى الله وخشيته فى الضمير ، تستجيش فيه هذا التحرج ، وتقوم بالحراسة فى انتباه !

* * *

ثم يمضى فى بيان أحكام الحج خاصة ؛ فيبين مواعيده ، وآدابه ، وينتهى فى هـذا المقطع الجديد إلى التقوى كما انتهى إليها فى المقطع الأول سواء :

« الحج أشهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج . وماتفعلوا من خير يعلمه الله . وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون ياأولى الألباب » ..

وظاهر النص أن للحج وقتا معلوما ، وأن وقته أشهر معلومات .. هى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة .. وعلى هذا لايصح الإحرام بالحج إلافى هذه الأشهر المعلومات وإن كان بعض المذاهب يعتبر الإحرام به صحيحا على مدار السنة ، ويخصص هـذه الأشهر المعلومات لأداء شعائر الحج فى مواعيدها المعروفة . وقد ذهب إلى هذا الرأى الأئمة : مالك وأبو حنيفة وأحمد ابن حنبل . وهو مروى عن إبراهيم النخعى ، والثورى والليث ابن سعد . وذهب إلى الرأى الأول الإمام الشافعى ، وهو مروى عن ابن عباس وجابر وعطاء وطاووس ومجاهد . وهو الأظهر .

فمن فرض الحج فى هـذه الأشهر المعلومات ــ أى أوجب على نفسه إتمامه بالإحرام ــ « فلارفث ولافسوق ولاجدال فى الحج » .. والرفث هنا ذكر الجماع ودواعيه إما إطلاقا وإما فى حضرة النساء . والجدال : المناقشة والمشادة حتى يغضب الرجل صاحبه . والفسوق : إتيان المعاصى كبرت أم صغرت .. والنهى عنها ينتهى إلى ترك كل ما ينافى حالة التحرج والتجرد لله فى هـذه الفترة ، والارتفاع على دواعى الأرض ، والرياضة الروحية على التعلق بالله دون سواه ،

Marfat.com

والتأدب الواجب فى بيته الحرام لمن قصد إليه متجردا حتى من مخيط الثياب ؛

وبعد النهى عن فعل القبيح يحبب إليهم فعل الجميل :

« وماتفعلوا من خير يعلمه الله » ..

ويكفى فى حس المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم مايفعله من خير ويطلع عليه ، ليكون هذا حافزا على فعل الخير ، ليراه الله منه ويعلمه .. وهذا وحده جزاء .. قبل الجزاء ..

ثم يدعوهم إلى التزود فى رحلة الحج .. زاد الجسد وزاد الروح .. فقد ورد أن جماعةمن أهل اليمن كانوا يخرجون من ديارهم للحج ليس معهم زاد ، يقولون : نحج بيت الله ولايطعمنا! وهذا القول ـ فوق مخالفته لطبيعة الإسلام التى تأمر باتخاذ العدة الواقعية فى الوقت الذى يتوجه فيه القلب إلى الله ويعتمد عليه كل الاعتماد ـ يحمل كذلك رائحة عدم التحرج فى جانب الحديث عن الله ، ورائحة الامتنان على الله بأنهم يحجون بيته فعليه أن يطعمهم ! ! ومن ثم جاء التوجيه إلى الزاد بنوعيه ، مع الإيحاء بالتقوى فى تعبير عام دائم الإيحاء :

« وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . واتقون ياأولى الألباب » ..

والتقوى زاد القلوب والأرواح . منه تقتات . وبه تتقوى وترف وتشرق . وعليه تستند فى الوصول والنجاة . وأولو الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى ، وخير من ينتفع بهذا الزاد .

* * *

ثم يمضى فى بيان أحكام الحج وشعائره ، فيبين حكم مزاولة التجارة أو العمل بأجر بالنسبة للحاج . وحكم الإفاضة ومكانها . ومايجب من الذكر والاستغفار بعدها :

« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم . فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » ..

قال البخارى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس . قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية . فتأثموا أن يتجروا فى الموسم . فنزلت : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » فى مواسم الحج .

Marfat.com

وروى أبو داود - بإسناده من طريق آخر - إلى ابن عباس . قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون : أيام ذكر . فأنزل الله : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ..

وفى رواية عن أبى أمامة التيمى قال : قلت لابن عمر : إنا نُكرى . فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون بالمعروف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قال : قلنا : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ..

وفى رواية عن أبى صالح مولى عمر (رواها ابن جرير) قال : قلت : ياأمير المؤمنين . كنتم تتجرون فى الحج ؟ قال : وهل كانت معايشهم إلا فى الحج ؟

وهذا التحرج الذى تذكرهالروايتان الأوليان من التجارة ، والتحرج الذى تذكره الرواية الثالثة عن الكراء أوالعمل بأجر فى الحج .. هو طرف من ذلك التحرج الذى أنشأه الإسلام فى النفوس من كل ماكان سائغا فى الجاهلية ، وانتظار رأى الإسلام فيه قبل الإقدام عليه .وهى الحالة التى تحدثنا عنها فىأوائلهذا الجزء ، عند الكلام عن التحرج من الطواف بالصفا والمروة .

وقد نزلت إباحة البيع والشراء والكراء فى الحج ، وسماها القرآن ابتغاء من فضل الله :

« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ..

ليشعر من يزاولها أنه يبتغى من فضل الله حين يتجر وحين يعمل بأجروحين يطلبأسباب الرزق . إنه لايرزق نفسه بعمله . إنما هو يطلب من فضل الله ، فيعطيه الله . فأحرى ألاينسى هذه الحقيقة ؛ وهى أنه يبتغى من فضل الله ؛ وأنه ينال من هذا الفضل حين يكسب وحين يقبض وحين يحصل على رزقه من وراء الأسباب التى يتخذها للارتزاق . ومتى استقر هذا الإحساس فى قلبه ، وهو يبتغى الرزق ، فهو إذن فى حالة عبادة لله ، لاتتنافى مع عبادة الحج ، فى الاتجاه إلى الله . ومتى ضمن الإسلام هذه المشاعر فى قلب المؤمن أطلقه يعمل وينشط كما يشاء .. وكل حركة منه عبادة فى هذا المقام .

Marfat.com

لهذا يجعل الحديث عن طلب الرزق جزءا من آية تتحدث عن بقية شعائر الحج ، فتذكر الإفاضة والذكر عند المشعر الحرام :

« فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » . .

والوقوف بعرفة عمدة أفعال الحج . . روى أصحاب السنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير ، عن عطاء ، عن عبدالرحمن ابن معمر الديلمى . قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « الحج عرفات ـ ثلاثا ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة . فمن تعجل فى يومين فلاإثم عليه ، ومن تأخر فلاإثم عليه » . .

ووقت الوقوف بعرفة من الزوال (الظهر) يوم عرفة ـ وهو اليوم التاسع من ذى الحجة ـ إلى طلوع الفجر من يوم النحر . . وهناك قول ذهب إليه الإمام أحمد ، وهو أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة . استنادا إلى حديث رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذى . عن الشعبى عن عروة ابن مضرس ابن حارثة ابن لام الطائى قال : « أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يارسول الله إنى جئت من جبل طيء . أكللت راحلتى وأتعبت نفسى ، والله ماتركت من جبل إلا وقفت عليه . فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أونهارا ، فقد تم حجه وقضى تفثه » .

وقد سن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للوقوف هذا الوقت ـ على أى القولين ـ ومد وقت الوقوف بعرفة إلى فجر يوم النحر ـ وهو العاشر من ذى الحجة ـ ليخالف هدى المشركين فى وقوفهم بها . . روى ابن مردويه والحاكم فى المستدرك كلاهما من حديث عبد الرحمن ابن المبارك العيشى ـ بإسناده ـ عن المسور ابن مخرمة قال : « خطبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بعرفات. فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أمابعد ـ وكان إذا خطب خطبة قال : أمابعد ـ فإن هذا اليوم الحج الأكبر . الا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس ، إذاكانت الشمس فى رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها . وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس ، مخالفا هدينا هدى أهل الشرك » . .

Marfat.com

والذى ورد عن فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دفع بعد غروب شمس يوم عرفة ، وقد جاء في حديث جابر بن عبدالله ـ فى صحيح مسلم ـ « فلم يزل واقفا ـ يعنى بعرفة ـ حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا ، حتى غاب القرص ،وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس . السكينة السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا . ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام . فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا ، فدفع قبل أن تطلع الشمس » . .

وهذا الذى فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى تشير إليه الآية :

« فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » . .

والمشعر الحرام هو المزدلفة . والقرآن هنا يأمر بذكر الله عنده بعد الإفاضة من عرفات . ثم يذكر المسلمين بأن هذا الذكر من هداية الله لهم ؛ وهو مظهر الشكر على هذه الهداية . ويذكرهم بما كان من أمرهم قبل أن يهديهم :

« وإن كنتم من قبله لمن الضالين » . .

والجماعة المسلمة الأولى كانت تدرك حق الإدراك مدى وعمق هذه الحقيقة فى حياتها . . لقد كانت قريبة عهد بما كان العرب فيه من ضلال . . ضلال فى التصور ، مظهره عبادة الأصنام والجن والملائكة ؛ ونسبة بنوة الملائكة إلى الله ، ونسبة الصهر إلى الله مع الجن . . إلى آخر هذه التصورات السخيفة المتهافتة المضطربة ؛ التى كانت تنشىء بدورها اضطرابا فى العبادات والشعائر والسلوك : من تحريم بعض الأنعام ظهورها أولحومها بلاسبب إلا تصور علاقات بينها وبين شتى الآلهة . ومن نذر بعض أولادهم للآلهة وإشراك الجن فيه . ومن عادات جاهلية شتى لاسند لها إلا هذا الركام من التصورات الاعتقادية المضطربة . . وضلال فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية . . تمثله تلك الفوارق الطبقية التى تشير الآية التالية فى السياق : « ثم أفيضوا من

Marfat.com

حيث أفاض الناس » . . . إلى إزالتها كما سيجىء . وتمثله تلك الحروب والمشاحنات القبلية التى لم تكن تجعل من العرب أمة يحسب لها حساب فى العالم الدولى . وتمثله تلك الفوضى الخلقية فى العلاقات الجنسية ، والعلاقات الزوجية ، وعلاقات الأسرة بصفة عامة . وتمثله تلك المظالم التى يزاولها الأقوياء ضد الضعاف فى المجتمع بلاميزان ثابت يفىء إليه الجميع .. وتمثلها حياة العرب بصفة عامة ووضعهم الإنسانى المتخلف الذى لم يرفعهم منه إلا الإسلام .

وحين كانوا يسمعون :

« واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » .

كانت ولاشك تتواكب على خيالهم وذاكرتهم ومشاعرهم صور حياتهم الضالة الزرية الهابطة التى كانت تطبع تاريخهم كله ؛ ثم يتلفتون على أنفسهم ليروا مكانهم الجديد الذى رفعهم إليه الإسلام ، والذى هداهم الله إليه بهذا الدين ، فيدركون عمق هذه الحقيقة وأصالتها فى وجودهم كله بلاجدال . .

وهذه الحقيقة ماتزال قائمة بالقياس إلى المسلمين من كل أمة ومن كل جيل . . من هم بغير الإسلام ؟ وماهم بغير هذه العقيدة؟إنهم حين يهتدون إلى الإسلام،وحين يصبح المنهج الإسلامى حقيقة فى حياتهم ينتقلون من طور وضيع صغير ضال مضطرب إلى طور آخر رفيع عظيم مهتد مستقيم . ولايدركون هذه النقلة إلا حين يصبحون مسلمين حقا، أى حين يقيمون حياتهم كلها على النهج الإسلامى..وإن البشرية كلها لتتيه فى جاهلية عمياء مالم تهتد إلى هذا النهج المهتدى.. لايدرك هذه الحقيقة إلامن يعيش فى الجاهلية البشرية التى تعج بها الأرض فى كل مكان ، ثم يحيا بعد ذلك بالتصور الإسلامى الرفيع للحياة ، ويدرك حقيقة المنهج الإسلامى الشامخة على كل ماحولها من مقاذر ومستنقعات وأوحال !

وحين يطل الإنسان من قمة التصور الإسلامى والمنهج الإسلامى ، على البشرية كلها فى جميع تصوراتها ، وجميع مناهجها ، وجميع نظمها ــ بما فى ذلك تصورات أكبر فلاسفتها قديما وحديثا ، ومذاهب أكبر مفكريها قديما وحديثا ــ حين يطل الإنسان من تلك القمة الشامخة يدركه العجب من انشغال هذه البشرية بما هى فيه من عبث، ومن عنت ، ومن شقوة ، ومن

Marfat.com

ضآلة ، ومن اضطراب لايصنعه بنفسه عاقل يدعى - فيما يدعى - أنه لم يعد فى حاجة إلى إله ؟ أولم يعد على الأقل - كما يزعم - فى حاجة لاتباع شريعة إله ومنهج إله !

فهذا هو الذى يذكر الله به المسلمين ، وهو يمتن عليهم بنعمته الكبرى :

« واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » . .

والحج هو مؤتمر المسلمين الجامع ، الذى يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام ، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام ، عرايا من كل شىء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ، ولا يميز فردا عن فرد، ولاقبيلة عن قبيلة ، ولاجنسا عن جنس . . إن عقدة الإسلام هى وحدها العقدة ، ونسب الإسلام هو وحده النسب ، وصبغة الإسلام هى وحدها الصبغة . وقد كانت قريش فى الجاهلية تسمى نفسها « الحمس » جمع أحمس ، ويتخذون لأنفسهم امتيازات تفرقهم عن سائر العرب . ومن هذه الامتيازات أنهم لايقفون مع سائر الناس فى عرفات ، ولايفيضون - أى يرجعون - من حيث يفيض الناس . فجاءهم هذا الأمر ليردهم إلى المساواة التى أرادها الإسلام ، وإلى الاندماج الذى يلغى هذه الفوارق المصطنعة بين الناس:

«ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم» .

قال البخارى : حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت : «كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأتى عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها . فذلك قوله : من حيث أفاض الناس » . .

قفوا معهم حيث وقفوا ، وانصرفوا معهم حيث انصرفوا . . إن الإسلام لايعرف نسبا ، ولا يعرف طبقة . إن الناس كلهم أمة واحدة . سواسية كأسنان المشط ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . ولقد كلفهم الإسلام أن يتجردوا فى الحج من كل مايميزهم من الثياب ، ليلتقوا فى بيت الله إخوانا متساوين . فلا يتجردوا من الثياب ليتخايلوا بالأنساب . . ودعوا عنكم عصبية الجاهلية . وادخلوا فى صبغة الإسلام . . واستغفروا الله . . استغفروه من تلك الكبرة الجاهلية . واستغفروه من كل مامس الحج من مخالفات ولو يسيرة هجست فى النفس ، أو نطق بها اللسان ، مما نهى عنه من الرفث والفسوق والجدال .

Marfat.com

وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين فى الحج ، على أساس من التصور الذى هدى البشرية إليه . أساس المساواة ، وأساس الأمة الواحدة التى لا تفرقها طبقة ، ولا يفرقها جنس ، ولا تفرقها لغة ، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعا . . وهكذا يردهم إلى استغفار الله من كل مايخالف عن هذا التصور النظيف الرفيع . .

* * *

« فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا . فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا ، وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب » . .

ولقد سبق أنهم كانوا يأتون أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز . . وهذه الأسواق لم تكن أسواق بيع وشراء فحسب ؛ إنما كانت كذلك أسواق كلام ومفاخرات بالآباء ، ومعاظمات بالأنساب . . ذلك حين لم يكن للعرب من الاهتمامات الكبيرة مايشغلهم عن هذه المفاخرات والمعاظمات ! لم تكن لهم رسالة إنسانية بعد ينفقون فيها طاقة القول وطاقة العمل . فرسالتهم الإنسانية الوحيدة هى التى ناطهم بها الإسلام . فأما قبل الإسلام وبدون الإسلام فلا رسالة لهم فى الأرض ، ولا ذكر لهم فى السماء . . ومن ثم كانوا ينفقون أيام عكاظ ومجنة وذى المجاز فى تلك الاهتمامات الفارغة . فى المفاخرة بالأنساب وفى التعاظم بالآباء . . فأما الآن وقد أصبحت لهم بالإسلام رسالة ضخمة ، وأنشأ لهم الإسلام تصورا جديدا ، بعد أن أنشأهم نشأة جديدة .. أما الآن فيوجههم القرآن لما هو خير .يوجههم إلى ذكر الله بعد قضاء مناسك الحج ، بدلا من ذكر الآباء :

« فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » . .

وقوله لهم : « كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » . . لايفيد أن يذكروا الآباء مع الله ؛ ولكنه يحمل طابع التنديد ، ويوحى بالتوجيه إلى الأجدر والأولى . . يقول لهم : إنكم تذكرون آباءكم حيث لايجوز أن تذكروا إلا الله . فاستبدلوا هذا بذاك . بل كونوا أشد ذكرا لله وأنتم خرجتم إليه متجردين من الثياب ، فتجردوا كذلك من الأنساب . . ويقول لهم : إن

Marfat.com

ذكر الله هو الذي يرفع العباد حقا ، وليس هو التفاخر بالآباء . فالميزان الجديد للقيم البشرية هو ميزان التقوى . ميزان الاتصال بالله وذكره وتقواه .

ثم يزن لهم بهذا الميزان ، ويريهم مقادير الناس ومآلاتهم بهذا الميزان:

« فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا ، وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » . .

إن هناك فريقين . فريقا همه الدنيا ؛ فهو حريص عليها ، مشغول بها . وقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فى الحج فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لايذكرون من أمر الآخرة شيئا . . وورد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن الآية نزلت فى هذا الفريق من الناس . . ولكن مدلول الآية أعم وأدوم . . فهذا نموذج من الناس مكرور فى الأجيال والبقاع . النموذج الذى همه الدنيا وحدها . يذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء ؛ لأنها هى التى تشغله ، وتملأ فراغ نفسه ، وتحيط عالمه وتغلقه عليه . . هؤلاء قد يعطيهم الله نصيبهم فى الدنيا – إذا قدر العطاء – ولا نصيب لهم فى الآخرة على الإطلاق !

وفريقا أفسح أفقا ، وأكبر نفسا ، لأنه موصول بالله ، يريد الحسنة فى الدنيا ولكنه لاينسى نصيبه فى الآخرة فهو يقول :

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . .

إنهم يطلبون من الله الحسنة فى الدارين . ولا يحددون نوع الحسنة – بل يدعون اختيارها لله . والله يختار لهم مايراه حسنة وهم باختياره لهم راضون . . وهؤلاء لهم نصيب مضمون لايبطىء عليهم . فالله سريع الحساب .

إن هـــذا التعليم الإلهى يحدد : ان يكون الاتجاه . ويقرر أنه من اتجه إلى الله وأسلم له أمره ، وترك لله الخيرة ، ورضى بما يختاره له الله ، فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة . ومن جعل همه الدنيا فقد خسر فى الآخرة كل نصيب . والأول رابح حق بالحساب الظاهر . وهو فى ميزان الله أربح وأرجح . وقد تضمن دعاؤه خير الدارين فى اعتدال ، وفى استقامة على التصور المادىء المتزن الذى ينشئه الإسلام .

Marfat.com

إن الإسلام لايريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا . فهم خلقوا للخلافة فى هذه الدنيا . ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله فى أمرها ؛ وألا يضيقوا من آفاقهم ، فيجعلوا من الدنيا سورا يحصرهم فيها . . إنه يريد أن يطلق « الإنسان » من أسوار هـذه الأرض الصغيرة ؛ فيعمل فيها وهو أكبر منها ؛ ويزاول الخلافة وهو متصل بالأفق الأعلى . . ومن ثم تبدو الاهتمامات القاصرة على هـذه الأرض ضئيلة هزيلة وحدها حين ينظر إليها الإنسان من قمة التصور الإسلامى . .

* * *

ثم تنتهى أيام الحج وشعائره ومناسكه بالتوجيه إلى ذكر الله ، وإلى تقواه :

« واذكروا الله فى أيام معدودات . فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه تحشرون » . .

أيام الذكر هى فى الأرجح يوم عرفة ويوم النحر والتشريق بعده . قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق . . وقال عكرمة : « واذكروا الله فى أيام معدودات » يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر . الله أكبر. وفى الحديث المتقدم عن عبد الرحمن ابن معمر الديلمى : « وأيام منى ثلاثة . فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » . . وأيام عرفة والنحر والتشريق . كلها صالحة للذكر . اليومين الأولين منها أو اليومين الأخيرين . بشرط التقوى :

ذلك « لمن اتقى » . .

ثم يذكرهم بمشهد الحشر بمناسبة مشهد الحج ؛ وهو يستجيش فى قلوبهم مشاعر التقوى أمام ذلك المشهد المخيف :

« واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . .

* * *

وهكذا نجد فى هذه الآيات كيف جعل الإسلام الحج فريضة إسلامية ؛ وكيف خلعها من جذورها الجاهلية ؛ وربطها بعروة الإسلام ؛ وشدها إلى محوره؛ وظللها بالتصورات الإسلامية؛ ونقاها من الشوائب والرواسب . . وهـذه هى طريقة الإسلام فى كل مارأى أن يستبقيه من

Marfat.com

عادة أوشعيرة . . إنها لم تعد هى التى كانت فى الجاهلية ؛ إنما عادت قطعة جديدة متناسقة فى الثوب الجديد . . إنها لم تعد تقليداً عربيا ، إنما عادت عبادة إسلامية . فالإسلام ، والإسلام وحده ، هو الذى يبقى وهو الذى يُرعى . .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ، وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ : ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ؟ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ، وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

« سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ؛ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . .

« كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ، فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ

Marfat.com

مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » (٢١٤)

فى ثنايا التوجيهات والتشريعات القرآنية ـ التى يتألف من مجموعها ذلك المنهج الربانى الكامل للحياة البشرية ـ يجد الناظر فى هذه التوجيهات كذلك منهجا للتربية ، قائما على الخبرة المطلقة بالنفس الإنسانية ، ومساربها الظاهرة والخفية ؛ يأخذ هذه النفس من جميع أقطارها ، كما يتضمن رسم نماذج من نفوس البشر ، واضحة الخصائص جاهرة السمات ، حتى ليخيل للإنسان وهو يتصفح هذه الخصائص والسمات ، أنه يرى ذوات بعينها ، تدب فى الأرض ، وتتحرك بين الناس ، ويكاد يضع يده عليها ، وهو يصيح : هذه هى بعينها التى عناها القرآن !

وفى هذا الدرس نجد الملامح الواضحة لنموذجين من نماذج البشر : الأول نموذج المرائى الشرير ، الذلق اللسان . الذى يجعل شخصه محور الحياة كلها . والذى يعجبك مظهره ويسوؤك مخبره . فإذا دعى إلى الصلاح وتقوى الله لم يرجع إلى الحق ؛ ولم يحاول إصلاح نفسه ؛ بل أخذته العزة بالإثم ، واستنكف أن يوجه إلى الحق والخير . ومضى فى طريقه يهلك الحرث والنسل ! والثانى نموذج المؤمن الصادق الذى يبذل نفسه كلها لمرضاة الله ، لا يستبقى منها بقية ، ولا يحسب لذاته حسابا فى سعيه وعمله ، لأنه يفنى فى الله ، ويتوجه بكليته إليه .

وعقب عرض هذين النموذجين نسمع هتافا بالذين آمنوا ليستسلموا بكليتهم لله ، دون ماتردد ، ودون ماتلفت ، ودون ماتجربة لله بطلب الخوارق والمعجزات ، كالذى فعلته بنو إسرائيل حين بدلت نعمة الله عليها وكفرتها . . ويسمى هذا الاستسلام دخولا فى السلم . فيفتح بهذه الكلمة بابا واسعا للتصور الحقيقى الكامل لحقيقة الإيمان بدين الله ، والسير على منهجه فى الحياة (كما سنفصل هذا عند مواجهة النص القرآنى بإذن الله) .

Marfat.com

وفى مواجهة نعمة الإيمان الكبرى ، وحقيقة السلام التى تنشر ظلالها على الذين آمنوا . . يعرض سوء تصور الكفار لحقيقة الأمر ، وسخريتهم من الذين آمنوا بسبب ذلك التصور الضال . ويقرر إلى جانب ذلك حقيقة القيم فى ميزان الله : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » . .

يلى هذا تلخيص لقصة اختلاف الناس . وبيان للميزان الذى يجب أن يفيئوا إليه ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه . وتقرير لوظيفة الكتاب الذى أنزله الله بالحق ليحكم بين « الناس فيما اختلفوا فيه » . .

ويتطرق من هذا إلى ماينتظر القائمين على هذا الميزان من مشاق الطريق ؛ ويخاطب الجماعة المسلمة فيكشف لها عما ينتظرها فى طريقها الشائك من البأساء والضراء والجهد الذى لقيته كل جماعة نيطت بها هذه الأمانة من قبل . كى تعد نفسها لتكاليف الأمانة التى لامفر منها ولا محيص عنها . وكى تقبل عليها راضية النفس ، مستقرة الضمير ؛ تتوقع نصر الله كلما غام الأفق ، وبدا أن الفجر بعيد !

وهكذا نرى أطرافا من المنهج الربانى فى تربية الجماعة المسلمة وإعدادها ، تنحو أنحاء منوعة من الإيقاعات المؤثرة ، تتخلل التوجيهات والتشريعات التى يتألف من مجموعها ذلك المنهج الربانى الكامل للحياة البشرية .

* * *

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد . وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد . . ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد » . .

هذه اللمسات العجيبة من الريشة المبدعة فى رسم ملامح النفوس ، تشى بذاتها بأن مصدر هذا القول المعجز ليس مصدرا بشريا على الإطلاق . فاللمسات البشرية لاتستوعب — فى لمسات سريعة كهذه — أعمق خصائص النماذج الإنسانية ، بهذا الوضوح ، وبهذا الشمول .

إن كل كلمة أشبه بخط من خطوط الريشة فى رسم الملامح وتحديد السمات . . وسرعان

Marfat.com

مايتنفس النموذج المرسوم كائنا حيا ، مميز الشخصية . حتى لتكاد تشير بأصبعك إليه ، وتفرزه من ملايين الأشخاص ، وتقول : هـذا هو الذى أراد إليه القرآن ! . . إنها عملية خلق أشبه بعملية الخلق التى تخرج كل لحظة من يد البارىء فى عالم الأحياء !

هـذا المخلوق الذى يتحدث ، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير ، ومن الإخلاص ، ومن التجرد ، ومن الحب ، ومن الترفع ، ومن الرغبة فى إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس . . هـــذا الذى يعجبك حديثه . تعجبك ذلاقة لسانه ، وتعجبك نبرة صوته ، ويعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح . . « ويشهد الله على ما فى قلبه » . . زيادة فى التأثير والإيحاء ، وتوكيدا للتجرد والإخلاص ، وإظهارا للتقوى وخشية الله . . « وهو ألد الخصام » ! تزدحم نفسه باللدد والخصومة ، فلا ظل فيها للود والسماحة ، ولا موضع فيها للحب والخير ، ولا مكان فيها للتجمل والإيثار .

هـذا الذى يتناقض ظاهره وباطنه ، ويتنافر مظهره ومخبره . . هذا الذى يتقن الكذب والتمويه والدهان . . حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء ، وانكشف المستور ، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغى والحقد والفساد :

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لايحب الفساد » . .

وإذا انصرف إلى العمل ، كانت وجهته الشر والفساد ، فى قسوة وجفوة ولدد ، تتمثل فى إهلاك كل حى من الحرث الذى هو موضع الزرع والإنبات والإثمار ، ومن النسل الذى هو امتداد الحياة بالإنسال . . وإهلاك الحياة على هذا النحو كناية عما يعتمل فى كيان هذا المخلوق النكد من الحقد والشر والغدر والفساد . . مما كان يستره بذلاقة اللسان ، ونعومة الدهان ، والتظاهر بالخير والبر والسماحة والصلاح . . « والله لايحب الفساد » . . ولا يحب المفسدين الذين ينشئون فى الأرض الفساد . . والله لايخفى عليه حقيقة هذا الصنف من الناس ؛ ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذى قد يجوز على الناس فى الحياة الدنيا ، فلا يعجبه من هـذا الصنف النكد مايعجب الناس الذين تخدعهم الظواهر وتخفى عليهم السرائر .

ويمضى السياق يوضح معالم الصورة ببعض اللمسات :

Marfat.com

« وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم . فحسبه جهنم ولبئس المهاد » ..

إذا تولى فقصد إلى الإفساد فى الأرض ؛ وأهلك الحرث والنسل ؛ ونشر الخراب والدمار ؛ وأخرج مايعتمل فى صدره من الحقد والضغن والشر والفساد .. إذا فعل هذا كله ثم قيل له : « اتق الله » .. تذكيرا له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه .. أنكر أن يقال له هذا القول ؛ واستكبر أن يوجه إلى التقوى ؛ وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب . وأخذته العزة لابالحق ولابالعدل ولابالخير ولكن « بالإثم » .. فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ، ورفع رأسه فى وجه الحق الذى يذكر به ، وأمام الله بلاحياء منه ؛ وهو الذى كان يشهد الله على مافى قلبه ؛ ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء !

إنها لمسة تكمل ملامح الصورة ، وتزيد فى قسماتها وتميزها بذاتها .. وتدع هذا النموذج حيا يتحرك . تقول فى غير تردد : هذا هو . هـذا هو الذى عناه القرآن ! وأنت تراه أمامك ماثلا فى الأرض الآن وفى كل آن !

وفى مواجهة هـذا الاعتزاز بالإثم ؛ واللدد فى الخصومة ؛ والقسوة فى الفساد ؛ والفجور فى الإفساد .. فى مواجهة هذا كله يجبهه السياق باللطمة اللائقة بهذه الجبلة النكدة :

« فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد ! » ..

حسبه ! ففيها الكفاية ! جهنم التى وقودها الناس والحجارة . جهنم التى يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون . جهنم الحطمة التى تطلع على الأفئدة . جهنم التى لاتبقى ولاتذر . جهنم التى تكاد تميز من الغيظ ! حسبه جهنم « ولبئس المهاد ! » ويا للسخرية القاصمة فى ذكر « المهاد » هنا .. ويابؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء !

... ذلك نموذج من الناس . يقابله نموذج آخر على الطرف الآخر من القياس :

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . والله رؤوف بالعباد » ..

ويشرى هنا معناها يبيع . فهو يبيع نفسه كلها لله ؛ ويسلمها كلها لايستبقى منها بقية ، ولايرجو من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة الله . ليس له فيها شىء ، وليس له من ورائها شىء . بيعة كاملة لاتردد فيها ولاتلفت ولاتحصيل ثمن ، ولااستبقاء بقية لغير الله .. والتعبير يحتمل معنى آخر يؤدى إلى نفس الغاية .. يحتمل أنه يشترى نفسه بكل أعراض الحياة الدنيا ،

Marfat.com

ليعتقها ويقدمها خالصة لله ، لايتعلق بها حق آخر إلا حق مولاه . فهو يضحى كل أعراض الحياة الدنيا ويخلص بنفسه مجردة لله . وقد ذكرت الروايات سببا لنزول هـذه الآية يتفق مع هـذا التأويل الأخير :

قال ابن كثير فى التفسير : قال ابن عباس وأنس وسعيد ابن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة : نزلت فى صهيب ابن سنان الرومى . وذلك أنه لما أسلم بمكة ،وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ؛ فتخلص منهم ، وأعطاهم ماله ؛ فأنزل الله فيه هذه الآية ؛ فتلقاه عمر ابن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة ، فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم . فلاأخسر الله تجارتكم . وماذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .. ويروى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال له : « ربح البيع صهيب » . . قال ابن مردويه : حدثنا محمد ابن إبراهيم ، حدثنا محمد ابن عبدالله ابن مردويه ، حدثنا سليمان ابن داود ، حدثنا جعفر ابن سليمان الضبى ، حدثنا عوف ، عن أبى عثمان النهدى ، عن صهيب ، قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالت لى قريش : ياصهيب . قدمت إلينا ولامال لك ؛ وتخرج أنت ومالك ؟ والله لايكون ذلك أبدا . فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى ؟ قالوا : نعم ! فدفعت إليهم مالى ، فخلوا عنى ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « ربح صهيب . ربح صهيب » . . مرتين . .

وسواء كانت الآية نزلت فى هذا الحادث ، أوأنها كانت تنطبق عليه ، فهى أبعد مدى من مجرد حادث ومن مجرد فرد . وهى ترسم صورة نفس ، وتحدد ملامح نموذج من الناس ؛ نرى نظائره فى البشرية هنا وهناك .

والصورة الأولى تنطبق على كل منافق مراء ذلق اللسان ؛ فظ القلب ، شرير الطبع ،شديد الخصومة ، مفسود الفطرة .. والصورة الثانية تنطبق على كل مؤمن خالص الإيمان ، متجرد لله، مرخص لأعراض الحياة . . وهذا وذلك نموذجان معهودان فى الناس ؛ ترسمهما الريشة المبدعة بهذا الإعجاز ؛ وتقيمهما أمام الأنظار يتأمل الناس فيهما معجزة القرآن،ومعجزة خلق الإنسان بهذا التفاوت بين النفاق والايمان . ويتعلم منهما الناس ألا ينخدعوا بمعسول القول ، وطلاوة

Marfat.com

الدهان ؛ وأن يبحثوا عن الحقيقة وراء الكلمة المزوقة ، والنبرة المتصنعة ، والنفاق والرياء والزواق ! كما يتعلمون منهما كيف تكون القيم فى ميزان الإيمان .

* * *

وفى ظلال هاتين اللوحتين المشخصتين لنموذج النفاق الفاجر ، ونموذج الإيمان الخالص ، يهتف بالجماعة المسلمة ، باسم الإيمان الذى تعرف به ، للدخول فى السلم كافة ، والحذر من اتباع خطوات الشيطان ، مع التحذير من الزلل بعد البيان .

« ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم ، من بعد ماجاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ..

إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان . بهذا الوصف المحبب إليهم ، والذى يميزهم ويفردهم ويصلهم بالله الذى يدعوهم . . دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة . .

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ، فى ذوات أنفسهم ، وفى الصغير والكبير من أمرهم . أن يستسلموا الاستسلام الذى لاتبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور ، ومن نية أو عمل ، ومن رغبة أو رهبة ، لاتخضع لله ولاترضى بحكمه وقضاه . استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية . الاستسلام لليد التى تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد ؛ وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير ، فى الدنيا والآخرة سواء .

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشى بأنه كانت هنالك نفوس ماتزال يثور فيها بعض التردد فى الطاعة المطلقة فى السر والعلن . وهو أمر طبيعى أن يوجد فى الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية . . وهى دعوة توجه فى كل حين للذين آمنوا ؛ ليخلصوا ويتجردوا ، وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع مايريد الله بهم ، ومايقودهم إليه نبيهم ودينهم ، فى غير ماتلجلج ولاتردد ولاتلفت .

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل فى عالم كله سلم وكله سلام . عالم كله ثقة واطمئنان ، وكله رضى واستقرار . لاحيرة ولاقلق ، ولاشرود ولاضلال . سلام مع النفس والضمير . سلام مع العقل والمنطق . سلام مع الناس والأحياء . سلام مع الوجود كله ومع كل

Marfat.com

موجود . سلام يرف فى حنايا السريرة . وسلام يظلل الحياة والمجتمع . سلام فى الأرض وسلام فى السماء .

وأول مايفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره لله ربه ، ونصاعة هذا التصور وبساطته ..

إنه إله واحد . يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه ؛ فلاتتفرق به السبل ، ولاتتعدد به القبل ؛ ولايطارده إله من هنا وإله من هناك ـ كما كان فى الوثنية والجاهلية ـ إنما هو إله واحد يتجه إليه فى ثقة وفى طمأنينة وفى نصاعة وفى وضوح .

وهو إله قوى قادر عزيز قاهر . . فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقة الوحيدة فى هذا الوجود . وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح . ولم يعد يخاف أحدا أو يخاف شيئا ، وهو يعبدالله القوى القادر العزيز القاهر . ولم يعد يخشى فوت شىء ، ولايطمع فى غير من يقدر على الحرمان والعطاء .

وهو إله عادل حكيم ، فقوته وقدرته ضمان من الظلم ، وضمان من الهوى ، وضمان من البخس . وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات النزوات والشهوات . ومن ثم يأوى المسلم من إلهه إلى ركن شديد ، ينال فيه العدل والرعاية والأمان .

وهو رب رحيم ودود . منعم وهاب . غافر الذنب وقابل التوب . يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . فالمسلم فى كنفه آمن آنس ، سالم غانم ، مرحوم إذا ضعف ، مغفور له متى تاب . .

وهكذا يمضى المسلم مع صفات ربه التى يعرفه بها الإسلام ؛ فيجد فى كل صفة ما يؤنس قلبه ، وما يطمئن روحه ، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام . .

كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب . وبين الخالق والكون . وبين الكون والإنسان . . فالله خلق هذا الكون بالحق ؛ وخلق كل شىء فيه بقدر وحكمة . وهذا الإنسان مخلوق قصدا ، وغير متروك سدى ، ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده ، ومسخر له مافى الأرض جميعا . وهو كريم على الله ، وهو خليفته

Marfat.com

فى أرضه . والله معينه على هذه الخلافة . والكون من حوله صديق مأنوس ، تتجاوب روحه مع روحه ، حين يتجه كلاهما إلى الله ربه . وهو مدعو إلى هـــذا المهرجان الإلهى المقام فى السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به . وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حى فى هذا الوجود الكبير ، الذى يعج بالأصدقاء المدعوين مثله إلى ذلك المهرجان ! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان !

والعقيدة التى تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة ، وهى توحى إليه أن له أجرا حين يرويها من عطش ، وحين يعينها على النماء ، وحين يزيل من طريقها العقبات . . هى عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة . عقيدة تسكب فى روحه السلام ؛ وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ؛ ويشيع من حوله الأمن والرفق ، والحب والسلام .

والاعتقاد بالآخرة يؤدى دوره الأساسى فى إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ؛ ونفى القلق والسخط والقنوط . . إن الحساب الختامى ليس فى هذه الأرض ؛ والجزاء الأوفى ليس فى هذه العاجلة . . إن الحساب الختامى هناك ؛ والعدالة المطلقة مضمونة فى هذا الحساب . فلا ندم على الخير والجهاد فى سبيله إذا لم يتحقق فى الأرض أو لم يلق جزاءه . ولا قلق على الأجر إذا لم يوف فى هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزان الله . ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ فى الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لابد واقع . وما الله يريد ظلما للعباد .

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذى تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات ، بلا تحرج ولا حياء . فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت . وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة ؛ وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين ؛ وأن يخفف السعار الذى ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هى فرصة هذا العمر القصير المحدود !

ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنسانى هى العبادة ، وأنه مخلوق ليعبد الله . . من شأنها ــ ولاشك ــ أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء . ترفع شعوره وضميره ، وترفع نشاطه وعمله ، وتنظف وسائله وأدواته . فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله ؛ وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه ؛

Marfat.com

وهو يريد العبادة بالخلافة فى الأرض وتحقيق منهج الله فيها . فأولى به ألا يغدر ولا يفجر ؛ وأولى به ألا يغش ولا يخدع ؛ وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر ؛ وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيسة . وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل ، وألا يعتسف الطريق ، وألا يركب الصعب من الأمور . فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب فى حدود الطاقة . . ومن شأن هذا كله ألا تثور فى نفسه المخاوف والمطامع ، وألا يستبد به القلق فى أية مرحلة من مراحل الطريق . فهو يعبد فى كل خطوة ؛ وهو يحقق غاية وجوده فى كل خطرة ؛ وهو يرتقى صعدا إلى الله فى كل نشاط وفى كل مجال .

وشعور المؤمن بأنه يمضى مع قدر الله ، فى طاعة الله ، لتحقيق إرادة الله . . ومايسكبه هذا الشعور فى روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار ؛ والمضى فى الطريق بلاحيرة ولاقلق ولاسخط على العقبات والمشاق ؛ وبلاقنوط من عون الله ومدده ؛ وبلاخوف من ضلال القصد أوضياع الجزاء . . ومن ثم يحس بالسلام فى روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه . فهو إنما يقاتل لله ، وفى سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ؛ ولايقاتل لجاه أومغنم أونزوة أوعرض ما من أعراض هذه الحياة .

كذلك شعوره بأنه يمضى على سنة الله مع هذا الكون كله . قانونه قانونه ، ووجهته وجهته . فلاصدام ولاخصام ، ولاتبديد للجهد ولابعثرة للطاقة . وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته ، وتهتدى بالنور الذى يهتدى به ، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله .

والتكاليف التى يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة . لاتتجاوز الطاقة ؛ ولاتتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ؛ ولاتهمل طاقة واحدة من طاقاته لاتطلقها للعمل والبناء والنماء ؛ ولاتنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجثمانى والروحى لاتلبيها فى يسر وفى سماحة وفى رخاء .. ومن ثم لايحار ولايقلق فى مواجهة تكاليفه . يحمل منها مايطيق حمله ، ويمضى فى الطريق إلى الله فى طمأنينة وروح وسلام .

والمجتمع الذى ينشئه هذا المنهج الربانى ، فى ظل النظام الذى ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة ، والضمانات التى يحيط بها النفس والعرض والمال . . كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام .

Marfat.com

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق . هـذا المجتمع الذى حققه الإسلام مرة فى أرق وأصفى صوره . ثم ظل يحققه فى صور شتى على توالى الحقب ، تختلف درجة صفائه ، ولكنه يظل فى جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية فى الماضى والحاضر ، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية !

هـذا المجتمع الذى تربطه آصرة واحدة ـ آصرة العقيدة ـ حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان ، واللغات والألوان ، وسائر هـذه الأواصر العرضية التى لا علاقة لها بجوهر الإنسان . .

هذا المجتمع الذى يسمع الله يقول له : « إنما المؤمنون إخوة [1] » .. والذى يرى صورته فى قول النبى الكريم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » [2] » . .

هذا المجتمع الذى من آدابه : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها [3] » . . « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور [4] » . . « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ـ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم [5] » .. « ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون [6] » .. « ولا يغتب بعضكم بعضا. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم [7] » ..

هـذا المجتمع الذى من ضماناته : « ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين [8] » . . « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا [9] » . . « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير

---

(١) سورة الحجرات ١٠ — (٢) رواه الإمام أحمد ومسلم — (٣) سورة النساء ٨٦

(٤) سورة لقمان ١٨ — (٥) سورة فصلت ٣٤ — (٦) سورة الحجرات ١١

(٧) سورة الحجرات ١٢ — (٨) سورة الحجرات ٦ — (٩) سورة الحجرات ١٢

Marfat.com

بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (١) » .. .. و .. « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله (٢) » . .

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذى لاتشيع فيه الفاحشة ؛ ولايتبجح فيه الإغراء ، ولاتروج فيه الفتنة ، ولاينتشر فيه التبرج ، ولاتتلفت فيه الأعين على العورات ، ولاترف فيه الشهوات على الحرمات ، ولاينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق فى المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا . . هذا المجتمع الذى تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة ، والذى يسمع الله ـ سبحانه ـ يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون (٣) » . . « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ، ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٤) » . . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون (٥) » . . « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أوآبائهن أوآباء بعولتهن ، أوأبنائهن أوأبناء بعولتهن أو إخوانهن أوبنى إخوانهن أوبنى أخواتهن ، أونسائهن أوماملكت أيمانهن ، أوالتابعين غير أولى الإربة من الرجال أوالطفل الذين لم يظهروا علي عورات النساء . ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٦) » . . والذى يخاطب فيه نساء النبي ـ أطهر نساء الأرض فى أطهر بيت فى أطهر بيئة فى أطهر زمان : « يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . فلاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ، ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة

---

(١) سورة النور ٢٧
(٢) أخرجه مالك والشيخان .
(٣) سورة النور١٩
(٤) سورة النور ٢
(٥) سورة النور ٤
(٦) سورة النور : آية : ٣١

Marfat.com

وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١) ..

وفى مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها ، ويأمن الزوج على زوجته ، ويأمن الأولياء على حرماتهم وأعراضهم ؛ ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم . حيث لا تقع العيون على المفاتن ، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم . فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب .. بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان !

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذى يكفل لكل قادر عملا ورزقا ، ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم ، ولكل راغب فى العفة والحصانة زوجة صالحة ؛ والذى يعتبر أهل كل حى مسؤولين مسؤولية جنائية لو مات فيهم جائع ؛ حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية .

والمجتمع الذى تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع ، بعد كفالتها بالتوجيه الربانى المطاع . فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة ؛ ولا يتسور على أحد بيته ؛ ولا يتجسس على أحد فيه متجسس ؛ ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ؛ ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهبا والحدود حاضرة .

المجتمع الذى يقوم على الشورى والنصح والتعاون ، كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التى يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم، ولا هوى حاشية ، ولا قرابة كبير .

وفى النهاية . . المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية ، الذى لا يخضع البشر فيه للبشر . إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته ؛ وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته . فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، فى طمأنينة وفى ثقة وفى يقين . .

هذه كلها بعض معانى السلم الذى تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة .

---

(١) سورة الأحزاب : آية : ٣٣

Marfat.com

ليسلموا أنفسهم كلها لله ؛ فلا يعود لهم منها شيء ، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ ؛ إنما تعود كلها لله فى طواعية وفى انقياد وفى تسليم . .

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الحيرة وكيف يعربد القلق فى النفوس التى لاتطمئن بالإيمان ، فى المجتمعات التى لاتعرف الإسلام ، أو التى عرفته ثم تنكرت له ، وارتدت إلى الجاهلية ، تحت عنوان من شتى العنوانات فى جميع الأزمان . .

هـذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ماقد يتوافر لها من الرخاء المادى والتقدم الحضارى ، وسائر مقومات الرقى فى عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلة الموازين .

وحسبنا مثل واحد مما يقع فى بلد أوربى من أرقى بلاد العالم كله وهو « السويد » . حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومى مايساوى خمسمئة جنيه فى العام ، وحيث يستحق كل فرد نصيبه من التأمين الصحى وإعانات المرض التى تصرف نقدا والعلاج المجانى فى المستشفيات . وحيث التعليم فى جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين . وحيث تقدم الدولة حوالى ثلاثمئة جنيه إعانة زواج لتأثيث البيوت . . وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادى والحضارى العجيب . .

ولكن ماذا ؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادى والحضارى وخلو القلوب من الإيمان بالله ؟

إنه شعب مهدد بالانقراض ، فالنسل فى تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط ! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق النزوات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط ! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ؛ ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة . والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب . ثم الانتحار .. والحال كهذا فى أمريكا . . والحال أشنع من هذا فى روسيا . .

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة . فلا يذوق طعم السلم الذى يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة ، ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار :

« ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة . . ولا تتبعوا خطوات الشيطان . إنه لكم عدو مبين » . .

Marfat.com

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا فى السلم كافة . . حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان . فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان . إما الدخول في السلم كافة ، وإما اتباع خطوات الشيطان . إما هدى وإما ضلال . إما إسلام وإما جاهلية . إما طريق الله وإما طريق الشيطان . وإما هدى الله وإما غواية الشيطان . . وبمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه ، فلا يتلجلج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات .

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها ؛ أو يخلط واحدا منها بواحد . . كلا ! إنه من لا يدخل في السلم بكليته ، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته ، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر .. إن هذا في سبيل الشيطان ، سائر على خطوات الشيطان . .

ليس هنالك حل وسط ، ولا منهج بين بين ، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك ! إنما هناك حق وباطل . هدى وضلال . إسلام وجاهلية . منهج الله أو غواية الشيطان . والله يدعو المؤمنين فى الأولى إلى الدخول فى السلم كافة ؛ ويحذرهم فى الثانية من اتباع خطوات الشيطان . ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم ، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم ، تلك العداوة الواضحة البينة ، التى لا ينساها إلا غافل . والغفلة لا تكون مع الإيمان .

ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان :

« فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » . .

وتذكيرهم بأن الله « عزيز » يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة ، وأنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه . . وتذكيرهم بأنه « حكيم » . . فيه إيحاء بأن ما اختاره لهم هو الخير ، وما نهاهم عنه هو الشر ؛ وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه . . فالتعقيب بشطريه يحمل معنى التهديد والتحذير فى هذا المقام . .

* * *

بعد ذلك يتخذ السياق أسلوبا جديدا فى التحذير من عاقبة الانحراف عن الدخول فى السلم واتباع خطوات الشيطان . فيتحدث بصيغة الغيبة بدلا من صيغة الخطاب :

Marfat.com

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ؟ وقضى الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور » ..

وهو سؤال استنكارى عن علة انتظار المترددين المتلكئين الذين لايدخلون فى السلم كافة. ماالذى يقعد بهم عن الاستجابة ؟ ماذا ينتظرون ؟ وماذا يرتقبون ؟ تراهم سيظلون هكذا فى موقفهم حتى يأتيهم الله ـ سبحانه ـ فى ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة ؟ وبتعبير آخر : هل ينتظرون ويتلكأون حتى يأتيهم اليوم الرعيب الموعود ، الذى قال الله سبحانه : إنه سيأتى فيه فى ظلل من الغمام ، ويأتى الملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا ؟

وفجأة ـ وبينما نحن أمام السؤال الاستنكارى الذى يحمل طابع التهديد الرعيب ـ نجد أن اليوم قد جاء ، وأن كل شىء قد انتهى ، وأن القوم أمام المفاجأة التى كان يلوح لهم بها ويخوفهم إياها :

« وقضى الأمر » . .

وطوى الزمان ، وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا وجها لوجه أمام الله ؛ الذى ترجع إليه وحده الأمور :

« وإلى الله ترجع الأمور » . .

إنها طريقة القرآن العجيبة ، التى تفرده وتميزه من سائر القول . الطريقة التى تحيي المشهد وتستحضره فى التو واللحظة ؛ وتقف القلوب إزاءه وقفة من يرى ويسمع ويعانى مافيه !

فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الدخول فى السلم ؟ وهـذا الفزع الأكبر ينتظرهم ؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم ! والسلم منهم قريبة . السلم فى الدنيا والسلم فى الآخرة يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلون إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا . يوم يقضى الأمر .. وقد قضى الأمر ! « وإلى الله ترجع الأمور » ..

هنا يلتفت السياق لفتة أخرى . فيخاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلفه أن يسأل بنى إسرائيل ـ وهم نموذج التلكؤ فى الاستجابة كما وصفتهم هذه السورة من قبل ـ : كم آتاهم الله من آية بينة ثم لم يستجيبوا ؟ وكيف بدلوا نعمة الله ، نعمة الإيمان والسلم ، من بعدما جاءتهم :

Marfat.com

« سل بنى إسرائيل : كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب » . .

والعودة هنا إلى بنى إسرائيل عودة طبيعية ؛ فهنا تحذير من موقف بنوإسرائيل فيه أصلاء! موقف التلكؤ دون الاستجابة ؛ وموقف النشوز وعدم الدخول في السلم كافة ؛ وموقف التعنت وسؤال الخوارق ، ثم الاستمرار فى العناد والجحود . . وهـذه هى مزالق الطريق التى يحذر الله الجماعة المسلمة منها ؛ كى تنجو من عاقبة بنى إسرائيل المنكودة .

« سل بنى إسرائيل : كم آتيناهم من آية بينة » . .

والسؤال هنا قد لا يكون مقصورا على حقيقته . إنما هو أسلوب من أساليب البيان ، للتذكير بكثرة الآيات التى آتاها الله بنى إسرائيل ، والخوارق التى أجراها لهم . . إما بسؤال منهم وتعنت ، وإما ابتداء من عند الله لحكمة حاضرة . . ثم ماكان منهم — على الرغم من كثرة الخوارق — من تردد وتلكؤ وتعنت ونكوص عن السلم الذى يظلل كنف الإيمان .

ثم يجىء التعقيب عاما :

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب » . .

ونعمة الله المشار إليها هنا هى نعمة السلم . أو نعمة الإيمان . فهما مترادفان . والتحذير من تبديلها يجد مصداقه أولا فى حال بنى إسرائيل ، وحرمانهم من السلم والطمأنينة والاستقرار ، منذ أن بدلوا نعمة الله ، وأبوا الطاعة الراضية ، والاستسلام لتوجيه الله . وكانوا دائما فى موقف الشاك المتردد ، الذى يظل يطلب الدليل من الخارقة فى كل خطوة وكل حركة ؛ ثم لا يؤمن بالمعجزة ، ولا يطمئن لنور الله وهداه . والتهديد بشدة عقاب الله يجد مصداقه أولا فى حال بنى إسرائيل ؛ ويجد مصداقه أخيرا فيما ينتظر المبدلين للنعمة المتبطرين عليها فى كل زمان .

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد فى حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة . وهاهى ذى البشرية المنكودة الطالع فى أنحاء الأرض كلها تعانى العقاب الشديد ؛ وتجد الشقوة النكدة ؛ وتعانى القلق والحيرة ؛ ويأكل بعضها بعضا ؛ ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه ، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة ، وبالخواء القاتل ، الذى يحاول المتحضرون

Marfat.com

أن يملأوه تارة بالمسكرات والمخدرات ، وتارة بالحركات الحائرة التى يخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح !

ونظرة إلى صورهم فى الأوضاع العجيبة المتكلفة التى يظهرون بها : من مائلة برأسها ، إلى كاشفة عن صدرها ، إلى رافعة ذيلها ، إلى مبتدعة قبعة غريبة على هيئة حيوان ! إلى واضع رباط عنق رسم عليه تيتل أوفيل ! إلى لابس قميص تربعت عليه صورة أسد أو دب !

ونظرة إلى رقصاتهم المجنونة ، وأغانيهم المحمومة ، وأوضاعهم المتكلفة وأزيائهم الصارخة فى بعض الحفلات والمناسبات ؛ ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ ، أوترضية المزاج بالتميز الفاضح . .

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصداقات والأزياء بين فصل وفصل . لابل بين الصباح والمساء !

كل أولئك يكشف عن الحيرة القاتلة التى لاطمأنينة فيها ولاسلام . ويكشف عن حالة الملل الجاثم التى يفرون منها ، وعن حالة « الهروب » من أنفسهم الخاوية وأرواحهم الموحشة ، كالذى تطارده الجنة والأشباح .

وإن هو إلا عقاب الله ، لمن يحيد عن منهجه ، ولايستمع لدعوته : « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » . .

وإن الإيمان الواثق لنعمة الله على عباده ، لايبدلها مبدل حتى يحيق به ذلك العقاب . . والعياذ بالله . .

* * *

وفى ظلل هذا التحذير من التلكؤ فى الاستجابة ، والتبديل بعد النعمة ، يذكر حال الذين كفروا وحال الذين آمنوا ؛ ويكشف عن الفرق بين ميزان الذين كفروا وميزان الذين آمنوا للقيم والأحوال والأشخاص :

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

لقد زينت للذين كفروا هذه الحياة الدنيا ، بأعراضها الزهيدة ، واهتماماتها الصغيرة .

Marfat.com

زينت لهم فوقفوا عندها لايتجاوزونها ؛ ولايمدون بأبصارهم إلى شيء وراءها ؛ ولايعرفون قيما أخرى غير قيمها . والذى يقف عند حدود هذه الحياة الدنيا لايمكن أن يسمو تصوره إلى تلك الاهتمامات الرفيعة التى يحفل بها المؤمن ، ويمد إليها بصره فى آفاقها البعيدة . . إن المؤمن قد يحتقر أعراض الحياة كلها ؛ لا لأنه أصغر منها همة أوأضعف منها طاقة،ولا لأنه سلبي لاينمى الحياة ولايرقيها . . ولكن لأنه ينظر إليها من عل – مع قيامه بالخلافة فيها ، وإنشائه للعمران والحضارة ، وعنايته بالنماء والإكثار – فينشد من حياته ماهو أكبر من هذه الأعراض وأغلى . ينشد منها أن يقر فى الأرض منهجا ، وأن يقود البشرية إلى ماهو أرفع وأكمل ، وأن يركز راية الله فوق هامات الأرض والناس ، ليتطلع إليها البشر فى مكانها الرفيع ، وليمدوا بأبصارهم وراء الواقع الزهيد المحدود ، الذى يحيا له من لم يهبه الإيمان رفعة الهدف ، وضخامة الاهتمام ، وشمول النظرة .

وينظر الصغار الغارقون فى وحل الأرض ، المستعبدون لأهداف الأرض . . ينظرون للذين آمنوا ، فيرونهم يتركون لهم وحلهم وسفسافهم ، ومتاعهم الزهيد ؛ ليحاولوا آمالا كبارا لاتخصهم وحدهم ، ولكن تخص البشرية كلها ؛ ولا تتعلق بأشخاصهم إنما تتعلق بعقيدتهم ؛ ويرونهم يعانون فيها المشقات ؛ ويقاسون فيها المتاعب ؛ ويحرمون أنفسهم اللذائذ التى يعدها الصغار خلاصة الحياة وأعلى أهدافها المرموقة . . ينظر الصغار المطموسون إلى الذين آمنوا – فى هذه الحال – فلا يدركون سر اهتماماتهم العليا . عندئذ يسخرون منهم . يسخرون من حالهم ، ويسخرون من تصوراتهم ، ويسخرون من طريقهم الذى يسيرون فيه !

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا . . . » . .

ولكن هذا الميزان الذى يزن الكافرون به القيم ليس هو الميزان . . إنه ميزان الأرض - ميزان الكفر . ميزان الجاهلية.. أما الميزان الحق فهو فى يد الله سبحانه . والله يبلغ الذين آمنوا حقيقة وزنهم فى ميزانه :

« والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » . .

هذا هو ميزان الحق فى يد الله . فليعلم الذين آمنوا قيمتهم الحقيقية فى هذا الميزان . وليمضوا فى طريقهم لايحفلون سفاهة السفهاء ، وسخرية الساخرين ، وقيم الكافرين . . إنهم فوقهم

Marfat.com

يوم القيامة فوقهم عند الحساب الختامى الأخير . فوقهم فى حقيقة الأمر بشهادة الله أحكم الحاكمين .

والله يدخر لهم ماهو خير ، وما هو أوسع من الرزق . يهبهم إياه حيث يختار ؛ فى الدنيا أو فى الآخرة،أو فى الدارين وفق مايرى أنه لهم خير :

« والله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

وهو المانح الوهاب يمنح من يشاء ، ويفيض على من يشاء . لاخازن لعطائه ولا بوّاب ! وهو قد يعطى الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه ، وليس لهم فيما أعطوا فضل . وهو يعطى المختارين من عباده مايشاء فى الدنيا أو فى الآخرة . . فالعطاء كله من عنده . واختياره للأخيار هو الأبقى والأعلى . .

• وستظل الحياة أبدا تعرف هذين النموذجين من الناس . . تعرف المؤمنين الذين يتلقون قيمهم وموازينهم وتصوراتهم من يد الله ؛ فيرفعهم هذا التلقى عن سفساف الحياة وأعراض الأرض ، واهتمامات الصغار ؛ وبذلك يحققون إنسانيتهم ؛ ويصبحون سادة للحياة ، لاعبيدا للحياة . . كما تعرف الحياة ذلك الصنف الآخر : الذين زينت لهم الحياة الدنيا ، واستعبدتهم أعراضها وقيمها ؛ وشدتهم ضروراتهم وأوهاقهم إلى الطين فلصقوا به لايرتفعون !

وسيظل المؤمنون ينظرون من عل إلى أولئك الهابطين ؛ مهما أوتوا من المتاع والأعراض. على حين يعتقد الهابطون أنهم هم الموهوبون ، وأن المؤمنين هم المحرومون ؛ فيشفقون عليها تارة ويسخرون منهم تارة . وهم أحق بالرثاء والإشفاق . .

* * *

وعلى ذكر الموازين والقيم؛ وظن الذين كفروا بالذين آمنوا ؛ وحقيقة مكان هؤلاء ووزنهم عند الله . . ينتقل السياق إلى قصة الاختلاف بين الناس فى التصورات والعقائد ، والموازين والقيم ؛ وينتهى بتقرير الأصل الذى ينبغى أن يرجع إليه المختلفون ؛ وإلى الميزان الأخير الذى يحكم فيما هم فيه مختلفون :

« كان الناس أمة واحدة ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ؛ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ــ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات

Marfat.com

بغيا بينهم _ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ؛ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . .

هذه هى القصة . . كان الناس أمة واحدة . على نهج واحد ، وتصور واحد . وقد تكون هذه إشارة إلى حالة المجموعة البشرية الأولى الصغيرة من أسرة آدم وحواء وذراريهم ، قبل اختلاف التصورات والاعتقادات . فالقرآن يقرر أن الناس من أصل واحد . وهم أبناء الأسرة الأولى :أسرة آدم وحواء. وقد شاء الله أن يجعل البشر جميعا نتاج أسرة واحدة صغيرة ، ليقرر مبدأ الأسرة فى حياتهم ، وليجعلها هى اللبنة الأولى . وقد غبر عليهم عهد كانوا فيه فى مستوى واحد واتجاه واحد وتصور واحد فى نطاق الأسرة الأولى . حتى نمت وتعددت وكثر أفرادها ، وتفرقوا فى المكان ، وتطورت معايشهم ؛ وبرزت فيهم الاستعدادات المكنونة المختلفة ، التى فطرهم الله عليها لحكمة يعلمها ، ويعلم ماوراءها من خير للحياة فى التنوع فى الاستعدادات والطاقات والاتجاهات .

عندئذ اختلفت التصورات وتباينت وجهات النظر ، وتعددت المناهج ، وتنوعت المعتقدات . . وعندئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . .

« وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . .

وهنا تتبين تلك الحقيقة الكبرى . . إن من طبيعة الناس أن يختلفوا ؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم ؛ يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن فى الأرض . . إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة ، واستعدادات شتى من ألوان متعددة ؛ كى تتكامل جميعها وتتناسق ، وتؤدى دورها الكلى فى الخلافة والعمارة ، وفق التصميم الكلى المقدر فى علم الله . فلابد إذن من تنوع فى المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف ؛ ولابد من اختلاف فى الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف فى الحاجات . . « ولا يزالون مختلفين _ إلا من رحم ربك _ ولذلك خلقهم » . .

هذا الاختلاف فى الاستعدادات والوظائف ينشئ بدوره اختلافا فى التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق . . ولكن الله يحب أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة الواقعة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعا حين تصلح وتستقيم . . هذا الإطار هو إطار التصور الإيمانى

Marfat.com

الصحيح . الذى ينفسح حتى يضم جوانحه على شتى الاستعدادات وشتى المواهب وشتى الطاقات ؛ فلا يقتلها ولا يكبحها ؛ ولكن ينظمها وينسقها ويدفعها فى طريق الصلاح .

ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون ؛ وحكم عدل يرجع إليه المختصمون ؛ وقول فصل ينتهى عنده الجدل ، ويثوب الجميع منه إلى اليقين :

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .

ولابد أن نقف عند قوله تعالى « بالحق » . . فهو القول الفصل بأن الحق هو ماجاء به الكتاب ؛ وأن هذا الحق قد أنزل ليكون هو الحكم العدل ، والقول الفصل ، فما عداه من أقوال الناس، وتصوراتهم ومناهجهم وقيمهم وموازينهم . . لاحق غيره . ولا حكم معه . ولا قول بعده . وبغير هذا الحق الواحد الذى لايتعدد ؛ وبغير تحكيمه فى كل مايختلف فيه الناس ؛ وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض . . بغير هذا كله لايستقيم أمر هذه الحياة ؛ ولا ينتهى الناس من الخلاف والفرقة ؛ ولا يقوم على الأرض السلام ؛ ولا يدخل الناس فى السلم بحال .

ولهذه الحقيقة قيمتها الكبرى فى تحديد الجهة التى يتلقى منها الناس تصوراتهم وشرائعهم ؛ والتى ينتهون إليها فى كل مايشجر بينهم من خلاف فى شتى صور الخلاف . . إنها جهة واحدة لاتتعدد هى التى أنزلت هذا الكتاب بالحق ؛ وهو مصدر واحد لايتعدد هو هذا الكتاب الذى أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . .

وهو كتاب واحد فى حقيقته ، جاء به الرسل جميعا . فهو كتاب واحد فى أصله ، وهى ملة واحدة فى عمومها ، وهو تصور واحد فى قاعدته : إله واحد ، ورب واحد ، ومعبود واحد ، ومشرع واحد لبنى الإنسان . . ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ؛ ووفق أطوار الحياة والارتباطات ؛ حتى تكون الصورة الأخيرة التى جاء بها الإسلام ، وأطلق الحياة تنمو فى محيطها الواسع الشامل بلا عوائق . بقيادة الله ومنهجه وشريعته الحية المتجددة فى حدود ذلك المحيط الشامل الكبير .

وهذا الذى يقرره القرآن فى أمر الكتاب هو النظرية الإسلامية الصحيحة فى خط سير

Marfat.com

الأديان والعقائد . . كل نبى جاء بهذا الدين الواحد فى أصله ، يقوم على القاعدة الأصيلة : قاعدة التوحيد المطلق . . ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة ، وتتراكم الخرافات والأساطير ، حتى يبعد الناس نهائيا عن ذلك الأصل الكبير . وهنا تجئ رسالة جديدة تجدد العقيدة الأصيلة ، وتنفى ماعلق بها من الانحرافات ، وتراعى أحوال الأمة وأطوارها فى التفصيلات . . وهذه النظرية أولى بالاتباع من نظريات الباحثين فى تطور العقائد من غير المسلمين ، والتى كثيرا مايتأثر بها باحثون مسلمون ، وهم لايشعرون ، فيقيمون بحوثهم على أساس التطور فى أصل العقيدة وقاعدة التصور ، كما يقول المستشرقون وأمثالهم من الباحثين الغربيين الجاهليين !

وهـذا الثبات فى أصل التصور الإيمانى ، هو الذى يتفق مع وظيفة الكتاب الذى أنزله الله بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيـه ، فى كل زمان ، ومع كل رسول ، منذ أقدم الأزمان .

ولم يكن بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفئ إليه الناس ، وأن يكون هناك قول فصل ينتهون إليه . ولم يكن بد كذلك أن يكون هذا الميزان من صنع مصدر آخر غير المصدر الإنسانى، وأن يكون هذا القول قول حاكم عدل لايتأثر بالهوى الإنسانى ، ولا يتأثر بالقصور الإنسانى ، ولا يتأثر بالجهل الإنسانى !

وإقامة ذلك الميزان الثابت تقتضى علما غـير محدود . علم ماكان وماهو كائن وماسيكون . علمه كله لامقيدا بقيود الزمان التى تفصل الوجود الواحد إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وإلى مستيقن ومظنون ومجهول ، وإلى حاضر مشهود ومغيب مخبوء . . ولامقيدا بقيود المكان التى تفصل الوجود الواحد إلى قريب وبعيد ، ومنظور ومحجوب ، ومحسوس وغير محسوس . . فى حاجة إلى إله يعلم ماخلق ، ويعلم من خلق . . ويعلم مايصلح ومايصلح حال الجميع .

وإقامة ذلك الميزان فى حاجة كذلك إلى استعلاء على الحاجة ، واستعلاء على النقص ، واستعلاء على الفناء ، واستعلاء على الفوت ، واستعلاء على الطمع ، واستعلاء على الرغبة والرهبة .. واستعلاء على الكون كله بما فيه ومن فيه .. فى حاجة إلى إله ،لاأرب له ، ولاهوى ،ولالذة ، ولاضعف فى ذاته ـ سبحانه ـ ولاقصور !

أما العقل البشرى فبحسبه أن يواجه الأحوال المتطورة ، والظروف المتغيرة ، والحاجات

Marfat.com

المتجددة ؛ ثم يوائم بينها وبين الإنسان فى لحظة عابرة وظرف موقوت . على أن يكون هناك الميزان الثابت الذى يفيء إليه ،فيدرك خطأه وصوابه ، وغيه ورشاده ،وحقه وباطله ، من ذلك الميزان الثابت . . وبهذا وحده تستقيم الحياة ، ويطمئن الناس إلى أن الذى يسوسهم فى النهاية إله !

إن الكتاب لم ينزل بالحق ليمحو فوارق الاستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل . إنما جاء ليحتكم الناس إليه . . وإليه وحده . . حين يختلفون .

ومن شأن هذه الحقيقة أن تنشيء حقيقة أخرى تقوم على أساسها نظرة الإسلام التاريخية :

إن الإسلام يضع « الكتاب » الذى أنزله الله « بالحق » ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . يضع هذا الكتاب قاعدة للحياة البشرية . ثم تمضى الحياة . فإما اتفقت مع هذه القاعدة ، وظلت قائمة عليها ، فهذا هو الحق . وإما خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى ، فهذا هو الباطل . . هذا هو الباطل ولو ارتضاه الناس جميعا فى فترة من فترات التاريخ .فالناس ليسوا هم الحكم فى الحق والباطل . وليس الذى يقرره الناس هو الحق ، وليس الذى يقرره الناس هو الدين . إن نظرة الإسلام تقوم ابتداء على أساس أن فعل الناس لشيء، وقولهم لشيء ، وإقامة حياتهم على شيء . . لا يحيل هذا الشيء حقا إذا كان مخالفا للكتاب ؛ ولا يجعله أصلا من أصول الدين ؛ ولا يجعله التفسير الواقعى لهذا الدين ؛ ولا تبرره لأن أجيالا متعاقبة قامت عليه . .

وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى فى عزل أصول الدين عما يدخله عليها الناس ! وفى التاريخ الإسلامى مثلا وقع انحراف ، وظل ينمو وينمو . . فلا يقال:إن هذا الانحراف متى وقع وقامت عليه حياة الناس فهو إذن الصورة الواقعية للإسلام ! كلا ! إن الإسلام يظل بريئا من هذا الواقع التاريخى . ويظل هذا الذى وقع خطأ وانحرافا لا يصلح حجة ولا سابقة ؛ ومن واجب من يريد استئناف حياة إسلامية أن يلغيه ويبطله ، وأن يعود إلى الكتاب الذى أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ...

ولقد جاء الكتاب . . ومع ذلك كان الهوى يغلب الناس من هناك ومن هناك ؛ وكانت المطامع والرغائب والمخاوف والضلالات تبعد الناس عن قبول حكم الكتاب ، والرجوع إلى الحق الذى يردهم إليه :

Marfat.com

« وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات .. بغيا بينهم » ..

فالبغى .. بغى الحسد . وبغى الطمع . وبغى الحرص . وبغى الهوى .. هو الذى قاد الناس إلى المضى فى الاختلاف على أصل التصور والمنهج؛ والمضى فى التفرق واللجاج والعناد . وهذه حقيقة .. فما يختلف اثنان على أصل الحق الواضح فى هذا الكتاب ، القوى الصادع المشرق المنير .. ما يختلف اثنان على هذا الأصل إلا وفى نفس أحدهما بغى وهوى ، أو فى نفسيهما جميعا .. فأما حين يكون هناك إيمان فلابد من التقاء واتفاق :

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » ..

هداهم بما فى نفوسهم من صفاء ، وبما فى أرواحهم من تجرد ، وبما فى قلوبهم من رغبة فى الوصول إلى الحق . وما أيسر الوصول حينئذ والاستقامة :

« والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ..

هو هذا الصراط الذى يكشف عنه ذلك الكتاب . وهو هذا المنهج الذى يقوم على الحق ويستقيم على الحق . ولا تتقاذفه الأهواء والشهوات ، ولا تتلاعب به الرغاب والنزوات ..

والله يختار من عباده لهذا الصراط المستقيم من يشاء ، ممن يعلم منهم الاستعداد للهدى والاستقامة على الصراط ؛ أولئك يدخلون فى السلم ، وأولئك هم الأعلون ، ولو حسب الذين لا يزنون بميزان الله أنهم محرومون ، ولو سخروا منهم كما يسخر الكافرون من المؤمنين !

* * *

وتنتهى هذه التوجيهات التى تستهدف إنشاء تصور إيمانى كامل ناصع فى قلوب الجماعة المسلمة .. تنتهى بالتوجه إلى المؤمنين الذين كانوا يعانون فى واقعهم مشقة الاختلاف بينهم وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، وما كان يجره هذا الخلاف من حروب ومتاعب وويلات .. يتوجه إليهم بأن هذه هى سنة الله القديمة ، فى تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة ، وليكونوا لها أهلا : أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم ؛ وأن يلقوا فى سبيلها العنت والألم والشدة والضر ؛ وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة ؛ حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم ، لم تزعزعهم شدة ، ولم ترهبهم قوة ، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة .. استحقوا نصر الله ، لأنهم يومئذ أمناء على دين الله ، مأمونون على ما ائتمنوا عليه ، صالحون لصيانته والذود عنه .

Marfat.com

واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف وتحررت من الذل ، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء . فهى عندئذ أقرب ماتكون إلى عالم الجنة ، وأرفع ماتكون عن عالم الطين :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » . .

هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنته - سبحانه - فى تربية عباده المختارين ، الذين يكل إليهم رايته ، وينوط بهم أمانته فى الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم . .

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة . . إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه . من الرسول الموصول بالله ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله . إن سؤالهم : « متى نصر الله ؟ » ليصور مدى المحنة التى تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة . ولن تكون إلا محنة فوق الوصف ، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب : « متى نصر الله ؟ » . .

وعند ما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة . . عندئذ تتم كلمة الله ، ويجيء النصر من الله :

« ألا إن نصر الله قريب » . .

إنه مدخر لمن يستحقونه . ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية . الذين يثبتون على البأساء والضراء . الذين يصمدون للزلزلة . الذين لايحنون رؤوسهم للعاصفة . الذين يستيقنون أن لانصر إلا نصر الله ، وعند ما يشاء الله . وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى « نصر الله » ، لاإلى أى حل آخر ، ولاإلى أى نصر لايجيء من عندالله . ولانصر إلا من عندالله .

بهذا يدخل المؤمنون الجنة ، مستحقين لها ، جديرين بها ، بعد الجهاد والامتحان ، والصبر والثبات ، والتجرد لله وحده ، والشعور به وحده ، وإغفال كل ماسواه وكل من سواه .

Marfat.com

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة ، ويرفعها على ذواتها ، ويطهرها في بوتقة الألم ، فيصفو عنصرها ويضيء ، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية ، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها . وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع ، وكما يقع في كل قضية حق ، يلقى أصحابها مايلقون في أول الطريق ، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم ، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين . .

على أنه - حتى إذا لم يقع هـذا - يقع ماهو أعظم منه في حقيقته . يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها ، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة ، والحرص على الحياة نفسها في النهاية .. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها ، وكسب للأرواح التي تصل إليـه عن طريق الاستعلاء . كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون ، المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته .

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف . . وهذا هو الطريق . .

هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى ، وللجماعة المسلمة في كل جيل .

هذا هو الطريق : إيمان وجهاد . ومحنة وابتلاء . وصبر وثبات .. وتوجه إلى الله وحده . ثم يجيء النصر . ثم يجيء النعيم . . .

« يَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلْ : مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ؛ وَمَن

Marfat.com

يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . وَيَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنفِقُونَ ؟ قُلِ : الْعَفْوَ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ . قُلْ : إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ، وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٢٠)

الظاهرة البارزة فى هذا القطاع من السورة، هى ظاهرة الأسئلة عن أحكام .. وهى كما قلنا عند الكلام عن قوله تعالى : يسألونك عن الأهلة ... فى هذا الجزء .. ظاهرة توحى بيقظة العقيدة واستيلائها على نفوس الجماعة المسلمة إذ ذاك؛ ورغبة المؤمنين فى معرفة حكم العقيدة فى كل شأن من شؤون حياتهم اليومية، كى يطابقوا بين تصرفهم وحكم العقيدة .. وهذه آية المسلم : أن يتحرى حكم الإسلام فى الصغيرة والكبيرة من شؤون حياته؛ فلا يقدم على عمل حتى يستيقن من حكم الإسلام فيه . فما أقره الإسلام كان هو دستوره وقانونه؛ وما لم يقره كان ممنوعا عليه حراما . وهذه الحساسية هى آية الإيمان بهذه العقيدة .

كذلك كانت تثار بعض الأسئلة بسبب الحملات الكيدية التى يشنها اليهود والمنافقون، والمشركون كذلك حول بعض التصرفات؛ مما يدفع بعض المسلمين ليسأل عنها، إما ليستيقن من حقيقتها وحكمها، وإما تأثرا بتلك الحملات والدعايات المسمومة . فكان القرآن يتنزل فيها بالقول الفصل؛ فيثوب المسلمون فيها إلى اليقين؛ وتبطل الدسائس، وتموت الفتن، ويرتد كيد الكائدين إلى نحورهم ..

Marfat.com

وهذا يصور جانبا من المعركة التى كان القرآن يخوضها تارة فى نفوس المسلمين ، وتارة فى صف المسلمين ، ضد الكائدين والمحاربين !

وفى هذا الدرس جملة من هذه الأسئلة : سؤال عن الإنفاق . مواضعه ومقاديره ونوع المال الذى تكون فيه النفقة . وسؤال عن القتال فى الشهر الحرام . وسؤال عن الخمر والميسر . وسؤال عن اليتامى . . وبواعث هذه الأسئلة تمثل الأسباب التى ذكرناها من قبل . وسنعرضها بالتفصيل عند استعراض النصوص . . .

* * *

« يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . .

لقد وردت آيات كثيرة فى الإنفاق سابقة على هذا السؤال . فالإنفاق فى مثل الظروف التى نشأ فيها الإسلام ضرورة لقيام الجماعة المسلمة فى وجه تلك الصعاب والمشاق والحرب التى كانت تواجهها وتكتنفها ؛ ثم هو ضرورة من ناحية أخرى : من ناحية التضامن والتكافل بين أفراد الجماعة ؛ وإزالة الفوارق الشعورية بحيث لا يحس أحد إلا أنه عضو فى ذلك الجسد ، لا يحتجن دونه شيئا ، ولا يحتجز عنه شيئا . وهو أمر له قيمته الكبرى فى قيام الجماعة شعوريا ، إذا كان سد الحاجة له قيمته فى قيامها عمليا .

وهنا يسأل بعض المسلمين : « ماذا ينفقون ؟ » . .

وهو سؤال عن نوع ما ينفقون . . فجاءهم الجواب يبين صفة الإنفاق ؛ ويحدد كذلك أولى مصارفه وأقربها :

« قل : ما أنفقتم من خير » . .

ولهذا التعبير إيحاءان : الأول أن الذى ينفق خير . . خير للمعطى وخير للآخذ وخير للجماعة وخير فى ذاته فهو عمل طيب ، وتقدمة طيبة ، وشىء طيب . . والإيحاء الثانى أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه ؛ وخير ما لديه فيشارك الآخرين فيه . فالإنفاق تطهير للقلب وتزكية للنفس ، ثم منفعة للآخرين وعون . وتحرى الطيب والنزول عنه للآخرين هو الذى يحقق للقلب الطهارة ، وللنفس الزكية ، وللإيثار معناه الكريم .

Marfat.com

على أن هـذا الإيحاء ليس إلزاما ، فالإلزام ـ كما ورد فى آية أخرى ـ أن ينفق المنفق من الوسط ، لا أردأ ماعنده ولا أغلى ماعنده . ولـكن الإيحاء هنا يعالج تطويع النفس لبذل ماهو خير ، والتحبيب فيه ، على طريقة القرآن الـكريم فى تربية النفوس ، وإعداد القلوب . .

أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجىء بعد تقرير نوعه :

« فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » . .

وهو يربط بين طوائف من الناس . بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب ، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الـكبرى فى إطار العقيدة . . وكلهم يتجاورون فى الآية الواحـدة : الوالدون . والأقربون . واليتامى والمساكين وابن السبيل . وكلهم يتضامنون فى رباط التـكافل الاجتماعى الوثيق بين بنى الإنسان فى إطار العقيدة المتين .

ولـكن هـذا الترتيب فى الآية وفى الآيات الأخرى ، والذى تزيده بعض الأحاديث النبوية تحديدا ووضوحا . . كالذى جاء فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لرجل : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا . . . » .

هـذا الترتيب يشى بمنهج الإسلام الحـكيم البسيط فى تربية النفس الإنسانية وقيادتها . . إنه يأخـذ الإنسان كما هو ، بفطرته وميوله الطبيعية واستعداداته ؛ ثم يسير به من حيث هو كائن ، ومن حيث هو واقف ! يسير به خطوة خطوة ، صعدا فى المرتقى العالى : على هينة وفى يسر ؛ فيصعد وهو مستريح ، وهو يلبى فطرته وميوله واستعداداته ، وهو ينمى الحيـاة معه ويرقيها . لايحس بالجهد والرهق ، ولا يـكبل بالسلاسل والأغلال ليجو فى المرتقى ! ولا تكبت طاقاته وميوله الفطرية ليحلق ويرف ! ولا يعتسف به الطريق اعتسافا ، ولا يطير به طيرانا من فوق الآكام ! إنمـا يصعدها به صعودا هينا لينا وقدماه على الأرض وبصره معلق بالسماء ، وقلبه يتطلع إلى الأفق الأعلى ، وروحه موصولة بالله فى علاه .

ولقـد علم الله أن الإنسان يحب ذاته ؛ فأمره أولا بكفايتها قبل أن يأمره بالإنفاق على من سواها ؛ وأباح له الطيبات من الرزق وحثه على تمتيع ذاته بها فى غير ترف ولا مخيلة . فالصدقة لاتبدأ إلا بعد الـكفاية . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « خير الصدقة ما كان عن

Marfat.com

غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول »⁽¹⁾ . . وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل بمثل بيضة من ذهب ، فقال : يارسول الله . أصبت هـذه من معدن فخذها فهى صدقة ماأملك غيرها . فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك فأعرض عنه . فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه . ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك ، فأخذها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته . وقال : « يأتى أحدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة . ثم يقعد يتكفف الناس ! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى⁽²⁾ » .

ولقـد علم الله أن الإنسان يحب ـ أول مايحب ـ أفراد أسرته الأقربين . . عياله . . ووالديه . فسار به خطوة فى الإنفاق وراء ذاته إلى هؤلاء الذين يحبهم ؛ ليعطيهم من ماله وهو راض ؛ فيرضى ميله الفطرى الذى لاضير منه ، بل فيـه حكمة وخير ؛ وفى الوقت ذاته يعول ويكفل ناساً هم أقرباؤه الأدنون ، نعم . ولـكنهم فريق من الأمة ، إن لم يعطوا احتاجوا.وأخذهم من القريب أكرم لهم من أخذهم من البعيد . وفيـه فى الوقت ذاته إشاعة للحب والسلام فى المحضن الأول ؛ وتوثيق لروابط الأسرة التى شاء الله أن تكون اللبنة الأولى فى بناء الإنسانية الـكبير .

ولقد علم الله أن الإنسان يمد حبه وحميته بعد ذلك إلى أهـله كافة ـ بدرجاتهم منه وصلتهم به ـ ولا ضير فى هـذا . فهم أفراد من جسم الأمة وأعضاء فى المجتمع . فسار به خطوة أخرى فى الإنفاق وراء أهـله الأقربين ، تساير عواطفه وميوله الفطرية ، وتقضى حاجة هؤلاء ، وتقوى أواصر الأسرة البعيدة ، وتضمن وحـدة قوية من وحدات الجماعة المسلمة ، مترابطة العرى وثيقة الصلات .

وعندما يفيض مافى يده عن هؤلاء وهؤلاء ـ بعد ذاته ـ فإن الإسلام يأخـذ بيده لينفق على طوائف من المجموع البشرى ، يثيرون بضعفهم أو حرج موقفهم عاطفة النخوة وعاطفة الرحمة وعاطفة المشاركة .. وفى أولهم اليتامى الصغار الضعاف ؛ ثم المساكين الذين لايجدون ماينفقون ، ولـكنهم يسكتون فلا يسألون الناس كرامة وتجملا ؛ ثم أبنـاء السبيل الذين قد يكون لهم

(1) أخرجه مسلم من رواية أبى هريرة

(2) أخرجه أبو داود .

Marfat.com

مال ، ولكنهم انقطعوا عنه ، وحالت بينهم وبينه الحوائل ـ وقد كانوا كثيرين فى الجماعة المسلمة هاجروا من مكة تاركين وراءهم كل شىء ـ وهؤلاء جميعا أعضاء فى المجتمع ، والإسلام يقود الواجدين إلى الإنفاق عليهم ، يقودهم بمشاعرهم الطيبة الطبيعية التى يستجيشها ويزكيها . فيبلغ إلى أهدافه كلها فى هوادة ولين . يبلغ أولا إلى تزكية نفوس المنفقين . فقد أنفقت طيبة بما أعطت ، راضية بما بذلت ، متجهة إلى الله فى غير ضيق ولا تبرم . ويبلغ ثانيا إلى إعطاء هؤلاء المحتاجين وكفالتهم . ويبلغ ثالثا إلى حفظ النفوس كلها متضامنة متكافلة ، فى غير ماتضرر ولا تبرم . . قيادة لطيفة مريحة بالغة ماتريد ، محققة كل الخير بلا اعتساف ولا افتعال ولا تشديد !

ثم يربط هذا كله بالأفق الأعلى ، فيستجيش فى القلب صلته بالله فيما يعطى ، وفيما يفعل ، وفيما يضمر من نية أو شعور :

« وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . .

عليم به ، وعليم بباعثه ، وعليم بالنية المصاحبة له . . وهو إذن لايضيع . فهو فى حساب الله الذى لايضيع عنده شىء ، والذى لايبخس الناس شيئا ولا يظلمهم ، والذى لايجوز عليه كذلك الرياء والتمويه . .

بهذا يصل بالقلوب إلى الأفق الأعلى ، وإلى درجة الصفاء والتجرد والخلوص لله . . فى رفق وفى هوادة ، وفى غير مصنعة ولا اصطناع . . وهذا هو المنهج التربوى الذى يضعه العليم الخبير . ويقيم عليه النظام الذى يأخذ بيد الإنسان ، كما هو ، ويبدأ به من حيث هو ؛ ثم ينتهى به إلى آماد وآفاق لا تصل إليها البشرية قط بغير هذه الوسيلة ، ولم تبلغ إليها قط إلا حين سارت على هذا المنهج ، فى هذا الطريق .

* * *

وعلى هذا المنهج ذاته ، يجرى الأمر فى فريضة الجهاد ، التى تأتى تالية فى السياق للحديث عن الإنفاق :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لاتعلمون » . .

Marfat.com

إن القتال فى سبيل الله فريضة شاقة . ولكنها فريضة واجبة الأداء . واجبة الأداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة ، وللبشرية كلها ، وللحق والخير والصلاح .

والإسلام يحسب حساب الفطرة ؛ فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها . ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها وثقلها . فالإسلام لا يمارى فى الفطرة ، ولا يصادمها ، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التى ليس إلى إنكارها من سبيل . ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، ويسلط عليه نورا جديدا .. إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنسانى القصير .. عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر ؛ ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التى تراه منها . نافذة تهب منها ريح رخية عند ما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور .. إنه من يدرى فلعل وراء المكروه خيرا . ووراء المحبوب شرا . إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذى يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئا من الحقيقة .

وعند ما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة ، وتتفتح منافذ الرجاء ، ويستروح القلب فى الهاجرة ، ويجنح إلى الطاعة والأداء فى يقين وفى رضاء .

هكذا يواجه الإسلام الفطرة ، لا منكرا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية ، ولا مريدا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف . ولكن مربيا لها على الطاعة ، ومفسحا لها فى الرجاء . لتبذل الذى هو أدنى فى سبيل الذى هو خير ؛ ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة ، ولتحس بالعطف الإلهى الذى يعرف مواضع ضعفها ، ويعترف بمشقة ما كتب عليها ، ويعذرها ويقدرها ؛ ويحدو لها بالتسامى والتطلع والرجاء .

وهكذا يربى الإسلام الفطرة ، فلا تمل التكليف ، ولا تجزع عند الصدمة الأولى ، ولا تخور عند المشقة البادية ، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة . ولكن تثبت وهى تعلم أن الله يعذرها ويمدها بعونه ويقويها . وتصمم على المضى فى وجه المحنة ، فقد يكمن فيها الخير بعد الضر ، واليسر بعد العسر ، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء . ولا تتهالك على ما تحب وتلتذ . فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة ! وقد يكون المكروه مختبئا خلف المحبوب . وقد يكون الهلاك متربصا وراء المطمع البراق .

Marfat.com

إنه منهج فى التربية عجيب . منهج عميق بسيط . منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة . بالحق وبالصدق . لا بالإيحاء الكاذب ، والتمويه الخادع . . فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرا ويكون فيه الخير كل الخير . وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرا وتتهالك عليه ، وفيه الشر كل الشر . وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لايعلمون ! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب ؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل ؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التى لاتخضع للهوى والجهل والقصور ؟ !

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشرى لتفتح أمامه عالما آخر غير العالم المحدود الذى تبصره عيناه . وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل فى صميم الكون ، وتقلب الأمور ، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه . . وإنها لتتركه حين يستجيب لها طيعا فى يد القدر ؛ يعمل ويرجو ويطمع ويخاف ، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل ، وهو راض قرير . . إنه الدخول فى السلم من بابه الواسع . . فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . وأن الخير فى طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان ! إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعى المطمئن . . هى أبواب السلم الذى يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة . . وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط . فى يسر وفى هوادة وفى رخاء . يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال . فالسلم الحقيقية هى سلم الروح والضمير حتى فى ساحة القتال .

وإن هذا الإيحاء الذى يحمله ذلك النص القرآنى ، لايقف عند حد القتال ؛ فالقتال ليس إلا مثلا لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير . . إن هذا الإيحاء ينطلق فى حياة المؤمن كلها ، ويلقى ظلاله على أحداث الحياة جميعها . . إن الإنسان لايدرى أين يكون الخير وأين يكون الشر . . لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها ، ويرجون أن تكون الفئة التى وعدهم الله إياها هى فئة العير والتجارة . لافئة الحامية المقاتلة من قريش . ولكن الله جعل القافلة تفلت ، ولقاهم المقاتلة من قريش ! وكان النصر الذى دوى فى الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام . فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذى أراده الله

Marfat.com

للمسلمين ؟ وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم ؟ والله يعلم والناس لايعلمون !

ولقد نسى فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما ـ وهو الحوت ـ فتسرب فى البحر عند الصخرة . « فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت، وماأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . . قال : ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا . . . » . .
وكان هذا هو الذى خرج له موسى . ولو لم يقع حادث الحوت ماارتدا . ولفاتهما ماخرجا لأجله فى الرحلة كلها !

وكل إنسان ـ فى تجاربه الخاصة ـ يستطيع حين يتأمل أن يجد فى حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم . ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوّته عليه هذا المطلوب فى حينه . وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها . ثم ينظر بعد فترة فإذا هى تنشئ له فى حياته من الخير مالم ينشئه الرخاء الطويل .

إن الإنسان لايعلم . والله وحده يعلم . فماذا على الإنسان لو يستسلم ؟

إن هذا هو المنهج التربوى، الذى يأخذ القرآن به النفس البشرية . لتؤمن وتسلم وتستسلم فى أمر الغيب المخبوء ؛ بعد أن تعمل ماتستطيع فى محيط السعى المكشوف . .

* * *

ومن قيادة الجماعة إلى السلم كانت الفتوى التالية فى أمر القتال فى الشهر الحرام :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ؛ والفتنة أكبر من القتل ؛ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ؛ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم » . .

Marfat.com

وقد جاء فى روايات متعددة أنها نزلت فى سرية عبدالله ابن جحش ـ رضى الله عنه ـ وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بعثه مع ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحد من الأنصار ـ ومعه كتاب مغلق ، وكلفه ألا يفتحه حتى يمضى ليلتين . فلما فتحه وجد به : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بطن نخلة ـ بين مكة والطائف ـ ترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . . ولاتكرهن أحدا على السير معك من أصحابك » ـ وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى . فلما نظر عبدالله ابن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أمضىَ إلى بطن نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منها بخبر . وقد نهى أن أستكره أحدا منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع ، فأنا ماض لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف أحد منهم . فسلك الطريق على الحجاز حتى إذا كان ببعض الطريق ضل بعير لسعد ابن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان ـ رضى الله عنهما ـ فتخلفا عن رهط عبدالله ابن جحش ليبحثا عن البعير ومضى الستة الباقون . حتى إذا كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة ، فيها عمرو ابن الحضرمى وثلاثة آخرون ، فقتلت السرية عمرا ابن الحضرمى وأسرت اثنين وفر الرابع وغنمت العير . وكانت تحسب أنها فى اليوم الأخير من جمادى الآخرة ، فإذا هى فى اليوم الأول من رجب ـ وقد دخلت الأشهر الحرم ـ التى تعظمها العرب . وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها .. فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . فلما قال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ؛ وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على محمد .. عمرو ابن الحضرمى قتله واقد ابن عبدالله .. عمرو : عمرت الحرب . والحضرمى : حضرت الحرب . وواقد ابن عبدالله : وقدت الحرب !

وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشتى الأساليب الماكرة التى تروج فى البيئة العربية ، وتظهر محمدا وأصحابه بمظهر المعتدى الذى يدوس مقدسات العرب ، وينكر مقدساته هو كذلك

Marfat.com

عند بروز المصلحة ! حتى نزلت هذه النصوص القرآنية . فقطعت كل قول . وفصلت فى الموقف بالحق . فقبض الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأسيرين والغنيمة .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير » ..

نزلت تقرر حرمة الشهر الحرام ؛ وتقرر أن القتال فيه كبيرة ،نعم ! ولـكن :

« وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عندالله . والفتنة أكبر من القتل » ..

إن المسلمين لم يبدأوا القتال ، ولم يبدأوا العدوان . إنما هم المشركون . هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله ، والـكفر به وبالمسجد الحرام . لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله . ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون . ولقد كفروا بالمسجد الحرام . انتهكوا حرمته ؛ فآذوا المسلمين فيه ، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة . وأخرجوا أهله منه ؛ وهو الحرم الذى جعله الله آمنا ، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته ..

وإخراج أهله منه أكبر عندالله من القتال فى الشهر الحرام . . وفتنة الناس عن دينهم أكبر عندالله من القتل . وقد ارتـكب المشركون هاتين الـكبيرتين فسقطت حجتهم فى التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام . ووضح موقف المسلمين فى دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ؛ الذين يتخذون منها ستارا حين يريدون ، وينتهـكون قداستها حين يريدون ! وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم ، لأنهم عادون باغون أشرار ، لا يرقبون حرمة ، ولا يتحرجون أمام قداسة . وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التى لا احترام لها فى نفوسهم ولاقداسة !

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل . وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه ، لتشويه موقف الجماعة المسلمة ، وإظهارها بمظهر المعتدى . . وهم المعتدون ابتداء . وهم الذين انتهـكوا حرمة البيت ابتداء .

إن الإسلام منهج واقعى للحياة ، لايقوم على مثاليات خيالية جامدة فى قوالب نظرية . إنه يواجه الحياة البشرية - كما هى - بعوائقها وجواذبها وملابساتها الواقعية . يواجهها ليقودها

Marfat.com

قيادة واقعية إلى السير وإلى الارتقاء فى آن واحد . يواجهها بحلول عملية تكافىء واقعياتها ، ولاترفرف فى خيال حالم ، ورؤى مجنحة ، لاتجدى على واقع الحياة شيئا !

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون . لايقيمون للمقدسات وزنا ، ولايتحرجون أمام الحرمات ، ويدوسون كل ماتواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة . يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه ، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء ، ويخرجونهم من البلد الحرام الذى يأمن فيه كل حى حتى الهوام !.. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام ،ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات ، ويرفعون أصواتهم : انظروا هاهو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام !

فكيف يواجههم الإسلام ؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة ؟ إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيارمن السلاح، بينماخصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح ، ولايتورعون عن سلاح ! .. كلا إن الإسلام لايصنع هذا ، لأنه يريد مواجهة الواقع ، لدفعه ورفعه . يريد أن يزيل البغى والشر ، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال. ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة . ومن ثم لايجعل الحرمات متاريس يقف خلفها المفسدون البغاة الطغاة ليرموا الطيبين الصالحين البناة ، وهم فى مأمن من رد الهجمات ومن نبل الرماة !

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ؛ ويشدد فى هذا المبدأ ويصونه . ولكنه لايسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ، ويقتلون الصالحين ، ويفتنون المؤمنين ، ويرتكبون كل منكر وهم فى منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التى يجب أن تصان !

وهو يمضى فى هذا المبدأ على اطراد .. إنه يحرم الغيبة .. ولكن لاغيبة لفاسق .. فالفاسق الذى يشتهر بفسقه لاحرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه . وهو يحرم الجهر بالسوء من القول . ولكنه يستثنى « إلا من ظلم » .. فله أن يجهر فى حق ظالمه بالسوء من القول ، لأنه حق . ولأن السكوت عن الجهر به يطمع الظالم فى الاحتماء بالمبدإ الكريم الذى لا يستحقه !

ومع هذا يبقى الإسلام فى مستواه الرفيع لايتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة . ولا إلى

Marfat.com

أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة . . إنه فقط يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم ، وإلى قتالهم وقتلهم ، وإلى تطهير جو الحياة منهم . . هكذا جهرة وفى وضح النهار . .

وحين تكون القيادة فى الأيدى النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات . . حينئذ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله .

هـذا هو الإسـلام . . صريحا واضحا قويا دامغا ؛ لايلف ولا يدور ؛ ولا يدع الفرصة كذلك لمن يريد أن يلف من حوله وأن يدور .

وهذا هو القرآن يقف المسلمين على أرض صلبة ، لاتتأرجح فيها أقدامهم ، وهم يمضون فى سبيل الله ، لتطهير الأرض من الشر والفساد ؛ ولا يدع ضمائرهم قلقة متحرجة تأكلها الهواجس وتؤذيها الوساوس . . هـــذا شر وفساد وبغى وباطل . . فلا حرمة له إذن ، ولا يجوز أن يتترس بالحرمات ، ليضرب من ورائها الحرمات ! وعلى المسلمين أن يمضوا فى طريقهم فى يقين وثقة ؛ فى سلام مع ضمائرهم ، وفى سلام من الله . .

ويمضى السياق بعد بيان هـذه الحقيقة ، وتمكين هـذه القاعدة ، وإقرار قلوب المسلمين وأقدامهم . . يمضى فيكشف لهم عن عمق الشر فى نفوس أعدائهم ، وأصالة العدوان فى نيتهم وخطتهم :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . .

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر ؛ وعلى فتنة المسلمين عن دينهم ، بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم . وهو الهدف الذى لايتغير لأعداء الجماعة المسلمة فى كل أرض وفى كل جيل . . إن وجود الإسـلام فى الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين؛ ولأعداء الجماعة المسلمة فى كل حين . إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم . فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ، ويرهبه كل باغ ، ويكرهه كل مفسد . إنه حرب بذاته وبما فيـه من حق أبلج ، ومن منهج قويم ، ومن نظام سليم . . إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغى والفساد . ومن ثم لايطيقه المبطلون البغاة المفسدون . ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه ، ويردوهم كفارا فى صورة من صور الكفر الكثيرة . ذلك

Marfat.com

أنهم لايأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفى الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهـذا الدين ، وتتبع هذا المنهج ، وتعيش بهذا النظام .

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ؛ ولـكن الهدف يظل ثابتا . . أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا . وكلما انكسر فى يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ؛ وكلما كلت فى أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها . . والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ؛ وينبهها إلى الخطر ؛ ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب ؛ وإلا فهى خسارة الدنيا والآخرة ؛ والعذاب الذى لايدفعه عذر ولا مبرر :

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثا فانتفخت ثم نفقت . . والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل ، فيتطابق المدلول الحسى والمدلول المعنوى . . يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره ، وهلاكه فى النهاية وبواره . . مع تضخم حجم الناقة وانتفاخها ثم هلاكها فى النهاية بهذا الانتفاخ !

ومن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه ؛ تحت مطارق الأذى والفتنة ـ مهما بلغت ـ هـذا مصيره الذى قرره الله له . . حبوط العمل فى الدنيا والآخرة . ثم ملازمة العذاب فى النار خلودا .

إن القلب الذى يذوق الإسلام ويعرفه ، لا يمكن أن يرتد عنه ارتدادا حقيقيا أبدا . إلا إذا فسد فساداً لاصلاح له . وهـذا أمر غير التقية من الأذى البالغ الذى يتجاوز الطاقة فالله رحيم . رخص للمسلم ـ حين يتجاوز العذاب طاقته ـ أن يقى نفسه بالتظاهر ، مع بقاء قلبه ثابتا على الإسلام مطمئنا بالإيمان . ولـكنه لم يرخص له فى الكفر الحقيقى ، وفى الارتداد الحقيقى ، بحيث يموت وهو كافر . . والعياذ بالله . .

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان . . ليس لمسلم عذر فى أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن إيمانه وإسلامه، ويرجع عن الحق الذى ذاقه وعرفه . . وهناك

Marfat.com

المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله. والله لايترك عباده الذين يؤمنون به، ويصبرون على الأذى فى سبيله. فهو معوضهم خيرا: إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

وهناك رحمته التى يرجوها من يؤذون فى سبيله؛ لاييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان:

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم » ..

ورجاء المؤمن فى رحمة الله لايخيبه الله أبدا.. ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هـذا الوعد الحق، فجاهدوا وصبروا، حتى حقق الله لهم وعده بالنصر أو الشهادة. وكلاهما خير، وكلاهما رحمة. وفازوا بمغفرة الله ورحمته: « والله غفور رحيم » ..

وهو هو طريق المؤمنين..

* * *

ثم يمضى السياق، يبين للمسلمين حكم الخمر والقمار.. وكلتاهما لذة من اللذائذ التى كان العرب غارقين فيها. يوم أن لم تكن لهم اهتمامات عليا ينفقون فيها نشاطهم، وتستغرق مشاعرهم وأوقاتهم:

« يسألونك عن الخمر والميسر. قل: فيهما إثم كبير ومنافع للناس. وإثمهما أكبر من نفعهما » ..

وإلى ذلك الوقت لم يكن قد نزل تحريم الخمر والميسر. ولكن نصا فى القرآن كله لم يرد بحلهما. إنما كان الله يأخذ بيد هذه الجماعة الناشئة خطوة خطوة فى الطريق الذى أراده لها، ويصنعها على عينه للدور الذى قدره لها. وهذا الدور العظيم لاتتلاءم معه تلك المضيعة فى الخمر والميسر؛ ولا تناسبه بعثرة العمر، وبعثرة الوعى، وبعثرة الجهد فى عبث الفارغين، الذين لاتشغلهم إلا لذائذ أنفسهم؛ أو الذين يطاردهم الفراغ والخواء فيغرقونه فى السكر بالخمر والانشغال بالميسر؛ أو الذين تطاردهم أنفسهم فيهربون منها فى الخمار والقمار؛ كما يفعل كل من يعيش فى الجاهلية. أمس واليوم وغداً! إلا أن الإسلام على منهجه فى تربية النفس البشرية كان يسير على هينة وفى يسر وفى تؤدة..

وهـذا النص الذى بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم. فالأشياء والأعمال

Marfat.com

قد لاتكون شرا خالصا . فالخير يتلبس بالشر ، والشر يتلبس بالخير فى هذه الأرض . ولكن مدار الحل والحرمةهو غلبة الخيرأوغلبةالشر . فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع، فتلكعلة تحريم ومنع . وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع .

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامى القرآنى الربانى الحكيم . وهو المنهج الذى يمكن استقراؤه فى الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته . ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر .

عندما يتعلق الأمر أو النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيمانى ، أى بمسألة اعتقادية ، فإن الإسلام يقضى فيها قضاء حاسما منذ اللحظة الأولى .

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعى معقد ، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ، ويهيئ الظروف الواقعية التى تيسر التنفيذ والطاعة .

فعند ماكانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك : أمضى أمره منذ اللحظة الأولى . فى ضربة حازمة جازمة ، لاتردد فيها ولاتلفت ، ولامجاملة فيها ولامساومة ،ولالقاء فى منتصف الطريق. لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور ؛ لايصلح بدونها إيمان ولايقام إسلام .

فأما فى الخمر والميسر فقدكان الأمر أمر عادة وإلف . والعادة تحتاج إلى علاج . . فبدأ بتحريك الوجدان الدينى والمنطق التشريعى فى نفوس المسلمين ، بأن الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع . وفى هذا إيحاء بأن تركها هو الأولى .. ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء : « ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » .. والصلاة فى خمسة أوقات ، معظمها متقارب ، لايكفى مابينها للسكر والإفاقة ! وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب ، وكسر لعادة الإدمان التى تتعلق بمواعيد التعاطى ؛ إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ماأدمن عليه من مسكر أومخدر فى الموعد الذى اعتاد تناوله . فإذا تجاوز هذاالوقت وتكرر هذا التجاوز فترت حدة العادة وأمكن التغلب عليها .. حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهى الحازم الأخير بتحريمالخمر والميسر : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . .

Marfat.com

وأما فى الرق مثلا ، فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعى اقتصادى ، وأمر عرف دولى وعالمى فى استرقاق الأسرى وفى استخدام الرقيق . والأوضاع الاجتماعية المعقدة تحتاج إلى تعديل شامل لمقوماتها وارتباطاتها قبل تعديل ظواهرها وآثارها . والعرف الدولى يحتاج إلى اتفاقات دولية ومعاهدات جماعية ..ولم يأمر الإسلام بالرق قط ؛ ولم يرد فى القرآن نص على استرقاق الأسرى. ولكنه جاء فوجد الرق نظاما عالميا يقوم عليه الاقتصاد العالمى . ووجد استرقاق الأسرى عرفا دوليا ، يأخذ به المحاربون جميعا ..فلم يكن بد أن يتريث فى علاج الوضع الاجتماعى القائم والنظام الدولى الشامل .

وقد اختار الإسلام أن يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهى بهذا النظام كله ــ مع الزمن ــ إلى الإلغاء ، دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها . وذلك مع العناية بتوفير ضمانات الحياة المناسبة للرقيق ، وضمان الكرامة الإنسانية فى حدود واسعة .

بدأ بتجفيف موارد الرق فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ونسل الأرقاء..ذلك أن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسترق أسرى المسلمين حسب العرف السائد فى ذلك الزمان . وما كان الإسلام يومئذ قادرا على أن يجبر المجتمعات المعادية على مخالفة ذلك العرف السائد ، الذى تقوم عليه قواعد النظام الاجتماعى والاقتصادى فى أنحاء الأرض .ولو أنه قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان هذا إجراء مقصورا على الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء فى عالم الرق هناك . وفى هذا إطماع لأعداء الإسلام فى أهل الإسلام . . ولو أنه قرر تحرير نسل الأرقاء الموجود فعلا قبل أن ينظم الأوضاع الاقتصادية للدولة المسلمة ولجميع من تضمهم لترك هؤلاء الأرقاء بلا مورد رزق ولا كافل ولا عائل ؛ ولا أواصر قربى تعصمهم من الفقر والسقوط الخلقى الذى يفسد حياة المجتمع الناشيء . . لهذه الأوضاع القائمة العميقة الجذور لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى ، بل قال : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (١) . . ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم . وترك الدولة المسلمة تعامل أسراها حسب ماتقتضيه طبيعة موقفها .فتفادى من تفادى من الأسرى من الجانبين ، وتتبادل

---

(١) سورة محمد .

Marfat.com

الأسرى من الفريقين ، وتسترق من تسترق وفق الملابسات الواقعية فى التعامل مع أعدائها المحاربين .

وبتجفيف موارد الرق الأخرى ـ وكانت كثيرة جدا ومتنوعة ـ يقل العدد .. وهذا العدد القليل أخذ الإسلام يعمل على تحريره بمجرد أن ينضم إلى الجماعة المسلمة ويقطع صلته بالمعسكرات المعادية . فجعل للرقيق حقه كاملا فى طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها سيده . ومنذ هذه اللحظة التى يريد فيها الحرية يملك حرية العمل وحرية الكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له ، وله أن يعمل فى غير خدمة سيده ليحصل على فديته ـ أى إنه يصبح كيانا مستقلا ويحصل على أهم مقومات الحرية فعلا ـ ثم يصبح له نصيبه من بيت مال المسلمين فى الزكاة . والمسلمون مكلفون بعدهذا أن يساعدوه بالمال على استرداد حريته . . وذلك كله غير الكفارات التى تقتضى عتق رقبة . كبعض حالات القتل الخطأ ، وفدية اليمين ، وكفارة الظهار .. وبذلك ينتهى وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن ، لأن إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدى إلى هزة لاضرورة لها ، وإلى فساد فى المجتمع أمكن اتقاؤه .

فأما تكاثر الرقيق فى المجتمع الإسلامى بعد ذلك ؛ فقد نشأ من الانحراف عن المنهج الإسلامى ، شيئا فشيئا . وهذه حقيقة . . ولكن مبادىء الإسلام ليست هى المسؤولة عنه . . ولا يحسب ذلك على الإسلام الذى لم يطبق تطبيقا صحيحا فى بعض العهود لانحراف الناس عن منهجه ، قليلا أو كثيرا .. ووفق النظرية الإسلامية التاريخية التى أسلفنا .. لا تعد الأوضاع التى نشأت عن هـذا الانحراف أوضاعا إسلامية ؛ ولا تعد حلقات فى تاريخ الإسلام كذلك . فالإسلام لم يتغير . ولم تضف إلى مبادئه مبادىء جديدة . إنما الذى تغير هم الناس . وقد بعدوا عنه فلم يعد له علاقة بهم . ولم يعودوا هم حلقة من تاريخه .

وإذا أراد أحد أن يستأنف حياة إسلامية ، فهو لا يستأنفها من حيث انتهت الجموع المنتسبة إلى الإسلام على مدى التاريخ . إنما يستأنفها من حيث يستمد استمدادا مباشرا من أصول الإسلام الصحيحة ..

وهذه الحقيقة مهمة جداً . سواء من وجهة التحقيق النظرى ، أو النمو الحركى ، للعقيدة الإسلامية وللمنهج الإسلامى . ونحن نؤكدها للمرة الثانية فى هذا الجزء بهذه المناسبة ، لما نراه

Marfat.com

من شدة الضلال والخطأ في تصور النظرية التاريخية الإسلامية ، وفى فهم الواقع التاريخى الإسلامى . ومن شدة الضلال والخطأ فى تصور الحياة الإسلامية الحقيقية والحركة الإسلامية الصحيحة . وبخاصة فى دراسة المستشرقين للتاريخ الإسلامى . ومن يتأثرون بمنهج المستشرقين الخاطىء فى فهم هذا التاريخ ! وفيهم بعض المخلصين المخدوعين !

* * *

ثم نمضى مع السياق فى تقرير المبادىء الإسلامية فى مواجهة الأسئلة الاستفهامية :

« ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو . كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » . .

لقد سألوا مرة : ماذا ينفقون ؟ فكان الجواب عن النوع والجهة . فأما هنا فجاء الجواب عن المقدار والدرجة . . والعفو : الفضل والزيادة . فكل مازاد على النفقة الشخصية — فى غير ترف ولامخيلة — فهو محل للإنفاق . الأقرب فالأقرب . ثم الآخرون على ماأسلفنا . . والزكاة وحدها لاتجزىء . فهذ النص لم تنسخه آية الزكاة ولم تخصصه فيما أرى . فالزكاة لاتبرىء الذمة إلا بإسقاط الفريضة . ويبقى التوجيه إلى الإنفاق قائما . إن الزكاة هى حق بيت مال المسلمين تجبيها الحكومة التى تنفذ شريعة الله ، وتنفقها فى مصارفها المعلومة ، ولكن يبقى بعد ذلك واجب المسلم لله ولعباد الله . والزكاة قد لاتستغرق الفضل كله ، والفضل كله محل للإنفاق بهذا النص الواضح ؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام : « فى المال حق سوى الزكاة [1] » . . حق قد يؤديه صاحبه ابتغاء مرضاة الله — وهذا هو الأكمل والأجمل — فإن لم يفعل واحتاجت إليه الدولة المسلمة التى تنفذ شريعة الله ، أخذته فأنفقته فيما يصلح الجماعة المسلمة . كى لايضيع فى الترف المفسد . أو يقبض عن التعامل ويخزن ويعطل .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » . .

فهذا البيان لاستجاشة التفكر والتدبر فى أمر الدنيا والآخرة . فالتفكر فى الدنيا وحدها لايعطى العقل البشرى ولا القلب الإنسانى صورة كاملة عن حقيقة الوجود الإنسانى ، وحقيقة

---

(١) من رواية شريك عن أبى حمزة عن عامر عن فاطمة بنت قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم . نقله الإمام الجصاص فى كتابه : أحكام القرآن .

Marfat.com

الحياة وتكاليفها وارتباطاتها ، ولا ينشئ تصورا صحيحا للأوضاع والقيم والموازين . فالدنيا شطر الحياة الأدنى والأقصر . وبناء الشعور والسلوك على حساب الشطر القصير لاينتهى أبدا إلى تصور صحيح ولاإلى سلوك صحيح . . ومسألة الإنفاق بالذات فى حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة . فما ينقص من مال المرء بالإنفاق يُرد عليها طهارة لقلبه ، وزكاة لمشاعره . كما يرد عليه صلاحا للمجتمع الذى يعيش فيه ووئاما وسلاما . ولكن هذا كله قد لايكون ملحوظا لكل فرد . وحينئذ يكون الشعور بالآخرة وما فيها من جزاء ، وما فيها من قيم وموازين ، مرجحا لكفة الإنفاق ، تطمئن إليه النفس ، وتسكن له وتستريح . ويعتدل الميزان فى يدها فلا يرجح بقيمة زائفة ذات لألاء وبريق .

* * *

« ويسألونك عن اليتامى ؟ قل : إصلاح لهم خير . وإن تخالطوهم فإخوانكم . والله يعلم المفسد من المصلح . ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم » . .

إن التكافل الاجتماعى هو قاعدة المجتمع الإسلامى . والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها . واليتامى بفقدهم آباءهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها . رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم . ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم. وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعا ؛ وكان الغبن يقع أحيانا على اليتامى . فنزلت الآيات فى التخويف من أكل أموال الأيتام . عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم . فكان الرجل يكون فى حجره اليتيم . يقدم له الطعام من ماله ، فإذا فضل منه شىء بقى له حتى يعاود أكله أو يفسد فيطرح ! وهذا تشدد ليس من طبيعة الإسلام ، فوق مافيه من الغرم أحيانا على اليتيم . فعاد القرآن يرد المسلمين إلى الاعتدال واليسر فى تناول الأمور ؛ وإلى تحرى خير اليتيم والتصرف فى حدود مصلحته . فالإصلاح لليتامى خير من اعتزالهم والمخالطة لاحرج فيها إذا حققت الخير لليتيم . فاليتامى إخوان للأوصياء . كلهم إخوة فى الإسلام . أعضاء فى الأسرة المسلمة الكبيرة . والله يعلم المفسد من المصلح ، فليس المعول عليه هو ظاهر العمل وشكله ، ولكن نيته وثمرته . والله لايريد إحراج المسلمين وإعناتهم والمشقة عليهم فيما يكلفهم . ولوشاء الله لكلفهم هذا

Marfat.com

العنت . ولكنه لايريد . وهو العزيز الحكيم . فهو قادر على مايريد . ولكنه حكيم لايريد إلا الخير واليسر والصلاح .

وهكذا يربط الأمر كله بالله ؛ ويشده إلى المحور الأصيل الذى تدور عليه العقيدة ، وتدور عليه الحياة .. وهذه هي ميزة التشريع الذى يقوم على العقيدة . فضمانة التنفيذ للتشريع لاتجىء أبدا من الخارج ؛ إن لم تنبثق وتتعمق فى أغوار الضمير ..

« وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ، وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ، أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ؛ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ . قُلْ : هُوَ أَذًى ، فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ ، وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

« لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؛ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَاقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

« وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ

Marfat.com

اللهُ فى أرحامهنّ، إن كُنّ يؤمنّ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وبعولتهنّ أحقّ بردّهنّ فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ، ولهنّ مثلُ الذى عليهنّ بالمعروف ، وللرجالِ عليهنّ درجةٌ ؛ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ.

« الطلاقُ مرّتانِ ، فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسانٍ . ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئاً، إلّا أن يخافا ألّا يقيما حدودَ الله، فإن خفتم ألّا يقيما حدودَ اللهِ فلا جناحَ عليهما فيما افتدت به . تلك حدودُ اللهِ فلا تعتدوها . ومن يتعدّ حدودَ اللهِ فأولئك هم الظالمون * فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعدُ حتّى تنكحَ زوجاً غيرَه . فإن طلّقها فلا جناحَ عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدودَ اللهِ ، وتلك حدودُ اللهِ يبيّنها لقومٍ يعلمون .

« وإذا طلّقتم النساءَ فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروفٍ أو سرّحوهنّ بمعروفٍ؛ ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ؛ ولا تتخذوا آياتِ اللهِ هزواً ؛ واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم وما أنزل عليكم من الكتابِ والحكمةِ يعظكم به ؛ واتّقوا اللهَ ، واعلموا أنّ اللهَ بكلّ شيءٍ عليمٌ * وإذا طلّقتم النساءَ فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروفِ . ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ .ذلكم أزكى لكم وأطهرُ، واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون.

« والوالداتُ يرضعن أولادهنّ حولين كاملين ـ لمن أراد أن يتمّ الرّضاعةَ وعلى المولودِ له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروفِ ، لا تكلّفُ نفسٌ إلّا وسعها ،لا تضارّ والدةٌ بولدها ، ولا مولودٌ له بولده ؛ وعلى الوارثِ مثلُ ذلك . فإن أرادا فصالاً عن

Marfat.com

تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما؛ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم ـ إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف ـ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير.

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً؛ فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف، والله بما تعملون خبير.

« ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهن؛ ولكن لا تواعدوهن سراً، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً؛ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله، واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حليم

« لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة؛ ومتعوهن، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين* وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم، إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح؛ وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، إن الله بما تعملون بصير.

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً؛ فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف، والله

Marfat.com

عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (٢٤٢)

نحن فى هذا الدرس مع جانب من دستور الأسرة . جانب من التنظيم للقاعدة الركينة التى تقوم عليها الجماعة المسلمة ، ويقوم عليها المجتمع الإسلامى . هذه القاعدة التى أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهدا كبيرا ، نراه متناثرا فى سور شتى من القرآن ، محيطا بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى .

إن النظام الإجتماعى الإسلامى نظام أسرة ـ بما أنه نظام ربانى للإنسان ، ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها .

وينبثق نظام الأسرة فى الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة ، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعا وللمخلوقات كافة ..تبدو هذه النظرة واضحة فى قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . . ومن قوله سبحانه : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . .

ثم تدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التى كان منها الزوجان ، ثم الذرية ، ثم البشرية جميعا : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » . . « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ..

ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين ، لا لتجمع بين مطلق الذكران ومطلق الإناث ، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .. « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . .

Marfat.com

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه. وبشر المؤمنين » .. « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا » ..

فهي الفطرة تعمل ، وهي الأسرة تلبي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان . ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني . بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون . على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله . ومن بينه هذا الإنسان ..

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها ؛ وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها ؛ وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة ؛ وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة ، وتفسر الحياة ، وتتعامل مع الحياة .

والطفل الإنساني هو أطول الأحياء طفولة. تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى . ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته . ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة ،ودوره في الأرض هو أضخم دور . . امتدت طفولته فترة أطول ، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل . . ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر . وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني ، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة .

وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لايعوض عنها ، ولا يقوم مقامها ، بل لايخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته ، وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النظام الفطري الصالح القويم الذي جعله الله للإنسان . أو التي اضطرت بعض الدول الأوربية اضطرارا لإقامتها بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية المتبربرة التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التصور الديني ، والتي لاتفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام (١) ؛ أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشؤوم الذي

(١) يراجع كتاب أطفال بلا أسر . تأليف أنا فرويد . وترجمة الأستاذين بدران ، وبسى .

Marfat.com

يضطر الأمهات إلى العمل ، تحت تأثير التصورات الجاهلية الشائهة للنظام الاجتماعي والاقتصادي المناسب للإنسان . هذه اللعنة التى تحرم الأطفال حنان الأمهات ورعايتهن فى ظل الأسرة ، لتقذف بهؤلاء المساكين إلى المحاضن ، التى يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النفسى ، فيملأ نفسه بالعقد والاضطرابات . . وأعجب العجب أن انحراف التصورات الجاهلية ينتهى بناس من المعاصرين إلى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدما وتحررا وانطلاقا من الرجعية ! وهو هو هذا النظام الملعون ، الذى يضحى بالصحة النفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض . . الأطفال . . رصيد المستقبل البشرى . . وفى مقابل ماذا ؟ فى مقابل زيادة فى دخل الأسرة . أو فى مقابل إعالة الأم ، التى بلغ من جحود الجاهلية الغربية والشرقية المعاصرة وفساد نظمها الاجتماعية والاقتصادية أن تتنكل عن إعالة المرأة التى لاتنفق جهدها فى العمل ، بدل أن تنفقه فى رعاية أعز رصيد إنسانى وأغلى ذخيرة على وجه هذه الأرض (١) .

ومن ثم نجد النظام الاجتماعى الإسلامى ، الذى أراد الله به أن يدخل المسلمون فى السلم ، وأن يستمتعوا فى ظله بالسلام الشامل . . يقوم على أساس الأسرة ، ويبذل لهامن العناية مايتفق مع دورها الخطير . . ومن ثم نجد فى سور شتى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقومات التى يقوم عليها هذا النظام . وهذه السورة واحدة منها . .

---

(١) من أول ماأثبتته تجربة المحاضن أن الطفل فى العامين الأولين من عمره يحتاج حاجة نفسية فطرية إلى الاستقلال بوالدين له خاصة ! وبخاصة الاستقلال بأم لايشاركه فيها طفل آخر . وفيما بعد هذه السن يحتاج حاجة فطرية إلى الشعور بأن له أبا وأما معيرين ينسب إليهما ، والأمر الأول متعذر فى المحاضن . والأمر الثانى متعذر فى غير نظام الأسرة . وأى طفل يفقد أيهما ينشأ منحرفا شاذا مريضا مرضا نفسيا على نحو من الأنحاء .

وحين تكون هناك حادثة تحرم الطفل إحدى هاتين الحاجتين تكون ولاشك كارثة فى حياته . فما بال الجاهلية الشاردة تريد أن تعمم الكوارث فى حياة الأطفال جميعا ؟ ثم يزعم أناس حرموا أنفسهم نعمة السلام الذى أراده الله لهم .. أن هذا هو التقدم والتحرر والحضارة ؟!

(ويراجع بتوسع فصل « المشكلة الجنسية » فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » وفصل « الإسلام والمرأة » فى كتاب : « شبهات حول الإسلام » لمحمد قطب).

Marfat.com

والآيات الواردة فى هـذه السورة تتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة . والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والمتعة . والرضاعة والحضانة . .

ولكن هـذه الأحكام لاتذكر مجردة - كما اعتاد الناس أن يجدوها فى كتب الفقه والقانون . . كلا ! إنها تجىء فى جو يشعر القلب البشرى أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلهى للحياة البشرية ؛ وأصلا كبيرا من أصول العقيدة التى ينبثق منها النظام الإسلامى . وأن هـذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة . موصول بإرادته وحكمته ومشيئته فى الناس ، ومنهجه لإقامة الحياة على النحو الذى قدره وأراده لبنى الإنسان . ومن ثم فهو موصول بغضبه ورضاه ، وعقابه وثوابه ، وموصول بالعقيدة وجودا وعدما فى حقيقة الحال !

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بخطر هذا الأمر وخطورته ؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته ، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصدا لأمر عظيم فى ميزان الله . وأن الله يتولى بذاته - سبحانه - تنظيم حياة هذا الكائن ، والإشراف المباشر على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئة خاصة تحت عينه ، وإعدادها - بهـذه النشأة - للدور العظيم الذى قدره لها فى الوجود . وأن الاعتداء على هـذا المنهج يغضب الله ويستحق منه شديد العقاب .

إن هذه الأحكام تذكر بدقة وتفصيل .. لايبدأ حكم جديد حتى يكون قد فرغ من الحكم السابق وملابساته . ثم تجىء التعقيبات الموحية بعد كل حكم ، وأحيانا فى ثنايا الأحكام ، منبثة بضخامة هذا الأمر وخطورته ، تلاحق الضمير الإنسانى ملاحقة موقظة محيية موحية . وبخاصة عند التوجيهات التى يناط تنفيذها بتقوى القلب وحساسية الضمير ، لأن الاحتيال على النصوص والأحكام ممكن بغير هذا الوازع الحارس المستيقظ .

الحكم الأول يتضمن النهى عن زواج المسلم بمشركة ، وعن تزويج المشرك من مسلمة . والتعقيب : « أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . .

والحكم الثانى يتعلق بالنهى عن مباشرة النساء فى المحيض . . وتتوالى التعليقات فى هـذا الأمر فترفع أمر المباشرة وأمر العلاقات بين الجنسين عن أن تكون شهوة جسد تقضى فى

Marfat.com

لحظة ، إلى أن تكون وظيفة إنسانية ذات أهداف أعلى من تلك اللحظة وأكبر ، بل أعلى من أهداف الإنسان الذاتية . فهى تتعلق بإرادة الخالق فى تطهير خلقه بعبادته وتقواه : « فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه . وبشر المؤمنين » . .

والحكم الثالث حكم الأيمان بصفة عامة ــ تمهيدا للحديث عن الإيلاء والطلاق ــ وربط حكم الأيمان بالله وتقواه ، ويجىء التعقيب مرة : « والله سميع عليم » . . ومرة : « والله غفور حليم » . .

والحكم الرابع حكم الإيلاء . . والتعقيب : « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » . .

والحكم الخامس حكم عدة المطلقة وترد فيه تعقيبات شتى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن . إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » . . « والله عزيز حكيم » . .

والحكم السادس حكم عدد الطلقات . ثم حكم استرداد شىء من المهر والنفقة فى حالة الطلاق . وترد فيه التعقيبات التالية : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ، إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » . . « تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . . « فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . .

والحكم السابع حكم الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان بعد الطلاق . وورد فيه : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ؛ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ؛ واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ؛ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » . . « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر . ذلكم أزكى لكم وأطهر . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . .

والحكم الثامن حكم الرضاعة والاسترضاع والأجر . ويعقب على أحكامه المفصلة فى كل حالة من حالاته بقوله : « واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » . .

Marfat.com

والحكم التاسع خاص بعدة المتوفى عنها زوجها . ويعقب عليه بقوله : « فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير » . .

والحكم العاشر حكم التعريض بخطبة النساء فى أثناء العدة . ويرد فيه : « علم الله أنكم ستذكرونهن . ولكن لاتواعدوهن سرا ، إلا أن تقولوا قولا معروفا . ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم » . .

والحكم الحادى عشر حكم المطلقة قبل الدخول فى حالة ماإذا فرض لها مهر وفى حالة ماإذا لم يفرض . ويجىء فيه من اللمسات الوجدانية : « وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير » . .

والحكم الثانى عشر حكم المتعة للمتوفى عنها زوجها وللمطلقة . ويرد فيه : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . .

والتعقيب العام على هذه الأحكام : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » . .
إنها العبادة . . عبادة الله فى الزواج ، وعبادته فى المباشرة والإنسال . وعبادته فى الطلاق والانفصال . وعبادته فى العدة والرجعة . وعبادته فى النفقة والمتعة . وعبادته فى الإمساك بمعروف أوالتسريح بإحسان . وعبادته فى الافتداء والتعويض . وعبادته فى الرضاع والفصال . . عبادة الله فى كل حركة وفى كل خطرة . . ومن ثم يجىء - بين هذه الأحكام - حكم الصلاة فى الخوف والأمن : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون » . . يجىء هذا الحكم فى ثنايا تلك الأحكام ؛ وقبل أن ينتهى منها السياق . وتندمج عبادة الصلاة فى عبادات الحياة ، الاندماج الذى ينبثق من طبيعة الإسلام ، ومن غاية الوجود الإنسانى فى التصور الإسلامى . ويبدو السياق موحيا هذا الإيحاء اللطيف . . إن هذه عبادات . وطاعة الله فيها من جنس

Marfat.com

طاعته فى الصلاة . والحياة وحدة والطاعات فيها جملة . والأمر كله من الله . وهو منهج الله للحياة (١) ..

والظاهرة الملحوظة فى هذه الأحكام أنها فى الوقت الذى تمثل العبادة ، وتنشئ جو العبادة وتلق ظلال العبادة . . لاتغفل ملابسة واحدة من ملابسات الحياة الواقعية ، وملابسات فطرة الإنسان وتكوينه ، وملابسات ضروراته الواقعة فى حياته هذه على الأرض .

إن الإسلام يشرع لناس من البشر ، لالجماعة من الملائكة ، ولالأطياف مهومة فى الرؤى المجنحة ! ومن ثم لاينسى — وهو يرفعهم إلى جو العبادة بتشريعاته وتوجيهاته — أنهم بشر ، وأنها عبادة من بشر . . بشر فيهم ميول ونزعات ، وفيهم نقص وضعف ، وفيهم ضرورات وانفعالات ، ولهم عواطف ومشاعر ، وإشراقات وكثافات . . والإسلام يلاحظها كلها ؛ ويقودها جملة فى طريق العبادة النظيف ، إلى مشرق النور الوضيء ، فى غير ما تعسف ولا اصطناع . ويقيم نظامه كله على أساس أن هذا الإنسان إنسان !

ومن ثم يقرر الإسلام جواز الإيلاء . وهو العزم على الامتناع عن المباشرة فترة من الوقت . ولكن يقيده بألا يزيد على أربعة أشهر . ويقرر الطلاق ويشرع له ، وينظم أحكامه ومخلفاته . فى الوقت الذى يبذل كل ذلك الجهد لتوطيد أركان البيت ، وتوثيق أواصر الأسرة ، ورفع هذه الرابطة إلى مستوى العبادة . . إنه التوازن الذى يجعل مثاليات هذا النظام كلها مثاليات

---

(١) كنت قد عييت فترة عن إدراك سر هذا السياق القرآنى العجيب . وقلت فى الطبعة الأولى لهذا الجزء وفى الطبعة المكملة للأولى : أشهد أنى وقفت أمام هذه النقلة طويلا لايفتح على فى سرها ، ولاأريد أنا أن أتمحل لها ، ولاأقنع كل القناعة بما جاء فى بعض التفاسير عنها . من أن إدخال الحديث عن الصلاة فى جو الحديث عن الأسرة ، إشارة إلى الاهتمام بأمرها ، والتذكير بها حتى لاتنسى . . الخ ص ٨٤ وص ٨٥ من تلك الطبعة .

وقلت : « ولكننى — كما قلت مخلصا — لاأستريح الراحة الكافية لما اهتديت إليه . فإذا هديت إلى شيء آخر فسأبينه فى الطبعة التالية . وإذا هدى الله أحدا من القراء فليتفضل فيبلغنى مشكورا بما هداه الله » ..

فالآن أطمئن إلى هذا الفتح وأجد فيه الطريق . . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . .

Marfat.com

واقعية رفيعة . فى طاقة الإنسان . ومفيدة بها هذا الإنسان .

إنه التيسير على الفطرة . التيسير الحكيم على الرجل والمرأة على السواء . إذا لم يقدر لتلك النشأة العظيمة النجاح ؛ وإذا لم تستمتع تلك الخلية الأولى بالاستقرار . فالله الخبير البصير ، الذى يعلم من أمر الناس ما لا يعلمون ، لم يرد أن يجعل هذه الرابطة بين الجنسين قيدا وسجنا لاسبيل إلى الفكاك منه ، مهما اختنقت فيه الأنفاس ، ونبت فيه الشوك ، وغشاه الظلام . لقد أرادها مثابة وسكنا ؛ فإذا لم تحقق هذه الغاية ـ بسبب ماهو واقع من أمر الفطر والطبائع ـ فأولى بهما أن يتفرقا ؛ وأن يحاولا هذه المحاولة مرة أخرى . وذلك بعد استنفاد جميع الوسائل لإنقاذ هذه المؤسسة الكريمة ؛ ومع إيجاد الضمانات التشريعية والشعورية كى لا يضار زوج ولا زوجة ، ولا رضيع ولا جنين .

وهذا هو النظام الربانى الذى يشرعه الله للإنسان . .

وحين يوازن الإنسان بين أسس هذا النظام الذى يريده الله للبشر ، والمجتمع النظيف المتوازن الذى يرف فيه السلام ، وبين ما كان قائما وقتها فى الحياة البشرية ، يجد النقلة بعيدة بعيدة . . كذلك تحتفظ هذه النقلة بمكانها السامق الرفيع حين يقاس إليها حاضر البشرية اليوم فى المجتمعات الجاهلية التى تزعم أنها تقدمية فى الغرب وفى الشرق سواء ، ويحس مدى الكرامة والنظافة والسلام الذى أراده الله للبشر ، وهو يشرع لهم هذا المنهج . وترى المرأة ـ بصفة خاصة ـ مدى رعاية الله لها وكرامته . . حتى لأستيقن أنه ما من امرأة سوية تدرك هذه الرعاية الظاهرة فى هذا المنهج إلا وينبثق فى قلبها حب الله (1) !!!

* * *

والآن نواجه النصوص القرآنية بالتفصيل :

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ؛

---

(1) يراجع بتوسع : فصل « المساواة الإنسانية » فى كتاب « العدالة الاجتماعية » للمؤلف . وفصل : « المشكلة الجنسية » فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » . وفصل : « الإسلام والمرأة » فى كتاب : « شبهات حول الإسلام » لمحمد قطب . . كما تراجع فى الظلال سور : النساء . والأحزاب . والطلاق بصفة خاصة .

Marfat.com

ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولوأعجبكم . أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ؛ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . .

النكاح ـ وهو الزواج ـ أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بنى الإنسان ؛ وتشمل أوسع الاستجابات التى يتبادلها فردان . فلابد إذن من توحد القلوب ، والتقائها فى عقدة لاتحل . ولكى توحد القلوب يجب أن يتوحد ماتنعقد عليه ، وماتتجه إليه . والعقيدة الدينية هى أعمق وأشمل مايعمر النفوس ، ويؤثر فيها ، ويكيف مشاعرها ، ويحدد تأثراتها واستجاباتها ، ويعين طريقها فى الحياة كلها . وإن كان الكثيرون يخدعهم أحيانا كمون العقيدة أو ركودها ، فيتوهمون أنها شعور عارض يمكن الاستغناء عنه ببعض الفلسفات الفكرية ، أوبعض المذاهب الاجتماعية . . وهذا وهم وقلة خبرة بحقيقة النفس الإنسانية ، ومقوماتها الحقيقية . وتجاهل لواقع هذه النفس وطبيعتها .

ولقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة فى مكة لاتسمح فى أول الأمر بالانفصال الاجتماعى الكامل الحاسم ، كالانفصال الشعورى الاعتقادى الذى تم فى نفوس المسلمين . لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات متريثة . فلما أن أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل فى المدينة ، وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية ، بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه ، ونزلت هذه الآية . نزلت تحرم إنشاء أى نكاح جديد بين المسلمين والمشركين ـ فأما ما كان قائما بالفعل من الزيجات فقد ظل إلى السنة السادسة للهجرة حين نزلت فى الحديبية آية سورة الممتحنة : « ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن . الله أعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلاترجعوهن إلى الكفار . لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن . . . ولاتمسكوا بعصم الكوافر . . . » . . فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء .

لقد بات حراما أن ينكح المسلم مشركة ، وأن ينكح المشرك مسلمة . حرام أن يربط الزواج بين قلبين لايجتمعان على عقيدة . إنه فى هذه الحالة رباط زائف واه ضعيف . إنهما لايلتقيان فى الله ، ولاتقوم على منهجه عقدة الحياة . والله الذى كرم الإنسان ورفعه على الحيوان يريد لهذه الصلة ألاتكون ميلا حيوانيا ، ولااندفاعا شهوانيا . إنما يريد أن يرفعها حتى يصلها بالله فى علاه ؛ ويربط بينها وبين مشيئته ومنهجه فى نمو الحياة وطهارة الحياة .

Marfat.com

ومن هنا جاء ذلك النص الحاسم الجازم :

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » . .

فإذا آمنّ فقد زالت العقبة الفاصلة ؛ وقد التقى القلبان فى الله ؛ وسلمت الآصرة الإنسانية بين الاثنين مما كان يعوّقها ويفسدها . سلمت تلك الآصرة ، وقويت بتلك العقدة الجديدة : عقدة العقيدة .

« ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » . .

فهذا الإعجاب المستمد من الغريزة وحدها ، لاتشترك فيه مشاعر الإنسان العليا ، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس . وجمال القلب أعمق وأغلى ، حتى لو كانت المسلمة أمة غير حرة . فإن نسبها إلى الإسلام يرفعها عن المشركة ذات الحسب . إنه نسب فى الله وهو أعلى الأنساب .

« ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » . . القضية نفسها تتكرر فى الصورة الأخرى ، توكيدا لها وتدقيقا فى بيانها والعلة فى الأولى هى العلة فى الثانية :

« أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه . ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . .

إن الطريقين مختلفان ، والدعوتين مختلفتان ، فكيف يلتقى الفريقان فى وحدة تقوم عليها الحياة ؟

إن طريق المشركين والمشركات إلى النار ، ودعوتهم إلى النار . وطريق المؤمنين والمؤمنات هو طريق الله . والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه . . فما أبعد دعوتهم إذن من دعوة الله ! ولكن أو يدعو أولئك المشركون والمشركات إلى النار ؟ ومن الذى يدعو نفسه أو غيره إلى النار ؟ !

ولكنها الحقيقة الأخيرة يختصر السياق إليها الطريق ! ويبرزها من أولها دعوة إلى النار ، بما أن مآلها إلى النار . والله يحذر من هذه الدعوة المردية « ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . . فمن لم يتذكر ، واستجاب لتلك الدعوة فهو الملوم !

هنا نتذكر أن الله لم يحرم زواج المسلم من كتابية ـ مع اختلاف العقيدة ـ ولكن الأمر

Marfat.com

هنا يختلف . إن المسلم والكتابية يلتقيان فى أصل العقيدة فى الله . وإن اختلفت التفصيلات التشريعية . .

وهناك خلاف فقهى فى حالة الكتابية التى تعتقد أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله هو المسيح ابن مريم ، أو أن العزير ابن الله . . أهى مشركة محرمة . أم تعتبر من أهل الكتاب وتدخل فى النص الذى فى المائدة: «اليوم أحل لكم الطيبات . . . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .. والجمهور على أنها تدخل فى هذا النص..ولكنى أميل إلى اعتبار الرأى القائل بالتحريم فى هذه الحالة.وقد رواه البخارى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال ابن عمر : « لا أعلم شركا أعظم من أن تقول ربها عيسى » . .

فأما الأمر فى زواج الكتابى من مسلمة فهو محظور ؛ لأنه يختلف فى واقعه عن زواج المسلم بكتابية ـ غير مشركة ـ ومن هنا يختلف فى حكمه . . إن الأطفال يدعون لآبائهم بحكم الشريعة الإسلامية . كما أن الزوجة هى التى تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع . فإذا تزوج المسلم من الكتابية (غير المشركة) انتقلت هى إلى قومه ، ودعى أبناؤه منها باسمه ، فكان الإسلام هو الذى يهيمن ويظلل جو المحضن . ويقع العكس حين تتزوج المسلمة من كتابى ، فتعيش بعيدا عن قومها ، وقد يفتنها ضعفها ووحدتها هنالك عن إسلامها ، كما أن أبناءها يدعون إلى زوجها ، ويدينون بدين غير دينها . والإسلام يجب أن يهيمن دائما .

على أن هناك اعتبارات عملية قد تجعل المباح من زواج المسلم بكتابية مكروها . وهذا مارآه عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أمام بعض الاعتبارات :

قال ابن كثير فى التفسير : « قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله ـ بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات ـ وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات ، أو لغير ذلك من المعانى » . .

وروى أن حذيفة تزوج يهودية فكتب إليه عمر : خل سبيلها . فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال : لاأزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطلوا المؤمنات منهن . وفى رواية أخرى أنه قال : المسلم يتزوج النصرانية . والمسلمة ؟

ونحن نرى اليوم أن هذه الزيجات شر على البيت المسلم . . فالذى لايمكن إنكاره واقعيا

Marfat.com

أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللادينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها ، وتخرج جيلا أبعد مايكون عن الإسلام . وبخاصة فى هذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه ، والذى لايطلق عليه الإسلام إلا تجوزا فى حقيقة الأمر . والذى لايمسك من الإسلام إلا بخيوط واهية شكلية تقضى عليها القضاء الأخير زوجة تجيء من هناك !

* * *

« ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ؛ ولا تقربوهن حتى يطهرن . فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم . فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين » . .

وهذه لفتة أخرى إلى تلك العلاقة ترفعها إلى الله ؛ وتسمو بأهدافها عن لذة الجسد حتى فى أشد أجزائها علاقة بالجسد . . فى المباشرة . .

إن المباشرة فى تلك العلاقة وسيلة لاغاية . وسيلة لتحقيق هدف أعمق فى طبيعة الحياة . هدف النسل وامتداد الحياة ، ووصلها كلها بعد ذلك بالله . والمباشرة فى المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية ــ مع ما ينشأ عنها من أذى ومن أضرار صحية مؤكدة للرجل والمرأة سواء ــ ولكنها لاتحقق الهدف الأسمى . فضلا على انصراف الفطرة السليمة النظيفة عنها فى تلك الفترة . لأن الفطرة السليمة يحكمها من الداخل ذات القانون الذى يحكم الحياة . فتنصرف بطبعها ــ وفق هذا القانون ــ عن المباشرة فى حالة ليس من الممكن أن يصح فيها غرس ، ولا أن تنبت منها حياة . والمباشرة فى الطهر تحقق اللذة الطبيعية ، وتحقق معها الغاية الفطرية . ومن ثم جاء ذلك النهى إجابة على ذلك السؤال :

« ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » . .

وليست المسألة بعد ذلك فوضى ، ولا وفق الأهواء والانحرافات . إنما هى مقيدة بأمر الله ؛ فهى وظيفة ناشئة عن أمر وتكليف ، مقيدة بكيفية وحدود :

« فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » . .

Marfat.com

فى منبت الإخصاب دون سواه . فليس الهدف هو مطلق الشهوة ، إنما الغرض هو امتداد الحياة . وابتغاء ما كتب الله . فالله يكتب الحلال ويفرضه ؛ والمسلم يبتغى هذا الحلال الذى كتبه له ربه ، ولا ينشىء هو نفسه مايبتغيه . والله يفرض مايفرض ليطهر عباده ، ويحب الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون إليه مستغفرين :

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . .

وفى هذا الظل يصور لونا من ألوان العلاقة الزوجية يناسبه ويتسق مع خطوطه :

« نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » . .

وفى هذا التعبير الدقيق مافيه من إشارات إلى طبيعة تلك العلاقة فى هذا الجانب ، وإلى أهدافها واتجاهاتها . نعم ! إن هذا الجانب لايستغرق سائر العلاقات بين الزوج وزوجه . وقد جاء وصفها وذكرها فى مواضع أخرى مناسبة للسياق فى تلك المواضع . كقوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . . وقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . . فكل من هذه التعبيرات يصور جانبا من جوانب تلك العلاقة العميقة الكبيرة فى موضعه المناسب . أما مناسبة السياق هنا فيتسق معها التعبير بالحرث . لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء . وما دام حرثا فأتوه بالطريقة التى تشاءون . ولكن فى موضع الإخصاب الذى يحقق غاية الحرث :

« فأتوا حرثكم أنى شئتم » . .

وفى الوقت ذاته تذكروا الغاية والهدف ، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى ؛ فيكون عملا صالحا تقدمونه لأنفسكم . واستيقنوا من لقاء الله ، الذى يجزيكم بما قدمتم :

« وقدموا لأنفسكم . واتقوا الله . واعلموا أنكم ملاقوه » . .

ثم يختم الآية بتبشير المؤمنين بالحسنى عند لقاء الله ، وفى هذا الذى يقدمونه من الحرث ، فكل عمل للمؤمن خير ، وهو يتجه فيه إلى الله :

« وبشر المؤمنين » . .

هنا نطلع على سماحة الإسلام ، الذى يقبل الإنسان كما هو ، بميوله وضروراته ؛ لايحاول أن يحطم فطرته باسم التسامى والتطهر ؛ ولايحاول أن يستقذر ضروراته التى لابد له فيها ؛ إنما

Marfat.com

هو مكلف إياها فى الحقيقة لحساب الحياة وامتدادها ونمائها ! إنما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ورفعها ، ويصله بالله وهو يلبي دوافع الجسد . يحاول أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر إنسانية أولا ، وبمشاعر دينية أخيرا ؛ فيربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الإنسانية الدائمة ورفرفة الوجدان الدينى اللطيف ؛ ويمزج بينها جميعا فى لحظة واحدة ، وحركة واحدة ، واتجاه واحد، ذلك المزج القائم فى كيان الإنسان ذاته ، خليفة الله فى أرضه ، المستحق لهذه الخلافة بما ركب فى طبيعته من قوى وبما أودع فى كيانه من طاقات . . وهذا المنهج فى معاملة الإنسان هو الذى يلاحظ الفطرة كلها لأنه من صنع خالق هذه الفطرة . وكل منهج آخر يخالف عنه فى قليل أو كثير يصطدم بالفطرة فيخفق ، ويشقى الإنسان فردا وجماعة . والله يعلم وأنتم لاتعلمون . .

* * *

ثم ينتقل السياق من الحديث عن حكم المباشرة فى فترة الحيض ، إلى الحديث عن حكم الإيلاء .. أى الحلف بالهجران والامتناع عن المباشرة .. وبهذه المناسبة يلم بالحلف ذاته فيجعل الحديث عنه مقدمة للحديث عن الإيلاء .

« ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، والله سميع عليم ، لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حليم . للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » . .

التفسير المروى فى قوله تعالى : « ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم . . » عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: لاتجعلن عرضة يمينك ألا تصنع الخير ، ولكن كفرعن يمينك واصنع الخير . وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاووس وسعيد ابن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل ابن حيان والربيع ابن أنس والضحاك وعطاء الخراسانى والسدى ـ رحمهم الله ـ كما نقل ابن كثير .

ومما يستشهد به لهذا التفسير مارواه مسلم ـ بإسناده ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه ، وليفعل

Marfat.com

الذى هو خير » .. ومارواه البخارى ـ بإسناده ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والله لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عندالله من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه » . .

وعلى هذا يكون معناها : لاتجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس . فإذا حلفتم ألاتفعلوا ، فكفروا عن أيمانكم وأتوا الخير . فتحقيق البر والتقوى والإصلاح أولى من المحافظة على اليمين .

وذلك كالذى وقع من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين أقسم لايبر مسطحا قريبه الذى شارك فى حادثة الإفك ـ فأنزل الله الآية التى فى سورة النور : « ولايأتل أولوالفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » .. فرجع أبوبكر عن يمينه وكفر عنها .

على أن الله كان أرأف بالناس ، فلم يجعل الكفارة إلا فى اليمين المعقودة ، التى يقصد إليها الحالف قصدا ، وينوى ماوراءها مماحلف عليه . فأما ماجرى به اللسان عفوا ولغوا من غير قصد ، فقد أعفاهم منه ولم يوجب فيه الكفارة :

« لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم . والله غفور حليم » . . وقد روى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته : كلا والله . وبلى والله » . . ورواه ابن جرير عن طريق عروة موقوفا على عائشة : « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » .. لاوالله وبلى والله » .. وفى حديث مرسل ـ عن الحسن ابن أبى الحسن ـ قال : مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوم ينتضلون ـ يعنى يرمون ـ ومع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل من أصحابه . فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله . فقال الذى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حنث الرجل يارسول الله. قال : « كلا . أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولاعقوبة » . .

وورد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . . كما روى عنه : لغو اليمين أن تحرم ماأحل الله ، فذلك ليس عليك فيه كفارة . .

Marfat.com

وعن سعيد ابن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث . فسأل أحدهما صاحبه القسمة . فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة ! فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ! كفر عن يمينك وكلم أخاك . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لايمين عليك ولانذر فى معصية الرب عز وجل ، ولافى قطيعة الرحم ، ولافيما لا تملك » . .

والذى يخلص من هذه الآثار أن اليمين التى لاتنعقد النية على ماوراءها ، إنما يلغو بها اللسان ، لا كفارة فيها . وأن اليمين التى ينوى الحالف الأخذ أوالترك لما حلف عليه هى التى تنعقد . وهى التى تستوجب الكفارة عند الحنث بها . وأنه يجب الحنث بها إن كان مؤداها الامتناع عن فعل خير أو الإقدام على فعل شر . فأما إذا حلف الإنسان على شىء وهو يعلم أنه كاذب ، فبعض الآراء أنه لاتقوم لها كفارة أى لايكفر عنها شىء . قال الإمام مالك فى الموطأ : أحسن ماسمعت فى ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا ، ويقتطع به مالا، فهذا أعظم من أن تكون له كفارة .

ويعقب السياق على حكم العدول عن اليمين إلى مافيه البر والخير بقوله : « والله سميع عليم » . . ليوحى إلى القلب بأن الله - سبحانه - يسمع مايقال ويعلم أين هو الخير . ومن ثم يحكم هذا الحكم .

ويعقب على حكم يمين اللغو واليمين المعقودة التى ينويها القلب بقوله: « والله غفور حليم » . . ليلوح للقلب بحلم الله عن مؤاخذة العباد بكل مايفلت من ألسنتهم ، ومغفرته كذلك - بعد التوبة - لما تأثم به قلوبهم .

بهذا وذلك يربط الأمر بالله ، ويعلق القلوب بالاتجاه إليه فى كل ماتكسب وكل ماتقول .

وعند الانتهاء من تقرير القاعدة الكلية فى الحلف ، يأخذ فى الحديث عن يمين الإيلاء : وهى أن يحلف الزوج ألا يباشر زوجته . إما لأجل غير محدود ، وإما لأجل طويل معين :

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » . .

Marfat.com

إن هناك حالات نفسية واقعة ، تلم بنفوس بعض الأزواج ، بسبب من الأسباب فى أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة، وفى هذا الهجران مافيه من إيذاء لنفس الزوجة ؛ ومن إضرار بها نفسيا وعصبيا ؛ ومن إهدار لكرامتها كأنثى ؛ ومن تعطيل للحياة الزوجية ؛ ومن جفوة تمزق أوصال العشرة ، وتحطم بنيان الأسرة حين تطول عن أمد معقول .

ولم يعمد الإسلام إلى تحريم هذا الإيلاء منذ البداية ، لأنه قد يكون علاجا نافعا فى بعض الحالات للزوجة الشامسة المتكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو إعناته . كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم، أو ثورة غضب ، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى . .

ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك ، لأنه قد يكون باغيا فى بعض الحالات يريد إعنات المرأة وإذلالها ؛ أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة ، لاتستمتع بحياة زوجية معه ، ولا تنطلق من عقالها هذا لتجد حياة زوجية أخرى .

فتوفيقا بين الاحتمالات المتعددة ، ومواجهة للملابسات الواقعية فى الحياة . جعل هنالك حدا أقصى للإيلاء . لايتجاوز أربعة أشهر . وهذا التحديد قد يكون منظورا فيه إلى أقصى مدى الاحتمال ، كى لاتفسد نفس المرأة ، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر . وقد روى أن عمر ابن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ خرج من الليل يعس . أى يتحسس حاجات الناس وأحوالهم متخفيا . فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقنى ألا خليل الاعبه

فوالله ، لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة ــ رضى الله عنها ــ كم أكثر ماتصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر ــ أو أربعة أشهر ــ فقال عمر : لاأحبس أحدا من الجياش أكثر من ذلك . . وعزم على ألا يغيب المجاهدون من الجند أكثر من هذه الفترة . .

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف فى مثل هذه الأمور . ولكن أربعة أشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه ومشاعره . فإما أن يفىء ويعود إلى استئناف حياة زوجية صحيحة ، ويرجع إلى زوجه وعشه ، وإما أن يظل فى نفرته وعدم قابليته . وفى هذه الحالة ينبغى أن تفك هذه

Marfat.com

العقدة ؛ وأن ترد إلى الزوجة حريتها بالطلاق . فإما طلق وإما طلقها عليه القاضي . وذلك ليحاول كل منهما أن يبدأ حياة زوجية جديدة مع شخص جديد . فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون ؛ وأروح للرجل كذلك وأجدى ؛ وأقرب إلى العدل والجد في هذه العلاقة التي أراد الله بها امتداد الحياة لا تجميد الحياة .

* * *

والآن وقد انتهى السياق إلى الطلاق ، فإنه يأخذ في تفصيل أحكام الطلاق ؛ وما يتبعه من العدة والفدية والنفقة والمتعة . . إلى آخر الآثار المترتبة على الطلاق..

ويبدأ بحكم العدة والرجعة :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ؛ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ـ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ـ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ـ إن أرادوا إصلاحا ـ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم » . .

يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ـ أي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف .

يتربصن بأنفسهن . . لقد وقفت أمام هذا التعبير اللطيف التصوير لحالة نفسية دقيقة . . إن المعنى الذهني المقصود هو أن ينتظرن دون زواج جديد حتى تنقضي ثلاث حيضات ، أو حتى يطهرن منها . . ولكن التعبير القرآني يلقي ظلالا أخرى بجانب ذلك المعنى الذهني . . إنه يلقي ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة . رغبة الأنفس التي يدعوهن إلى التربص بها ، والإمساك بزمامها ، مع التحفز . والتوفز . الذي يصاحب صورة التربص . وهي حالة طبيعية ، تدفع إليها رغبة المرأة في أن تثبت لنفسها ولغيرها أن إخفاقها في حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص ، وأنها قادرة على أن تجتذب رجلا آخر ، وأن تنشىء حياة جديدة . . هذا الدافع لا يوجد بطبيعته في نفس الرجل ، لأنه هو الذي طلق ؛ بينما يوجد بعنف في نفس المرأة لأنها هي التي وقع عليها الطلاق . . وهكذا يصور القرآن الحالة النفسية من خلال التعبير ؛ كما يلحظ هذه الحالة ويحسب لها حسابا . .

يتربصن بأنفسهن هذه الفترة كي يتبين براءة أرحامهن من آثار الزوجية السابقة ؛ قبل أن يصرن إلى زيجات جديدة :

Marfat.com

« ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » . .

لايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن من حمل أو من حيض . . ويلمس قلوبهن بذكر الله الذى يخلق مافى أرحامهن ؛ ويستجيش كذلك شعور الإيمان بالله واليوم الآخر ، فشرط هذا الإيمان ألا يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن . . وذكر اليوم الآخر بصفة خاصة له وزنه هنا . فهناك الجزاء . . هناك العوض عما قد يفوت بالتربص . وهناك العقاب لو كتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، وهو يعلمه لأنه هو الذى خلقه ، فلا يخفى عليه شىء منه . . فلا يجوز كتمانه عليه ـ سبحانه ـ تحت تأثير أى رغبة أو هوى أو غرض من شتى الأغراض التى تعرض لنفوسهن .

هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى ، فإنه لابد من فترة معقولة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفرقة . فقد يكون فى قلوبهما رمق من ود يستعاد ، وعواطف تستجاش ، ومعان غلبت عليها نزوة أو غلطة أو كبرياء ! فإذا سكن الغضب ، وهدأت الشرة ، واطمأنت النفس ، استصغرت تلك الأسباب التى دفعت إلى الفراق ، وبرزت معان أخرى واعتبارات جديدة ، وعاودها الحنين إلى استئناف الحياة ؛ أو عاودها التجمل رعاية لواجب من الواجبات . والطلاق أبغض الحلال إلى الله ؛ وهو عملية بتر لايلجأ إليها إلا حين يخيب كل علاج . . (وفى مواضع أخرى من القرآن تذكر المحاولات التى ينبغى أن تسبق إيقاع الطلاق . كما أن إيقاع الطلاق ينبغى أن يكون فى فترة طهر لم يقع فيها وطء . وهذا من شأنه أن يوجد مهلة بين اعتزام الطلاق وإيقاعه فى أغلب الحالات ، إذ ينتظر الزوج حتى تجىء فترة الطهر ثم يوقع الطلاق . . إلى آخر تلك المحاولات) . .

والطلقة الأولى تجربة يعلم منها الزوجان حقيقة مشاعرهما . فإذا اتضح لهما فى أثناء العدة أن استئناف الحياة مستطاع ، فالطريق مفتوح :

« وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا » . .

فى ذلك . . أى فى فترة الانتظار والتربص وهى فترة العدة . . إن أرادوا إصلاحا . بهذا

Marfat.com

الرد ؛ ولم يكن القصد هو إعنات الزوجة ، وإعادة تقييدها فى حياة محفوفة بالأشواك ، انتقاما منها ، أو استكبارا واستنكافا أن تنكح زوجا آخر .

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . .

وللمطلقات من الحقوق فى هذه الحالة مثل الذى عليهن من الواجبات . فهن مكلفات أن يتربصن وألا يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن . وأزواجهن مكلفون بأن تكون نيتهم فى الرجعة طيبة لاضرر فيها عليهن ولا ضرار . وذلك إلى ماسيأتى من أمر النفقة فى مقابل الاحتباس للعدة .

« وللرجال عليهن درجة » . .

أحسب أنها مقيدة فى هذا السياق بحق الرجال فى ردهن إلى عصمتهم فى فترة العدة . وقد جعل هذا الحق فى يد الرجل لأنه هو الذى طلق ؛ وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطى حق المراجعة لها هى ! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها ! فهو حق تفرضه طبيعة الموقف . وهى درجة مقيدة فى هذا الموضع ، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون ، ويستشهدون بها فى غير موضعها (١) .

ثم يجىء التعقيب :

« والله عزيز حكيم » .

مشعرا بقوة الله الذى يفرض هذه الأحكام وحكمته فى فرضها على الناس . وفيه مايرد القلوب عن الزيغ والانحراف تحت شتى المؤثرات والملابسات .

* * *

والحكم التالى يختص بعدد الطلقات ، وحق المطلقة فى تملك الصداق ، وحرمة استرداد شىء منه عند الطلاق ، إلا فى حالة واحدة : حالة المرأة الكارهة التى تخشى أن ترتكب معصية لو بقيت مقيدة بهذا الزواج المكروه . وهى حالة الخلع التى تشترى فيها المرأة حريتها بفدية تدفعها :

« الطلاق مرتان . فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما

(١) وما أبرىء نفسى فقد وقعت فى هذا التأويل الذى أرجح عدم صحته ، فى بعض ما كتبت !

Marfat.com

آتيتموهن شيئا. إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله . فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . .

الطلاق الذى يجوز بعده استئناف الحياة مرتان . فإذا تجاوزها المتجاوز لم يكن إلى العودة من سبيل إلا بشرط تنص عليه الآية التالية فى السياق . وهو أن تنكح زوجا غيره . ثم يطلقها الزوج الآخر طلاقا طبيعيا لسبب من الأسباب ، ولا يراجعها فتبين منه . . وعندئذ فقط يجوز لزوجها الأول أن ينكحها من جديد ، إذا ارتضته زوجا من جديد .

وقد ورد فى سبب نزول هذا القيد ، أنه فى أول العهد بالإسلام كان الطلاق غير محدد بعدد من المرات .فكان للرجل أن يراجع مطلقته فى عدتها ، ثم يطلقها ويراجعها . هكذا ماشاء.. ثم إن رجلا من الأنصار اختلف مع زوجته فوجد عليها فى نفسه ، فقال : والله لا آويك ولاأفارقك . قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فإذا دنا أجلك راجعتك . فذكرت ذلك للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله عز وجل : « الطلاق مرتان » . .

وحكمة المنهج الربانى الذى أخذ به الجماعة المسلمة مطردة فى تنزيل الأحكام عندبروز الحاجة إليها .. حتى استوفى المنهج أصوله كلهاعلى هذا النحو .ولم يبق إلا التفريعات التى تلاحق الحالات الطارئة ، وتنشىء لها حلولا مستمدة من تلك الأصول الشاملة .

وهذا التقييد جعل الطلاق محصورا مقيدا ؛ لاسبيل إلى العبث باستخدامه طويلا . فإذا وقعت الطلقة الأولى كان للزوج فى فترة العدة أن يراجع زوجه بدون حاجة إلى أى إجراء آخر . فأما إذا ترك العدة تمضى فإنها تبين منه ؛ ولا يملك ردها إلا بعقد ومهر جديدين . فإذا هو راجعها فى العدة أو إذا هو أعاد زواجها فى حالة البينونة الصغرى كانت له عليها طلقة أخرى كالطلقة الأولى بجميع أحكامها . فأما إذا طلقها الثالثة فقد بانت منه بينونة كبرى بمجرد إيقاعها فلارجعة فيها فى عدة ، ولاعودة بعدها إلا أن ينكحها زوج آخر . ثم يقع لسبب طبيعى أن يطلقها . فتبين منه لأنه لم يراجعها . أولأنه استوفى عليها عدد مرات الطلاق . فحينئذ فقط يمكن أن تعود إلى زوجها الأول .

إن الطلقة الأولى محك وتجربة كما بينا . فأما الثانية فهى تجربة أخرى وامتحان أخير. فإن

Marfat.com

صلحت الحياة بعدها فذاك . وإلا فالطلقة الثالثة دليل على فساد أصيل فى حياة الزوجية لاتصلح معه حياة .

وعلى أية حال فما يجوز أن يكون الطلاق إلا علاجا أخيرا لعلة لايجدى فيها سواه . فإذا وقعت الطلقتان : فإما إمساك للزوجة بالمعروف ، واستئناف حياة رضية رخية ؛ وإما تسريح لها بإحسان لاعنت فيه ولاإيذاء . وهو الطلقة الثالثة التى تمضى بعدها الزوجة إلى خط فى الحياة جديد .. وهذا هو التشريع الواقعى الذى يواجه الحالات الواقعة بالحلول العملية ؛ ولايستنكرها حيث لايجدى الاستنكار ، ولايعيد خلق بنى الإنسان على نحو آخر غير الذى فطرهم الله عليه . ولايهملها كذلك حيث لايجدى الإهمال !

ولايحل للرجل أن يسترد شيئا من صداق أو نفقة أنفقها فى أثناء الحياة الزوجية فى مقابل تسريح المرأة إذا لم تصلح حياته معها . مالم تجد هى أنها كارهة لاتطيق عشرته لسبب يخص مشاعرها الشخصية ؛ وتحس أن كراهيتها له ، أو نفورها منه ، سيقودها إلى الخروج عن حدود الله فى حسن العشرة ، أو العفة ، أو الأدب . فهنا يجوز لها أن تطلب الطلاق منه ؛ وأن تعوضه عن تحطيم عشه بلاسبب متعمد منه ؛ برد الصداق الذى أمهرها إياه ، أو بنفقاته عليها كلها أو بعضها لتعصم نفسها من معصية الله وتعدى حدوده ، وظلم نفسها وغيرها فى هذه الحال . وهكذا يراعى الإسلام جميع الحالات الواقعية التى تعرض للناس ؛ ويراعى مشاعر القلوب الجادة التى لاحيلة للإنسان فيها ؛ ولايقسر الزوجة على حياة تنفر منها ؛ وفى الوقت ذاته لايضيع على الرجل ماأنفق بلاذنب جناه .

ولكى تتصور حيوية هذا النص ومداه ، يحسن أن نراجع سابقة واقعية من تطبيقه على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكشف عن مدى الجد والتقدير والقصد والعدل فى هذا المنهج الربانى القويم .

روى الإمام مالك فى كتابه : الموطأ ..أن حبيبة بنت سهل الأنصارى كانت تحت ثابت ابن قيس ابن شماس . وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج فى الصبح ، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه فى الغلس . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من هذه ؟ » قالت : أنا حبيبة بنت سهل ! فقال : « ماشأنك ؟ » فقالت : لاأنا ولاثابت ابن قيس ـ لزوجها ـ فلما

Marfat.com

جاء زوجها ثابت ابن قيس قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ماشاء الله أن تذكر » .. فقالت حبيبة : يارسول الله ، كل ماأعطانى عندى . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « خذ منها » فأخذ منها وجلست فى أهلها .

وروى البخارى - بإسناده - عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن امرأة ثابت ابن قيس ابن شماس أتت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يارسول الله . ماأعيب عليه فى خلق ولادين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتردين عليه حديقته ؟ » (وكان قد أمهرها حديقة) قالت : نعم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » . .

وفى رواية أكثر تفصيلا رواها ابن جرير بإسناد - عن أبى جرير أنه سأل عكرمة : هل كان للخلع أصل ؟ قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبدالله ابن أبى . أنها أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يارسول الله ، لايجمع رأسى ورأسه شىء أبدا . إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة ، فإذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها . فقال زوجها : يارسول الله إنى قد أعطيتها أفضل مالى : حديقة لى . فإن ردت على حديقتى . قال : ماتقولين ؟ قالت : نعم وإن شاء زدته . قال : ففرق بينهما . .

ومجموعة هذه الروايات تصور الحالة النفسية التى قبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وواجهها مواجهة من يدرك أنها حالة قاهرة لاجدوى من استنكارها وقسر المرأة على العشرة ؛ وأن لاخير فى عشرة هذه المشاعر تسودها . فاختار لها الحل من المنهج الربانى الذى يواجه الفطرة البشرية مواجهة صريحة عملية واقعية ؛ ويعامل النفس الإنسانية معاملة المدرك لما يحتمل فيها من مشاعر حقيقية .

ولما كان مرد الجد أو العبث ، والصدق أو الاحتيال . فى هذه الأحوال .. هو تقوى الله ، وخوف عقابه . جاء التعقيب يحذر من اعتداء حدود الله :

« تلك حدود الله فلاتعتدوها . ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » ..

***

Marfat.com

ونقف هنا وقفة عابرة أمام اختلاف لطيف فى تعبيرين قرآنيين فى معنى واحد ، حسب اختلاف الملابستين :

فى مناسبة سبقت فى هذه السورة عند الحديث عن الصوم . ورد تعقيب : « تلك حدود الله فلاتقربوها » . . وهنا فى هذه المناسبة ورد تعقيب : « تلك حدود الله فلاتعتدوها » . . فى الأولى تحذير من القرب . وفى الثانية تحذير من الاعتداء . . فلماذا كان الاختلاف ؟

فى المناسبة الأولى كان الحديث عن محظورات مشتهاة :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن . . علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم . وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد . . تلك حدود الله فلا تقربوها » . .

والمحظورات المشتهاة شديدة الجاذبية . فمن الخير أن يكون التحذير من مجرد الاقتراب من حدود الله فيها ، اتقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها إذا اقترب الإنسان من مجالها ووقع فى نطاق حبائلها !

أما هنا فالمجال مجال مكروهات واصطدامات وخلافات . فالخشية هنا هى الخشية من تعدى الحدود فى دفعة من دفعات الخلاف ؛ وتجاوزها وعدم الوقوف عندها . فجاء التحذير من التعدى لامن المقاربة . بسبب اختلاف المناسبة . . وهى دقة فى التعبير عن المقتضيات المختلفة عجيبة !

* * *

ثم نمضى مع السياق فى أحكام الطلاق :

« فإن طلقها فلاتحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . فإن طلقها فلاجناح عليهما أن يتراجعا . . إن ظنا أن يقيما حدود الله . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . .

إن الطلقة الثالثة ــ كما تبين ــ دليل على فساد أصيل فى هذه الحياة لاسبيل إلى إصلاحه من قريب ــ إن كان الزوج جادا عامدا فى الطلاق ــ وفى هذه الحالة يحسن أن ينصرف كلاهما إلى

Marfat.com

التماس شريك جديد . فأما إن كانت تلك الطلقات عبثا أو تسرعا أو رعونة ، فالأمر إذن يستوجب وضع حد للعبث بهـــذا الحق ، الذى قرر ليكون صمام أمن ، وليكون علاجا اضطراريا لعلة مستعصية ، لاليكون موضعا للعبث والتسرع والسفاهة . ويجب حينئذ أن تنتهى هذه الحياة التى لاتجد من الزوج احتراما لها ، واحتراسا من المساس بها .

وقد يقول قائل : وما ذنب المرأة تهدد حياتها وأمنها واستقرارها بسبب كلمة تخرج من فم رجل عابث ؟ ولكننا نواجه واقعا فى حياة البشر . فكيف ياترى يكون العلاج ، إن لم نأخذ بهذا العلاج ؟ تراه يكون بأن نرغم مثل هذا الرجل على معاشرة زوجة لايحترم علاقته بها ولا يوقرها ؟ فنقول له مثلا : إننا لانعتمد طلاقك هذا ولا نعترف به ولا نقره ! وهذه هى امرأتك على ذمتك فيها وأمسكها ! . . كلا إن فى هذا من المهانة للزوجة وللعلاقة الزوجية مالا يرضاه الإسلام ، الذى يحترم المرأة ويحترم علاقة الزوجية ويرفعها إلى درجة العبادة لله . . إنما تكون عقوبته أن نحرمه زوجه التى عبث بحرمة علاقاتها معه ؛ وأن نكلفه مهرا وعقدا جديدين إن تركها تبين منه فى الطلقتين الأوليين ؛ وأن نحرمها عليه فى الطلقة الثالثة تحريما كاملا – إلا أن تنكح زوجا غيره – وقد خسر صداقها وخسر نفقته عليها ؛ ونكلفه بعد ذلك نفقة عدة فى جميع الحالات . . والمهم أن ننظر إلى واقع النفس البشرية ؛ وواقع الحياة العملية ؛ لا أن نهوم فى رؤى مجنحة ليست لها أقدام تثبت بها على الأرض ، فى عالم الحياة !

فإذا سارت الحياة فى طريقها فتزوجت بعد الطلقة الثالثة زوجا آخر . ثم طلقها هذا الزوج الآخر . . فلا جناح عليها وعلى زوجها الأول أن يتراجعا . . ولكن بشرط :

« إن ظنا أن يقيما حدود الله » . .

فليست المسألة هوى يطاع ، وشهوة تستجاب . وليسا متروكين لأنفسهما وشهواتها ونزواتها فى تجمع أو افتراق . إنما هى حدود الله تقام . وهى إطار الحياة الذى إن أفلتت منه لم تعد الحياة التى يريدها ويرضى عنها الله .

« وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . .

فمن رحمته بالعباد أنه لم يترك حدوده غامضة ولا مجهولة . إنما هو يبينها فى هـذا القرآن .

Marfat.com

يبينها لقوم يعلمون . فالذين يعلمون حق العلم هم الذين يعلمونها ويقفون عندها ؛ وإلا فهو الجهل الذميم ، وهي الجاهلية العمياء !

* * *

بعد ذلك يجيء التوجيه الإلهي للأزواج المطلقين . توجيههم إلى المعروف واليسر والحسنى بعد الطلاق في جميع الأحوال :

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ؛ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا ؛ واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ؛ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم .

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر . ذلكم أزكى لكم وأطهر . والله يعلم وأنتم لاتعلمون » . .

إن المعروف والجميل والحسنى يجب أن تسود جو هذه الحياة . سواء اتصلت حبالها أو انفصمت عراها . ولا يجوز أن تكون نية الإيذاء والإعنات عنصرا من عناصرها . ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حالة الانفصال والطلاق التي تأزم فيها النفوس ، إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضية . عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن ، ويوسع من آفاق الحياة وبعدها وراء الحاضر الواقع الصغير . . هو عنصر الإيمان بالله . والإيمان باليوم الآخر . وتذكر نعمة الله في شتى صورها ابتداء من نعمة الإيمان — أرفع النعم — إلى نعمة الصحة والرزق . واستحضار تقوى الله والرجاء في العوض منه عن الزوجية الفاشلة والنفقة الضائعة . . وهذا العنصر الذي تستحضره الآيتان اللتان تتحدثان هنا عن إيثار المعروف والجميل والحسنى ، سواء اتصلت حبال الحياة الزوجية أو انفصمت عراها .

ولقد كانت المرأة في الجاهلية تلاقي من العنت مايتفق وغلظ الجاهلية وانحرافها . كانت تلقى هذا العنت طفلة توأد في بعض الأحيان ، أو تعيش في هون ومشقة وإذلال ! وكانت تلقاه زوجة هي قطعة من المتاع للرجل ، أغلى منها الناقة والفرس وأعز ! وكانت تلقاه مطلقة ،

Marfat.com

تعضل فتمنع من الزواج حتى يسمح مطلقها ويأذن ! أو يعضلها أهلها دون العودة إلى مطلقها ، إن أرادا أن يتراجعا .. وكانت النظرة إليها بصفة عامة نظرة هابطة زرية ؛ شأنها فى هذا شأن سائر الجاهليات السائدة فى الأرض فى ذلك الأوان .

ثم جاء الإسلام .. جاء ينسم على حياة المرأة هذه النسمات الرخية التى نرى هنا نماذج منها . وجاء يرفع النظرة إليها فيقرر أنها والرجل نفس واحدة من خلقة بارئها . وجاء يرتفع بالعلاقات الزوجية إلى مرتبة العبادة عند الإحسان فيها .. هذا ولم تطلب المرأة شيئا من هذا ولا كانت تعرفه . ولم يطلب الرجل شيئا من هذا ولا كان يتصوره . إنما هى الكرامة التى أفاضها الله من رحمته للجنسين جميعا ، على الحياة الإنسانية جميعا ..

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف . ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » ..

والمقصود ببلوغ الأجل هنا هو قرب انتهاء العدة التى قررها فى آية سابقة . فإذا قرب الأجل فإما رجعة على نية الإصلاح ـ والمعاملة بالمعروف ـ وهذا هو الإمساك بالمعروف .. وإما ترك الأجل يمضى فتبين الزوجة ـ وهذا هو التسريح بإحسان ، بدون إيذاء ولا طلب فدية من الزوجة وبدون عضل لها عن الزواج بمن تشاء ..

« ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » ..

وذلك كالذى روى عن الأنصارى الذى قال لامرأته : والله لا آويك ولا أفارقك ! فهذا هو الإمساك بغير إحسان . إمساك الضرار الذى لا ترضاه سماحة الإسلام . وهو الإمساك الذى تكرر النهى عنه فى هذا السياق ؛ لأنه فيما يبدو كان شائعا فى البيئة العربية : ويمكن أن يشيع فى أية بيئة لم يهذبها الإسلام ، ولم يرفها الإيمان ..

وهنا يستجيش القرآن أنبل المشاعر ؛ كما يستجيش عاطفة الحياء من الله ، وشعور الخوف منه فى آن . ويحشد هذه المؤثرات كلها ليخلص النفوس من أوضاع الجاهلية وآثارها ؛ ويرتفع بها إلى المستوى الكريم الذى يأخذ بيدها إليه :

« ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . ولا تتخذوا آيات الله هزوا . واذكروا نعمة الله

Marfat.com

عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به . واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » . .

إن الذى يمسك المطلقة ضرارا واعتداء يظلم نفسه . فهي أخته . من نفسه . فإذا ظلمها فقد ظلم نفسه . وهو يظلم نفسه بإيرادها مورد المعصية ، والجموح بها عن طريق الطاعة . . وهذه هى اللمسة الأولى .

وآيات الله التى بينها فى العشرة والطلاق واضحة مستقيمة جادة ، تقصد إلى تنظيم هذه الحياة وإقامتها على الجد والصدق ؛ فإذا هو استغلها فى إلحاق الإضرار والأذى بالمرأة ، متلاعبا بالرخص التى جعلها الله متنفسا وصمام أمن ، واستخدم حق الرجعة الذى جعله الله فرصة لاستعادة الحياة الزوجية وإصلاحها ، فى إمساك المرأة لإيذائها وإشقائها . . إذا فعل شيئا من هذا فقد اتخذ آيات الله هزوا ـ وذلك كالذى نراه فى مجتمعنا الجاهلى الذى يدعى الإسلام فى هذه الأيام ، من استخدام الرخص الفقهية وسيلة للتحايل والإيذاء والفساد . ومن استخدام حق الطلاق ذاته أسوأ استخدام ـ وويل لمن يستهزئ بآيات الله دون حياء من الله .

ويستجيش وجدان الحياء والاعتراف بالنعمة . وهو يذكرهم بنعمة الله عليهم وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة يعظهم به . . وتذكير المسلمين يومذاك بنعمة الله عليهم كان يستجيش معانى ضخمة واقعة فى حياتهم ، شاملة لهذه الحياة . .

وأول ما كان يخطر على بالهم من نعمة الله عليهم ، هو وجودهم ذاته كأمة . . فماذا كان أولئك العرب والأعراب قبل أن يأتيهم الإسلام ؟ إنهم لم يكونوا شيئا مذكورا . لم تكن الدنيا تعرفهم ولا تحس بهم . كانوا فرقا ومزقا لاوزن لها ولا قيمة . لم يكن لديهم شيء يعطونه للبشرية فتعرفهم به . بل لم يكن لديهم شيء يعطونه لأنفسهم فيغنيهم . لم يكن لديهم شيء على الإطلاق . لامادى ولا معنوى . . كانوا فقراء يعيشون فى شظف . إلا قلة منهم تعيش فى ترف ، ولكنه ترف غليظ ساذج هابط أشبه شيء بترف الأوابد التى تكثر فى أوكارها الفرائس ! وكانوا كذلك فقراء العقل والروح والضمير . عقيدتهم مهلهلة ساذجة سخيفة . وتصورهم للحياة بدائى قبلى محدود . واهتماماتهم فى الحياة لاتتعدى الغارات الخاطفة ، والثارات الحادة ، واللهو والشراب والقمار ، والمتاع الساذج الصغير على كل حال !

Marfat.com

ومن هـذه الوهدة المغلقة أطلقهم الإسلام . بل أنشأهم إنشاء . أنشأهم ومنحهم الوجود الكبير ، الذى تعرفهم به الإنسانية كلها . أعطاهم مايعطونه لهذه الإنسانية . أعطاهم العقيدة الضخمة الشاملة التى تفسر الوجود كما لم تفسره عقيدة قط ؛ والتى تمكنهم من قيادة البشرية قيادة راشدة رفيعة . وأعطاهم الشخصية المميزة بهذه العقيدة التى تجعل لهم وجودا بين الأمم والدول ، ولم يكن لهم قبلها أدنى وجود . وأعطاهم القوة التى تعرفهم بها الدنيا وتحسب لهم معها حسابا ؛ وكانوا قبلها خدما للإمبراطوريات من حولهم ، أو مهملين لا يحس بهم أحد . وأعطاهم الثروة كذلك بما فتح عليهم فى كل وجهة . . وأكثر من هذا أعطاهم السلام . سلام النفس . وسلام البيت وسلام المجتمع الذى يعيشون فيه . أعطاهم طمأنينة القلب وراحة الضمير والاستقرار على المنهج والطريق . . وأعطاهم الاستعلاء الذى ينظرون به إلى قطعان البشرية الضالة فى أرجاء الجاهلية المترامية الأطراف فى الأرض ؛ فيحسون أن الله آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين .

فإذا ذكرهم الله بالنعمة هنا ، فهم يذكرون شيئا حاضرا فى حياتهم لا يحتاج إلى طول تذكر . وهم هم أنفسهم الذين عاشوا فى الجاهلية ثم عاشوا فى الإسلام فى جيل واحد . وشهدوا هذه النقلة البعيدة التى لا تحققها إلا خارقة فوق تصور البشر . . وهم يذكرون هذه النعمة ممثلة فيما أنزل الله عليهم من الكتاب والحكمة يعظهم به . . والقرآن يقول لهم : « وما أنزل عليكم » . . بضمير المخاطب ؛ ليشعروا بضخامة الإنعام وغزارة الفيض ولصوق النعمة بأشخاصهم ، والله ينزل عليهم هذه الآيات ، التى يتألف منها المنهج الربانى ، ومنه دستور الأسرة قاعدة الحياة . .

ثم يلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة فى هذه الآية ، وهو يخوفهم الله ويذكرهم أنه بكل شىء عليم :

« واتقوا الله ، واعلموا أن الله بكل شىء عليم » . .

فيستجيش شعور الخوف والحذر ، بعد شعور الحياء والشكر . . ويأخذ النفس من أقطارها ، ليقودها فى طريق السماحة والرفق والتجمل . .

كذلك ينهاهم أن يعضلوا المطلقة ـ حين توفى العدة ـ ويمنعوها أن تتراجع مع زوجها إذا تراضيا بالمعروف :

Marfat.com

« وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف » . .

وقد أورد الترمذى عن معقل ابن يسار ، أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت عنده ما كانت . ثم طلقها تطليقة لم يراجعها ، حتى انقضت عدتها ؛ فهويها وهويته ؛ ثم خطبها مع الخطاب . فقال له : يالكع ابن لكع ! أكرمتك بها وزوجتكها ،فطلقتها. والله لاترجع إليك أبداً آخر ماعليك . قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » إلى قوله : « وأنتم لاتعلمون » . . فلما سمعها معقل قال : سمع لربى وطاعة . ثم دعاه ، فقال : أزوجك وأكرمك . .

وهذه الاستجابة الحانية من الله ـ سبحانه ـ لحاجات القلوب التى علم من صدقها ماعلم ، تكشف عن جانب من رحمة الله بعباده . . أما الآية بعمومها فيبدو فيها التيسير الذى أراده الله بالعباد ، والتربية التى أخذ بها المنهج القرآنى الجماعة المسلمة ، والنعمة التى أفاضها عليها بهذا المنهج القويم ، الذى يواجه الواقع من حياة الناس فى جميع الأحوال .

وهنا كذلك يستجيش الوجدان والضمير بعد النهى والتحذير :

« ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر . ذلكم أزكى لكم وأطهر . والله يعلم وأنتم لاتعلمون » . .

والإيمان بالله واليوم الآخر هو الذى يجعل هذه الوعظة تبلغ إلى القلوب . حين تتعلق هذه القلوب بعالم أرحب من هذه الأرض ؛ وحين تتطلع إلى الله ورضاه فيما تأخذ وما تدع . . والشعور بأن الله يريد ماهو أزكى وما هو أطهر من شأنه أن يستحث المؤمن للاستجابة ، واغتنام الزكاة والطهر . لنفسه وللمجتمع من حوله . ولمس القلب بأن الذى يختار له هذا الطريق هو الله الذى يعلم ما لا يعلمه الناس من شأنه أن يسارع به إلى الاستجابة كذلك فى رضى وفى استسلام .

وهكذا يرفع الأمر كله إلى أفق العبادة ، ويعلقه بعروة الله ، ويطهره من شوائب الأرض ، وأدران الحياة ، وملابسات الشد والجذب التى تلازم جو الطلاق والفراق . .

* * *

Marfat.com

والحكم التالى يتعلق برضاع الأطفال بعد الطلاق . .

إن دستور الأسرة لابد أن يتضمن بيانا عن تلك العلاقة التى لاتنفصم بين الزوجين بعد الطلاق . علاقة النسل الذى ساهم كلاهما فيه ، وارتبط كلاهما به ؛ فإذا تعذرت الحياة بين الوالدين فإن الفراخ الزغب لابد لها من ضمانات دقيقة مفصلة ، تستوفى كل حالة من الحالات :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . لاتكلف نفس إلا وسعها . لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده . وعلى الوارث مثل ذلك . فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلاجناح عليهما . وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم ـ إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ـ واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » . .

إن على الوالدة المطلقة واجبا تجاه طفلها الرضيع . واجبا يفرضه الله عليها ولايتركها فيه لفطرتها وعاطفتها التى قد تفسدها الخلافات الزوجية ، فيقع الغرم على هذا الصغير . إذن يكفله الله ويفرض له فى عنق أمه . فالله أولى بالناس من أنفسهم ، وأبر منهم وأرحم من والديهم . والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين ؛ لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة هى المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل .. « لمن أراد أن يتم الرضاعة » وتثبت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن فترة عامين ضرورية لينمو الطفل نموا سليما من الوجهتين الصحية والنفسية . ولكن نعمة الله على الجماعة المسلمة لم تنتظر بهم حتى يعلموا هذا من تجاربهم . فالرصيد الإنسانى من ذخيرة الطفولة لم يكن ليترك يأكله الجهل كل هذا الأمد الطويل ، والله رحيم بعباده . وبخاصة بهؤلاء الصغار الضعاف المحتاجين للعطف والرعاية .

وللوالدة فى مقابل مافرضه الله عليها حق على والد الطفل : أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والمحاسنة ؛ فكلاهما شريك فى التبعة ؛ وكلاهما مسؤول تجاه هذا الصغير الرضيع ، هى تمده باللبن والحضانة وأبوه يمدها بالغذاء والكساء لترعاه ؛ وكل منهما يؤدى واجبه فى حدود طاقته :

« لاتكلف نفس إلا وسعها » . .

ولاينبغى أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سببا لمضارة الآخر :

« لاتضار والدة بولدها ، ولامولود له بولده » . .

Marfat.com

فلايستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ، ليهددها فيه أوتقبل رضاعه بلامقابل . ولاتستغل هى عطف الأب على ابنه وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها . .

والواجبات الملقاة على الوالد تنتقل فى حالة وفاته إلى وارثه الراشد :

« وعلى الوارث مثل ذلك » . .

فهو المكلف أن يرزق الأم المرضع ويكسوها بالمعروف والحسنى . تحقيقا للتكافل العائلى الذى يتحقق طرفه بالإرث ، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال تبعات المورث .

وهكذا لايضيع الطفل إن مات والده . فحقه مكفول وحق أمه فى جميع الحالات .

وعند ما يستوفى هذا الاحتياط . . يعود إلى استكمال حالات الرضاعة . .

« فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلاجناح عليهما » . .

فإذا شاء الوالد والوالدة ، أوالوالدة والوارث ، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين ؛ لأنهما يريان مصلحة للطفل فى ذلك الفطام ، لسبب صحى أوسواه ، فلاجناح عليهما ، إذاتم هذا بالرضى بينهما ، وبالتشاور فى مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته ، المفروض عليهما حمايته .

كذلك إذا رغب الوالد فى أن يحضر لطفله مرضعا مأجورة ، حين تتحقق مصلحة الطفل فى هذه الرضاعة ، فله ذلك على شرط أن يوفى المرضع أجرها ، وأن يحسن معاملتها :

« وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلاجناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » . .

فذلك ضمان لأن تكون للطفل ناصحة ، وله راعية وواعية .

وفى النهاية يربط الأمركله بذلك الرباط الإلهى . . بالتقوى . . بذلك الشعورالعميق اللطيف الذى يكل إليه مالاسبيل لتحقيقه إلا به :

« واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » . .

فهذا هو الضمان الأكيد فى النهاية . وهذا هو الضمان الوحيد .

* * *

وبعد استيفاء التشريع للمطلقات وللآثار المتخلفة عن الطلاق يأخذ فى بيان حكم المتوفى عنها زوجها . . عدتها . وخطبتها بعد انقضاء المدة . والتعريض بالخطبة فى أثنائها :

Marfat.com

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا . فإذا بلغن أجلهن فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف . والله بما تعملون خبير .

« ولاجناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم . علم الله أنكم ستذكرونهن.ولكن لاتواعدوهن سرا ، إلا أن تقولوا قولا معروفا .ولاتعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله . واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه . واعلموا أن الله غفور حليم » . .

والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الكثير من العنت من الأهل وقرابة الزوج والمجتمع كله.. وعند العرب كانت إذامات زوجها دخلت مكانا رديئا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئا مدة سنة ، ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر جاهلية سخيفة تتفق مع سخف الجاهلية ، من أخذ بعرة وقذفها ومن ركوب دابة : حمار أوشاة . . . الخ .. فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت، بل رفعه كله عن كاهلها ؛ ولم يجمع عليها بين فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده .. وإغلاق السبيل فى وجهها دون حياة شريفة ، وحياة عائلية مطمئنة . . جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال ـ مالم تكن حاملا فعدتها عدة الحامل ـ وهى أطول قليلا من عدة المطلقة . تستبرئ فيها رحمها ، ولاتجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها . وفى أثناء هذه العدة تلبس ثيابا محتشمة ولاتتزين للخطاب . فأما بعد هذه العدة فلاسبيل لأحد عليها . سواء من أهلها أومن أهل الزوج . ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف فى حدود المعروف من سنة الله وشريعته ، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات ، ولها أن تتلقى خطبة الخطاب ، ولها أن تزوج نفسها ممن ترتضى . لاتقف فى سبيلها عادة بالية ، ولا كبرياء زائفة . وليس عليها من رقيب إلاالله :

« والله بما تعملون خبير » ..

هذا شأن المرأة .. ثم يلتفت السياق إلى الرجال الراغبين فيها فى فترة العدة ؛ فيوجههم توجيها قائما على أدب النفس ، وأدب الاجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف ، مع رعاية الحاجات والمصالح :

« ولاجناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » ..

Marfat.com

إن المرأة فى عدتها ماتزال معلقة بذكرى لم تمت ، وبمشاعر أسرة الميت ؟ ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين ، أوحمل تبين والعدة معلقة بوضعه . . وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة . لأن هذا الحديث لم يحن موعده ، ولأنه يحرج مشاعر ، ويخدش ذكريات .

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض - لاالتصريح - بخطبة النساء . أبيحت الإشارة البعيدة التى تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها .

وقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن التعريض مثل أن يقول : إنى أريد التزويج . وإن النساء لمن حاجتى . ولوددت أنه تيسر لى امرأة صالحة [(١)] » . .

كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التى لايصرح بها لاتصريحا ولاتلميحا . لأن الله يعلم أن هذه الرغبة لاسلطان لإرادة البشر عليها :

« علم الله أنكم ستذكرونهن » . .

وقد أباحها الله لأنها تتعلق بميل فطرى ، حلال فى أصله ، مباح فى ذاته، والملابسات وحدها هى التى تدعو إلى تأجيل اتخاذ الخطوة العملية فيه . والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها ، ولايكبت النوازع البشرية إنما يضبطها . ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور ، وطهارة الضمير :

« ولكن لاتواعدوهن سرا » . .

لاجناح فى أن تعرضوا بالخطبة ، أو أن تكنوا فى أنفسكم الرغبة ، ولكن المحظور هو المواعدة سرا على الزواج قبل انقضاء العدة . ففى هذا مجانبة لأدب النفس ، ومخالسة لذكرى الزوج ، وقلة استحياء من الله الذى جعل العدة فاصلا بين عهدين من الحياة .

« إلا أن تقولوا قولا معروفا » .

لانكر فيه ولا فحش ، ولا مخالفة لحدود الله التى بينها فى هذا الموقف الدقيق .

« ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » . .

ولم يقل : ولا تعقدوا النكاح . . إنما قال : « ولا تعزموا عقدة النكاح » . . زيادة فى

---

(١) أخرجه البخارى .

Marfat.com

التحرج . فالعزمة التى تنشىء العقدة هى المنهى عنها . . وذلك من نحو قوله تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » . . توحى بمعنى فى غاية اللطف والدقة .

« واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه » . .

وهنا يربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر . فللهواجس المستكنة وللمشاعر المكنونة هنا قيمتها فى العلاقات بين رجل وامرأة . تلك العلاقات الشديدة الحساسية ، العالقة بالقلوب ، الغائرة فى الضمائر . وخشية الله ، والحذر مما يحيك فى الصدور أن يطلع عليه الله هى الضمانة الأخيرة ، مع التشريع ، لتنفيذ التشريع .

فإذا هز الضمير البشرى هزة الخوف والحذر ، فصحا وارتعش رعشة التقوى والتحرج ، عاد فسكب فيه الطمأنينة لله ، والثقة بعفو الله ، وحلمه وغفرانه :

« واعلموا أن الله غفور حليم » ..

غفور يغفر خطيئة القلب الشاعر بالله ، الحذر من مكنونات القلوب . حليم لايعجل بالعقوبة فلعل عبده الخاطىء أن يتوب .

* * *

ثم يجيء حكم المطلقة قبل الدخول . وهى حالة جديدة غير حالات الطلاق بالمدخول بهن التى استوفاها من قبل . وهى حالة كثيرة الوقوع . فيبين ما على الزوجين فيها وما لهما :

« ولا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن وتفرضوا لهن فريضة . ومتعوهن — على الموسع قدره وعلى المقتر قدره — متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم . إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح . وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير » . .

والحالة الأولى : هى حالة المطلقة قبل الدخول ، ولم يكن قد فرض لها مهر معلوم . والمهر فريضة . فالواجب فى هــذه الحالة على الزوج المطلق أن يمتعها . أى أن يمنحها عطية حسبما يستطيع . ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعا من التعويض . . إن انفصام هذه العقدة من قبل ابتدائها ينشىء جفوة ممضة فى نفس المرأة ، ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة . ولكن التمتيع ينهب بهذا الجو المكفهر ، وينسم فيــه نسمات من الود والمعذرة ؛ ويخلع على

Marfat.com

الطلاق جو الأسف والأسى . فهى محاولة فاشلة إذن وليست ضربة مسددة ! ولهذا يوصى أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء للمودة الإنسانية ، واحتفاظا بالذكرى الكريمة . وفى الوقت نفسه لايكلف الزوج مالا يطيق ، فعلى الغنى بقدر غناه ، وعلى الفقير فى حدود ما يستطيع :

« على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » . .

ويلوّح بالمعروف والإحسان فيندّى بهما جفاف القلوب وا كفهرار الجو المحيط :

« متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » . . .

والحالة الثانية : أن يكون قد فرض مهرا معلوما . وفى هذه الحالة يجب نصف المهر المعلوم . هـذا هو القانون . ولكن القرآن يدع الأمر بعد ذلك للسماحة والفضل واليسر . فللزوجة - ولوليها إن كانت صغيرة - أن تعفو وتترك ما يفرضه القانون . والتنازل فى هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضى القادر العفوّ السمح ، الذى يعف عن مال رجل قد انفصمت منه عروته . ومع هذا فإن القرآن يظل يلاحق هذه القلوب كى تصفو وترف وتخلو من كل شائبة :

« وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير » . .

يلاحقها باستجاشة شعور التقوى . ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل . ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله . . ليسود التجمل والتفضل جو هـذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة . ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية . موصولة بالله فى كل حال .

* * *

وفى هـذا الجو الذى يربط القلوب بالله ، ويجعل الإحسان والمعروف فى العشرة عبادة لله ، يدس حديثا عن الصلاة - أكبر عبادات الإسلام - ولم ينته بعد من هـذه الأحكام . وقد بقى منها حكم المتوفى عنها زوجها وحقها فى وصية تسمح لها بالبقاء فى بيته والعيش من ماله ، وحكم المتاع للمطلقات بصفة عامة - يدس الحديث عن الصلاة فى هذا الجو ؛ فيوحى بأن الطاعة لله فى كل هـذا عبادة كعبادة الصلاة ، ومن جنسها . وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن . وهو يتسق مع التصور الإسلامى لغاية الوجود الإنسانى فى قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر ، بل شاملة لكل نشاط ، الاتجاه فيه إلى الله ، والغاية منه طاعة الله :

Marfat.com

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا . فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون » ..

والأمر هنا بالمحافظة على الصلوات ، يعنى إقامتها فى أوقاتها ، وإقامتها صحيحة الأركان ، مستوفية الشرائط . أما الصلاة الوسطى فالأرجح من مجموع الروايات أنها صلاة العصر لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا » (١) .. وتخصيصها بالذكر ربما لأن وقتها يجىء بعد نومة القيلولة ، وقد تفوت المصلى ..

والأمر بالقنوت ، الأرجح أنه يعنى الخشوع لله والتفرغ لذكره فى الصلاة . وقد كانوا يتكلمون فى أثناء الصلاة فيما يعرض لهم من حاجات عاجلة ، حتى نزلت هذه الآية فعلموا منها أن لا شغل فى الصلاة بغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره .

فأما إذا كان الخوف الذى لايدع مجالا لإقامة الصلاة تجاه القبلة ، فإن الصلاة تؤدى ولا تتوقف . يتجه الراكب على الدابة والراجل المشغول بالقتال ودفع الخطر حيث يقتضيه حاله ، ويومىء إيماءة خفيفة للركوع والسجود . وهذه غير صلاة الخوف التى بين كيفيتها فى سورة النساء . فالمبينة فى سورة النساء تتم فى حالة ما إذا كان الموقف يسمح بإقامة صف من المصلين يصلى ركعة خلف الإمام بينما يقف وراءه صف يحرسه . ثم يجىء الصف الثانى فيصلى ركعة بينما الصف الأول الذى صلى أولا يحرسه . . أما إذا زاد الخوف وكانت الموقعة والمسايفة فعلا ، فتكون الصلاة المشار إليها هنا فى سورة البقرة .

وهذا الأمر عجيب حقا . وهو يكشف عن مدى الأهمية البالغة التى ينظر الله بها إلى الصلاة ، ويوحى بها لقلوب المسلمين . إنها عدة فى الخوف والشدة . فلا تترك فى ساعة الخوف البالغ ، وهى العدة . ومن ثم يؤديها المحارب فى الميدان ، والسيف فى يده ، والسيف على رأسه . يؤديها فهى سلاح للمؤمن كالسيف الذى فى يده . وهى جنة له كالدرع التى تقيه . يؤديها فيتصل بربه أحوج ما يكون للاتصال به ، وأقرب ما يكون إليه والمخافة من حوله . .

إن هذا الدين عجيب . إنه منهج العبادة . العبادة فى شتى صورها والصلاة عنوانها ، وعن

(١) أخرجه مسلم

Marfat.com

طريق العبادة يصل بالإنسان إلى أرفع درجاته . وعن طريق العبادة يثبته فى الشدة ، ويهذبه فى الرخاء . وعن طريق العبادة يدخله فى السلم كافة ويفيض عليه السلام والاطمئنان . . ومن ثم هذه العناية بالصلاة والسيوف فى الأيدى وفى الرقاب !

فإذا كان الأمن فالصلاة المعروفة التى علمها الله للمسلمين ، وذكر الله جزاء ماعلمهم مالم يكونوا يعلمون :

« فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون » . .

وماذا كان البشر يعلمون لولا أن علمهم الله ؟ ولولا أنه يعلمهم فى كل يوم وفى كل لحظة طوال الحياة ؟ !

* * *

وتؤدى هذه اللمسة دورها فى مجال الحديث عن أحكام الزواج والطلاق ؛ وفى تقرير التصور الإسلامى لقاعدة الإسلام الكبرى . وهى العبادة ممثلة فى كل طاعة . ثم يعود السياق إلى ختام الأحكام :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا : وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج . فإن خرجن فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم . وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين . . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » . .

والآية الأولى تقرر حق المتوفى عنها زوجها فى وصية منه تسمح لها بالبقاء فى بيته والعيش من ماله ، مدة حول كامل ، لاتخرج ولاتتزوج إن رأت من مشاعرها أومن الملابسات المحيطة بها مايدعوها إلى البقاء . . وذلك مع حريتها فى أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذى قررته آية سابقة . فالعدة فريضة عليها . والبقاء حولا حق لها . . وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتلك . ولاضرورة لافتراض النسخ . لاختلاف الجهة كما رأينا . فهذه تقرر حقا لها إن شاءت استعملته . وتلك تقرر حقا عليها لامفر منه :

« فإن خرجن فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » . .

وكلمة « عليكم » توحى بمعنى الجماعة المتضامنة المسؤولة عن كل مايقع فيها . فالجماعة هى التى يناط بها أمر هذه العقيدة وأمر هذه الشريعة وأمر كل فرد وكل فعل فى محيطها . وهى

Marfat.com

التى يكون عليها جناح فيما يفعل أفرادها أو لا يكون .. ولهذا الإيحاء قيمته فى إدراك حقيقة الجماعة المسلمة وتبعاتها، وفى ضرورة قيام هذه الجماعة لتقوم على شريعة الله وتحرسها من خروج أى فرد عليها . فهى المسؤولة فى النهاية عن الأفراد فى الصغيرة والكبيرة . والخطاب يوجه إليها بهذه الصفة لتقرير هذه الحقيقة فى حسها وفى حس كل فرد فيها .. والتعقيب :

« والله عزيز حكيم » ..

للفت القلوب إلى قوة الله . وحكمته فيما يفرض وما يوجه . وفيه معنى التهديد والتحذير ..

والآية الثانية تقرر حق المتاع للمطلقات عامة، وتعلق الأمر كله بالتقوى :

« وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » .

وبعضهم يرى أنها منسوخة كذلك بالأحكام السابقة . . ولا حاجة لافتراض النسخ . فالمتاع غير النفقة . . ومما يتمشى مع الإيحاءات القرآنية فى هذا المجال تقرير المتعة لكل مطلقة . المدخول بها وغير المدخول بها . المفروض لها مهرا وغير المفروض لها . لما فى المتعة من تندية لجفاف جو الطلاق ، وترضية للنفوس الموحشة بالفراق . وفى الآية استجاشة لشعور التقوى ، وتعليق الأمر به . وهى الضمان الأكيد والضمان الوحيد .

والآية الثالثة تعقيب على الأحكام السابقة جميعا :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ..

كذلك .. كهذا البيان الذى سلف فى هذه الأحكام .. وهو بيان محكم دقيق موح مؤثر .. كذلك يبين الله لكم آياته عسى أن تقودكم إلى التعقل والتدبر فيها ، وفى الحكمة الكامنة وراءها ، وفى الرحمة المتمثلة فى ثناياها ، وفى النعمة التى تتجلى فيها . نعمة التيسير والسماحة ، مع الحسم والصرامة ، ونعمة السلام الذى يفيض منها على الحياة .

ولو تعقل الناس وتدبروا هذا المنهج الإلهى لكان لهم معه شأن .. هو شأن الطاعة والاستسلام والرضى والقبول .. والسلام الفائض فى الأرواح والعقول ..

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ :

Marfat.com

مُوتُوا . ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ : ابْعَثْ لَنَا
مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟
قَالُوا : وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا . قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ
لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ؟ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي – إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ – فَشَرِبُوا مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ . فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ ! قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

« وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا »

Marfat.com

وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » (٢٥٢)

ندرك قيمة هـذا الدرس . ومايتضمنه من تجارب الجماعات السابقة والأمم الغابرة ، حين نستحضر فى أنفسنا أن القرآن هو كتاب هـذه الأمة الحى ؛ ورائدها الناصح ؛ وأنه هو مدرستها التى تلقت فيها دروس حياتها. وأن الله ــ سبحانه ــ كان يربى به الجماعة المسلمة الأولى التى قسم لها إقامة منهجه الربانى فى الأرض ، وناط بها هذا الدور العظيم بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم . وأنه ــ تعالى ــ أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحى ــ الباقى بعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لقيادة أجيال هذه الأمة ، وتربيتها ، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذى وعدها به ، كلما اهتدت بهديه ، واستمسكت بعهدها معه ، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن ، واستعزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية . وهى بصفتها هـذه ، مناهج الجاهلية !

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى . . ولكنه دستور شامل . . دستور للتربية ، كما أنه دستور للحياة العملية ، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التى جاء لينشئها ويربيها ؛ وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية فى الأرض من لدن آدم ــ عليه السلام ــ وقدمها زادا للأمة المسلمة فى جميع أجيالها . تجاربها فى الأنفس ، وتجاربها فى واقع الحياة . كى تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها ، وهى تتزود لها بذلك الزاد الضخم ، وذلك الرصيد المتنوع .

ومن ثم جاء القصص فى القرآن بهذه الوفرة ، وبهذا التنوع ، وبهذا الإيحاء . . وقصص بنى إسرائيل هو أكثر القصص ورودا فى القرآن الكريم ، لأسباب عدة ، ذكرنا بعضها فى

Marfat.com

الجزء الأول من الظلال عند استقبال أحداث بنى إسرائيل ؛ وذكرنا بعضها فى هذا الجزء فى مناسبات شتى ـ وبخاصة فى أوله ـ ونضيف إليها هنا مانرجحه .. وهو أن الله ـ سبحانه ـ علم أن أجيالا من هـذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتى مر فيها بنو إسرائيل ؛ وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بنى إسرائيل ؛ فعرض عليها مزالق الطريق ، مصورة فى تاريخ بنى إسرائيل ، لتكون لها عظة وعبرة ؛ ولترى صورتها فى هـذه المرآة المرفوعة لها بيد الله ـ سبحانه ـ قبل الوقوع فى تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق !

إن هذا القرآن ينبغى أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعى . وينبغى أن يتدبر على أنه توجيهات حية ، تتنزل اليوم ، لتعالج مسائل اليوم ، ولتنير الطريق إلى المستقبل . لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل ؛ أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود !

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة فى يومنا وفى غدنا ؛ كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر فى شؤون حياتها الواقعة . . وحين نقرأ القرآن بهذا الوعى سنجد عنده ما نريد . وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهى ! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق ؛ وتقول لنا : هذا فافعلوه وهـذا لا تفعلوه . وتقول لنا : هذا عدو لكم وهذا صديق . وتقول لنا : كذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة . وتقول لنا حديثا طويلا مفصلا دقيقا فى كل ما يعرض لنا من الشؤون . . وسنجد عندئذ فى القرآن متاعا وحياة ؛ وسندرك معنى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» .. فهى دعوة للحياة .. للحياة الدائمة المتجددة . لا لحياة تاريخية محدودة فى صفحة عابرة من صفحات التاريخ .

* * *

هـذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم ؛ يضمهما إلى ذخيرة هـذه الأمة من التجارب ؛ ويعد بهما الجماعة المسلمة لما هى معرضة له فى حياتها من المواقف ؛ بسبب قيامها بدورها الكبير ، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية ، ووارثة التجارب فى هذا الحقل الخصيب .

والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ؛ ويعرضها فى اختصار كامل ، ولكنه واف . فهى تجربة جماعة « خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » .. فلم ينفعهم الخروج والفرار

Marfat.com

والحذر ؛ وأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذرا منه . . فقال لهم الله : « موتوا » .. « ثم أحياهم » .. لم ينفعهم الجهد فى اتقاء الموت ، ولم يبذلوا جهدا فى استرجاع الحياة . وإنما هو قدر الله فى الحالين .

وفى ظل هـذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله . واهب الحياة . وواهب المال . والقادر على قبض الحياة وقبض المال .

والثانية تجربة فى حيـاة بنى إسرائيل من بعد موسى .. بعد ما ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم ، وذلوا لأعدائهم ، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم ، وتعاليم نبيهم .. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة ؛ واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ؛ واشتاقوا القتال فى سبيل الله . فقالوا : « لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » .

ومن خلال هذه التجربة ـ كما يعرضها السياق القرآنى الموحى ـ تبرز جملة حقائق ، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيـل ، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة فى ذلك الحين .

والعبرة الـكلية التى تبرز من القصة كلها هى أن هـذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل مااعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق ـ على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا .. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين ، بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان ـ وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ؛ والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الـكبرى .. وكان هـذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ؛ وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت !

وفى خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين :

من ذلك . . أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بظاهرها . فيجب أن يضعوها

Marfat.com

على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة . . فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل – من ذوى الرأى والمكانة فيهم – إلى نبيهم فى ذلك الزمان ، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم ، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! » استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له : « ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ » . . ولكن هذه الحماسة البالغة مالبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة ؛ وكما يقول السياق بالإجمال : « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم » . . ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد ، والنكوص عن الوعد ، والتفرق فى منتصف الطريق . . إلا أن هذه الظاهرة هى ظاهرة بشرية على كل حال ، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب . . وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل . . فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر فى نفوس الجماعات ينبغى أن لايقف عند الابتلاء الأول . . فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم . ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها . وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة ؛ ووقوع علامة الله باختياره لهم ، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة . . . ! ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى . وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم : « فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر : فمن شرب منه فليس منى . ومن لم يطعمه فإنه منى – إلا من اغترف غرفة بيده – فشربوا منه إلا قليلا منهم » .. وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية . فأمام الهول الحى ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب : « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة .. اعتصمت بالله ووثقت ، ، وقالت : « كم من فئة قليلة غلبت فئة

Marfat.com

كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .. وهذه هى التى رجحت الكفة ، وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين .

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة .. وكلها واضحة فى قيادة طالوت . تبرز منها خبرته بالنفوس ؛ وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ؛ ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه .. ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ؛ ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة . فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ، ووعد الله الصادق للمؤمنين .

والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة .. أن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته ؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود . فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر ، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها مايراه الآخرون الذين قالوا : « لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » .. ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنما حكمت حكماً آخر ، فقالت : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » . . ثم اتجهت لربها تدعوه : « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .. وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين ، إنما هو فى يد الله وحده . فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه .. وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا ، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون !

ولا نستوعب الإيحاءات التى تتضمنها القصة . فالنصوص القرآنية ـ كما علمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ماهو فيه من الشأن ؛ وبقدر حاجته الظاهرة فيه . ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب ، فى شتى المواقف ، على قدر مقسوم . .

فنخلص إذن من هذا العرض العام إلى تفصيل النصوص :

* * *

Marfat.com

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ فقال لهم الله : موتوا . ثم أحياهم . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون » . .

لا أحب أن نذهب فى تيه التأويلات ، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . . من هم ؟ وفى أى أرض كانوا ؟ وفى أى زمان خرجوا ؟ . . . فلو كان الله يريد بيانا عنهم لبين ؛ كما يجيء القصص المحدد فى القرآن . إنما هذه عبرة وعظة يراد مغزاها ، ولا يراد أحداثها وأماكنها وأزمانها . وتحديد الأماكن والأزمان لايزيد هنا شيئا على عبرة القصة ومغزاها . .

إنما يراد هنا تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة ؛ ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدر الله فيهما . والمضى فى حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع ، فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله فى نهاية المطاف . .

يراد أن يقال : إن الحذر من الموت لايجدى ؛ وإن الفزع والهلع لايزيدان حياة ، ولا يمدان أجلا ، ولا يردان قضاء ؛ وإن الله هو واهب الحياة ، وهو آخذ الحياة ؛ وإنه متفضل فى الحالتين : حين يهب ، وحين يسترد ؛ والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد . وإن مصلحة الناس متحققة فى هذا وذاك ؛ وإن فضل الله عليهم متحقق فى الأخذ والمنح سواء :

« إن الله لذو فضل على الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون » .

إن تجمع هؤلاء القوم « وهم ألوف » وخروجهم من ديارهم « حذر الموت » . . لايكون إلا فى حالة هلع وجزع ، سواء كان هذا الخروج خوفا من عدو مهاجم ، أو من وباء حائم .

إن هذا كله لم يغن عنهم من الموت شيئا :

« فقال لهم الله . . موتوا » . .

كيف قال لهم ؟ كيف ماتوا ؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا ؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا ؟ كل ذلك لم يرد عنه تفصيل ، لأنه ليس موضع العبرة . إنما موضع العبرة أن الفزع والجزع والخروج والحذر ، لم تغير مصيرهم ، ولم تدفع عنهم الموت ، ولم ترد عنهم قضاء الله . وكان الثبات والصبر والتجمل أولى لو رجعوا لله . .

Marfat.com

« ثم أحياهم » ..

كيف ؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة ؟ هل خلف من ذريتهم خلف تمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء ؟ . . ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل . فلا ضرورة لأن نذهب وراءه فى التأويل ، لئلا نتيه فى أساطير لاسند لها كما جاء فى بعض التفاسير . . إنما الإيحاء الذى يتلقاه القلب من هذا النص أن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم . فى حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم .

إن الهلع لايرد قضاء ؛ وإن الفزع لايحفظ حياة ؛ وإن الحياة بيدالله هبة منه بلاجهد من الأحياء .. إذن فلانامت أعين الجبناء !

* * *

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » . .

هنا ندرك طرفا من هدف تلك الحادثة ومغزاها ؛ وندرك طرفا من حكمةالله فى سوق هذه التجربة للجماعة المسلمة فى جيلها الأول وفى أجيالها جميعا . . ألا يقعدن بكم حب الحياة ، وحذر الموت ، عن الجهاد فى سبيل الله . فالموت والحياة بيد الله . قاتلوا فى سبيل الله لافى سبيل غاية أخرى . وتحت راية الله لاتحت راية أخرى .. قاتلوا فى سبيل الله :

« واعلموا أن الله سميع عليم » ..

يسمع ويعلم .. يسمع القول ويعلم ماوراءه.أويسمع فيستجيب ويعلم مايصلح الحياة والقلوب. قاتلوا فى سبيل الله وليس هناك عمل ضائع عندالله ، واهب الحياة وآخذ الحياة .

والجهاد فى سبيل الله بذل وتضحية . وبذل المال والإنفاق فى سبيل الله يقترن فى القرآن غالبا بذكر الجهاد والقتال . وبخاصة فى تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعا ، والمجاهد ينفق على نفسه ، وقد يقعد به المال حين لا يقعد به الجهد ؛ فلم يكن بد من الحث المستمر على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين فى سبيل الله . وهنا تجىء الدعوة إلى الإنفاق فى صورة موحية دافعة :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، وإليه ترجعون » ..

Marfat.com

وإذا كان الموت والحياة بيدالله ، والحياة لاتذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء ، فكذلك المال لايذهب بالإنفاق . إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده ، يضاعفه أضعافا كثيرة . يضاعفه فى الدنيا مالا وبركة وسعادة وراحة ؛ ويضاعفه فى الآخرة نعيما ومتاعا ، ورضى وقربى من الله .

ومرد الأمر فى الغنى والفقر إلى الله ، لاإلى حرص وبخل ؛ ولاإلى بذل وإنفاق :

« والله يقبض ويبسط » ..

والمرجع إليه سبحانه فى نهاية المطاف . فأين يكون المال والناس أنفسهم راجعون بقضهم وقضيضهم إلى الله :

« وإليه ترجعون » ..

وإذن فلافزع من الموت ، ولاخوف من الفقر ، ولامحيد عن الرجعة إلى الله . وإذن فليجاهد المؤمنون فى سبيل الله ، وليقدموا الأرواح والأموال ؛ وليستيقنوا أن أنفاسهم معدودة ، وأن أرزاقهم مقدرة ، وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة . ومردهم بعد ذلك إلى الله ..

* * *

ولايفوتنى بعد تقرير تلك الإيحاءات الإيمانية التربوية الكريمة التى تضمنتها الآيات .. أن ألم بذلك الجمال الفنى فى الأداء :

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟ »..إن فى التعبير استعراضا لهذه الألوف ولهذه الصفوف . استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان : « ألم تر ؟ » .. وأى تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هــذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان فى موضعهما المختار .

ومن مشهد الألوف المؤلفة ، الحذرة من الموت ، المتلفتة من الذعر ؛ إلى مشهد الموت المطبق فى لحظة ؛ ومن خلال كلمة : « موتوا » .. كل هذا الحذر ، وكل هــذا التجمع ، وكل هــذه المحاولة .. كلها ذهبت هباء فى كلمة واحدة : « موتوا » .. ليلقى ذلك فى الحس عبث المحاولة ، وضلالة المنهج ؛ كما يلقى صرامة القضاء ، وسرعة الفصل عند الله .

Marfat.com

« ثم أحياهم » . . هكذا بلا تفصيل للوسيلة . . إنها القدرة المالكة زمام الموت وزمام الحياة . المتصرفة فى شؤون العباد ، لاترد لها إرادة ولا يكون إلا ماتشاء .. وهـذا التعبير يلقى الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة .

ونحن فى مشهد إماتة وإحياء . قبض للروح وإطلاق . . فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير : « والله يقبض ويبسط » . . متناسقا فى الحركة مع قبض الروح وإطلاقها فى إيجاز كذلك واختصار .

وكذلك يبدو التناسق العجيب فى تصوير المشاهد ، إلى جوار التناسق العجيب فى إحياء المعانى وجمال الأداء . .

* * *

ثم يورد السياق التجربة الثانية ، وأبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى :

« ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين » . .

ألم تر ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور . . لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل ، من كبرائهم وأهل الرأى فيهم — إلى نبي لهم . ولم يرد فى السياق ذكر اسمه ، لأنه ليس المقصود بالقصة،وذكره هنا لايزيد شيئا فى إيحاء القصة، وقدكان لبنىإسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون فى تاريخهم الطويل . . لقد اجتمعوا إلى نبي لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته « فى سبيل الله » . . وهـذا التحديد منهم لطبيعة القتال ، وأنه فى « سبيل الله » يشى بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم ، ويقظة الإيمان فى نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد فى سبيل الله . وهذا الوضوح وهـذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر . فلا بد للمؤمن أن يتضح فى

Marfat.com

حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل ؛ ولا بد أن يتجرد فى حسه الهدف . . فى سبيل الله . . فلا يغشيه الغبش الذى لايدرى معه إلى أين يسير .

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم ، وثبات نيتهم ، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر :

« قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ! » . .

ألا ينتظر أن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم ؟ فأنتم الآن فى سعة من الأمر . فأما إذا استجيبت لكم ، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة ؛ ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . . إنها الكلمة اللائقة بنبي ، والتأكد اللائق بنبي . فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ .

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة ؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال فى سبيل الله مايجعل القتال هو الأمر المتعين الذى لاتردد فيه :

« قالوا : ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ » . .

ونجد أن الأمر واضح فى حسهم ، مقرر فى نفوسهم . . إن أعداءهم أعداء لله ولدين الله . وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم . فقتالهم واجب ؛ والطريق الواحدة التى أمامهم هى القتال ؛ ولا ضرورة إلى المراجعة فى هذه العزيمة أو الجدال .

ولكن هـــذه الحماسة الفائرة فى ساعة الرخاء لم تدم . ويعجل السياق بكشف الصفحة التالية :

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم » . .

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل فى نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولى عن الحق البين . . ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لاتنضج تربيتها الإيمانية ؛ فهى سمة بشرية عامة لاتغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير . وهى — من ثم — سمة ينبغى للقيادة أن تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها فى الطريق الوعر ، كى لاتفاجأ بها ، فيتعاظمها الأمر ا

Marfat.com

فهى متوقعة من الجماعات البشرية التى لم تخلص من الأوشاب ، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل .

والتعقيب على هذا التولى :

« والله عليم بالظالمين » . .

وهو يشى بالاستنكار ؛ ووصم الكثرة التى تولت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية . . وصمها بالظلم . فهى ظالمة لنفسها ، وظالمة لنبيها ، وظالمة للحق الذى خذلته وهى تعرف أنه الحق ، ثم تتخلى عنه للمبطلين !

إن الذى يعرف أنه على الحق ، وأن عدوه على الباطل ـ كما عرف الملأ من بنى إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا « فى سبيل الله » . . ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذى عرفه فى وجه الباطل الذى عرفه . . إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم . . « والله عليم بالظالمين » . .

* * *

« وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء . والله واسع عليم » . .

وفى هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التى وردت الإشارات إليها كثيرة فى هذه السورة . . لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه . ولقد قالوا : إنهم يريدون أن يقاتلوا « فى سبيل الله » . فهاهم أولاء ينغضون رؤوسهم ، ويلوون أعناقهم ، ويجادلون فى اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ؛ ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذى بعثه الله لهم ـ ملكا عليهم . لماذا ؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة . فلم يكن من نسل الملوك فيهم ! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضى عن أحقية الوراثة ! . . وكل هذا غبش فى التصور ، كما أنه من سمات بنى إسرائيل المعروفة . .

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية ، وعن حكمة الله فى اختياره :

Marfat.com

« قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء . والله واسع عليم » . .

إنه رجل قد اختاره الله . . فهذه واحدة . . وزاده بسطة فى العلم والجسم . . وهذه أخرى.. والله « يؤتى ملكه من يشاء » .. فهو ملكه ،وهو صاحب التصرف فيه ، وهو يختار من عباده من يشاء . . « والله واسع عليم » . . ليس لفضله خازن وليس لعطائه حد . وهو الذى يعلم الخير ، ويعلم كيف توضع الأمور فى مواضعها . .

وهى أمور من شأنها أن تصحح التصوّر المشوش ، وأن تجلو عنه الغبش . . ولكن طبيعة إسرائيل ــ ونبيها يعرفها ــ لاتصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها . وهم مقبلون على معركة . ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين :

« وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ، فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » . .

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة ــ التى غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى ــ عليه السلام ــ قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة فى التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . وقيل : كانت فيه نسخة الألواح التى أعطاها الله لموسى على الطور . . فجعل لهم نبيهم علامة من الله ، أن تقع خارقة يشهدونها ، فيأتيهم التابوت بما فيه « تحمله الملائكة » فتفيض على قلوبهم السكينة . . وقال لهم : إن هذه الآية تكفى دلالة على صدق اختيار الله لطالوت ، إن كنتم حقا مؤمنين . .

ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت ، فانتهى القوم منها إلى اليقين .

* * *

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق . . والسياق القرآنى على طريقته فى سياقة القصص (١) يترك هنا فجوة بين المشهدين . فيعرض المشهد التالى مباشرة وطالوت خارج بالجنود :

---

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن . فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

Marfat.com

« فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى ــ إلا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه إلا قليلا منهم » . .

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله فى اصطفاء هــذا الرجل . . إنه مقدم على معركة ؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لاتكون إلا فى الإرادة . الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلى على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . . فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره : صموده أولا للرغبات والشهوات ، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب . . واختار هــذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش . ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية . . وصحت فراسته :

« فشربوا منه إلا قليلا منهم » . .

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ولكنها لاتشى بالرغبة فى التخلف ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم . انفصلوا عنه لأنهم لايصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم . وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف ، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد ، والإرادة الجازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق .

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى ؛ ولا بد من التجربة العملية ، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها . ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذى لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى . . بل مضى فى طريقه .

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ــ إلى حد ــ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد :

« فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » . .

Marfat.com

لقد صاروا قلة . وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته : بقيادة جالوت . إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم . ولكنهم هنا أمام الواقع الذى يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته . إنها التجربة الحاسمة . تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور . وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم ، فاتصلت بالله قلوبهم ؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التى يستمدها الناس من واقع حالهم !

وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين الربانية :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . والله مع الصابرين » . .

هكذا . . « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » . . بهذا التكثير . فهذه هى القاعدة فى حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة . قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزى الظالمين وقاهر المتكبرين .

وهم يكلون هذا النصر لله : « بإذن الله » . . ويعللونه بعلته الحقيقية : « والله مع الصابرين » . . فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونمضى مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة فى الله ، وأنه مع الصابرين . . إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقلتها . . إذا هذه الفئة هى التى تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهى تواجه الهول الرعيب :

« ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء » . .

Marfat.com

هكذا . . « ربنا أفرغ علينا صبرا » . . وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يفرغه عليهم فيغمرهم ، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة . « وثبت أقدامنا » .. فهى فى يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد . « وانصرنا على القوم الكافرين » .. فقد وضح الموقف .. إيمان تجاه كفر . وحق إزاء باطل . ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين . فلا تلجلج فى الضمير ، ولا غبش فى التصور ، ولا شك فى سلامة القصد ووضوح الطريق .

وكانت النتيجة هى التى ترقبوها واستيقنوها : « فهزموهم بإذن الله » . . ويؤكد النص هذه الحقيقة : « بإذن الله » . . ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما . وليتضح التصور الكامل لحقيقة مايجرى فى هذا الكون ، ولطبيعة القوة التى تجريه . . إن المؤمنين ستار القدرة ؛ يفعل الله بهم مايريد ، وينفذ بهم مايختار . . بإذنه . . ليس لهم من الأمر شىء ، ولا حول لهم ولا قوة ؛ ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته ، فيكون منهم مايريده بإذنه . . وهى حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين . . إنه عبد الله . اختاره الله لدوره . وهذه منة من الله وفضل . وهو يؤدى هذا الدور المختار ، ويحقق قدر الله النافذ . ثم يكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب . . ولولا فضل الله مافعل ، ولولا فضل الله ماأثيب . . ثم إنه مستيقن من نبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق . . فليس له فى شىء من هذا كله أرب ذاتى ، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة قائم بما يريد . استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله فى خلوص .

ويبرز السياق دور داود :

« وقتل داود جالوت » . .

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل . وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا .. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لاتجرى بظواهرها ، إنما تجرى بحقائقها . وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها فى يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ، ويفوا لله بعهدهم . ثم يكون مايريده الله بالشكل الذى يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد

Marfat.com

هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . . وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله . فلقد قدر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان ، فيكون عهده هو العهد الذهبي لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل ؛ جزاء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود :

« وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » . .

* * *

وكان داود ملكا نبيا ، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن فى مواضعه فى سور أخرى . . أما فى هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعا . . وحين ينتهى إلى هذه الخاتمة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية . . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى . . إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات . . إنما هو الصلاح فى الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين » . .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا فى الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعى فى تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار . وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس ، فى تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات . . ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح والنماء ، فى نهاية المطاف . .

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض . ولولا أن فى طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة ؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ؛ فتنفض عنها الكسل والخمول ؛ وتستجيش مافيها من مكنونات

Marfat.com

مذخورة ؛ وتظل أبدا يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة . . وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء . . يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة . تعرف الحق الذى بينه الله لها . وتعرف طريقها إليه واضحا . وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق فى الأرض . وتعرف أن لانجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل؛ وإلا أن تحتمل فى سبيله ماتحتمل فى الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه . .

وهنا يمضى الله أمره ، وينفذ قدره ، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هى العليا ؛ ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع فى يد القوة الخيرة البانية ، التى استجاش الصراع أنبل مافيها وأكرمه ، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها فى الحياة .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب فى النهاية وتنتصر . ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا فى دفع الفساد عن الأرض ؛ وتمكين الصلاح فى الحياة . إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار .

* * *

وفى النهاية يجىء التعقيب الأخير على القصة :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين » . .

تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات « نتلوها عليك » . . الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يتلوها . وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة . . « نتلوها عليك بالحق » . . تحمل معها الحق . ويتلوها من يملك حق تلاوتها وتنزيلها ، وجعلها دستورا للعباد . وليس هذا الحق لغير الله سبحانه . فكل من يسن للعباد منهجا غيره إنما هو مفتات على حق الله ، ظالم لنفسه وللعباد ، مدع مالا يملك ، مبطل لايستحق أن يطاع . فإنما يطاع أمر الله . وأمر من يهتدى بهدى الله . . دون سواه . .

« وإنك لمن المرسلين » . .

ومن ثم نتلو عليك هذه الآية ؛ ونزودك بتجارب البشرية كلها فى جميع أعصارها ؛ وتجارب الموكب الإيمانى كله فى جميع مراحله ؛ ونورثك ميراث المرسلين أجمعين . .

* * *

Marfat.com

بهذا ينتهى هـذا الدرس القيم الحافل بذخيرة التجارب . وبهذا ينتهى هـذا الجزء الذى طوّف بالجماعة المسلمة فى شتى المجالات وشتى الاتجاهات ؛ وهو يربيها ويعدها للدور الخطير ، الذى قدره الله لها فى الأرض ، وجعلها قيمة عليـه ، وجعلها أمة وسطا تقوم على الناس بهـذا المنهج الربانى ـ إلى آخر الزمان .

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبدوءا بقوله تعالى : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض

Marfat.com

فی ظلال القرآن

بقلم

سید قطب

الجزء الثالث

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة البقرة وأول سورة آل عمران

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء الثالث مؤلف من شطرين : الشطر الأول تتمة سورة البقرة التي استغرقت الجزءين الأولين . والشطر الثاني أوائل سورة آل عمران . . وسنتحدث هنا ـ إجمالا ـ عن الشطر الأول . أما الشطر الثاني فسيجيء الحديث عنه عند استعراض سورة آل عمران إن شاء الله .

وهذه البقية الباقية من سورة البقرة هي استطراد في موضوعها الرئيسي الذي شرحناه في مطلع الجزء الأول ؛ والذي ظللنا نطالعه في سياق السورة حتى نهاية الجزء الثاني . وهو إعداد الجماعة المسلمة في المدينة لتنهض بتكاليف الأمة المسلمة . . تنهض بها وقد تهيأت لهذه الأمانة الضخمة بالتصور الإيماني الصحيح ؛ وزودت بتجارب الأمة المؤمنة على مدار الرسالات السابقة ؛ وعرفت زاد الطريق كما عرفت مزالق الطريق ؛ وحذرت كيد أعدائها . . أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإيمان . . لتكون منهم على بينة في كل مراحل الطريق .

وهذا الإعداد بكل وسائله ، وبكل زاده وتجاربه ، وبكل أهدافه وغاياته . . هو هو الذي يعالج به القرآن الكريم أجيال الجماعة المسلمة على مدار الزمان بعد الجيل الأول . فهو المنهج الثابت الواضح المستقر لإنشاء الجماعة المسلمة ، ولقيادة الحركة الإسلامية في كل جيل . والقرآن من ثم أداة حية متحركة فاعلة ؛ ودستور شامل عامل في كل وقت ؛ بل هو قيادة راشدة لمن يطلب عندها الرشد والهدى والنصيحة في كل موقف وفي كل خطوة وفي كل جيل .

* * *

هذه البقية تأتي بعد قول الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نهاية الجزء الثاني من السورة : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وإنك لمن المرسلين » . . وذلك تعقيبا على قصة الملإ « من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله » . . والتي جاء في نهايتها : « وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء » . .

Marfat.com

فنهاية الجزء الثانى كانت حديثا عن قوم موسى ، وكانت حديثا عن داود ــ عليهما السلام ــ وكانت كذلك إشارة إلى رسالة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلى تزويده بتجارب « المرسلين » .

ومن ثم يبدأ الجزء الثالث بعد هذا حديثا ملتحما بما قبله عن الرسل ، وتفضيل الله بعضهم على بعض ، وخصائص بعضهم ، ورفع بعضهم درجات . . وحديثا عن اختلاف من جاء بعدهم من أتباعهم ، وقتال بعضهم لبعض : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كلم الله . ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . ولو شاء الله ماقتتل الذين من بعدهم ، من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله ماقتتلوا ؛ ولكن الله يفعل مايريد » . .

ومناسبة هذا الاستطراد واضحة فى الحديث عن الرسل بين أواخر الجزء الثانى وأوائل هذا الجزء الثالث . . والمناسبة كذلك واضحة فى سياق السورة كله . فمعظم الجدل فى السياق كان بين الجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة وبين بنى إسرائيل ــ كما هو واضح من خلال الجزءين الأولين ــ ومن ثم يجىء الحديث هنا عن اختلاف أتباع الرسل من بعدهم واقتتالهم ــ بعد ما كفر منهم من كفر وآمن منهم من آمن ــ يجىء الحديث عن هذا الاختلاف والاقتتال فى موضعه المناسب . لتمضى الأمة المسلمة فى طريقها ، تواجه بنى إسرائيل وغيرهم وفق مايقتضيه الموقف الواقعى بين أتباع الرسل : المستقيمين على الهدى والمنحرفين عن الطريق . ولتنهض هذه الأمة بتبعاتها ، فهى الجماعة المهتدية التى ينبغى أن تكافح المنحرفين .

لهذا يعقب ذلك البيان عن الرسل وأتباعهم والاختلاف والاقتتال دعوة حارة إلى الإنفاق « من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » . . فالإنفاق هو فريضة المال الملازمة لفريضة الجهاد فى جميع الأحوال ؛ وبخاصة فى الحالة التى كانت فيها الجماعة المسلمة ، التى يتجهز فيها الغزاة فى سبيل الله من مالهم ومن مال المنفقين فى سبيل الله .

ثم بيان لقواعد التصور الإسلامى الذى يقوم عليه وجود الجماعة المسلمة . وهو بيان عن وحدانية الله وحياته ، وقيامه على كل شىء وقيام كل شىء به ، وملكيته المطلقة لكل شىء ، وعلمه المحيط بكل شىء ، وهيمنته الكاملة على كل شىء ، وقدرته الكاملة وحفظه لكل شىء . .

Marfat.com

لاشفاعة عنده إلا بإذنه ، ولا علم إلا مايهبه . . وذلك ليمضى المسلم فى طريقه ، واضح التصور لعقيدته ، التى يقوم عليها منهجه كله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السماوات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض . ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » . .

ثم هو يقاتل فى سبيل الله ، لا ليكره الناس على عقيدته هذه وعلى تصوره ؛ ولكن ليتبين الرشد من الغى ، وتنتفى عوامل الفتنة والضلالة ، ثم ليكن من أمر الناس بعد ذلك مايكون : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » . .

وهو يمضى مطمئنا فى طريقه ، فى كنف الله وولايته ، واثقا من هداية الله ورعايته : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

وهكذا تمضى هذه الفقرات المتتابعة فى مطلع هذا الجزء . تمضى فى الطريق الذى اتخذته السورة منذ مطالعها . لتحقيق أهدافها فى حياة الجماعة المسلمة وغاياتها .

يلى ذلك استطراد فى توضيح التصور الإيمانى لحقيقة الموت وحقيقة الحياة . . فى سلسلة من التجارب يذكر إبراهيم – عليه السلام – فى تجربتين منها ، ويذكر شخص آخر لايفصح عن اسمه فى التجربة الثالثة . . وتنتهى كلها إلى إيضاح لحقيقة الموت وحقيقة الحياة وارتباطها مباشرة بإرادة الله وعلمه ؛ واستعصاء هذا السر على الإدراك البشرى أن يعرف كنهه ؛ فهو فوق مجال الإدراك ، ومرده إلى الله وحده دون سواه .

وعلاقة هذا الاستطراد بأمر القتال والجهاد واضحة ؛ كما أن علاقته بتصحيح التصور الإيمانى بصفة عامة واضحة كذلك .

ومن هنا يبدأ فى حديث طويل عن الارتباطات التى يقوم عليها المجتمع المسلم . فيقرر أن التكافل هو قاعدة هذا المجتمع وأن الربا منبوذ منه ملعون . ومن ثم يرد حديث عن الإنفاق والصدقة يستغرق مساحة واسعة من بقية السورة . . وهو حديث حافل بالصور والظلال ،

Marfat.com

والإيقاعات والإيحاءات التي يحسن إرجاء وصفها إلى موضعها عند مواجهة نصوصها الجميلة أما مناسبتها فى هـذا السياق فهى مناسبة قوية مع القتال والجهاد . كما أن النفقة فى سبيل الله والصدقة جانب هام من جوانب الحيـاة الإسلامية العامة ، التى تنظمها هـذه السورة بشتى التشريعات وشتى التوجيهات .

وفى الجانب الآخر المقابل لجانب الإنفاق والصدقة يقوم الربا . . ذلك النظام الخبيث الذى يحمل عليه القرآن حملة قاصمة فى خلال صفحة من المصحف ، كأنما تنقض منها الصواعق لتحطيم هـذا الأساس النكد للحياة الاقتصادية والاجتماعية ؛ ولإقامة قاعدة أخرى سليمة قوية ينهض عليها بناء المجتمع الإسلامى الذى كان ينشئه الله ــ سبحانه ــ بهذا القرآن .

يليه تشريع الدين ، الذى سبق به القرآن الكريم كل تشريع فى موضوعه . وهو مسوق فى آيتين ، إحداها أطول آية فى القرآن الكريم . وتتجلى فيهما خاصية هـذا القرآن فى سوق تشريعاته سياقة حية موحية يتفرد بها تفردا كاملا معجزا .

وفى النهاية تختم السورة ختاما يتناسق تماما مع افتتاحها ، ومع أظهر ما اشتمل عليه سياقها . ختاما يتناول قاعدة التصور الإسلامى فى الإيمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله ــ « لا نفرق بين أحد من رسله » . . وهى القاعدة التى تكرر إبرازها فى السورة من قبل . كما يتناول دعاء رخيا من المسلمين لله . يقرر طبيعة العلاقة بين المؤمن وربه وحاله معه سبحانه . وفيه إشارة لما مر فى السورة من تاريخ بنى إسرائيل : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » . . وهو ختام يناسب المطلع ويناسب السياق الطويل الدقيق . .

* * *

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

Marfat.com

مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ . وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّنْ كَفَرَ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

« اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ . وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا . وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

« اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٥٧)

أول مايواجهنا فى هذا الدرس هو ذلك التعبير الخاص عن الرسل :

« تلك الرسل » . .

لم يقل : هؤلاء الرسل . إنما استهل الحديث عنهم بهذا التعبير الخاص ، الذى يشتمل على إيحاء قوى واضح . يحسن أن نتول عنه كلمة قبل المضى فى مواجهة نصوص الدرس كله .

« تلك الرسل » . .

إنهم جماعة خاصة . ذات طبيعة خاصة . وإن كانوا بشرا من البشر . . فمن هم ؟ ما الرسالة ؟ ماطبيعتها ؟ كيف تتم ؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلا ؟ وبماذا ؟

Marfat.com

أسئلة طالما أشفقت أن أبحث لها عن جواب ! إن حسى ليفعم بمشاعر ومعان لا أجد لها كفاء من العبارات ! ولكن لابد من تقريب المشاعر والمعانى بالعبارات !

إن لهذا الوجود الذى نعيش فيه ؛ والذى نحن قطعة منه ؛ سننا أصيلة يقوم عليها . هذه السنن هى القوانين الكونية التى أودعها الله هذا الكون ليسير على وفقها ، ويتحرك بموجبها ، ويعمل بمقتضاها .

والإنسان يكشف عن أطراف من هذه القوانين كلما ارتقى فى سلم المعرفة . يكشف عنها ـ أو يكشف له عنها ـ بمقدار يناسب إدراكه المحدود ، المعطى له بالقدر الذى يلزم لنهوضه بمهمة الخلافة فى الأرض ، فى أمد محدود .

ويعتمد الإنسان فى معرفة هذه الأطراف من القوانين الكونية على وسيلتين أساسيتين ـ بالقياس إليه ـ هما الملاحظة والتجربة . وهما وسيلتان جزئيتان فى طبيعتها ، وغير نهائيتين ولا مطلقتين فى نتائجها . ولكنهما تقودان أحيانا إلى أطراف من القوانين الكلية فى آماد متطاولة من الزمان . . ثم يظل هذا الكشف جزئيا غير نهائى ولا مطلق ؛ لأن سر التناسق بين تلك القوانين كلها . سر الناموس الذى ينسق بين القوانين جميعها . هذا السر يظل خافيا ، لاتهتدى إليه الملاحظة الجزئية النسبية ، مهما طالت الآماد . . إن الزمن ليس هو العنصر النهائى فى هذا المجال . إنما هو الحد المقدور للإنسان ذاته ، بحكم تكوينه ، وبحكم دوره فى الوجود . وهو دور جزئى ونسبي . ثم تجىء كذلك نسبية الزمن الممنوح للجنس البشرى كله على وجه الأرض وهو بدوره جزئى ومحدود . . ومن ثم تبقى جميع وسائل المعرفة ، وجميع النتائج التى يصل إليها البشر عن طريق هذه الوسائل ، محصورة فى تلك الدائرة الجزئية النسبية .

هنا يجىء دور الرسالة . دور الطبيعة الخاصة التى آتاها الله الاستعداد اللدنى لتتجاوب فى أعماقها ـ بطريقة مازلنا نجهل طبيعتها وإن كنا ندرك آثارها ـ مع ذلك الناموس الكلى ، الذى يقوم عليه الوجود . .

هذه الطبيعة الخاصة هى التى تتلقى الوحى ؛ فتطيق تلقيه ؛ لأنها مهيأة لاستقباله . . إنها تتلقى الإشارة الإلهية التى يتلقاها هذا الوجود ؛ لأنها متصلة اتصالا مباشرا بالناموس الكونى الذى يصرف هذا الوجود . . كيف تتلقى هذه الإشارة ؟ وبأى جهاز تستقبلها ؟ نحن فى حاجة

Marfat.com

ـ لكى نجيب ـ أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التى يهبها الله للمختارين من عباده ! و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . . وهى أمر عظيم . أعظم من كل مايخطر على البال من عظائم الأسرار فى هذا الوجود .

كل الرسل قد أدركوا حقيقة « التوحيد » وكلهم بعثوا بها . ذلك أن إيقاع الناموس الواحد فى كيانهم كله ، هداهم إلى مصدره الواحد الذى لايتعدد ـ لايتعدد وإلا لتعددت النواميس وتعدد إيقاعها الذى يتلقونه ـ وكان هذا الإدراك فى فجر البشرية ، قبل أن تنمو المعرفة الخارجية ، المبنية على الملاحظة والتجربة ، وقبل أن تكشف بعض القوانين الكونية ، التى تشير إلى تلك الوحدة .

وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد . . دعا إلى هذه الحقيقة التى تلقاها وأمر أن يبلغها . . وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطرى الناشىء من إيقاع الناموس الواحد فى الفطرة الواصلة . كما كان نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعية لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة ؛ وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد ؛ الذى لايملكن ـ وفق الإيقاع القوى الصادق الملزم الذى تلقته فطرتهم ـ أن يتعدد !

وهذا الإلزام الملح الذى تستشعره فطرة الرسل يبدو أحيانا فى كلمات الرسل التى يحكيها عنهم هذا القرآن ، أو التى يصفهم بها فى بعض الأحيان .

نجده مثلا فى حكاية قول نوح ـ عليه السلام ـ لقومه : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله . وما أنا بطارد الذين آمنوا . إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون ؟ » . .

ونجده فى حكاية قول صالح ـ عليه السلام ـ : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » . .

ونجده فى سيرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « وحاجه قومه . قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا . وسع ربى كل شىء علما . أفلا

Marfat.com

تذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » . .

ونجده فى قصة شعيب ــ عليه السلام ــ : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . وما توفيقى إلا بالله . عليه توكلت وإليه أنيب » . .

ونجدها فى قول يعقوب ــ عليه السلام ــ لبنيه : « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » . .

وهكذا وهكذا نجد فى أقوال الرسل وأوصافهم أثر ذلك الإيقاع العميق الملح على فطرتهم ، والذى تشى كلماتهم بما يجدونه منه فى أعماق الضمير !

ويوما بعد يوم تكشفت للمعرفة الإنسانية الخارجية ظواهر تشير من بعيد إلى قانون الوحدة فى هذا الوجود . واطلع العلماء من البشر على ظاهرة وحدة التكوين ووحدة الحركة فى هذا الكون العريض . وتكشف ــ فى حدود ما يملك الإنسان أن يعلم ــ أن الذرة هى أساس البناء الكونى كله ، وأن الذرة طاقة . . فالتقت المادة بالقوة فى هذا الكون ممثلة فى الذرة . وانتفت الثنائية التى تراءت طويلا . وإذا المادة ــ وهى مجموعة من الذرات ــ هى طاقة حين تتحطم هذه الذرات ، فتتحول إلى طاقة من الطاقات ! . . وتكشف كذلك ــ فى حدود ما يملك الإنسان أن يعلم ــ أن الذرة فى حركة مستمرة من داخلها . وأنها مؤلفة من إلكترونات ــ أو كهارب ــ تدور فى فلك حول النواة أو النويات وهى قلب الذرة . وأن هذه الحركة مستمرة ومطردة فى كل ذرة . وأن كل ذرة ــ كما قال فريد الدين العطار ــ شمس تدور حولها كواكب كشمسنا هذه وكواكبها التى ما تنى تدور حولها باستمرار !

وحدة التكوين ووحدة الحركة فى هذا الكون هما الظاهرتان اللتان اهتدى إليهما الإنسان . . وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير . وقد بلغت إليهما المعرفة البشرية بمقدار ما تطيق الملاحظة والتجربة البشرية أن تبلغ . . أما الطبائع الخاصة الموهوبة ، فقد أدركت القانون الشامل الكبير كله فى لمحة ؛ لأنها تتلقى إيقاعه المباشر ، وتطيق وحدها تلقيه .

Marfat.com

إنهم لم يجمعوا الشواهد والظواهر على تلك الوحدة عن طريق التجارب العلمية . ولكن لأنهم وهبوا جهاز استقبال كاملا مباشرا ، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالا داخليا مباشرا ؛ فأدركوا إدراكا مباشرا أن الإيقاع الواحد لابد منبث عن ناموس واحد ، صادر من مصدر واحد . وكان هذا الجهاز اللدنى فى تلك الطبائع الخاصة الموهوبة أدق وأشمل وأكمل ، لأنه أدرك فى لمسة واحدة ماوراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر ، ووحدة الإرادة والفاعلية فى هذا الوجود . فقرر — فى إيمان — وحدة الذات الإلهية المصرفة لهذا الوجود .

وما أسوق هذا الكلام لأن العلم الحديث يرى أنه قد أدرك ظاهرة أو ظاهرتين من ظواهر الوحدة الكونية . فالعلم يثبت أو ينفى فى ميدانه . وكل مايصل إليه من « الحقائق » نسبى جزئى مقيد ؛ فهو لايملك أن يصل أبدا إلى حقيقة واحدة نهائية مطلقة . فضلا على أن نظريات العلم قلب ، يكذب بعضها بعضا ، ويعدل بعضها بعضا .

وما ذكرت شيئا عن وحدة التكوين ووحدة الحركة لأقرن إليهما صدق الاستقبال لوحدة الناموس فى حس الرسل . . كلا . . إنما قصدت إلى أمر آخر . قصدت إلى تحديد مصدر التلقى المعتمد لتكوين التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود .

إن الكشف العلمى ربما يكون قد اهتدى إلى بعض الظواهر الكونية المتعلقة بحقيقة الوحدة الكبرى . . هذه الوحدة التى لمست حس الرسل من قبل فى محيطها الواسع الشامل المباشر . والتى أدركتها الفطرة اللدنية إدراكا كاملا شاملا مباشرا . وهذه الفطرة صادقة بذاتها — سواء اهتدت نظريات العلم الحديث إلى بعض الظواهر أو لم تهتد — فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته . وهى ، ليست ثابتة أولا . ثم إنها ليست نهائية ولا مطلقة أخيرا . فلا تصلح إذن أن تقاس بها صحة الرسالة . فالمقياس لابد أن يكون ثابتا وأن يكون مطلقا . ومن هنا تكون الرسالة هى المقياس الثابت المطلق الوحيد .

وينشأ عن هذه الحقيقة حقيقة أخرى ذات أهمية قصوى . .

إن هذه الطبائع الخاصة الموصولة بناموس الوجود صلة مباشرة . هى التى تملك أن ترسم للبشرية اتجاهها الشامل . اتجاهها الذى يتسق مع فطرة الكون وقوانينه الثابتة وناموسه المطرد . هى التى تتلقى مباشرة وحى الله . فلا تخطىء ولا تضل ، ولا تكذب ولا تكتم .

Marfat.com

ولا تحجبها عوامل الزمان والمكان عن الحقيقة ؛ لأنها تتلقى هذه الحقيقة عن الله ، الذى لازمان عنده ولا مكان .

ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرسل بين الحين والحين ، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة ، التى ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون . وما كانت لتبلغ إليها كلها أبدا على مدار القرون . وقيمة هذا الاتصال هى استقامة خطاهم مع خطى الكون ؛ واستقامة حركاتهم مع حركة الكون ؛ واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون .

ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنسانى . ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنسانى . ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، الذى يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته ، وحقيقة اتجاهه . ويدخل به الناس فى السلم كافة . السلم مع هذا الكون ، والسلم مع فطرتهم وهى من فطرة هذا الكون ، والسلم مع بعضهم البعض فى سعيهم ونشاطهم ونموهم ورقيهم المهيأ لهم فى هذه الحياة الدنيا .

مصدر واحد هومصدر الرسالات ، وما عداه ضلال وباطل ، لأنه لا يتلقى عن ذلك المصدر الوحيد الواصل الموصول .

إن وسائل المعرفة الأخرى المتاحة للإنسان ، معطاة له بقدر . ليكشف بها بعض ظواهر الكون وبعض قوانينه وبعض طاقاته . بالقدر اللازم له فى النهوض بعبء الخلافة فى الأرض ، وتنمية الحياة وتطويرها . وقد يصل فى هذا المجال إلى آماد بعيدة جدا . ولكن هذه الآماد لاتبلغ به أبدا إلى محيط الحقيقة المطلقة التى هو فى حاجة إليها ليكيف حياته — لاوفق الأحوال والظروف الطارئة المتجددة فحسب ، ولكن وفق القوانين الكونية الثابتة المطردة التى قام عليها الوجود ،ووفق الغاية الكبرى للوجود الإنسانى كله . هذه الغاية التى يراها خالق الإنسان المتعالى عن ملابسات الزمان والمكان . ولا يراها الإنسان المحدود المتأثر بملابسات الزمان والمكان .

إن الذى يضع خطة الرحلة للطريق كله ، هو الذى يدرك الطريق كله . والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق . بل هو محجوب عن اللحظة التالية . ودونه ودونها ستر مسبل لايباح لبشر أن يطلع وراءه ! فأنى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول ؟ !

Marfat.com

إنه إما الخبط والضلال والشرود . وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود . منهج الرسالات . ومنهج الرسل . ومنهج الفطر الموصولة بالوجود وخالق الوجود .

ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة ، تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعدا في الطريق على هدى وعلى نور . والبشرية تشرد من هنا وتشرد من هناك ؛ وتحيد عن النهج ، وتغفل حداء الرائد ؛ وتنحرف فترة ريثما يبعث إليها رائد جديد .

وفي كل مرة تتكشف لها الحقيقة الواحدة في صور مترقية ؛ تناسب تجاربها المتجددة حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة كان عهد الرشد العقلي قد أشرق . فجاءت الرسالة الأخيرة تخاطب العقل البشري بكليات الحقيقة كلها ؛ لتتابع البشرية خطواتها في ظل تلك الخطوط النهائية العريضة . وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح بحيث لاتحتاج بعد إلى رسالة جديدة . وبحسبها المفسرون المجددون على مدار القرون .

وبعد فإما أن تسير البشرية داخل هـذا النطاق الشامل الذي يسعها دائما ، ويسع نشاطها المتجدد المترقي ، ويصلها بالحقيقة المطلقة التي لاتصل إليها عن أي طريق آخر . وإما أن تشرد وتضل وتذهب بددا في التيه ! بعيدا عن معالم الطريق !

* * *

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كلم الله . ورفع بعضهم درجات . وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس . ولو شاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات . ولـكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله مااقتتلوا ولـكن الله يفعل مايريد » . .

هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات ـ كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس ـ فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض ؛ وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره . ثم تشير إلى اختلاف الذين جاءوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة ـ من بعد ماجاءتهم البينات ـ وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف . كما تقرر أن بعضهم آمن وبعضهم كفر . وأن الله قد قدر أن يقع بينهم القتال لدفع الكفر بالإيمان ، ودفع الشر بالخير . . وهذه الحقائق الكثيرة التي تشير إليها هذه الآية تمثل قصة الرسالة وتاريخها الطويل .

Marfat.com

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » .

والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول ، والذى تشمله دعوته ونشاطه . كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة فى جميع الأجيال . . كذلك يتعلق بالمزايا التى يوهبها لشخصه أو لأمته . كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية . . .

وقد ذكر النص هنا مثالين فى موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وأشار إشارة عامة إلى من سواهما :

« منهم من كلم الله ـ ورفع بعضهم درجات ـ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . .

وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى ـ عليه السلام ـ ومن ثم لم يذكره باسمه . وذكر عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وهكذا يرد اسمه منسوبا إلى أمه فى أغلب المواضع القرآنية . والحكمة فى هذا واضحة . فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى عليه السلام ـ وبنوته لله ـ سبحانه وتعالى ـ أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت . أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة فى الكأس ! إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى غرقت الكنائس والمجامع فى الجدل حولها ؛ وجرت حولها الدماء أنهارا فى الدولة الرومانية ! ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ وذكره فى معظم المواضع منسوبا إلى أمه مريم . . أما روح القدس فالقرآن يعنى به جبريل ـ عليه السلام ـ فهو حامل الوحى إلى الرسل . وهذا أعظم تأييد وأكبره . وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل باتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم ؛ وهو الذى يثبتهم على المضى فى الطريق الشاق الطويل ؛ وهو الذى يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر فى مواقع الهول والشدة فى ثنايا الطريق . . وهذا كله التأييد أما البينات التى آتاها الله عيسى ـ عليه السلام ـ فتشمل الإنجيل الذى نزله عليه ؛ كما تشمل الخوارق التى أجراها على يديه ؛ والتى ورد ذكرها مفصلة فى مواضعها المناسبة من القرآن . تصديقا لرسالته فى مواجهة بنى إسرائيل المعاندين !

Marfat.com

ولم يذكر النص هنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الخطاب موجه إليه . كما جاء في الآية السابقة في السياق : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين . . تلك الرسل . . إلخ » . فالسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل .

وحين ننظر إلى مقامات الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أية ناحية نجد محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ في القمة العليا . وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لاتتغير . .

إن الإسلام هو أكمل تصور لحقيقة الوحدة ـ وهي أضخم الحقائق على الإطلاق ـ وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء . ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة : « كن » . ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة . ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود . ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق . ووحدة البشرية من آدم ـ عليه السلام ـ إلى آخر أبنائه في الأرض . ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة . ووحدة جماعة الرسل المبلغة لهذه الدعوة . ووحدة الأمة المؤمنة التي لبت هذه لدعوة . ووحدة النشاط البشري المتجه إلى الله وإعطائه كله اسم « العبادة » . ووحدة الدنيا والآخرة داري العمل والجزاء . ووحدة المنهج الذي شرعه الله للناس فلا يقبل منهم سواه . ووحدة المصدر الذي يتلقون عنه تصوراتهم كلها ومنهجهم في الحياة . . .

ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي أطاقت روحه التجاوب المطلق مع حقيقة الوحدة الكبرى ؛ كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها ؛ كما أطاق كيانه تمثيل هذه الوحدة في حياته الواقعة المعروضة للناس .

كذلك هو الرسول الذي أرسل إلى البشر كافة ، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ والذي اعتمدت رسالته على الإدراك الإنساني الواعي دون ضغط حتى من معجزة مادية قاهرة ، ليعلن بذلك عهد الرشد الإنساني .

ومن ثم كان هو خاتم الرسل . وكانت رسالته خاتمة الرسالات . ومن ثم انقطع الوحي بعده ؛ وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرى ؛ وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي

Marfat.com

يسع نشاط البشرية المقبل فى إطاره ؛ ولم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات التى يستقل بها العقل البشرى ـ فى حدود المنهج الربانى ـ ولا تستدعى رسالة إلهية جديدة .

وقد علم الله ـ سبحانه ـ وهو الذى خلق البشر ؛ وهو الذى يعلم ماهم ومن هم ؛ ويعلم ما كان من أمرهم وما هو كائن . . قد علم الله ـ سبحانه ـ أن هذه الرسالة الأخيرة ، وما ينبثق عنها من منهج للحياة شامل ، هى خير ما يكفل للحياة النمو والتجدد والانطلاق . فأيما إنسان زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده ؛ أو زعم أن هذا المنهج الربانى لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية فى الأرض ؛ أو زعم أنه يملك ابتداع منهج أمثل من المنهج الذى أراده الله . . أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو زعمها جميعا فقد كفر كفرا صراحا لامراء فيه ؛ وأراد لنفسه وللبشرية شر مايريده إنسان بنفسه وبالبشرية ؛ واختار لنفسه موقف العداء الصريح لله ، والعداء الصريح للبشرية التى رحمها الله بهذه الرسالة ، وأراد لها الخير بالمنهج الربانى المنبثق منها ليحكم الحياة البشرية إلى آخر الزمان .

* * *

وبعد فقد اقتتل أتباع « تلك الرسل » . ولم تغن وحدة جماعة الرسل فى طبيعتهم ، ووحدة الرسالة التى جاءوا بها كلهم . . لم تغن هذه الوحدة عن اختلاف أتباع الرسل حتى ليقتتلون من خلاف :

« ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ـ من بعد ماجاءتهم البينات ـ ولكن اختلفوا : فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولو شاء الله مااقتتلوا . ولكن الله يفعل مايريد » ..

إن هذا الاقتتال لم يقع مخالفا لمشيئة الله . فما يمكن أن يقع فى هذا الكون مايخالف مشيئته ـ سبحانه ـ فمن مشيئته أن يكون هذا الكائن البشرى كما هو . بتكوينه هذا واستعداداته للهدى وللضلال . وأن يكون موكولا إلى نفسه فى اختيار طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال . ومن ثم فكل ماينشأ عن هذا التكوين وإفرازاته واتجاهاته داخل فى إطار المشيئة ؛ وواقع وفق هذه المشيئة .

كذلك فإن اختلاف الاستعدادات بين فرد وفرد من هذا الجنس سنة من سنن الخالق ، لتنويع الخلق ـ مع وحدة الأصل والنشأة ـ لتقابل هذه الاستعدادات المختلفة وظائف الخلافة

Marfat.com

المختلفة المتعددة المتنوعة . وما كان الله ليجعل الناس جميعا نسخا مكررة كأنما طبعت على ورق « الكربون » . . على حين أن الوظائف اللازمة للخلافة فى الأرض وتنمية الحياة وتطويرها منوعة متباينة متعددة .. أما وقد مضت مشيئة الله بتنويع الوظائف فقد مضت كذلك بتنويع الاستعدادات . ليكون الاختلاف فيها وسيلة للتكامل . وكلف كل إنسان أن يتحرى لنفسه الهدى والرشاد والإيمان . وفيه الاستعداد الكامن لهذا ، وأمامه دلائل الهدى فى الكون ، وعنده هدى الرسالات والرسل على مدار الزمان . وفى نطاق الهدى والإيمان يمكن أن يظل التنوع الخير الذى لا يحشر نماذج الناس كلهم فى قالب جامد !

« ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » ..

وحين يصل الاختلاف إلى هذا المدى ، فيكون اختلاف كفر وإيمان ، يتعين القتال. يتعين لدفع الناس بعضهم ببعض . دفع الكفر بالإيمان . والضلال بالهدى ، والشر بالخير . فالأرض لاتصلح بالكفر والضلال والشر . ولا يكفى أن يقول قوم : إنهم أتباع أنبياء إذا وصل الاختلاف بينهم إلى حد الكفر والإيمان . وهذه هى الحالة التى كانت تواجهها الجماعة المسلمة فى المدينة يوم نزل هذا النص . . كان المشركون فى مكة يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ! وكان اليهود فى المدينة يزعمون أنهم على دين موسى . كما كان النصارى يزعمون أنهم على دين عيسى . . ولكن كل فرقة من هؤلاء كانت قد بعدت بعدا كبيرا عن أصل دينها ، وعن رسالة نبيها . وانحرفت إلى المدى الذى ينطبق عليه وصف الكفر . وكان المسلمون عند نزول هذا النص يقاتلون المشركين من العرب . كما كانوا على وشك أن يوجهوا إلى قتال الكفار من أهل الكتاب . ومن ثم جاء هذا النص يقرر أن الاقتتال بين المختلفين على العقيدة إلى هذا الحد ، هو من مشيئة الله وبإذنه :

« ولو شاء الله ما اقتتلوا » . .

ولكنه شاء . شاء ليدفع الكفر بالإيمان ؛ وليقر فى الأرض حقيقة العقيدة الصحيحة الواحدة التى جاء بها الرسل جميعا ، فانحرف عنها المنحرفون . وقد علم الله أن الضلال لايقف سلبيا جامدا ، إنما هو ذو طبيعة شريرة . فلا بد أن يعتدى ، ولا بد أن يحاول إضلال المهتدين، ولا بد أن يريد العوج ويحارب الاستقامة . فلا بد من قتاله لتستقيم الأمور .

Marfat.com

« ولكن الله يفعل مايريد » .

مشيئة مطلقة . ومعها القدرة الفاعلة . وقد قدر أن يكون الناس مختلفين فى تكوينهم . وقدر أن يكونوا موكولين إلى أنفسهم فى اختيار طريقهم . وقدر أن من لايهتدى منهم يضل. وقدر أن الشر لابد أن يعتدى ويريد العوج . وقدر أن يقع القتال بين الهدى والضلال . وقدر أن يجاهد أصحاب الإيمان لإقرار حقيقته الواحدة الواضحة المستقيمة ؛ وأنه لاعبرة بالانتساب إلى الرسل من أتباعهم ، إنما العبرة بحقيقة مايعتقدون وحقيقة مايعملون . وأنه لايعصمهم من مجاهدة المؤمنين لهم أن يكونوا ورثة عقيدة وهم عنها منحرفون . .

وهذه الحقيقة التى قررها الله للجماعة المسلمة فى المدينة حقيقة مطلقة لاتتقيد بزمان . إنما هى طريقة القرآن فى اتخاذ الحادثة المفردة المقيدة مناسبة لتقرير الحقيقة المطردة المطلقة .

* * *

ومن ثم يعقب السياق على ذكر الاختلاف والاقتتال بنداء « الذين آمنوا » ودعوتهم إلى الإنفاق مما رزقهم الله . فالإنفاق صنو الجهاد وعصب الجهاد :

« ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة . والكافرون هم الظالمون » . .

إنها الدعوة بالصفة الحبيبة إلى نفوس المؤمنين ، والتى تربطهم بمن يدعوهم ، والذى هم به مؤمنون : « ياأيها الذين آمنوا » . .

وهى الدعوة إلى الإنفاق من رزقه الذى أعطاهم إياه . فهو الذى أعطى ، وهو الذى يدعو إلى الإنفاق مما أعطى : « أنفقوا مما رزقناكم » . .

وهى الدعوة إلى الفرصة التى إن أفلتت منهم فلن تعود « من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » . .

فهى الفرصة التى ليس بعدها ــ لو فوتوها على أنفسهم ــ بيع تربح فيه الأموال وتنمو . وليس بعده صداقة أو شفاعة ترد عنهم عاقبة النكول والتقصير .

ويشير إلى الموضوع الذى يدعوهم إلى الإنفاق من أجله . فهو الإنفاق للجهاد . لدفع الكفر . ودفع الظلم المتمثل فى هذا الكفر :

Marfat.com

« والكافرون هم الظالمون » . .

ظلموا الحق فأنكروه . وظلموا أنفسهم فأوردوها موارد الهلاك . وظلموا الناس فصدوهم عن الهدى وفتنوهم عن الإيمان ، وموهوا عليهم الطريق ، وحرموهم الخير الذى لاخير مثله . خير السلم والرحمة والطمأنينة والصلاح واليقين .

إن الذين يحاربون حقيقة الإيمان أن تستقر فى القلوب ؛ ويحاربون منهج الإيمان أن يستقر فى الحياة ؛ ويحاربون شريعة الإيمان أن تستقر فى المجتمع . . إنما هم أعدى أعداء البشرية وأظلم الظالمين لها . ومن واجب البشرية ــ لو رشدت ــ أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن هذا الظلم الذى يزاولونه ؛ وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال . . وهذا هو واجب الجماعة المسلمة الذى يندبها إليه ربها ويدعوها من أجله بصفتها تلك ؛ ويناديها ذلك النداء الموحى العميق . .

* * *

وبمناسبة الاختلاف بعد الرسل والاقتتال ، والكفر بعد مجىء البينات والإيمان . . بهذه المناسبة تجىء آية تتضمن قواعد التصور الإيمانى ؛ وتذكر من صفات الله سبحانه ما يقرر معنى الوحدانية فى أدق مجالاته ، وأوضح سماته . وهى آية جليلة الشأن ، عميقة الدلالة ، واسعة المجال :

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لاتأخذه سنة ولا نوم . له مافى السماوات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما . وهو العلى العظيم » . .

وكل صفة من هذه الصفات تتضمن قاعدة من قواعد التصور الإسلامى الكلية . ومع أن القرآن المكى فى عمومه كان يدور على بناء هذا التصور ، فإننا نلتقى فى القرآن المدنى كذلك فى مناسبات شتى بهذا الموضوع الأصيل الهام . الذى يقوم على أساسه المنهج الإسلامى كله ؛ ولا يستقيم هذا المنهج فى الحس إلا أن يستقيم ذلك الأساس ، ويتضح ، ويتحول إلى حقائق مسلمة فى النفس ، ترتكن إلى الوضوح واليقين .

ولقد تحدثت فيما سبق عند تفسير سورة الفاتحة فى أول الجزء الأول من هذه الطبعة من

Marfat.com

الظلال ، عن الأهمية البالغة لوضوح صفة الله ـ سبحانه ـ فى الضمير الإنسانى . بما أن الركام الذى كان يرين على هذا الضمير من تصورات الجاهلية كان معظمه ناشئا من غموض هذه الحقيقة ، ومن غلبة الخرافة والأسطورة عليها ؛ ومن الغبش الذى يغشيها حتى فى فلسفة أكبر الفلاسفة . . حتى جاء الإسلام فجلاها هذا الجلاء ؛ وأنقذ الضمير البشرى من ذلك الركام الثقيل ، ومن ذلك الضلال والخبط فى الظلماء (١) !

وكل صفة من هذه الصفات التى تضمنتها هذه الآية تمثل قاعدة يقوم عليها التصور الإسلامى الناصع ، كما يقوم عليها المنهج الإسلامى الواضح .

« الله لا إله إلا هو » . .

فهذه الوحدانية الحاسمة التى لامجال فيها لأى انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة ـ بعد الرسل ـ كعقيدة التثليث المبتدعة من المجامع الكنسية بعد عيسى ـ عليه السلام ـ ولا لأى غبش مما كان يرين على العقائد الوثنية التى تميل إلى التوحيد ، ولكنها تلبسه بالأساطير ، كعقيدة قدماء المصريين ـ فى وقت من الأوقات ـ بوحدانية الله ، ثم تلبيس هذه الوحدانية بتمثل الإله فى قرص الشمس ! ووجود آلهة صغيرة خاضعة له !

هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هى القاعدة التى يقوم عليها التصور الإسلامى ؛ والتى ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها . فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة . فلا يكون إنسان عبدا إلا لله ؛ ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، وما يأمره الله به من الطاعات . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده . فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ؛ ويجىء تشريع البشر مستمدا من شريعة الله . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله ؛ فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل فى ميزان الله ؛ ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله . . . وهكذا إلى آخر ماينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر فى الضمير أو مناهج لحياة الناس فى الأرض على السواء .

« الحى القيوم » . .

والحياة التى يوصف بها الإله الواحد هى الحياة الذاتية التى لم تأت من مصدر آخر كحياة

(١) تراجع صفحات ١٥ ـ ١٧ من الجزء الأول من الظلال . الطبعة المنقحة .

Marfat.com

الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق . ومن ثم يتفرد الله ـ سبحانه ـ بالحياة على هذا المعنى . كما أنها هى الحياة الأزلية الأبدية التى لاتبدأ من مبدأ ولا تنتهى إلى نهاية ، فهى متجردة عن معنى الزمان المصاحب لحياة الخلائق المكتسبة المحددة البدء والنهاية . ومن ثم يتفرد الله ـ سبحانه ـ كذلك بالحياة على هذا المعنى . ثم إنها هى الحياة المطلقة من الخصائص التى اعتاد الناس أن يعرفوا بها الحياة . فالله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شىء ؛ ومن ثم يرتفع كل شبه من الخصائص التى تتميز بها حياة الأشياء ؛ وتثبت لله صفة الحياة مطلقة من كل خصيصة تحدد معنى الحياة فى مفهوم البشر . . . وتنتفى بهذا جميع المفهومات الأسطورية التى جالت فى خيال البشر !

أما صفة « القيوم » . . فتعنى قيامه ـ سبحانه ـ على كل موجود . كما تعنى قيام كل موجود به فلا قيام لشىء إلا مرتكنا إلى وجوده وتدبيره . . لا كما كان أكبر فلاسفة الإغريق ـ أرسطو ـ يتصور أن الله لايفكر فى شىء من مخلوقاته ، لأنه تعالى أن يفكر فى غير ذاته ! ويحسب أن فى هذا التصور تنزيها لله وتعظيما ؛ وهو يقطع الصلة بينه وبين هذا الوجود الذى خلقه .. وتركه .. فالتصور الإسلامى تصور إيجابى لاسلبى . يقوم على أساس أن الله ـ سبحانه ـ قائم على كل شىء ؛ وأن كل شىء قائم فى وجوده على إرادة الله وتدبيره . . ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شىء من حوله مرتبطا بالله الواحد ؛ الذى يصرّف أمره وأمر كل شىء حوله ، وفق حكمة وتدبير ؛ فيلتزم الإنسان فى حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير ؛ ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازين .

« لاتأخذه سنة ولا نوم » . .

وهذا توكيد لقيامه ـ سبحانه ـ على كل شىء ، وقيام كل شىء به . ولكنه توكيد فى صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشرى صورة القيام الدائم . فى الوقت الذى تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله ـ سبحانه ـ لكل شىء . . « ليس كمثله شىء » . . وهى تتضمن نفى السنة الخفيفة أو النوم المستغرق ، وتنزهه ـ سبحانه ـ عنهما إطلاقا . .

وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وجزئياته فى كل وقت وفى كل حالة . . حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورها ؛ وحين يسبح بخياله المحدود مع ما لا يحصيه عد من الذرات والخلايا والخلائق والأشياء والأحداث فى هـذا الكون الهائل ؛ ويتصور ـ بقدر مايملك ـ

Marfat.com

قيام الله - سبحانه - عليها ؛ وتعلقها فى قيامها بالله وتدبيره . . إنه أمر . . أمر لايتصوره الإدراك الإنسانى . وما يتصوره منه - وهو يسير - هائل يدير الرؤوس ، ويحير العقول ، وتطمئن به القلوب . . .

« له ما فى السماوات وما فى الأرض » . .

فهى الملكية الشاملة . كما أنها هى الملكية المطلقة . . الملكية التى لا يرد عليها قيد ولا شرط ولا فوت ولا شركة . وهى مفهوم من مفاهيم الألوهية الواحدة . فالله الواحد هو الحى الواحد ، القيوم الواحد ، المالك الواحد . وهى نفى للشركة فى صورتها التى ترد على أذهان الناس ومداركهم . كما أنها ذات أثر فى إنشاء معنى الملكية وحقيقتها فى دنيا الناس . فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشىء . إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلى الذى يملك كل شىء . ومن ثم وجب أن يخضعوا فى خلافتهم لشروط المالك المستخلف فى هذه الملكية . وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم فى شريعته ؛ فليس لهم أن يخرجوا عنها ؛ وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ، ووقعت تصرفاتهم باطلة ، ووجب رد هذه التصرفات من المؤمنين بالله فى الأرض . . وهكذا نجد أثر التصور الإسلامى فى التشريع الإسلامى ، وفى واقع الحياة العملية التى تقوم عليه . وحين يقول الله فى القرآن الكريم : « له ما فى السماوات وما فى الأرض » . . فإنه لايقرر مجرد حقيقة تصورية اعتقادية ؛ إنما يضع قاعدة من قواعد الدستور للحياة البشرية ونوع الارتباطات التى تقوم فيها كذلك .

على أن مجرد استقرار هـــذه الحقيقة فى الضمير . . مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك - سبحانه - لما فى السماوات وما فى الأرض . . مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية أى شىء مما يقال : إنه يملكه ؛ ورد هـــذه الملكية لصاحبها الذى له مافى السماوات وما فى الأرض . . مجرد إحساسه بأن مافى يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذى أعارها له فى الأجل المرسوم . . مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع ، وحدة الشح والحرص ، وحدة التكالب المسعور . وكفيل كذلك بأن يسكب فى النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق ؛ والسماحة والجود بالموجود ؛ وأن يفيض

Marfat.com

على القلب الطمأنينة والقرار فى الوجدان والحرمان سواء ؛ فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ؛ ولا يتحرق القلب سعارا على المرموق المطلوب !

« من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » . .

وهذه صفة أخرى من صفات الله ؛ توضح مقام الألوهية ومقام العبودية . . فالعبيد جميعا يقفون فى حضرة الألوهية موقف العبودية ؛ لايتعدونه ولا يتجاوزونه ، يقفون فى مقام العبد الخاشع الخاضع ؛ الذى لايقدم بين يدى ربه ؛ ولا يجرؤ على الشفاعة عنده ، إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع للإذن ويشفع فى حدوده . . وهم يتفاضلون فيما بينهم ، ويتفاضلون فى ميزان الله . ولكنهم يقفون عند الحد الذى لايتجاوزه عبد . .

إنه الإيحاء بالجلال والرهبة فى ظل الألوهية الجليلة العلية . يزيد هذا الإيحاء عمقا صيغة الاستفهام الاستنكارية ؛ التى توحى بأن هذا أمر لايكون ؛ وأنه مستنكر أن يكون . فمن هو هذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟

وفى ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جاءوا من بعد الرسل فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فزعموا لله ـ سبحانه ـ خليطا يمازجه أو يشاركه بالبنوة أو بغيرها من الصور فى أى شكل وفى أى تصور ، أو زعموا له ـ سبحانه ـ أندادا يشفعون عنده فيستجيب لهم حتما . أو زعموا له ـ سبحانه ـ من البشر خلفاء يستمدون سلطانهم من قرابتهم له . . فى ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعدة لاتخطر على الذهن ؛ ولا تجول فى الخاطر ، ولا تلوح بظلها فى خيال !

وهذه هى الناصعة التى يتميز بها التصور الإسلامى ؛ فلا تدع مجالا لتلبيس أو وهم ، أو اهتزاز فى الرؤية ! الألوهية ألوهية . والعبودية عبودية . ولا مجال لالتقاء طبيعتها أدنى التقاء . والرب رب ، والعبد عبد . ولا مجال لمشاركة فى طبيعتها ولا التقاء .

فأما صلة العبد بالرب ، ورحمة الرب للعبد ، والقربى والود والمدد . . فالإسلام يقررها ويسكبها فى النفس سكبا ؛ ويملأ بها قلب المؤمن ويفيضها عليه فيضا ؛ ويدعه يعيش فى ظلالها الندية الحلوة . دون ما حاجة إلى خلط طبيعة الألوهية وطبيعة العبودية . ودون ما حاجة إلى الغبش والركام والزغللة والاضطراب الذى لاتتبين فيه صورة واحدة واضحة ولا ناصعة ولا محددة !

Marfat.com

« يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . .

وهذه الحقيقة بطرفيها تساهم كذلك فى تعريف المسلم بإلهه ، وفى تحديد مقامه هو من إلهه . فالله يعلم مابين أيدى الناس وما خلفهم . وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل المستقصى لكل ماحولهم . فهو يشمل حاضرهم الذى بين أيديهم ؛ ويشمل غيبهم الذى كان ومضى والذى سيكون وهو عنهم محجوب . كذلك هو يشمل مايعلمونه من الأمور وما يجهلونه فى كل وقت . وهو على العموم تعبير لغوى يفيد شمول العلم وتقصيه .. أما هم فلا يعلمون شيئا إلا ماياذن لهم الله أن يعلموه . .

وشطر الحقيقة الأول . . علم الله الشامل بما بين أيديهم وما خلفهم . . من شأنه أن يحدث فى النفس رجة وهزة . النفس التى تقف عارية فى كل لحظة أمام بارئها الذى يعلم مابين يديها وما خلفها . يعلم ما تضمر علمه بما تجهر . ويعلم ماتعلم علمه بما تجهل . ويعلم مايحيط بها من ماض وآت مما لاتعلمه هى ولا تدريه . . شعور النفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزة الذى يقف عريانا بكل مافى سريرته أمام الديان ؛ كما أنه خليق بأن يسكب فى القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه .

طر الحقيقة الثانى . . أن الناس لايعلمون إلا ماشاء الله لهم أن يعلموه . . جدير بأن يتدبره الناس طويلا . وبخاصة فى هذه الأيام التى يفتنون فيها بالعلم فى جانب من جوانب الكون والحياة .

« ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . .

إنه ــ سبحانه ــ هو الذى يعلم وحده كل شيء علما مطلقا شاملا كاملا . وهو ــ سبحانه ــ يتأذن فيكشف للعباد بقدر عن شيء من علمه ؛ تصديقا لوعده الحق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . . ولكنهم هم ينسون هذه الحقيقة ؛ ويفتنهم ماياذن الله لهم فيه من علمه . سواء كان هذا الذى أذن لهم فيه علم شيء من نواميس الكون وقوانينه ؛ أو رؤية شيء من غيبه فى لحظة عابرة وإلى حد معين . . يفتنهم هذا كما يفتنهم ذاك ؛ فينسون الإذن الأول الذى منحهم الإحاطة بهـــذا العلم . فلا يذكرون ولا يشكرون . بل يتبجحون . وقد يكفرون !

Marfat.com

إن الله سبحانه وهب الإنسان المعرفة مذ أراد إسناد الخلافة فى الأرض إليه . ووعده أن يريه آياته فى الآفاق وفى الأنفس ووعده الحق . وصدقه وعده فكشف له يوما بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، فى خط يكاد يكون صاعدا أبدا ، عن بعض القوى والطاقات والقوانين الكونية التى تلزم له فى خلافة الأرض ، ليصل بها إلى أقصى الكمال المقدر له فى هذه الرحلة المرسومة .

وبقدر ماأذن الله للإنسان فى علم هذا الجانب وكشف له عنه ، بقدر مازوى عنه أسرارا أخرى لاحاجه له بها فى الخلافة . . زوى عنه سر الحياة وما يزال هذا السر خافيا ، وما يزال عصيا ، وما يزال البحث فيه خبطا فى التيه بلا دليل ! وزوى عنه سر اللحظة القادمة . فهى غيب لاسبيل إليه . والستر المسدل دونها كثيف لاتجدى محاولة الإنسان فى رفعه . . وأحيانا تومض من وراء الستر ومضة لقلب مفرد بإذن من الله خاص ؛ ثم يسدل الستر ويسود السكون ؛ ويقف الإنسان عند حده لايتعداه !

وزوى عنه أسرارا كثيرة . . زوى عنه كل ما لا يتعلق بالخلافة فى الأرض . . والأرض هى تلك الذرة الصغيرة السابحة فى الفضاء كالهباءة . .

ومع ذلك يفتن الإنسان بذلك الطرف من العلم ، الذى أحاط به بعد الإذن . يفتن فيحسب نفسه فى الأرض إلها ! ويكفر فينكر أن لهذا الكون إلها ! وإن يكن هذا القرن العشرون قد بدأ يرد العلماء حقا إلى التواضع والتطامن . فقد بدأوا يعلمون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ! وبقى الجهال المتعالمون الذين يحسبون أنهم قد علموا شيئا كثيرا !

« وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما » . .

وقد جاء التعبير فى هذه الصورة الحسية فى موضع التجريد المطلق ؛ على طريقة القرآن فى التعبير التصويرى ، لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا . فالكرسى يستخدم عادة فى معنى الملك . فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه . وهذه هى الحقيقة من الناحية الذهنية . ولكن الصورة التى ترتسم فى الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن . وكذلك التعبير بقوله : « ولا يؤوده حفظهما » فهو كناية عن القدرة الكاملة . ولكنه يجىء فى هذه الصورة المحسوسة . صورة انعدام الجهد والكلال . لأن التعبير القرآنى يتجه إلى رسم صور للمعانى تجسمها للحس ، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس .

Marfat.com

ولا حاجة بنا إلى كل ماثار من الجدل حول مثل هـــذه التعبيرات فى القرآن ، إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية ؛ ولم نستعر من تلك الفلسفات الأجنبية الغريبة التى أفسدت علينا كثيرا من بساطة القرآن ووضوحه (١) .

ويحسن أن أضيف هنا أننى لم أعثر على أحاديث صحيحة فى شأن الكرسى والعرش تفسر وتحدد المراد مما ورد منها فى القرآن . ومن ثم أوثر أن لا أخوض فى شأنها بأكثر من هذا البيان .

« وهو العلى العظيم » . .

وهــذه خاتمة الصفات فى الآية ، تقرر حقيقة ، وتوحى للنفس بهــذه الحقيقة . وتفرد الله سبحانه بالعلو ، وتفرده سبحانه بالعظمة . فالتعبير على هذا النحو يتضمن معنى القصر والحصر . فلم يقل وهو علىّ عظيم ، ليثبت الصفة مجرد إثبات . ولكنه قال : « العلى العظيم » ليقصرها عليه سبحانه بلا شريك !

إنه المتفرد بالعلو ، المتفرد بالعظمة . وما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ورده الله إلى الخفض والهون ؛ وإلى العذاب فى الآخرة والهوان . وهو يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .. ويقول عن فرعون فى معرض الهلاك : « إنه كان من العالين » . .

ويعلو الإنسان مايعلو ، ويعظم الإنسان مايعظم . فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلى العظيم . وعندما تستقر هذه الحقيقة فى نفس الإنسان ، فإنها تتوب به إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه ؛ وترده إلى مخافة الله ومهابته ؛ وإلى الشعور بجلاله وعظمته ؛ وإلى الأدب فى حقه والتحرج من الاستكبار على عباده . فهى اعتقاد وتصور . وهى كذلك عمل وسلوك . .

* * *

وعندما يصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيمانى فى أدق جوانبها ، وبيان صفة الله وعلاقة الخلق به هــذا البيان المنير . . ينتقل إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور ؛ ويقومون بهذه الدعوة ؛ وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة :

---

(١) يراجع بتوسع فصل : التصوير الفنى . وفصل : طريقة القرآن . فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

Marfat.com

« لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها . والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

إن قضية العقيدة ـ كما جاء بها هذا الدين ـ قضية اقتناع بعد البيان والإدراك ؛ وليست قضية إكراه وغصب وإجبار . ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشرى بكل قواه وطاقاته . يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة ، ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة . يخاطب الكيان البشرى كله ، والإدراك البشرى بكل جوانبه ؛ فى غير قهر حتى بالخارقة المادية التى قد تلجىء مشاهدها إلجاء إلى الإذعان ، ولكن وعيه لايتدبرها وإدراكه لايتعقلها لأنها فوق الوعى والإدراك .

وإذا كان هذا الدين لايواجه الحس البشرى بالخارقة المادية القاهرة ، فهو من باب أولى لايواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع .

وكانت المسيحية ـ آخر الديانات قبل الإسلام ـ قد فرضت فرضا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التى زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين فى المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التى زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعا وحبا ! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا فى المسيحية ؛ بل إنها ظلت تتناول فى ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا فى مذهب الدولة ؛ وخالفوها فى بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح !

فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن ـ فى أول مايعلن ـ هذا المبدأ العظيم الكبير :

« لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى » . .

وفى هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره ؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال فى الاعتقاد ؛ وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه . . وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنسانى . . التحرر الذى تنكره على الإنسان فى القرن العشرين

Marfat.com

مذاهب معتسفة ونظم مذلة ؛ لاتسمح لهذا الكائن الذى كرمه الله ـ باختياره لعقيدته ـ أن ينطوى ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ماتمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية ، وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها ؛ فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا ـ وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون ـ وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب !

إن حرية الاعتقاد هى أول حقوق « الإنسان » التى يثبت له بها وصف « إنسان » . فالذى يسلب إنسانا حرية الاعتقاد ، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء . . ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة . . وإلا فهى حرية بالاسم لامدلول لها فى واقع الحياة .

والإسلام ـ وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإنسانى بلا مراء ـ هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ؛ وهو الذى يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين . . فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتسفة وهى تفرض فرضا بسلطان الدولة ؛ ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ؟ !

والتعبير هنا يرد فى صورة النفى المطلق : « لا إكراه فى الدين » . . نفى الجنس كما يقول النحويون . . أى نفى جنس الإكراه . نفى كونه ابتداء . فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع . وليس مجرد نهى عن مزاولته . والنهى فى صورة النفى ـ والنفى للجنس ـ أعمق إيقاعا وآكد دلالة .

ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشرى لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان التى أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول :

« قد تبين الرشد من الغى » . .

فالإيمان هو الرشد الذى ينبغى للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه . والكفر هو الغى الذى ينبغى للإنسان أن ينفر منه ويتقى أن يوصم به .

والأمر كذلك فعلا . فما يتدبر الإنسان نعمة الإيمان ، وما تمنحه للإدراك البشرى من تصور ناصع واضح ، وما تمنحه للقلب البشرى من طمأنينة وسلام ، وما تثيره فى النفس البشرية من إهتمامات رفيعة ومشاعر نظيفة ، وما تحققه فى المجتمع الإنسانى من نظام سليم

Marfat.com

قوم دافع إلى تنمية الحياة وترقية الحياة . . مايتدبر الإنسان نعمة الإيمان على هذا النحو حتى يجد فيها الرشد الذى لايرفضه إلا سفيه ، يترك الرشد إلى الغى ، ويدع الهدى إلى الضلال ، ويؤثر التخبط والقلق والهبوط والضآلة على الطمأنينة والسلام والرفعة والاستعلاء !

ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحا وتحديدا وبيانا :

« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها » . .

إن الكفر ينبغى أن يوجه إلى مايستحق الكفر ، وهو « الطاغوت » . وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو « الله » .

والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل مايطغى على الوعى ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التى رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة فى الله ، ومن الشريعة التى يسنها الله ، ومنه كل منهج غير مستمد من الله ، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لايستمد من الله . فمن يكفر بهذا كله فى كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجا . . وتتمثل نجاته فى استمساكه بالعروة الوثقى لاانفصام لها .

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية . . إن الإيمان بالله عروة وثيقة لاتنفصم أبدا . . إنها متينة لاتنقطع . . ولا يضل الممسك بها طريق النجاة . . إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة . . والإيمان فى حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التى تقوم بها سائر الحقائق فى هذا الوجود . . حقيقة الله . . واهتداء إلى حقيقة الناموس الذى سنه الله لهذا الوجود ، وقام به هذا الوجود . والذى يمسك بعروته يمضى على هدى إلى ربه ؛ فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال .

« والله سميع عليم » . .

يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب . فالمؤمن الموصول به لا يُبخس ولا يظلم ولا يخيب .

ثم يمضى السياق يصور فى مشهد حسى حى متحرك طريق الهدى وطريق الضلال ؛ وكيف يكون الهدى وكيف يكون الضلال . . يصور كيف يأخذ الله — ولى الذين آمنوا — بأيديهم ،

Marfat.com

فيخرجهم من الظلمات إلى النور . بينما الطواغيت ـ أولياء الذين كفروا ـ تأخذ بأيديهم فتخرجهم من النور إلى الظلمات !

إنه مشهد عجيب حى موح . والخيال يتبع هؤلاء وهؤلاء ، جيئة من هنا وذهابا من هناك . بدلا من التعبير الذهنى المجرد ، الذى لا يحرك خيالا ، ولا يلمس حسا ، ولا يستجيش وجدانا ، ولا يخاطب إلا الذهن بالمعانى والألفاظ .

فإذا أردنا أن ندرك فضل طريقة التصوير القرآنية ، فلنحاول أن نضع فى مكان هذا المشهد الحى تعبيرا ذهنيا أيا كان . لنقل مثلا : الله ولى الذين آمنوا يهديهم إلى الإيمان . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يقودونهم إلى الكفران . . إن التعبير يموت بين أيدينا ، ويفقد مافيه من حرارة وحركة وإيقاع (١) !

وإلى جانب التعبير المصور الحى الموحى نلتقى بدقة التعبير عن الحقيقة :

« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » . .

إن الإيمان نور . . نور واحد فى طبيعته وحقيقته . . وإن الكفر ظلمات . . ظلمات متعددة متنوعة . ولكنها كلها ظلمات .

وما من حقيقة أصدق ولا أدق من التعبير عن الإيمان بالنور ، والتعبير عن الكفر بالظلمة .

إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق فى ضميره . تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورا ووضاءة ووضوحا . . نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات ، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش ، بينة بغير لبس ، مستقرة فى مواضعها بغير أرجحة ؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع فى هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه . . نور يكشف الطريق إلى الناموس الكونى فيطابق المؤمن بين حركته وحركة الناموس الكونى من حوله ومن خلاله ؛ ويمضى فى طريقه إلى الله هينا لينا لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات ، ولا يخبط هنا وهناك . فالطريق فى فطرته مكشوف معروف .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . .

Marfat.com

وهو نور واحد يهدى إلى طريق واحد . فأما ضلال الكفر فظلمات شتى منوعة . . ظلمة الهوى والشهوة . وظلمة الشرود والتيه . وظلمة الكبر والطغيان . وظلمة الضعف والذلة . وظلمة الرياء والنفاق . وظلمة الطمع والسعر . وظلمة الشك والقلق . . . وظلمات شتى لايأخذها الحصر تتجمع كلها عند الشرود عن طريق الله ، والتلقى من غير الله ، والاحتكام لغير منهج الله . . وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذى لايتعدد . نور الحق الواحد الذى لا يتلبس . حتى يدخل فى الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف . . وكلها ظلمات . . !

والعاقبة هى اللائقة بأصحاب الظلمات :

« أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . . وإذ لم يهتدوا بالنور ، فليخلدوا إذن فى النار !

إن الحق واحد لايتعدد والضلال ألوان وأنماط . . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

* * *

وقبل أن ننتقل من هذا الدرس يحسن أن نقول كلمة عن قاعدة : « لا إكراه فى الدين » إلى جوار فرضية الجهاد فى الإسلام ، والمواقع التى خاضها الإسلام . وقوله تعالى فى آية سابقة : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » . .

إن بعض المغرضين من أعداء الإسلام يرمونه بالتناقض ؛ فيزعمون أنه فرض بالسيف ، فى الوقت الذى قرر فيه : أن لا إكراه فى الدين . . أما بعضهم الآخر فيتظاهر بأنه يدفع عن الإسلام هذه التهمة ؛ وهو يحاول فى خبث أن يخمد فى حس المسلم روح الجهاد ؛ ويهون من شأن هذه الأداة فى تاريخ الإسلام وفى قيامه وانتشاره . ويوحى إلى المسلمين ـ بطريق ملتوية ناعمة ماكرة ـ أن لاضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة ! وذلك كله فى صورة من يدفع التهمة الجارحة عن الإسلام [1] ! . .

وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملون فى حقل واحد فى حرب الإسلام ، وتحريف منهجه ، وقتل إيحاءاته الموحية فى حس المسلمين ، كى يأمنوا انبعاث هذا الروح ، الذى

(١) فى مقدمة هؤلاء سير ت . و . أرنولد صاحب كتاب : « الدعوة إلى الإسلام » ترجمة الدكتور إبراهيم حسن وأخيه .

Marfat.com

لم يقفوا له مرة فى ميدان ! والذى أمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل ، وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية فى كل مكان ! وألقوا فى خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضى الجهاد ! إنما هى فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد . . ومن ثم فلا داعى للجهاد !

لقد انتضى الإسلام السيف ، وناضل وجاهد فى تاريخه الطويل . لا ليكره أحدا على الإسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضى الجهاد .

جاهد الإسلام أولا ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التى كانوا يسامونها ؛ وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم . وقرر ذلك المبدأ العظيم الذى سلف تقريره فى هذه السورة - فى الجزء الثانى - « والفتنة أشد من القتل » .. فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها ، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها . فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم . وإذا كان المؤمن مأذونا فى القتال ليدفع عن حياته وعن ماله ، فهو من باب أولى مأذون فى القتال ليدفع عن عقيدته ودينه . . وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون ، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز مايملكون . يسامون الفتنة عن عقيدتهم ، ويؤذون فيها فى مواطن من الأرض شتى . وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشى والتقتيل الجماعى لفتنة المسلمين عن دينهم ، وفتنة أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ليرتدوا إلى الكثلكة ، ماترك أسبانيا اليوم ولا ظل فيها للإسلام ! ولا للمذاهب المسيحية الأخرى ذاتها ! كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التى لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها ؛ والتى خاضها المسلمون فى هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها ؛ وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم . . وما يزال المسلمون يسامون الفتنة فى أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية[1] فى أنحاء من الأرض شتى . .

وما يزال الجهاد مفروضا عليهم لرد هذه الفتنة إن كانوا حقا مسلمين !

وجاهد الإسلام ثانيا لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة ، وبأرقى نظام لتطوير الحياة . جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية

---

(١) تراجع فى كتاب « دراسات إسلامية » للمؤلف الفصول الخمسة بعنوان : « المسلمون متعصبون !!! »

Marfat.com

كلها ؛ ويبلغه إلى أسماعها وإلى قلوبها . فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولا إكراه فى الدين . ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة ؛ كما جاء من عند الله للناس كافة . وأن تزول الحواجز التى تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا . ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية فى الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا . فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية ؛ وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق فى كل مكان وحرية الدعاة . . وما يزال هذا الهدف قائما ، وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين !

وجاهد الإسلام ثالثا ليقيم فى الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه . . وهو وحده النظام الذى يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان ؛ حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ؛ ويلغى من الأرض عبودية البشر للبشر فى جميع أشكالها وصورها . فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس ، وتستذلهم عن طريق التشريع . إنما هنالك رب واحد للناس جميعا هو الذى يشرع لهم على السواء ، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع ، كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء . فلا طاعة فى هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة الله ، موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ . حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء ، لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها ، وهو مظهر الألوهية فى حياة البشر ، فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعى لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد !

هذه هى قاعدة النظام الربانى الذى جاء به الإسلام . وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاق نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان ، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام ، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام ، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن فى الوطن الإسلامى أيا كانت عقيدته . ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام ، ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ .

جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع فى الأرض ويقرره ويحميه . وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التى تقوم على عبودية البشر للبشر ، والتى يدعى فيها العبيد مقام

Marfat.com

الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية ـ بغير حق ـ ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه العداء . ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع في الأرض . . ثم يدع الناس في ظله أحرارا في عقائدهم الخاصة . لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية . أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار . وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار ، يزاولونها وفق عقائدهم ؛ والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمى حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم ، ويصون لهم حرماتهم ، في حدود ذلك النظام .

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هـذا النظام الرفيع مفروضا على المسلمين : « حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » . . فلا تكون هناك ألوهة للعبيد في الأرض ، ولا دينونة لغير الله (١) . .

لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة ؛ ولم ينتشر بالسيف على هـذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه ! إنما جاهد ليقيم نظاما آمنا يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعا ، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته .

وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم ، واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم . وإقامة هذا النظام الصالح وحمايته . ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية ، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أخبث أعدائه أن يوحوا للمسلمين ! . .

لابد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة ، ولا بد للإسلام من جهاد . فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود .

« لا إكراه في الدين » . . نعم ولكن : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » . .

وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام . . وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم ، وحقيقة تاريخهم ؛ فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع ؛ إنما يقفون به دائما موقف

---

(١) لزيادة الإيضاح في شأن الجهاد يراجع كتاب « الجهاد » للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي . وكتاب : « السلام العالمي في الإسلام » للمؤلف .

Marfat.com

للمطمئن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعا ، وعلى نظم الأرض جميعا ، وعلى مذاهب الأرض جميعا . . ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله ؛ والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي ؛ والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به ؛ والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من يحرمها منه ، ويحول بينها وبينه. فهذا هو أعدى أعداء البشرية ، الذي ينبغي أن تطارده البشرية لو رشدت وعقلت : وإلى أن ترشد البشرية وتعقل ، يجب أن يطارده المؤمنون ، الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الإيمان، فذلك واجبهم لأنفسهم وللبشرية كلها ، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله . .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ؟ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ . فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

« أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ . قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ـ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ـ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ . قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ! وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٦٠)

Marfat.com

هذه الآيات الثلاث تتناول موضوعا واحدا فى جملته : سر الحياة والموت ، وحقيقة الحياة والموت . وهى بهذا تؤلف جانبا من جوانب التصور الإسلامى ؛ يضاف إلى القواعد التى قررتها الآيات السابقة منذ مطلع هذا الجزء ؛ وتتصل اتصالا مباشرا بآية الكرسى وما قررته من صفات الله تعالى .. وهى جميعا تمثل جانبا من جوانب الجهد الطويل المتجلى فى القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود فى ضمير المسلم وفى إدراكه . الأمر الذى لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالا بصيرا ، منبثقا من الرؤية الصحيحة الواضحة ، وقائما على اليقين الثابت المطمئن . فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب .. ليست بمعزل عن التصور الاعتقادى ؛ بل هى قائمة عليه ، مستمدة منه . وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلا أن ترتبط بالعقيدة ، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذى وهبه الوجود .. ومن ثم هذا التركيز القوى على إيضاح قواعد التصور الاعتقادى الذى استغرق القرآن المكى كله ؛ وما يزال يطالع الناس فى القرآن المدنى بمناسبة كل تشريع وكل توجيه فى شؤون الحياة جميعا .

والآية الأولى تحكى حوارا بين إبراهيم عليه السلام - وملك فى أيامه يجادله فى الله . لا يذكر السياق اسمه ، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التى تمثلها الآية شيئا . وهذا الحوار يعرض على النبى - صلى الله عليه وسلم - وعلى الجماعة المسلمة فى أسلوب التعجيب من هذا المجادل ، الذى حاج إبراهيم فى ربه ؛ وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآنى العجيب :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؟ إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت ! قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر . والله لا يهدى القوم الظالمين » ..

إن هذا الملك الذى حاج إبراهيم فى ربه لم يكن منكرا لوجود الله أصلا إنما كان منكرا لوحدانيته فى الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده ، كما كان بعض المنحرفين فى الجاهلية يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أندادا ينسبون إليها فاعلية وعملا فى حياتهم ! وكذلك كان منكرا أن الحاكمية لله وحده ، فلا حكم إلا حكمه فى شؤون الأرض وشريعة المجتمع .

Marfat.com

إن هـذا الملك المنكر المتعنت إنما ينـكر ويتعنت للسبب الذى كان ينبغى من أجـله أن يؤمن ويشكر . هذا السبب هو « أن آتاه الله الملك » . . وجعل فى يده السلطان ! لقد كان ينبغى أن يشكر ويعترف ، لولا أن الملك يُطغى ويبطر من لايقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام . ومن ثم يضعون الـكفر فى موضع الشكر ؛ ويضلون بالسبب الذى كان ينبغى أن يـكونوا به مهتدين ! فهم حاكون لأن الله حكمهم ، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم . فهم كالناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله ، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء !

ومن ثم يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ؟ » . .

ألم تر ؟ إنه تعبير التشنيع والتفظيع ؛ وإن الإنـكار والاستـنكار لينطلقان من بنائه اللفظى وبنائه المعنوى سواء . فالفعلة منـكرة حقا : أن يأتى الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء ! وأن يدعى عبد لنفسه ماهو من اختصاص الرب ، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله .

« قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت » . .

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان فى كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما — فى الوقت نفسه — السر الذى يحير ، والذى يلجىء الادراك البشرى إلجاء إلى مصدر آخر غير بشرى . وإلى أمر آخر غير أمر الخلائق . ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذى يعجز عنه كل الأحياء .

إننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة . ولـكننا ندرك مظاهرهما فى الأحياء والأموات . ونحن ملزمون أن نـكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التى نعرفها على الإطلاق . . قوة الله . .

ومن ثم عرّف إبراهيم — عليه السلام — ربه بالصفة التى لايمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية وراء مصدر الحكم والتشريع غيره . . قال : « ربى الذى يحيي ويميت » فهو من ثم الذى يحكم ويشرع .

Marfat.com

وما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التى أشرنا إليها فى مطلع هذا الجزء ـ ليعنى من الإحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء . فذلك عمل الرب المتفرد الذى لايشاركه فيه أحد من خلقه . ولكن الذى حاج إبراهيم فى ربه رأى فى كونه حاكما لقومه وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية . فقال لإبراهيم : أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف فى شأنهم ، فأنا إذن الرب الذى يجب عليك أن تخضع له ، وتسلم بحاكميته :

« قال : أنا أحي وأميت » !

عند ذلك لم يرد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يسترسل فى جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يمارى ويداور فى تلك الحقيقة الهائلة . حقيقة منح الحياة وسلبها . هذا السر الذى لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئا . . وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية ؛ وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية فى قوله : « ربى الذى يحي ويميت » . . إلى طريقة التحدى ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل فى الله ؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم فى ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله . ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم :

« قال : إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » . .

وهى حقيقة كونية مكرورة كذلك ؛ تطالع الأنظار والمدارك كل يوم ؛ ولا تتخلف مرة ولا تتأخر . وهى شاهد يخاطب الفطرة ـ حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون ، ولم يتعلم شيئا من حقائق الفلك ونظرياته ـ والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى فى أية مرحلة من مراحل نموه العقلى والثقافى والاجتماعى ، لتأخذ بيده من الموضع الذى هو فيه . ومن ثم كان هذا التحدى الذى يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذى لايقبل الجدل :

« فبهت الذى كفر » . .

فالتحدى قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم ، أو الجدال والمراء . . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر ، فيبهت

Marfat.com

ويلبس ويتحير . ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب فى الحق ؛ ولم يلتزم القصد والعدل :

« والله لا يهدى القوم الظالمين » . .

ويمضى هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – وعلى الجماعة المسلمة ، مثلا للضلال والعناد ؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين ؛ وفى ترويض النفوس على تعنت المنكرين !

كذلك يمضى بتقرير تلك الحقائق التى تؤلف قاعدة التصور الإيمانى الناصع : « ربى الذى يحيي ويميت » . . « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ! » . . حقيقة فى الأنفس وحقيقة فى الآفاق . حقيقتان كونيتان هائلتان ؛ وهما – مع ذلك – مكرورتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار . لاتحتاجان إلى علم غزير ، ولا إلى تفكير طويل . فالله أرحم بعباده أن يكلهم فى مسألة الإيمان به والاهتداء إليه ، إلى العلم الذى قد يتأخر وقد يتعثر ، وإلى التفكير الذى قد لايتهيأ للبدائيين . إنما يكلهم فى هذا الأمر الحيوى الذى لا تستغنى عنه فطرتهم ، ولا تستقيم بدونه حياتهم ، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم . . ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم . . يكلهم فى هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع ، والتى تفرض نفسها فرضا على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلا بعسر ومشقة ومحاولة ومحال وتعنت وعناد !

والشأن فى مسألة الاعتقاد هو الشأن فى كل أمر حيوى تتوقف عليه حياة الكائن البشرى ، فالكائن الحى يبحث عن الطعام والشراب والهواء – كما يبحث عن التناسل والتكاثر – بحثا فطريا ، ولا يترك الأمر فى هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر . . وإلا تعرضت حياة الكائن الحى إلى الدمار والبوار . . والإيمان حيوى للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء . ومن ثم يكله الله فيه إلى تلاقى الفطرة بآياته المبثوثة فى صفحات الكون كله فى الأنفس والآفاق .

* * *

وفى سياق الحديث عن سر الموت والحياة تجيء القصة الأخرى :

Marfat.com

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيي هـذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مئة عام ، ثم بعثه . قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ! قال : بل لبثت مئة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ؟ وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما . فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شىء قدير » . .

من هو « الذى مر على قرية » ؟ ماهذه القرية التى مر عليها وهى خاوية على عروشها ؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئا ، ولو شاء الله لأفصح ، ولو كانت حكمة النص لاتتحقق إلا بهذا الإفصاح ماأهمله فى القرآن . فلنقف نحن ـ على طريقتنا فى هذه الظلال ـ عند تلك الظلال . إن المشهد ليرتسم للحس قويا واضحا موحيا . مشهد الموت والبلى والخواء . . يرتسم بالوصف : « وهى خاوية على عروشها » . . محطمة على قواعدها . ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذى مر على القرية . هذه المشاعر التى ينضح بها تعبيره : « أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ » . .

إن القائل ليعرف أن الله هناك . ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه جعله يحار : كيف يحيي هـذه الله بعد موتها ؟ وهـذا أقصى مايبلغه مشهد من العنف والعمق فى الإيحاء . . وهكذا يلقى التعبير القرآنى ظلاله وإيحاءاته ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر .

« أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ » . .

كيف تدب الحياة فى هذا الموات ؟

« فأماته الله مئة عام . ثم بعثه » . .

لم يقل له كيف . إنما أراه فى عالم الواقع كيف ! فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لاتعالج بالبرهان العقلى ، ولا حتى بالمنطق الوجدانى ؛ ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان . . إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التى يمتلىء بها الحس ، ويطمئن بها القلب ، دون كلام !

« قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم ! » . .

وما يدريه كم لبث والإحساس بالزمن لايكون إلا مع الحياة والوعى ؟ على أن الحس الإنسانى

Marfat.com

ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة ؛ فهو يخدع ويضل ؛ فيرى الزمن الطويل المديد قصيرا لملابسة طارئة ؛ كما يرى اللحظة الصغيرة دهرا طويلا لملابسة طارئة كذلك !

« قال : بل لبثت مئة عام » . .

وتبعا لطبيعة التجربة ، وكونها تجربة حسية واقعية ، نتصور أنه لابد كانت هنالك آثار محسوسة تصور فعل مئة عام . . هذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعام الرجل ولا شرابه ، فلم يكونا آسنين متعفنين :

« فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه » . .

وإذن فلا بد أن هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة فى شخصه أو فى حماره :

« وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » . .

أية عظام ؟ عظامه هو ؟ لو كان الأمر كذلك ـ كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هى التى تعرت من اللحم ـ للفت هذا نظره عندما استيقظ ، ووخز حسه كذلك ؛ ولما كانت إجابته: « لبثت يوما أو بعض يوم » .

لذلك نرجح أن الحمار هو الذى تعرت عظامه وتفسخت . ثم كانت الآية هى ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن . ليكون هذا التباين فى المصائر والجميع فى مكان واحد ، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أخرى على القدرة التى لا يعجزها شىء ، والتى تتصرف مطلقة من كل قيد ؛ وليدرك الرجل كيف يحيى هذه الله بعد موتها !

أما كيف وقعت الخارقة ؟ فكما تقع كل خارقة ! كما وقعت خارقة الحياة الأولى . الخارقة التى ننسى كثيرا أنها وقعت ، وأننا لا ندرى كيف وقعت ! ولا ندرى كذلك كيف جاءت إلا أنها جاءت من عند الله بالطريق التى أرادها الله . . وهذا « دارون » أكبر علماء الحياة يظل ينزل فى نظرته بالحياة درجة درجة ، ويتعمق أغوارها قاعا قاعا ، حتى يردها إلى الخلية الأولى . . ثم يقف بها هناك . إنه يجهل مصدر الحياة فى هذه الخلية الأولى . ولكنه لا يريد أن يسلم بما ينبغى أن يسلم به الإدراك البشرى ، والذى يلح على المنطق الفطرى إلحاحا شديدا .

Marfat.com

وهو أنه لابد من واهب وهب الحياة لهذه الخلية الأولى . لايريد أن يسلم لأسباب ليست علمية وإنما هى تاريخية فى صراعه مع الكنيسة ! فإذا به يقول : « إن تفسير شؤون الحياة بوجود خالق يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت ! » . .

أى وضع ميكانيكى ! إن الميكانيكية هى أبعد شىء عن هذا الأمر الذى يفرض على الإدراك فرضا أن يبحث عن مصدر لهذا السر القائم تجاه الأبصار والبصائر !

وإنه ـ هو نفسه ـ ليجفل من ضغط المنطق الفطرى ، الذى يلجىء الإدراك البشرى إلجاء إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى ؛ فيرجع كل شىء إلى « السبب الأول » ! ولا يقول : ماهو هـذا السبب الأول ؟ ما هو هـذا السبب الذى يملك إيجاد الحياة أول مرة ؟ ثم يملك ـ حسب نظريته هو وهى محل نظر طويل ـ توجيه الخلية الأولى فى طريقها الذى افترض هو أنها سارت فيه صعدا ، دون أى طريق آخر غير الذى كان !

إنه الهروب والمراء والمحال [١] ! ! !

ونعود إلى خارقة القرية لنسأل : وما الذى يفسر أن ينال البلى شيئا ويترك شيئا فى مكان واحد وفى ظروف واحـدة ؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجمها كذلك لاتفسر هذا الاختلاف فى مصائر أشياء ذات ظروف واحدة .

إن الذى يفسر هذه الظاهرة هو طلاقة المشيئة . . طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانونا كليا لازما ملزما لاسبيل إلى مخالفته أو الاستثناء منه ! وحسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة : خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو « العلمية ! » على الله سبحانه ! وهو خطأ يتمثل فى أخطاء كثيرة :

فأولا : مالنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه ؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك ؟

وثانيا : فهبه قانونا من قوانين الكون أدركناه . فمن ذا الذى قال لنا : إنه قانون نهائى كلى مطلق ، وأن ليس وراءه قانون سواه ؟

---

(١) يراجع بتوسع فصل « فرويد » فى كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام »

Marfat.com

وثالثا : هبه كان قانونا نهائيا مطلقا . فالمشيئة الطليقة تنشىء القانون ولكنها ليست مقيدة به . . إنما هو الاختيار في كل حال .

وكذلك تمضي هذه التجربة ، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد ، وإلى رصيد التصور الإيماني الصحيح . وتقرر ـ إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردها إلى الله ـ حقيقة أخرى هي التي أشرنا إليها قريبا . حقيقة طلاقة المشيئة ، التي يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها في ضمائر المؤمنين به ؛ لتتعلق بالله مباشرة ، من وراء الأسباب الظاهرة ، والمقدمات المنظورة . فالله فعال لما يريد . وهكذا قال الرجل الذي مرت به التجربة :

« فلما تبين له ، قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير » . .

* * *

ثم تجيء التجربة الثالثة . تجربة إبراهيم أقرب الأنبياء إلى أصحاب هذا القرآن :

« وإذ قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير ، فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ؛ ثم ادعهن يأتينك سعيا ؛ واعلم أن الله عزيز حكيم » . .

إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية . وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل . . حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحيانا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين !

إنه تشوف لايتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ؛ وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان . . إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر . . إنه أمر الشوق الروحي ، إلى ملابسة السر الإلهي ، في أثناء وقوعه العملي . ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل ، الذي يقول لربه ، ويقول له ربه . وليس وراء هذا إيمان ، ولا برهان للإيمان . ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ؛ ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها . . وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان . .

Marfat.com

وقد كشفت التجربة والحوار الذى حكى فيها عن تعدد المذاقات الإيمانية فى القلب الذى يتشوف إلى هذه المذاقات ويتطلع :

« وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي » . .

لقد كان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ؛ واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يجلى ويتكشف . ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله . ولكنه سؤال الكشف والبيان ، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه ، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم ، مع عبده الأواه الحليم المنيب !

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم ، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة :

« قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ؛ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ؛ ثم ادعهن يأتينك سعيا . واعلم أن الله عزيز حكيم » . .

لقد أمره أن يختار أربعة من الطير ، فيقربهن منه ويميلهن إليه ، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التى لا يخطىء معها معرفتهن . وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة . ثم يدعوهن . فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى ، وترتد إليهن الحياة ، ويعدن إليه ساعيات . . وقد كان طبعا . .

ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه . وهو السر الذى يقع فى كل لحظة . ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه . إنه سر هبة الحياة . الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن ؛ والتى تنشأ مرات لا حصر لها فى كل حى جديد .

رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه . . طيور فارقتها الحياة ، وتفرقت مزقها فى أماكن متباعدة . تدب فيها الحياة مرة أخرى ، وتعود إليه سعيا !

كيف ؟ هذا هو السر الذى يعلو على التكوين البشرى إدراكه . إنه قد يراه كما رآه إبراهيم . وقد يصدق به كما يصدق به كل مؤمن . ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته . إنه من أمر الله . والناس لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه ، لأنه أكبر منهم ، وطبيعته غير طبيعتهم . ولا حاجة لهم به فى خلافتهم

Marfat.com

إنه الشأن الخاص للخالق . الذى لاتتطاول إليه أعناق المخلوقين . فإذا تطاولت لم تجد إلا الستر المسدل على السر المحجوب . وضاعت الجهود سدى ، جهود من لايترك الغيب المحجوب لعلام الغيوب !

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ؛ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ؟ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ؛ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ، وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ؛

Marfat.com

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ . وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ . وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ؛ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ؛ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ؛ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ؛ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

« الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢٧٤)

كانت الدروس الثلاثة الماضية فى هذا الجزء تدور ــ فى جملتها ــ حول إنشاء بعض قواعد التصور الإيمانى ؛ وإيضاح هذا التصور ؛ وتعميق جذوره فى نواح شتى . وكان هذا خطا فى خط السورة الطويلة ؛ التى تعالج ــ كما أسلفنا ــ إعداد الجماعة المسلمة للنهوض بتكاليف دورها فى قيادة البشرية .

ومنذ الآن إلى قرب نهاية السورة يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادى الاجتماعى الذى يريد الإسلام أن يقوم عليها المجتمع المسلم ؛ وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة . إنه نظام

Marfat.com

التكافل والتعاون الممثل فى الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع . وليس النظام الربوى الذى كان سائدا فى الجاهلية . ومن ثم يتحدث عن آداب الصدقة . ويلعن الربا ، ويقرر أحكام الدين والتجارة فى الدروس الآتية فى السورة . وهى تكون فى مجموعها جانبا أساسيا من نظام الاقتصاد الإسلامى والحياة الاجتماعية التى تقوم عليها . وبين الدروس الثلاثة الآتية صلة وثيقة فهى ذات موضوع واحد متشعب الأطراف . . موضوع النظام الاقتصادى الإسلامى .

وفى هذا الدرس نجد الحديث عن تكليف البذل والإنفاق ، ودستور الصدقة والتكافل . والإنفاق فى سبيل الله هو صنو الجهاد الذى فرضه الله على الأمة المسلمة ، وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة إليه ، وحماية المؤمنين به ، ودفع الشر والفساد والطغيان ، وتجريده من القوة التى يسطو بها على المؤمنين ، ويفسد بها فى الأرض ، ويصد بها عن سبيل الله ، ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذى يحمله إليها نظام الإسلام ، والذى يعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة ، واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال .

ولقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق فى السورة . فالآن يرسم السياق دستور الصدقة فى تفصيل وإسهاب . يرسم هذا الدستور مظللا بظلال حبيبة أليفة ؛ ويبين آدابها النفسية والاجتماعية . الآداب التى تحوّل الصدقة عملا تهذيبيا لنفس معطيها ؛ وعملا نافعا مربحا لآخذيها ؛ وتحوّل المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل ، والتواد والتراحم ؛ وترفع البشرية إلى مستوى كريم : المعطى فيه والآخذ على السواء .

ومع أن التوجيهات التى وردت فى هذا الدرس تعد دستورا دائما غير مقيد بزمن ولا بملابسات معينة ، إلا أنه لايفوتنا أن نلمح من ورائه أنه جاء تلبية لحالات واقعة كانت النصوص تواجهها فى الجماعة المسلمة يومذاك — كما أنها يمكن أن تواجهها فى أى مجتمع مسلم فيما بعد — وأنه كانت هناك نفوس شحيحة ضنينة بالمال تحتاج إلى هذه الإيقاعات القوية ، والإيحاءات المؤثرة ؛ كما تحتاج إلى ضرب الأمثال ، وتصوير الحقائق فى مشاهد ناطقة كيما تبلغ إلى الأعماق !

كان هناك من يضن بالمال . فلا يعطيه إلا بالربا . وكان هناك من ينفقه كارها أو مرائيا . وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى . وكان هناك من يقدم الردىء من ماله ويحتجز الجيد . .

Marfat.com

وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين فى سبيل الله مخلصين له ، الذين يجودون بخير أموالهم ، وينفقون سرا فى موضع السر وعلانية فى موضع العلانية فى تجرد وإخلاص ونقاء ..

كان هؤلاء وكان أولئك فى الجماعة المسلمة حينذاك . وإدراك هذه الحقيقة يفيدنا فوائد كثيرة . .

يفيدنا أولا فى إدراك طبيعة هذا القرآن ووظيفته . فهو كائن حى متحرك . ونحن نراه فى ظل هذه الوقائع يعمل ويتحرك فى وسط الجماعة المسلمة ؛ ويواجه حالات واقعة فيدفع هذه ويقر هذه ؛ ويدفع الجماعة المسلمة ويوجهها . فهو فى عمل دائب ، وفى حركة دائبة . . إنه فى ميدان المعركة وفى ميدان الحياة .. وهو العنصر الدافع المحرك الموجه فى الميدان !

ونحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن على هذا النحو ؛ وإلى رؤيته كائنا حيا متحركا دافعا . فقد بعد العهد بيننا وبين الحركة الإسلامية والحياة الإسلامية والواقع الإسلامى ؛ وانفصل القرآن فى حسنا عن واقعه التاريخى الحى ؛ ولم يعد يمثل فى حسنا تلك الحياة التى وقعت يوما ما على الأرض ، فى تاريخ الجماعة المسلمة ؛ ولم نعد نذكر أنه كان فى أثناء تلك المعركة المستمرة هو « الأمر اليومى » للمسلم الجند ؛ وهو التوجيه الذى يتلقاه للعمل والتنفيذ . . مات القرآن فى حسنا .. أو نام . . ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التى كانت له عند نزوله فى حس المسلمين . ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيلا منغما نطرب له ، أو نتأثر التأثر الوجدانى الغامض السارب ! وإما أن نقرأه أورادآ أقصى ماتصنع فى حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشىء فى القلب حالةمن الوجد أوالراحة أوالطمأنينة المبهمة المجملة .. والقرآن ينشىء هذا كله . ولكن المطلوب ـ إلى جانب هذا كله ـ أن ينشىء فى المسلم وعيا وحياة . نعم المطلوب أن ينشىء حالة وعى يتحرك معها القرآن حركة الحياة التى جاء لينشئها . المطلوب أن يراه المسلم فى ميدان المعركة التى خاضها ، والتى لايزال مستعدا لأن يخوضها فى حياة الأمة المسلمة. المطلوب أن يتوجه إليه المسلم ليسمع منه ماذا ينبغى أن يعمل ـ كما كان المسلم الأول يفعل ـ وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى فى الحياة ؛ وليرى تاريخ الجماعة المسلمة ممثلا فى هذا القرآن ، متحركا فى كلماته وتوجيهاته ؛ فيحس حينئذ أن هذا التاريخ ليس غريبا عنه . فهو تاريخه . وواقعه اليوم هو امتداد لهذا التاريخ . وما يصادفه

Marfat.com

اليوم من أحداث هو ثمرة لما صادف أسلافه ، مما كان القرآن يوجههم إلى التصرف فيه تصرفا معينا . ومن ثم يحس أن هـذا القرآن قرآنه هو كذلك . قرآنه الذى يستشيره فيما يعرض له من أحداث وملابسات ؛ وأنه هو دستور تصوره وتفكيره وحياته وتحركاته الآن وبعد الآن بلاانقطاع .

ويفيدنا ثانيا فى رؤية حقيقة الطبيعة البشرية الثابتة المطردة تجاه دعوة الإيمان وتكاليفها . رؤيتها رؤية واقعية من خلال الواقع الذى تشير إليه الآيات القرآنية فى حياة الجماعة المسلمة الأولى . . فهذه الجماعة التى كان يتنزل عليها القرآن ، ويتعهدها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان فيها بعض مواضع الضعف والنقص التى تقتضى الرعاية والتوجيه والإيحاء المستمر . ولم يمنعها هذا أن تكون خير الأجيال جميعا . . وإدراك هذه الحقيقة ينفعنا . ينفعنا لأنه يرينا حقيقة الجماعات البشرية بلاغلو ولامبالغة ولاهالات ولاتصورات مجنحة ! وينفعنا لأنه يدفع عن نفوسنا اليأس من أنفسنا حين نرى أننا لم نبلغ تلك الآفاق التى يرسمها الإسلام ويدعو الناس إلى بلوغها . فيكفى أن نكون فى الطريق ، وأن تكون محاولتنا مستمرة ومخلصة للوصول . . وينفعنا فى إدراك حقيقة أخرى : وهى أن الدعوة إلى الكمال يجب أن تلاحق الناس ، ولاتفتر ولاتنى ولاتيئس إذا ظهرت بعض النقائص والعيوب . فالنفوس هكذا . وهى ترتفع رويدا رويدا بمتابعة الهتاف لها بالواجب ، ودعوتها إلى الكمال المنشود ، وتذكيرها الدائم بالخير ، وتجميل الخير لها وتقبيح الشر ، وتنفيرها من النقص والضعف ، والأخذ بيدها كلما كبت فى الطريق ، وكلما طال بها الطريق !

ويفيدنا ثالثا فى الاستقرار إلى هذه الحقيقة البسيطة التى كثيرا ماننفل عنها وننساها: وهى أن الناس هم الناس ؛ والدعوة هى الدعوة ؛ والمعركة هى المعركة . . إنها أولا وقبل كل شىء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص فى داخل النفس . ثم هى معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان فى واقع الحياة . والمعركة بطرفيها لابد من خوضها . ولابد للقائمين على الجماعة المسلمة فى الأرض من مواجهتها بطرفيها كما واجهها القرآن أول مرة وواجهها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولابد من الأخطاء والعثرات . ولابد من ظهور الضعف والنقص فى مراحل الطريق ؛ ولابد من المضى أيضا فى علاج الضعف والنقص كلما أظهرتهما الأحداث

Marfat.com

والتجارب . ولابد من توجيه القلوب إلى الله بالأساليب التى اتبعها القرآن فى التوجيه . . وهنا نرجع إلى أول الحديث . نرجع إلى استشارة القرآن فى حركات حياتنا وملابساتها . وإلى رؤيته يعمل ويتحرك فى مشاعرنا وفى حياتنا كما كان يعمل ويتحرك فى حياة الجماعة الأولى . .

* * *

والآن نواجه النصوص القرآنية فى هذا الدرس تفصيلا :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مئة حبة . والله يضاعف لمن يشاء . والله واسع عليم » . .

إن الدستور لايبدأ بالفرض والتكليف ؛ إنما يبدأ بالحض والتأليف . . إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية فى الكيان الإنسانى كله . . إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة : صورة الزرع . هبة الأرض أو هبة الله . الزرع الذى يعطى أضعاف ما يأخذه ، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره . يعرض هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مئة حبة » . .

إن المعنى الذهنى للتعبير ينتهى إلى عملية حسابية تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمئة حبة ! أما المشهد الحى الذى يعرضه التعبير فهو أوسع من هذا وأجمل ؛ وأكثر استجاشة للمشاعر ، وتأثيرا فى الضمائر . . إنه مشهد الحياة النامية . مشهد الطبيعة الحية . مشهد الزرعة الواهبة . ثم مشهد العجيبة فى عالم النبات : العود الذى يحمل سبع سنابل . والسنبلة التى تحوى مئة حبة !

وفى موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشرى إلى البذل والعطاء . إنه لايعطى بل يأخذ ؛ وإنه لاينقص بل يزاد . . وتمضى موجة العطاء والنماء فى طريقها . تضاعف المشاعر التى استجاشها مشهد الزرع والحصيلة . . إن الله يضاعف لمن يشاء . يضاعف بلاعدة ولاحساب . يضاعف من رزقه الذى لايعلم أحد حدوده ؛ ومن رحمته التى لايعرف أحد مداها :

« والله واسع عليم » . .

Marfat.com

واسع .. لايضيق عطاؤه ولايكف ولاينضب . عليم .. يعلم بالنوايا ويثيب عليها ، ولاتخفى عليه خافية .

ولكن أى إنفاق هذا الذى ينمو ويربو ؟ وأى عطاء هذا الذى يضاعفه الله فى الدنيا والآخرة لمن يشاء ؟

إنه الإنفاق الذى يرفع المشاعر الإنسانية ولايشوبها . الإنفاق الذى لايؤذى كرامة ولايخدش شعورا . الإنفاق الذى ينبعث عن أريحية ونقاء ، ويتجه إلى الله وحده ابتغاء رضاه :

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لايتبعون ماأنفقوا منا ولاأذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » . .

والمن عنصر كريه لئيم ، وشعور خسيس واطٍ . فالنفس البشرية لاتمن بما أعطت إلا رغبة فى الاستعلاء الكاذب ، أو رغبة فى إذلال الآخذ ، أو رغبة فى لفت أنظار الناس . فالتوجه إذن للناس لالله بالعطاء .. وكلها مشاعر لاتجيش فى قلب طيب ، ولاتخطر كذلك فى قلب مؤمن.. فالمن – من ثم – يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء . أذى للواهب بما يثير فى نفسه من كبر وخيلاء ؛ ورغبة فى رؤية أخيه ذليلا له كسيرا لديه ؛ وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله .. وأذى للآخذ بما يثير فى نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد فعل بالحقد والانتقام .. وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة ، وملء البطن ، وتلافى الحاجة .. كلا ! إنما أراده تهذيبا وتزكية وتطهيرا لنفس المعطى ؛ واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير فى الله وفى الإنسانية ؛ وتذكيراً له بنعمة الله عليه وعهده معه فى هذه النعمة أن يأكل منها فى غير سرف ولا مخيلة ، وأن ينفق منها « فى سبيل الله » فى غير منع ولا من . كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ ، وتوثيقا لصلته بأخيه فى الله وفى الإنسانية ؛ وسداً لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون يذكرها بوحدة قوامها ووحدة حياتها ووحدة اتجاهها ووحدة تكاليفها . والمن يذهب بهذا كله ، ويحيل الإنفاق سما ونارا . فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان . هو أذى فى ذاته يمحق الإنفاق ، ويمزق المجتمع ، ويثير السخائم والأحقاد .

Marfat.com

وبعض الباحثين النفسيين في هذه الأيام يقررون أن رد الفعل الطبيعي في النفس البشرية للإحسان هو العداء في يوم من الأيام !

وهم يعللون هذا بأن الآخذ يحس بالنقص والضعف أمام المعطي ؛ ويظل هذا الشعور يحز في نفسه ؛ فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه وإضمار العداوة له ؛ لأنه يشعر دائما بضعفه ونقصه تجاهه ؛ ولأن المعطي يريد منه دائما أن يشعر بأنه صاحب الفضل عليه ! وهو الشعور الذي يزيد من ألم صاحبه حتى يتحول إلى عداء !

وقد يكون هذا كله صحيحا في المجتمعات الجاهلية ـ وهي المجتمعات التي لا تسودها روح الإسلام ولا يحكمها الإسلام ـ أما هذا الدين فقد عالج المشكلة على نحو آخر . عالجها بأن يقرر في النفوس أن المال مال الله ؛ وأن الرزق الذي في أيدي الواجدين هو رزق الله . . وهي الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاهل بأسباب الرزق البعيدة والقريبة ، وكلها منحة من الله لا يقدر الإنسان منها على شيء . وحبة القمح الواحدة قد اشتركت في إيجادها قوى وطاقات كونية من الشمس إلى الأرض إلى الماء إلى الهواء . وكلها ليست في مقدور الإنسان .. وقس على حبة القمح نقطة الماء وخيط الكساء وسائر الأشياء . . فإذا أعطى الواجد من ماله شيئا فإنما من مال الله أعطى ؛ وإذا أسلف حسنة فإنما هي قرض لله يضاعفه له أضعافا كثيرة . وليس المحروم الآخذ إلا أداة وسببا لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله ! ثم شرع هذه الآداب التي نحن الآن بصددها ، توكيدا لهذا المعنى في النفوس ، حتى لا يستعلي معط ولا يتخاذل آخذ . فكلاهما آكل من رزق الله . وللمعطين أجرهم من الله إذا هم أعطوا من مال الله في سبيل الله ؛ متأدبين بالأدب الذي رسمه لهم ، متقيدين بالعهد الذي عاهدهم عليه :

« ولا خوف عليهم » ..

من فقر ولا من حقد ولا من غبن ..

« ولا هم يحزنون » ..

على ما أنفقوا في الدنيا ، ولا على مصيرهم في الآخرة .

وتوكيدا للمعنى الذي سلف من حكمة الإنفاق والبذل . توكيدا لأن الغرض هو تهذيب النفوس ، وترضية القلوب ، وربط الواهب والآخذ برباط الحب في الله .. يقول في الآية التالية:

Marfat.com

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . والله غنى حليم » ..

فيقرر أن الصدقة التى يتبعها الأذى لا ضرورة لها ! وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح . كلمة طيبة تضمد جراح القلوب ، وتفعمها بالرضى والبشاشة . ومغفرة تغسل أحقاد النفوس وتحل محلها الإخاء والصداقة . فالقول المعروف والمغفرة فى هذه الحالة يؤديان الوظيفة الأولى للصدقة : من تهذيب النفوس وتأليف القلوب .

ولأن الصدقة ليست تفضلا من المانح على الآخذ ، إنما هى قرض لله .. عقب على هذا بقوله :

« والله غنى حليم » ..

غنى عن الصدقة المؤذية . حليم يعطى عباده الرزق فلا يشكرون ، فلا يعجلهم بالعقاب ولا يبادرهم بالإيذاء ؛ وهو معطيهم كل شىء ، ومعطيهم وجودهم ذاته قبل أن يعطيهم أى شىء — فليتعلم عباده من حلمه — سبحانه — فلا يعجلوا بالأذى والغضب على من يعطونهم جزءاً مما أعطاه الله لهم . حين لايروقهم منهم أمر ، أولا ينالهم منهم شكر !

وما يزال هذا القرآن يذكر الناس بصفة الله سبحانه ليتأدبوا منها بما يطيقون ؛ وما يزال أدب المسلم تطلعا لصفة ربه ، وارتقاء فى مصاعدها ، حتى ينال منها ماهو مقسوم له ، مما تطيقه طبيعته .

وعند ما يصل التأثر الوجدانى غايته . . بعد استعراض مشهد الحياة النامية الواهبة مثلا للذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، دون أن يتبعوا ما أنفقوا منا ولا أذى ، وبعد التلويح بأن الله غنى عن ذلك النوع المؤذى من الصدقة ، وأنه وهو الواهب الرازق لا يعجل بالغضب والأذى .. عندما يصل التأثر الوجدانى غايته بهذا وذاك ، يتوجه بالخطاب إلى الذين آمنوا ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى . ويرسم لهم مشهدا عجيبا — أو مشهدين عجيبين يتسقان مع المشهد الأول . مشهد الزرع والنماء . ويصوران طبيعة الإنفاق الخالص لله ، والإنفاق المشوب بالمن والأذى . على طريقة التصوير الفنى فى القرآن ، التى تعرض المعنى صورة ، والأثر حركة ، والحالة مشهدا شاخصا للخيال :

Marfat.com

« يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولايؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلدا ؛ لايقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لايهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة . أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ؛ فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » . .

هذا هو المشهد الأول . .

مشهد كامل مؤلف من منظرين متقابلين شكلا ووضعا وثمرة . وفى كل منظر جزئيات ، يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم وفن العرض ؛ ويتسق كذلك مع مايمثله من المشاعر والمعانى التى رسم المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها .

نحن فى المنظر الأول أمام قلب صلد :

« كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » . .

فهو لايستشعر نداوة الإيمان وبشاشته . ولكنه يغطى هذه الصلادة بغشاء من الرياء . هذا القلب الصلد المغشى بالرياء يمثله « صفوان عليه تراب » حجر لا خصب فيه ولاليونة ، يغطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين ، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالى من الإيمان . .

« فأصابه وابل فتركه صلدا » . .

وذهب المطر الغزير بالتراب القليل ! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته ، ولم ينبت زرعة ، ولم يثمر ثمرة . . كذلك القلب الذى أنفق ماله رئاء الناس ، فلم يثمر خيرا ولم يعقب مثوبة !

أما المنظر الثانى المقابل له فى المشهد . . فقلب عامر بالإيمان ، ندى ببشاشته . ينفق ماله « ابتغاء مرضاة الله » . . وينفقه عن ثقة ثابتة فى الخير ، نابعة من الإيمان ، عميقة الجذور فى الضمير . . وإذا كان القلب الصلد وعليه ستار من الرياء يمثله صفوان صلد عليه غشاء من التراب ، فالقلب المؤمن تمثله جنة . جنة خصبة عميقة التربة فى مقابل حفنة التراب على الصفوان . جنة تقوم على ربوة فى مقابل الحجر الذى تقوم عليه حفنة التراب ! ليكون المنظر متناسق الأشكال !

Marfat.com

فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التراب هناك . بل أحياها وأخصبها ونماها . .

« فأصابها وابل فآتت أكلها ضعفين » . .

أحياها كما تحيي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله كذلك ويضاعف له الله مايشاء . وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو :

« فإن لم يصبها وابل » . . غزير . . « فطل » من الرذاذ يكفي في التربة الخصبة ويكفي منه القليل !

إنه المشهد الكامل ، المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة التناسق والأداء ، الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة في القلب وكل خاطرة ، المصور للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات ، الموحي للقلب باختيار الطريق في يسر عجيب . .

ولما كان المشهد مجالا للبصر والبصيرة من جانب ، ومرد الأمر فيه كذلك إلى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر ، جاء التعقيب لمسة للقلوب :

« والله بما تعملون بصير » . .

فأما المشهد الثاني فتمثيل لنهاية المن والأذى ، كيف يمحق آثار الصدقة محقا في وقت لا يملك صاحبها قوة ولاعونا ، ولايستطيع لذلك المحق ردا . تمثيل لهذه النهاية البائسة في صورة موحية عنيفة الإيحاء . كل مافيها عاصف بعد أمن ورخاء :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » . .

هذه الصدقة في أصلها وفي آثارها تمثل في عالم المحسوسات :

« جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات » . .

إنها ظليلة وارفة خصبة مثمرة . . وكذلك الصدقة في طبيعتها وفي آثارها . . كذلك هي في

Marfat.com

حياة المعطى وفى حياة الآخذ وفى حياة الجماعة الإنسانية . كذلك هى ذات روح وظل ، وذات خير وبركة ، وذات غذاء ورى ، وذات زكاة ونماء !

فمن ذا الذى يود أن تكون له هذه الجنة ـ أوهذه الحسنة ـ ثم يرسل عليها المن والأذى يمحقها محقا ، كما يمحق الجنة الإعصار فيه نار .

ومتى ؟ فى أشد ساعاته عجزا عن إنقاذها ، وحاجة إلى ظلها ونعمائها !

« وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء . فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » ..

من ذا الذى يود هذا ؟ ومن ذا الذى يفكر فى ذلك المصير ثم لا يتقيه ؟

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ..

وهكذا يقوم المشهد الحى الشاخص ، بمافيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة ؛ وما فيه من نضارة وروح وجمال . ثم بما يعصف به عصفا من إعصار فيه نار . . يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعورى الرعيب ، الذى لا يدع مجالا للتردد فى الاختيار ، قبل أن تذهب فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار !

وبعد فإن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ فى تركيب كل مشهد على حدة ، وفى طريقة عرضه وتنسيقه . . هـذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى . بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد متجمعة من بدئها فى هـذا الدرس إلى منتهاها . . إنها جميعا تعرض فى محيط متجانس . محيط زراعى ! حبة أنبتت سبع سنابل . صفوان عليه تراب فأصابه وابل . جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين . جنة من نخيل وأعناب . . حتى الوابل والطل والإعصار التى تكمل محيط الزراعة لم تخل منها محيط العرض الفنى المثير .

وهى الحقيقة الكبيرة وراء العرض الفنى المثير . . حقيقة الصلة بين النفس البشرية والتربة الأرضية . حقيقة الأصل الواحد . وحقيقة الطبيعة الواحدة ، وحقيقة الحياة النابتة فى النفس وفى التربة على السواء . وحقيقة المحق الذى يصيب هـذه الحياة فى النفس وفى التربة على السواء .

إنه القرآن .. كلمة الحق الجميلة .. من لدن حكيم خبير ..

* * *

Marfat.com

ويمضى السياق خطوة أخرى فى دستور الصدقة . ليبين نوعها وطريقتها ، بعد مابين آدابها وثمارها :

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » . .

إن الأسس التى تكشفت النصوص السابقة عن أن الصدقة تقوم عليها وتنبعث منها لتقتضى أن يكون الجود بأفضل الموجود ؛ فلاتكون بالدون والردىء الذى يعافه صاحبه ؛ ولوقدم إليه مثله فى صفقة ماقبله إلا أن ينقص من قيمته . فالله أغنى عن تقبل الردىء الخبيث !

وهونداء عام للذين آمنوا ـ فى كل وقت وفى كل جيل ـ يشمل جميع الأموال التى تصل إلى أيديهم . تشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب ، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول ومن ثم يستوعب النص جميع أنواع المال ، ما كان معهودا على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يستجد . فالنص شامل جامع لايفلت منه مال مستحدث فى أي زمان . وكله مما يوجب النص فيه الزكاة . أما المقادير فقد بينتها السنة فى أنواع الأموال التى كانت معروفة حينذاك . وعليها يقاس وبها يلحق مايجد من أنواع الأموال .

وقد وردت الروايات بسبب لنزول هذه الآية ابتداء ، لا بأس من ذكره ، لاستحضار حقيقة الحياة التى كان القرآن يواجهها ؛ وحقيقة الجهد الذى بذله لتهذيب النفوس ورفعها إلى مستواه . .

روى ابن جرير ـ بإسناده ـ عن البراء ابن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : « نزلت فى الأنصار . كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ (١) النخل أخرجت من حيطانها (٢) البسر (٣) فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين (٤) فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأ كل

---

(١) جذاذ النخل : قطع ثماره — (٢) حيطانها : أى بساتينها

(٣) البسر : التمر إذا لون ولم ينضج — (٤) الأسطوانتين : العمودين

Marfat.com

فقراء المهاجرين منه . فيعمد الرجل منهم إلى الحشف (١) فيدخله مع قناء البسر ، يظن أن ذلك جائز . فأنزل الله فيمن فعل ذلك : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » . .

وكذلك رواه الحاكم عن البراء وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه .

ورواه ابن أبي حاتم - بإسناده عن طريق آخر - عن البراء - رضى الله عنه - قال : نزلت فينا . كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته ، فيأتى رجل بالقنو ، فيعلقه فى المسجد . وكان أهل الصفة ليس لهم طعام . فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه ، فسقط منه البسر والتمر فيأكل ، وكان أناس ممن لا يرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص (٢) ، فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه ، فنزلت : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » . قال: لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء . فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده .

والروايتان قريبتان . وكلتاهما تشير إلى حالة واقعة فى المدينة ؛ وترينا صفحة تقابل الصفحة الأخرى التى خطها الأنصار فى تاريخ البذل السمح والعطاء الفياض . وترينا أن الجماعة الواحدة تكون فيها النماذج العجيبة السامقة ، والنماذج الأخرى التى تحتاج إلى تربية وتهذيب وتوجيه لتتجه إلى الكمال ! كما احتاج بعض الأنصار إلى النهى عن القصد إلى الردىء من أموالهم ، الذى لا يقبلونه عادة فى هدية إلا حياء من رده ولا فى صفقة إلا بإغماض فيه أى : نقص فى القيمة! بينما كانوا يقدمونه هم لله !

ومن ثم جاء هذا التعقيب :

« واعلموا أن الله غنى حميد » . .

غنى عن عطاء الناس إطلاقا . فإذا بذلوه فإنما يبذلونه لأنفسهم فليبذلوه طيبا ، وليبذلوه طيبة به نفوسهم كذلك .

حميد . . يتقبل الطيبات ويحمدها ويجزى عليها بالحسنى . .

---

(١) الحشف : أردأ التمر

(٢) الشيص : تمر ردئ

Marfat.com

ولكل صفة من الصفتين فى هذا الموضع إيحاء يهز القلوب . كما هز قلوب ذلك الفريق من الأنصار فعلا .

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم . . . » .. وإلا فالله غنى عن الخبيث الذى تقصدون إليه فتخرجون منه صدقاتكم ! بينما هو - سبحانه - يحمد لكم الطيب حين تخرجونه ويجزيكم عليه جزاء الراضى الشاكر . . وهو الله الرزاق الوهاب . . يجزيكم عليه جزاء الحمد وهو الذى أعطاكم إياه من قبل ! أى إيحاء ! وأى إغراء ! وأى تربية للقلوب بهذا الأسلوب العجيب !

ولما كان الكف عن الإنفاق ، أو التقدم بالردىء الخبيث ، إنما ينشأ عن دوافع السوء ، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفسا تتصل بالله ، وتعتمد عليه ، وتدرك أن مرد ما عندها إليه .. كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية ، وليعرفوا من أين تنبت فى النفوس ؟ وماالذى يثيرها فى القلوب .. إنه الشيطان . .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . .

الشيطان يخوفكم الفقر ، فيثير فى نفوسكم الحرص والشح والتكالب . والشيطان يأمركم بالفحشاء - والفحشاء كل معصية تفحش أى تتجاوز الحد ، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصى ولكنها شاملة.وخوف الفقر كان يدعو القو في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة؛ والحرص على جمع الثروة كان يؤدى ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة . . على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق فى سبيل الله فى ذاته فاحشة . .

وحين يعدكم الشيطان الفقر ويأمركم بالفحشاء يعدكم الله المغفرة والعطاء :

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » ..

ويقدم المغفرة ، ويؤخر الفضل . . فالفضل زيادة فوق المغفرة . وهو يشمل كذلك عطاء الرزق فى هذه الأرض ، جزاء البذل فى سبيل الله والإنفاق .

Marfat.com

« والله واسع عليم » . .

يعطى عن سعة ، ويعلم مايوسوس فى الصدور ، وما يهجس فى الضمير ، والله لا يعطى المال وحده ، ولا يعطى المغفرة وحدها . إنما يعطى « الحكمة » وهى توخى القصد والاعتدال ، وإدراك العلل والغايات ، ووضع الأمور فى نصابها فى تبصر وروية وإدراك :

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » . .

أوتى القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ؛ وأوتى إدراك العلل والغايات فلا يضل فى تقدير الأمور ؛ وأوتى البصيرة المستنيرة التى تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال . . وذلك خير كثير متنوع الألوان . .

« وما يذكر إلا أولو الألباب » . .

فصاحب اللب ــ وهو العقل ــ هو الذى يتذكر فلا ينسى ، ويتنبه فلا يغفل ، ويعتبر فلا يلج فى الضلال . . وهذه وظيفة العقل . . وظيفته أن يذكر موحيات الهدى ودلائله ؛ وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهيا غافلا .

هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، فهى معقودة بمشيئة الله سبحانه . هذه هى القاعدة الأساسية فى التصور الإسلامى : رد كل شىء إلى المشيئة المطلقة المختارة . . وفى الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة أخرى : أن من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها فإن الله لا يحرمه منها ، بل يعينه عليها : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ».. ليطمئن كل من يتجه إلى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة ، وتمنحه ذلك الخير الكثير .

وهناك حقيقة أخرى نلم بها قبل مغادرة هذه الوقفة عند قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء . . . » ..

إن أمام الإنسان طريقين اثنين لاثالث لهما : طريق الله . وطريق الشيطان . أن يستمع إلى وعد الله أو أن يستمع إلى وعد الشيطان . ومن لا يسير فى طريق الله ويسمع وعده فهو

Marfat.com

سائر فى طريق الشيطان ومتبع وعده . . ليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق . . المنهج الذى شرعه الله . . وماعداه فهو للشيطان ومن الشيطان .

هذه الحقيقة يقررها القرآن الكريم ويكررها ويؤكدها بكل مؤكد . كى لاتبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ثم يدعى الهدى والصواب فى أى باب . ليست هنالك شبهة ولا غشاوة . . الله . أو الشيطان . منهج الله أو منهج الشيطان . طريق الله أو طريق الشيطان . . ولمن شاء أن يختار . . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » . . لاشبهة ولا غبش ولا غشاوة .. وإنما هو الهدى أو الضلال . وهو الحق واحد لا يتعدد . . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

بعد ذلك نعود مع السياق إلى الصدقة .. إن الله يعلم كل ماينفقه المنفق .. صدقة كان أم نذرا . وسرا كان أم جهرا . ومن مقتضى علمه أنه يجزى على الفعل وما وراءه من النية :

« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه . وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ؛ ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » ..

والنفقة تشمل سائر مايخرجه صاحب المال من ماله : زكاة أو صدقة أو تطوعا بالمال فى جهاد .. والنذر نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدرا بقدر معلوم . والنذر لا يكون لغير الله ولوجهه وفى سبيله . فالنذر لفلان من عباده نوع من الشرك ، كالذبائح التى كان يقدمها المشركون لآلهتهم وأوثانهم فى شتى عصور الجاهلية .

« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » ..

وشعور المؤمن بأن عين الله ـ سبحانه ـ على نيته وضميره ، وعلى حركته وعمله .. يثير فى حسه مشاعر حية متنوعة شعور التقوى والتحرج أن يهجس فى خاطره هاجس رياء أو تظاهر ، وهاجس شح أو بخل ، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن . وشعور الاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء . وشعور الرضى والراحة بما وفى لله وقام بشكر نعمته عليه بهذا الإنفاق مما أعطاه ..

فأما الذى لا يقوم بحق النعمة ؛ والذى لا يؤدى الحق لله ولعباده ؛ والذى يمنع

Marfat.com

الخير بعـــد ماأعطاه الله إياه .. فهو ظالم . ظالم للعهد ، وظالم للناس ، وظالم لنفسه :

« وما للظالمين من أنصار » ..

فالوفاء عدل وقسط . والمنع ظلم وجور . والناس فى هذا الباب صنفان : مقسط قائم بعهد الله معه إن أعطاه النعمة وفى وشكر . وظالم ناكث لعهد الله ، لم يعط الحق ولم يشكر . .

« وماللظالمين من أنصار » ..

وإخفاء الصدقة حين تكون تطوعا أولى وأحب إلى الله ؛ وأجدر أن تبرأ من شوائب التظاهر والرياء . فأما حين تكون أداء للفريضة فإن إظهارها فيه معنى الطاعة ، وفشو هذا المعنى وظهوره خير .. ومن ثم تقول الآية :

« إن تبدوا الصدقات فنعما هى . وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .. فتشمل هاتين الحالتين ، وتعطى كل حالة مايناسبها من التصرف ؛ وتحمد هـذه فى موضعها وتلك فى موضعها ؛ وتعد المؤمنين على هذه وتلك تكفير السيئات :

« ويكفر عنكم من سيئاتكم » ..

وتستجيش فى قلوبهم التقوى والتحرج من جانب ، والطمأنينة والراحة من جانب آخر ، وتصلها بالله فى النية والعمل فى جميع الأحوال :

« والله بما تعملون خبير » ..

ولابد أن نلحظ طول التوجيه إلى الإنفاق ؛ وتنوع أساليب الترغيب والترهيب بصدده ؛ لندرك أمرين : الأول : بصر الإسلام بطبيعة النفس البشرية وما يخالجها من الشح بالمال ، وحاجتها إلى التحريك المستمر والاستجاشة الدائبة لتستعلى على هذا الحرص وتنطلق من هـذا الشح ، وترتفع إلى المستوى الكريم الذى يريده الله للناس. والثانى : ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة فى البيئة العربية التى اشتهرت شهرة عامة بالسخاء والكرم .. ولكنه كان سخاء وكرما يقصد به الذكر والصيت وثناء الناس وتناقل أخباره فى المضارب والخيام ! ولم يكن أمرا ميسورا أن يعلمهم الإسلام أن يتصدقوا دون انتظار لهـذا كله ، متجردين من هـذا كله ، متجهين لله وحـده دون الناس . وكان الأمر فى حاجة إلى التربية الطويلة ،

Marfat.com

والجهد الكثير ، والهتاف المستمر بالتسامى والتجرد والخلاص ! . . وقد كان . .

* * *

ومن ثم لفتة من خطاب الذين آمنوا إلى خطاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — لفتة لتقرير جملة حقائق كبيرة ، ذات أثر عميق فى إقامة التصور الإسلامى على قواعده ، وفى استقامة السلوك الإسلامى على طريقه :

« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء . وما تنفقوا من خير فلأنفسكم . وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون » . .

روى ابن أبى حاتم — بإسناده — عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية : « ليس عليك هداهم . . إلى آخرها » . . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين . .

إن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله — ولو كان هو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنه من أمر الله وحده . فهذه القلوب من صنعه ؛ ولا يحكمها غيره ، ولا يصرفها سواه ، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله . وما على الرسول إلا البلاغ . فأما الهدى فهو بيد الله ، يعطيه من يشاء ، ممن يعلم — سبحانه — أنه يستحق الهدى ، ويسعى إليه . وإخراج هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التى لابد أن تستقر فى حس المسلم ليتوجه فى طلب الهدى إلى الله وحده ، وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده . . ثم هى تفسح فى احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين ، فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم ؛ ويعطف عليهم ، ويرتقب إذن الله لقلوبهم فى الهدى ، وتوفيقهم إليه بمعرفته حين يريد .

« ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء » . .

فلتفسح لهم صدرك ، ولتفض عليهم سماحتك ، ولتبذل لهم الخير والعون ماحتاجوا إليه منك . وأمرهم إلى الله . وجزاء المنفق عند الله .

ومن هنا نطلع على بعض الآفاق السامية السمحة الوضيئة التى يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها ، ويروضهم عليها . . إن الإسلام لايقرر مبدأ الحرية الدينية وحده ؛ ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب . إنما يقرر ماهو أبعد من ذلك كله . يقرر السماحة الإنسانية المستمدة من

Marfat.com

توجيه الله ـ سبحانه ـ يقرر حق المحتاجين جميعا فى أن ينالوا العون والمساعدة ـ ماداموا فى غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة ـ دون نظر إلى عقيدتهم . ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال ، مادام الإنفاق ابتغاء وجه الله . وهى وثبة بالبشرية لاينهض بها إلا الإسلام ؛ ولا يعرفها على حقيقتها إلا أهل الإسلام :

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله . وما تنفقوا من خير يوف إليكم ، وأنتم لاتظلمون » . .

ولا يفوتنا أن ندرك مغزى هذه اللفتة الواردة فى الآية عن شأن المؤمنين حين ينفقون :

« وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » . .

إن هـذا هو شأن المؤمن لاسواه . إنه لاينفق إلا ابتغاء وجه الله . لاينفق عن هوى ولا عن غرض . لاينفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون ! لاينفق ليركب الناس بإنفاقه ويتعالى عليهم ويشمخ ! لاينفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيشان ! لاينفق إلا ابتغاء وجه الله . خالصا متجردا لله . . ومن ثم يطمئن لقبول الله لصدقته ؛ ويطمئن لبركة الله فى ماله ؛ ويطمئن لثواب الله وعطائه ؛ ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله . ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد فى هـذه الأرض . وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل !

ثم يخص بالذكر مصرفا من مصارف الصدقة ؛ ويعرض صورة شفة عفة كريمة نبيلة ، لطائفة من المؤمنين . صورة تستجيش المشاعر ، وتحرك القلوب لإدراك نفوس أبية بالمدد فلا تهون ، وبالإسعاف فلا تضام ، وهى تأنف السؤال وتأبى الكلام :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ، لايستطيعون ضربا فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » . .

لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين ، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم ؛ وأقاموا فى المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ،وحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كأهل الصفة الذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

لايخلص إليها من دونهم عدو . وأحصروا فى الجهاد لايستطيعون ضربا فى الأرض للتجارة والكسب . وهم مع هـذا لايسألون الناس شيئا . متجملون يحسبهم من يجهل حالهم أغنياء لتعففهم عن إظهار الحاجة ؛ ولايفطن إلى حقيقة حالهم إلا ذوو الفراسة ..

ولكن النص عام ، ينطبق على سواهم فى جميع الأزمان . ينطبق على الكرام المعوزين ، الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهرا ، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون . إنهم يتجملون كى لاتظهر حاجتهم ؛ يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهرأغنياء فى تعففهم ، ولكن ذا الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ماوراء التجمل . فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها فى حياء ..

إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التى يرسمها النص القصير لذلك النموذج الكريم . وهى صورة كاملة ترتسم على استحياء ! وكل جملة تكاد تكون لمسة ريشة ، ترسم الملامح والسمات ، وتشخص المشاعر والانفعالات . ومايكاد الإنسان يتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها . وتلك طريقة القرآن فى رسم النماذج الإنسانية ، حتى لتكاد تخطر نابضة حية !

هؤلاء الفقراء الكرام الذين يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة .. لن يكون إعطاؤهم إلا سرا وفى تلطف لايخدش إباءهم ولايجرح كرامتهم . . ومن ثم كان التعقيب موحيا بإخفاء الصدقة وإسرارها ، مطمئنا لأصحابها على علم الله بها وجزائه عليها :

« وماتنفقوا من خير فإن الله به عليم » ..

الله وحده الذى يعلم السر ، ولايضيع عنده الخير . .

وأخيرا يختم دستور الصدقة فى هـذا الدرس بنص عام يشمل كل طرائق الإنفاق ، وكل أوقات الإنفاق ؛ وبحكم عام يشمل كل منفق لوجه الله :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سرا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ..

ويبدو التناسق فى هذا الختام فى عموم النصوص وشمولها ، سواء فى صدر الآية أم فى ختامها. وكأنما هى الإيقاع الأخير الشامل القصير ..

Marfat.com

« الذين ينفقون أموالهم » . .

هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال . .

« بالليل والنهار . سرا وعلانية » . .

لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات . .

« فلهم أجرهم عند ربهم » . .

هكذا إطلاقا . من مضاعفة المال . وبركة العمر . وجزاء الآخرة . ورضوان الله .

« ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

لا خوف من أى مخوف ، ولا حزن من أى محزن . . فى الدنيا وفى الآخرة سواء . .

إنه التناسق فى ختام الدستور القويم يوحى بذلك الشمول والتعميم . .

* * *

وبعد فإن الإسلام لا يقيم حياة أهله على العطاء . فإن نظامه كله يقوم أولا على تيسير العمل والرزق لكل قادر ؛ وعلى حسن توزيع الثروة بين أهله بإقامة هذا التوزيع على الحق والعدل بين الجهد والجزاء . . ولكن هنالك حالات تتخلف لأسباب استثنائية وهذه هى التى يعالجها بالصدقة . . مرة فى صورة فريضة تجبيها الدولة المسلمة المنفذة لشريعة الله كلها وهى وحدها صاحبة الحق فى جبايتها ؛ وهى مورد هام من موارد المالية العامة للدولة المسلمة . ومرة فى صورة تطوع غير محدود يؤديه القادرون للمحتاجين رأسا . مع مراعاة الآداب التى سبق بيانها . وبضمانة تعفف الآخذين . . هذا التعفف الذى تصف هذه الآية صورة منه واضحة . وقد رباه الإسلام فى نفوس أهله فإذا أحدهم يتحرج أن يسأل وله أقل ما يكفيه فى حياته . .

روى البخارى ـ بإسناده ـ عن عطاء ابن يسار وعبد الرحمن ابن أبى عمرة ، قالا : سمعنا أباهريرة يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف » . . اقرأوا إن شئتم يعنى قوله : « لا يسألون الناس إلحافا » . .

وروى الإمام أحمد : حدثنا أبوبكر الحنفى ، حدثنا عبد الحميد ابن جعفر ، عن أبيه ، عن رجل من مزينة : أنه قالت له أمه : ألا تنطلق فتسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

كما يسأله الناس ؟ فانطلقت أسأله ، فوجدته قائماً يخطب وهو يقول : « ومن استعف أعفه الله ، ومن استغنى أغناه الله . ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا » فقلت بيني وبين نفسي : لناقة لي لهي خير من خمس أواق ، ولغلامي ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأله .

وقال الحافظ الطبراني ـ بإسناده ـ عن محمد ابن سيرين . قال : بلغ الحارث ـ رجلا كان بالشام من قريش ـ أن أبا ذر كان به عوز ، فبعث إليه ثلاث مئة دينار . فقال : ماوجد عبدالله رجلا أهون عليه مني ! سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من سأل وله أربعون فقد ألحف » ولآل أبي ذر أربعون درهما . . شاة وماهنان . . قال أبو بكر ابن عياش: يعني خادمين . .

إن الإسلام نظام متكامل ، تعمل نصوصه وتوجيهاته وشرائعه كلها متحدة ؛ ولا يؤخذ أجزاء وتفاريق . وهو يضع نظمه لتعمل كلها في وقت واحد ، فتتكامل وتتناسق . وهكذا أنشأ مجتمعه الفريد الذي لم تعرف له البشرية نظيرا في مجتمعات الأرض جميعا . .

« ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا . وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا . فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ ؛ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ ، وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن

Marfat.com

لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ؛ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ . وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (٢٨١)

الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي . . الوجه الكالح الطالح هو الربا !

الصدقة عطاء وسماحة ، وطهارة وزكاة ، وتعاون وتكافل .. والربا شح ، وقذارة ودنس، وأثرة وفردية . .

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئا . .

ومن ثم فهو — الربا — الوجه الآخر المقابل للصدقة . . الوجه الكالح الطالح !

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود ! عرضه عرضا منفرا ، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة ، ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع ، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا — في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى — ولله الحكمة البالغة . فلقد كانت للربا في الجاهلية مفاسده وشروره . ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية في مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت في عالمنا الحاضر ؛ ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما

Marfat.com

كشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الآيات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الأولى . ويدرك ـ من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام ـ يدرك اليوم من هذا كله مالم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم مايصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا . والبشرية الضالة التى تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوى ، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها . . وتتلقى ـ حقا ـ حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب . . أفرادا وجماعات ، وأمما وشعوبا ، وهى لاتعتبر ولا تفيق !

وحينما كان السياق يعرض فى الدرس السابق دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة . . فى مقابل ذلك النظام الآخر الذى يقوم على الأساس الربوى الشرير القاسى اللئيم .

إنهما نظامان متقابلان : النظام الإسلامى . والنظام الربوى ! وهما لايلتقيان فى تصور ؛ ولا يتفقان فى أساس ؛ ولا يتوافقان فى نتيجة . . إن كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة . وينتهى إلى ثمرة فى حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف . . ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعيب !

إن الإسلام يقيم نظامه الاقتصادى ـ ونظام الحياة كلها ـ على تصور معين يمثل الحق الواقع فى هذا الوجود .

يقيمه على أساس أن الله ـ سبحانه ـ هو خالق هذا الكون . فهو خالق هذه الأرض ، وهو خالق هذا الإنسان . . هو الذى وهب كل موجود وجوده . .

وأن الله ـ سبحانه ـ وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده ـ قد استخلف الجنس الإنسانى فى هذه الأرض ؛ ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات ، على عهد منه وشرط . ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ، يصنع فيه مايشاء كيف شاء . وإنما استخلفه فيه فى إطار من الحدود الواضحة . استخلفه فيه على شرط أن يقوم فى الخلافة

Marfat.com

وفق منهج الله ، وحسب شريعته . فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ . وما وقع منه مخالفا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف . فإذا أنفذه قوة وقسرا فهو إذن ظلم واعتداء لايقره الله ولا يقره المؤمنون بالله . فالحاكمية فى الأرض - كما هى فى الكون كله - لله وحده . والناس - حاكمهم ومحكومهم - إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم - فى جملتهم - أن يخرجوا عنها ، لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون فى الأرض بشرط وعهد وليسوا ملاكا خالقين لما فى أيديهم من أرزاق .

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله ، فيكون بعضهم أولياء بعض، وأن ينتفعوا برزق الله الذى أعطاهم على أساس هذا التكافل - لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية . ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة - فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه . مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسره الله له - فلا يكون أحدهم كلاً على أخيه أو على الجماعة وهو قادر كما بينا ذلك من قبل . وجعل الزكاة فريضة فى المال محددة . والصدقة تطوعا غير محدد .

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذى أعطاهم ؛ وفيما يستمتعون به من الطيبات التى أحلها لهم . ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال . وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة . وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره .

وشرط عليهم أن يلتزموا فى تنمية أموالهم وسائل لاينشأ عنها الأذى للآخرين ؛ ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الأرزاق بين العباد ، ودوران المال فى الأيدى على أوسع نطاق : «كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » . .

وكتب عليهم الطهارة فى النية والعمل ، والنظافة فى الوسيلة والغاية ، وفرض عليهم قيودا فى تنمية المال لاتجعلهم يسلكون إليها سبلا تؤذى ضمير الفرد وخلقه ، أو تؤذى حياة الجماعة وكيانها (١) .

---

(١) يراجع فصل « سياسة المال » فى كتاب : « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » .

Marfat.com

وأقام هذا كله على أساس التصور الممثل لحقيقة الواقع فى هذا الوجود ؛ وعلى أساس عهد الاستخلاف الذى يحكم كل تصرفات الإنسان المستخلف فى هذا الملك العريض .

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيمانى إطلاقا ؛ ونظام يقوم على تصور آخر . تصور لانظر فيه لله سبحانه وتعالى . ومن ثم لارعاية فيه للمبادئ والغايات والأخلاق التى يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها .

إنه يقوم ابتداء على أساس أن لاعلاقة بين إرادة الله وحياة البشر . فالإنسان هو سيد هذه الأرض ابتداء ؛ وهو غير مقيد بعهد من الله ؛ وغير ملزم باتباع أوامر الله !

ثم إن الفرد حر فى وسائل حصوله على المال ، وفى طرق تنميته ، كما هو حر فى التمتع به . غير ملتزم فى شىء من هذا بعهد من الله أو شرط ؛ وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين . ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزانته ورصيده مايستطيع إضافته . وقد تتدخل القوانين الوضعية أحيانا فى الحد من حريته هذه - جزئيا - فى تحديد سعر الفائدة مثلا ؛ وفى منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب ، والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى مايتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم ؛ لا إلى مبدأ ثابت مفروض من سلطة إلهية !

كذلك يقوم على أساس تصور خاطىء فاسد . هو أن غاية الغايات للوجود الإنسانى هى تحصيله للمال - بأية وسيلة - واستمتاعه به على النحو الذى يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى التاع به ؛ ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

ثم ينشىء فى النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا ، ويشقيها فى حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا ، لمصلحة حفنة من المرابين ؛ ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا ؛ ويحدث الخلل فى دورة المال ونمو الاقتصاد البشرى نموا سويا . . وينتهى - كما انتهى فى العصر الحديث - إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملى على البشرية كلها فى أيدى زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شرا ؛ وشرذمة ممن لا يرعون فى البشرية إلا ولا ذمة ، ولا يراقبون فيها عهدا ولا حرمة . . وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا ، كما يداينون الحكومات والشعوب - فى داخل بلادهم وفى خارجها - وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، فى صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدا !

Marfat.com

وهم لا يملكون المال وحده . . إنما يملكون النفوذ . . ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاق على الإطلاق ؛ بل لما كانوا يسخرون من حكاية الأديان والأخلاق والمثل والمبادئ ؛ فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذي يملكونه في إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف في طريق جشعهم وخسة أهدافهم . . وأقرب الوسائل هي تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها في مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التي يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس في المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم في جريان الاقتصاد العالمي وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدى هذا إلى الأزمات الدورية المعروفة في عالم الاقتصاد ؛ وإلى انحراف الإنتاج الصناعي والاقتصادي كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين ، الذين تتجمع في أيديهم خيوط الثروة العالمية !

والكارثة التي تمت في العصر الحديث ـ ولم تكن بهذه الصورة البشعة في الجاهلية ـ هي أن هؤلاء المرابين ـ الذين كانوا يتمثلون في الزمن الماضي في صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن في صورة مؤسسي المصارف العصرية ـ قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والإعلام في الأرض كلها . . سواء في ذلك الصحف والكتب والجامعات والأساتذة ومحطات الإرسال ودور السينما وغيرها . . أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم في ظل النظام الربوي . . هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول ، والأساس الصحيح الذي لا أساس غيره للنمو الاقتصادي ؛ وأنه من بركات هذا النظام وحسناته كان هذا التقدم الحضاري في الغرب . وأن الذين يريدون إبطاله جماعة من الخياليين ـ غير العمليين ـ وأنهم إنما يعتمدون في نظرتهم هذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثل خيالية لا رصيد لها من الواقع ؛ وهي كفيلة بإفساد النظام الاقتصادي كله لو سمح لها أن تتدخل فيه ! حتى ليتعرض الذين ينتقدون النظام الربوي من هذا الجانب للسخرية من البشر الذين هم في حقيقة الأمر ضحايا بائسة لهذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمي نفسه . الذي تضطره عصابات المرابين

Marfat.com

العالية لأن يجرى جريانا غير طبيعى ولا سوى . ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعا للبشرية كلها ، إلى أن يكون وقفا على حفنة من الذئاب قليلة !

إن النظام الربوى نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة ــ وقد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ؛ وهم قد نشأوا فى ظله ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثها عصابات المال فى كل فروع الثقافة والتصور والأخلاق . وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة الذين يعيبون هذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة « دكتور شاخت » الألمانى ومدير بنك الرايخ الألمانى سابقا . وقد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق عام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهية) يتضح أن جميع المال فى الأرض صائر إلى عدد قليل جدا من المرابين . ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ؛ بينما المدين معرض للربح والخسارة . ومن ثم فإن المال كله فى النهاية لابد ــ بالحساب الرياضى ــ أن يصير إلى الذى يربح دائما ! وأن هذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل . فإن معظم مال الأرض الآن يملكه ــ ملكا حقيقيا ــ بضعة ألوف ! أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال ، وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال ، ويجنى ثمرة كدهم أولئك الألوف !

وليس هذا وحده هو كل ما للربا من جريرة . فإن قيام النظام الاقتصادى على الأساس الربوى يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة . ومن ثم يمسك المال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة إليه فيرتفع سعر الفائدة ؛ ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون فى التجارة والصناعة أنه لافائدة لهم من استخدام هذا المال ، لأنه لايدر عليهم مايوفون به الفائدة ويفضل لهم منه شىء . . عندئذ ينكمش حجم المال المستخدم فى هذه المجالات التى تشتغل فيها الملايين ؛ وتضيق المصانع دائرة إنتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف ، يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارا . فيقبل عليه العاملون فى الصناعة والتجارة من جديد ،

Marfat.com

وتعود دورة الحياة إلى الرخاء . . وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية .
ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ثم إن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين . فإن أصحاب الصناعات والتجار لايدفعون فائدة الأموال التي يقترضونها بالربا إلا من جيوب المستهلكين ، فهم يزيدونها في أثمان السلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهل الأرض لتدخل في جيوب المرابين في النهاية. أما الديون التي تقترضها الحكومات من بيوت المال لتقوم بالإصلاحات والمشروعات العمرانية فإن رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك . إذ أن هذه الحكومات تضطر إلى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منها هذه الديون وفوائدها . وبذلك يشترك كل فرد في دفع هذه الجزية للمرابين في نهاية المطاف . . وقلما ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ولايكون الاستعمار هو نهاية الديون .. ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار !

ونحن هنا ـ في ظلال القرآن ـ لا نستقصي كل عيوب النظام الربوي فهذا مجاله بحث مستقل (١) ـ فنكتفي بهذا القدر لنخلص منه إلى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين إلى جملة حقائق أساسية بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوي المقيت :

الحقيقة الأولى : ـ التي يجب أن تكون مستيقنة في نفوسهم ـ أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان . وكل مايمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أوغيرهم سوى هذا دجل وخداع . فأساس التصور الإسلامي ـ كما بينا ـ يصطدم اصطداما مباشرا بالنظام الربوي، ونتائجه العملية في حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم .

والحقيقة الثانية : أن النظام الربوي بلاء على الإنسانية ـ لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب ـ بل كذلك في صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقا ، ويعطل نموها الإنساني المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهري الخدّاع ، الذي يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادي العام !

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقي والنظام العملي في الإسلام مترابطان تماما ، وأن

---

(١) تراجع البحوث القيمة الدقيقة التي كتبها المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي عن الربا وعن أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة ..

Marfat.com

الإنسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتلى وممتحن فى كل نشاط يقوم به فى حياته ، ومحاسب عليه فى آخرته . فليس هناك نظام أخلاق وحده ونظام عملى وحده ، وإنما هما معاً يؤلفان نشاط الإنسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن ، ويإثم يؤاخذ عليه إن أساء . وأن الاقتصاد الإسلامى الناجح لايقوم بغير أخلاق ، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية .

والحقيقة الرابعة : أن التعامل الربوى لايمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه ، وشعوره تجاه أخيه فى الجماعة ؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة . أما فى العصر الحديث فإنه يعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار . كى يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحا مضمونا ، فيؤدى الفائدة الربوية ويفضل منه شىء للمستدين . ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المال فى الأفلام القذرة والصحافة القذرة والمراقص والملاهى والرقيق الأبيض وسائر الحرف والاتجاهات التى تحطم أخلاق البشرية تحطيما . . والمال المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية ؛ بل همه أن ينشىء أكثرها ربحا . ولوكان الربح إنما يجىء من استثارة أحط الغرائز وأقذر الميول . . وهذا هو المشاهد اليوم فى أنحاء الأرض . وسببه الأول هو التعامل الربوى !

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل . فهو حين يحرم التعامل الربوى يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه ؛ وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفى منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل ، بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والإنسانى المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام — حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص — لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوى ، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم . ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات ومااليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

Marfat.com

والحقيقة السابعة : ـ وهى الأهم ـ ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلما ، بأن هناك استحالة اعتقادية فى أن يحرم الله أمرا لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه ! كما أن هناك استحالة اعتقادية كذلك فى أن يكون هناك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتميا لقيام الحياة وتقدمها . . فالله سبحانه هو خالق هـذه الحياة ، وهو مستخلف الإنسان فيها ؛ وهو الآمر بتنميتها وترقيتها ؛ وهو المريد لهـذا كله الموفق إليه . فهناك استحالة إذن فى تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شىء لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه . وأن يكون هناك شىء خبيث هو حتمى لقيام الحياة ورقيها .. وإنما هو سوء التصور ، وسوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التى دأبت أجيالا على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادى والعمرانى ، وأن النظام الربوى هو النظام الطبيعى . وبث هـذا التصور الخادع فى مناهل الثقافة العامة ، ومنابع المعرفة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها .. ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلا بسعى بيوت المـال والمرابين . وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر . وهى صعوبة تنشأ أولا من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانيا من ضعف التفـكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذى اجتهد المرابون فى بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملـكية للنفوذ داخل الحـكومات العالمية ، وملـكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة .

والحقيقة الثامنة : أن استحالة قيام الاقتصاد العالمى اليوم وغدا على أساس غير الأساس الربوى . . ليست سوى خرافة . أو هى أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التى يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقائها أجهزة ضخمة فعلا ! وأنه حين تصح النية ، وتعزم البشرية ـ أو تعزم الأمة المسلمة ـ أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهارة المجتمع ، فإن المجـال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد ، الذى أراده الله للبشرية ، والذى طبق فعلا ، ونمت الحياة فى ظله فعلا ؛ وما تزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفى ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !

وليس هنا مجال تفصيل القول فى كيفيات التطبيق ووسائله . . فحسبنا هـذه الإشارات

Marfat.com

الجملة [1] . وقد تبين أن شناعة العملية الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية؛ وأن الإنسانية التى انحرفت عن النهج قديما حتى ردها الإسلام إليه ؛ هى الإنسانية التى تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولا تفىء إلى النهج القويم الرحيم السليم .

فلننظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة التى ذاقت منها البشرية مالم تذق قط من بلاء :

* * *

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات . والله لايحب كل كفار أثيم » . .

إنها الحملة المفزعة ، والتصوير المرعب :

« لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . .

وما كان أى تهديد معنوى ليبلغ إلى الحس ماتبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة . صورة الممسوس المصروع . . وهى صورة معروفة معهودة للناس . فالنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم فى نظامهم الاقتصادى ؛ ومن حرصهم على مايحققه لهم من الفائدة . . وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها . بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة . . ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام فى هــذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث . ولكن هذه الصورة ـ فيما نرى ـ واقعة بذاتها فى حياة البشرية فى هذه الأرض أيضا . ثم إنها تتفق مع ماسيأتى بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التى تتخبط كالممسوس فى عقابيل النظام الربوى . وقبل أن نفصل القول فى مصداق هذه الحقيقة من واقع البشرية اليوم نبــدأ بعرض الصورة الربوية التى كان يواجهها القرآن فى الجزيرة العربية ؛ وتصورات أهل الجاهلية عنها . .

(١) يمكن الرجوع لبعض الاقتراحات العملية فى بحوث الأستاذ المودودى التى سبقت الإشارة إليها .

Marfat.com

إن الربا الذى كان معروفا فى الجاهلية والذى نزلت هـذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتـداء كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسيئة . وربا الفضل .

فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة : « إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى ، فإذا حل الأجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه » .

وقال مجـاهد : « كانوا فى الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا وتؤخر عنى . فيؤخر عنه » .

وقال أبو بكر الجصاص : « إنه معلوم أن ربا الجاهلية إنمـا كان قرضا مؤجلا بزيادة مشروطة . فكانت الزيادة بدلا من الأجل . فأبطله الله تعالى » .

وقال الإمام الرازى فى تفسيره : « إن ربا النسيئة هو الذى كان مشهورا فى الجاهلية . لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدرا معينا ، ورأس المـال باق بحاله . فإذا حل طالبه برأس ماله . فإن تعذر عليه الأداء زاده فى الحق والأجل » .

وقد ورد فى حديث أسامة ابن زيد – رضى الله عنهما – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا ربا إلا فى النسيئة (١) » ..

أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشىء بالشىء من نوعه مع زيادة . كبيع الذهب بالذهب . والدراهم بالدراهم . والقمح بالقمح . والشعير بالشعير .. وهكذا .. وقد ألحق هذا النوع بالربا لمـا فيه من شبه به ؛ ولمـا يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا . . وهذه النقطة شديدة الأهمية لنا فى الكلام عن العمليات الحاضرة !

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله – صلى الله عليـه وسلم – « الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح . . مثلا بمثل . . يدا بيد . . فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء (٢) » . .

وعن أبى سعيد الخدرى أيضا قال : جاء بلال إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – بتمر برنى فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – « من أين هذا ؟ » قال : كان عندنا تمر ردىء فبعث

---

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه الشيخان

Marfat.com

منه صاعين بصاع . فقال : « أوّه ! عين الربا . عين الربا . لاتفعل . ولكن إذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر ، ثم اشتر به (١) » .

فأما النوع الأول فالربا ظاهر فيه لايحتاج إلى بيان ، إذ تتوافر فيه العناصر الأساسية لكل عملية ربوية . وهى : الزيادة على أصل المال . والأجل الذى من أجله تؤدى هذه الزيادة . وكون هذه الفائدة شرطا مضمونا فى التعاقد . أى ولادة المال للمال بسبب المدة ليس إلا . .

وأما النوع الثانى ، فمما لاشك فيه أن هناك فروقا أساسية فى الشيئين المتماثلين هى التى تقتضى الزيادة . وذلك واضح فى حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الردىء وأخذ صاعا من التمر الجيد . . ولكن لأن تماثل النوعين فى الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، إذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالربا . ونهى عنه . وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد . ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضا . إبعاداً لشبح الربا من العملية تماما !

وكذلك شرط القبض : « يدا بيد » . . كى لا يكون التأجيل فى بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره !

إلى هذا الحد بلغت حساسية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشبح الربا فى أية عملية . وبلغت كذلك حكمته فى علاج عقلية الربا التى كانت سائدة فى الجاهلية .

فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا ـ ربا النسيئة ـ بالاستناد إلى حديث أسامة ، وإلى وصف السلف للعمليات الربوية فى الجاهلية . وأن يحلوا ـ دينيا ـ وباسم الإسلام ! ـ الصور الأخرى المستحدثة التى لاتنطبق فى حرفية منها على ربا الجاهلية !

ولكن هذه المحاولة لاتزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية . . فالإسلام ليس نظام شكليات . إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل . فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصورا يخالف تصوره ؛ ويحارب عقلية

(١) متفق عليه .

Marfat.com

لاتتمشى مع عقليته . وكان شديد الحساسية فى هـذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعاداً لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جدا !

ومن ثم فإن كل عملية ربوية حرام . سواء جاءت فى الصور التى عرفتها الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة . مادامت تتضمن العناصر الأساسية للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية . . وهى عقلية الأثرة والجشع والفردية والمقامرة . وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث . شعور الحصول على الربح بأية وسيلة !

فينبغى أن نعرف هـذه الحقيقة جيدا . ونستيقن من الحرب المعلنة من الله ورسوله على المجتمع الربوى .

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . .

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم ـ وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص الرعيب ـ إنما هم أهل المجتمع الربوى كلهم .

عن جابر ابن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آكل الربا وموكله ، وشاهديه وكاتبه ، وقال : « هم سواء » (١) . .

وكان هذا فى العمليات الربوية الفردية . فأما فى المجتمع الذى يقوم كله على الأساس الربوى فأهله كلهم ملعونون . معرضون لحرب الله . مطرودون من رحمته بلا جدال .

إنهم لايقومون فى الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذى لاينال استقرارا ولا طمأنينة ولا راحة . . وإذا كان هناك شك فى الماضى أيام نشأة النظام الرأسمالى الحديث فى القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هـذه القرون لاتبقى مجالا للشك أبدا . .

إن العالم الذى نعيش فيه اليوم ـ فى أنحاء الأرض ـ هو عالم القلق والاضطراب والخوف ؛ والأمراض العصبية والنفسية ـ باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . . وذلك على الرغم من كل مابلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعى فى مجموعه من الضخامة فى هـذه الأقطار . وعلى الرغم من كل

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى .

Marfat.com

مظاهر الرخاء المادى التى تأخذ بالأبصار . . ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التى لاتنقطع هنا وهناك !

إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التى لاتزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادى ، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها فى بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشىء فى النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ؛ ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كى لايرى ! حقيقة أن الناس فى أكثر بلاد الأرض رخاء عاما . . فى أمريكا ، وفى السويد ، وفى غيرهما من الأقطار التى تفيض رخاء ماديا . . أن الناس ليسوا سعداء . . أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء ! وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون فى الإنتاج ! وأنهم يغرقون هذا الملل فى العربدة والصخب تارة . وفى « التقاليع » الغريبة الشاذة تارة . وفى الشذوذ الجنسى والنفسى تارة . ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب . الهرب من أنفسهم . ومن الخواء الذى يعشش فيها ! ومن الشقاء الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها . فيهربون بالانتحار . ويهربون بالجنون . ويهربون بالشذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يسترجون أبدا !

لماذا ؟

السبب الرئيسى طبعا هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة — على كل ما لديها من الرخاء المادى — من زاد الروح . . من الإيمان . . من الاطمئنان إلى الله . . وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسى الكبير . . بلاء الربا . . بلاء الاقتصاد الذى ينمو ولكنه لاينمو سويا معتدلا بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . إنما ينمو مائلا جانحا إلى حفنة المولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة فى المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة ؛ ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير فى طريق معين ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التى يسعد بها الجميع ؛ والتى تكفل عملا

Marfat.com

منتظما ورزقا مضمونا للجميع ؛ والتي تهيئ طمأنينة نفسية وضمانات اجتماعية للجميع .. ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح - ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف في حياة البشرية جميعا !

وصدق الله العظيم : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » .. وها نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة في واقعنا العالمي اليوم !

ولقد اعترض المرابون في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على تحريم الربا . اعترضوا بأنه ليس هنالك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية :

« ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا » ..

وكانت الشبهة التي ركنوا إليها ، هي أن البيع يحقق فائدة وربحا ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحا . . وهي شبهة واهية . فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة . والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة . أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة . وهذا هو الفارق الرئيسي . وهذا هو مناط التحريم والتحليل ..

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده . . ولا مجال للمماحلة في هذا ولا للمداورة !

« وأحل الله البيع وحرم الربا » ..

لانتفاء هذا العنصر من البيع ؛ ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية ؛ وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية (١) . .

وقد عالج الإسلام الأوضاع التي كانت حاضرة في ذلك الزمان معالجة واقعية ؛ دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية :

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » . .

لقد جعل سريان نظامه منذ ابتداء تشريعه . فمن سمع موعظة ربه فانتهى فلا يسترد منه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيه إلى الله ، يحكم فيه بما يراه . . وهذا التعبير يوحي

---

(١) تراجع البحوث القيمة في هذه الموضوعات : للأستاذ المودودي . وقد سبقت الإشارة إليها.

Marfat.com

للقلب بأن النجاة من سالف هذا الإثم مرهونة بإرادة الله ورحمته ؛ فيظل يتوجس من الأمر ؛ حتى يقول لنفسه : كفانى هذا الرصيد من العمل السيء ، ولعل الله أن يعفينى من جرائره إذا أنا انتهيت وتبت . فلا أضف إليه جديدا بعد ! . . وهكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد .

« ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

وهذا التهديد بحقيقة العذاب فى الآخرة يقوى ملامح المنهج التربوى الذى أشرنا إليه ، ويعمقه فى القلوب !

ولكن لعل كثيرين يغريهم طول الأمد ، وجهل الموعد ، فيعدون من حسابهم حساب الآخرة هذا ! فها هو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق فى الدنيا والآخرة جميعا ؛ ويقرر أن الصدقات - لا الربا - هى التى تربو وتزكو ؛ ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والإثم . ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين :

« يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » . .

وصدق وعيد الله ووعده . فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة . . إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذى يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء . وقد ترى العين - فى ظاهر الأمر - رخاء وإنتاجا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هى فى الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد . وقد أشرنا من قبل إلى الشقوة النكدة التى ترين على قلوب الناس فى الدول الغنية الغزيرة الموارد ؛ وإلى القلق النفسى الذى لا يدفعه الثراء بل يزيده . ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية فى تهديد دائم بالحرب المبيدة ؛ كما تصحو وتنام فى هم الحرب الباردة ! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يوما بعد يوم - سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا - ولا يبارك لهم فى مال ولا فى عمر ولا فى صحة ولا فى طمأنينة بال !

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون - الممثلين فى الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع - وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائما إلى فضل الله وثوابه ،

Marfat.com

والاطمئنان دائما إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها . . ما من مجتمع قام على هـذا الأساس إلا بارك الله لأهله ـ أفرادا وجماعات ـ فى مالهم ورزقهم ، وفى صحتهم وقوتهم وفى طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم .

والذين لايرون هذه الحقيقة فى واقع البشرية ، هم الذين لايريدون أن يروا ،لأن لهم هوى فى عدم الرؤية ! أوالذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمدا وقصدا من أصحاب المصلحة فى قيام النظام الربوى المقيت ؛ فضعفوا عن رؤية الحقيقة !

« والله لايحب كل كفار أثيم » . .

وهـذا التعقيب هنا قاطع فى اعتبار من يصرون على التعامل الربوى ـ بعد تحريمه ـ من الكفار الآثمين ، الذين لايحبهم الله . ومامن شك أن الذين يحلون ماحرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم ، ولوقالوا بألسنتهم ألف مرة : لاإله إلا الله . محمد رسول الله . . فالإسلام ليس كلمة باللسان ؛ إنمـا هو نظام حياة ومنهج عمل ؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل . . وليس فى حرمة الربا شبهة ؛ وليس فى اعتباره حلالا وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم .. والعياذ بالله . .

* * *

وفى الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم ، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا ونظامه ، يعرض صفحة الإيمان والعمل الصالح ، وخصائص الجماعة المؤمنة فى هذا الجانب ، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى النظام الآخر ـ نظام الزكاة ـ المقابل لنظام الربا :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

والعنصر البارز فى هذه الصفحة هو عنصر « الزكاة » . عنصر البذل بلا عوض ولا رد . والسياق يعرض بهذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن . ثم يعرض صورة الأمن والطمأنينة والرضى الإلهى المسبغ على هذا المجتمع المؤمن .

إن الزكاة هى قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن ؛ الذى لايحتاج إلى ضمانات النظام الربوى فى أى جانب من جوانب حياته .

Marfat.com

وقد بهتت صورة « الزكاة » فى حسنا وحس الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التى لم تشهد نظام الإسلام مطبقا فى عالم الواقع ؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيمانى والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ، ثم يقيم لها النظام الذى تتنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية . ويجعل « الزكاة » قاعدة هذا النظام ، فى مقابل نظام الجاهلية الذى يقوم على القاعدة الربوية . ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقى عن طريق الجهد الفردى ، أو التعاون البرىء من الربا !

بهتت هذه الصورة فى حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ التى لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صور الإنسانية . إنما ولدت وعاشت فى غمرة النظام المادى ، القائم على الأساس الربوى . وشهدت الكزازة والشح ، والتكالب والتطاحن ، والفردية الأثرة التى تحكم ضمائر الناس . فتجعل المال لاينتقل إلى من يحتاجون إليه إلا فى الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، مالم يكن لهم رصيد من المال ؛ أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم فى مؤسسات التأمين الربوية ! وجعلت التجارة والصناعة لاتجد المال الذى تقوم به . مالم تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر فى حس هذه الأجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام إلا هذا النظام ؛ وأن الحياة لاتقوم إلا على هذا الأساس !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحسانا فرديا هزيلا ، لاينهض على أساسه نظام عصرى ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهى تتناول اثنين ونصفا فى المئة من أصل رؤوس الأموال الأهلية مع ربحها[1] ؟ يؤديها الناس الذين يصنعهم الإسلام صناعة خاصة ، ويربيهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذى يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقا مفروضا ، لا إحسانا فرديا . وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ؛ حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة فى كل حالة ؛ وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان دينا تجاريا أو غير تجارى ، من حصيلة الزكاة .

وليس المهم هو شكلية النظام . إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذى يربيه الإسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ،

(١) ترتفع هذه النسبة إلى ٥٪ وإلى ١٠٪ وإلى ٢٠٪ فى الزروع والركاز .

Marfat.com

ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معاً متناسقة متكاملة . وهذه حقيقة قد لايتصورها الذين نشأوا وعاشوا فى ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن ـ أهل الإسلام ـ ونذوقها بذوقنا الإيمانى . فإذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم ـ وحظ البشرية التى صارت إليهم مقاليدها وقيادتها ـ فليكن هذا نصيبهم ! وليحرموا من هذا الخير الذى يبشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » . . ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الأجر والثواب . فإنما بجبالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يحرمون !

إن الله ـ سبحانه ـ يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون ، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده . ويعدهم بالأمن فلا يخافون . وبالسعادة فلا يحزنون :

« فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

فى الوقت الذى يوعد أكلة الربا والمجتمع الربوى بالمحق والسحق ، وبالتخبط والضلال ، وبالقلق والخوف . .

وشهدت البشرية ذلك واقعا فى المجتمع المسلم ؛ وتشهد اليوم هذا واقعا كذلك فى المجتمع الربوى ! ولو كنا نملك أن نمسك بكل قلب غافل فنهزه هزا عنيفا حتى يستيقظ لهذه الحقيقة الماثلة ؛ ونمسك بكل عين مغمضة فنفتح جفنيها على هذا الواقع . . لو كنا نملك لفعلنا . . ولكننا لانملك إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة ؛ لعل الله أن يهدى البشرية المنكودة الطالع إليها . . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان . والهدى هدى الله . .

* * *

وفى ظل هذا الرخاء الآمن الذى يعد الله به الجماعة المسلمة ، التى تنبذ الربا من حياتها ، فتنبذ الكفر والإثم ، وتقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة . . فى ظل هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت ؛ وإلا فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله ، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا مابقى من الربا . إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون » . .

Marfat.com

إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقى من الربا . فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقى من الربا . ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون . فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به . والنص القرآنى لا يدعهم فى شبهة من الأمر . ولا يدع إنسانا يتستر وراء كلمة الإيمان ، بينما هو لا يطيع ولا يرتضى ما شرع الله، ولا ينفذه فى حياته ، ولا يحكمه فى معاملاته . فالذين يفرقون فى الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين . مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون !

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا .. إن كنتم مؤمنين » . .

لقد ترك لهم ما سلف من الربا ـ لم يقرر استرداده منهم ، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزء منها بسبب أن الربا كان داخلا فيها .. إذ لا تحريم بغير نص . . ولا حكم بغير تشريع . . والتشريع ينفذ وينشىء آثاره بعد صدوره . . فأما الذى سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون . وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعه أثرا رجعيا . وهو المبدأ الذى أخذ به التشريع الحديث حديثا ! ذلك أن التشريع الإسلامى موضوع ليواجه حياة البشر الواقعية ، ويسيرها ، ويطهرها ، ويطلقها تنمو وترتفع معاً . . وفى الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وإنفاذه فى حياتهم منذ نزوله وعلمهم به . واستجاش فى قلوبهم ـ مع هذا ـ شعور التقوى لله . وهو الشعور الذى ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه ، ويجعله الضمان الكامن فى ذات الأنفس ، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته . فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التى لا تستند إلا للرقابة الخارجية ! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية ، حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان .

فهذه صفحة الترغيب . . وإلى جوارها صفحة الترهيب . . الترهيب الذى يزلزل القلوب :

« فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . .

ياللهول ! حرب من الله ورسوله .. حرب تواجهها النفس البشرية .. حرب رهيبة معروفة المصير ، مقررة العاقبة . . فأين الإنسان الضعيف الفانى من تلك القوة الجبارة الساحقة للاحقة ؟ !

Marfat.com

ولقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التى نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوى . وقد أمر - صلى الله عليه وسلم - فى خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا فى الجاهلية - وأوله ربا عمه العباس - عن كاهل المدينين الذى ظلوا يحملونه إلى مابعد الإسلام بفترة طويلة ، حتى نضج المجتمع المسلم ، واستقرت قواعده ، وحان أن ينتقل نظامه الاقتصادى كله من قاعدة الربا الوبيئة . وقال صلى الله عليه وسلم فى هذه الخطبة :

« وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين . وأول ربا أضع ربا العباس » . . ولم يأمرهم برد الزيادات التى سبق لهم أخذها فى حال الجاهلية .

فالإمام مكلف - حين يقوم المجتمع الإسلامى - أن يحارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوى . ويعتون عن أمر الله . ولوأعلنوا أنهم مسلمون . كما حارب أبوبكر - رضى الله عنه - مانعى الزكاة ، مع شهادتهم أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقامتهم للصلاة . فليس مسلما من يأبى طاعة شريعة الله ، ولاينفذها فى واقع الحياة !

على أن الإيذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام . فهذه الحرب معلنة - كما قال أصدق القائلين - على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادى والاجتماعى . هذه الحرب معلنة فى صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهى حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة . . حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض . حرب المطاردة والمشاكسة . حرب الغبن والظلم . حرب القلق والخوف . . وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول . الحرب الساحقة الماحقة التى تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوى المقيت . فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أوعن طريق غير مباشر . وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات . ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب ! أويزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ! أويثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر مايقع - إن لم يقع هذا كله -

Marfat.com

هو خراب النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشرى من أساسه ، وتدميره بما لاتبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة !

إنها الحرب المشبوبة دائما . وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا . . وهى مسعرة الآن ؛ تأكل الأخضر واليابس فى حياة البشرية الضالة ؛ وهى غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادى الذى تخرجه المصانع .. وكانت هذه التلال حرية بأن تسعد البشر لوأنها نشأت من منبت زكى طاهر ؛ ولكنها ـ وهى تخرج من منبع الربا الملوث ـ لاتمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية ، ويسحقها سحقا ؛ فى حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين ، لاتحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون !

لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى ، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المشرع الطاهر النظيف ، وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبىء :

« وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم . لاتظلمون ولاتظلمون » . .

فهى التوبة عن خطيئة . إنها خطيئة الجاهلية . الجاهلية التى لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولانظام دون نظام .. إنما هى الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان .. خطيئة تنشىء آثارها فى مشاعر الأفراد وفى أخلاقهم وفى تصورهم للحياة . وتنشىء آثارها فى حياة الجماعة وارتباطاتها العامة . وتنشىء آثارها فى الحياة البشرية كلها ، وفى نموها الاقتصادى ذاته . ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين ، أنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادى !

واسترداد رأس المال مجردا ، عدالة لايظلم فيها دائن ولامدين . . فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة . لها وسيلة الجهد الفردى. ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهى إعطاء المال لمن يعمل فيه ، ومقاسمته الربح والخسارة . ووسيلة الشركات التى تطرح أسهمها مباشرة فى السوق ـ بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح ـ وتناول الأرباح الحلال من هذاالوجه . ووسيلة إيداعها فى المصارف بدون فائدة ـ على أن تساهم بها المصارف فى الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أوغير مباشرة ـ ولاتعطيها بالفائدة الثابتة ـ ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أوالخسارة إذا فرض ووقعت .. وللمصارف أن تتناول قدرا معينا من الأجر فى نظير إدارتها لهذه الأموال . . ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال

Marfat.com

تفصيلها .. وهى ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب ، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر ، وتجنب المورد العفن النتن الآسن [1] !

* * *

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين فى حالة الإعسار . . فليس السبيل هو ربا النسيئة : بالتأجيل مقابل الزيادة . . ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة . والتحبيب فى التصدق به لمن يريد مزيدا من الخير أوفى وأعلى :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم . . إن كنتم تعلمون » ..

إنها السماحة الندية التى يحملها الإسلام للبشرية . إنه الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية المتعبة فى هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار . إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع !

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لاتؤدى مفهوما « معقولا » فى عقول المناكيد الناشئين فى هجير الجاهلية المادية الحاضرة ! وأن مذاقها الحلو لاطعم له فى حسهم المتحجر البليد ! ــ وبخاصة وحوش المرابين سواء كانوا أفرادا قابعين فى زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم فى بعض الأحيان ، فلا يجدون فى هذا العالم المادى الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ؛ فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش ، فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها . تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة ! سواء كانوا أفرادا هكذا أو كانوا فى صورة بيوت مالية ومصارف ربوية . فكلهم سواء . غير أن هؤلاء يجلسون فى المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة ؛ ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية ، والمؤلفات العلمية ، والأساتذة والمعاهد والجامعات ، والتشريعات والقوانين ، والشرطة والمحاكم والجيوش . . كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتها ، وأخذ من يجرؤ على التلكؤ فى رد الفائدة الربوية إلى خزائنهم باسم القانون . . . ! !

نحن نعرف أن هذه الكلمات لاتصل إلى تلك القلوب . . ولكنا نعرف أنها الحق . ونثق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها :

(١) تراجع بحوث الأستاذ المودودى التى سبقت الإشارة إليها ..

Marfat.com

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

إن المعسر - فى الإسلام - لايطارد من صاحب الدين ، أو من القانون والمحاكم . إنما ينظر حتى يوسر . . ثم إن المجتمع المسلم لايترك هذا المعسر وعليه دين . فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه - إن تطوع بهذا الخير . وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين . وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة . لو كان يعلم مايعلمه الله من سريرة هذا الأمر !

ذلك أن إبطال الربا يفقد شطرا كبيرا من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين ، ويضيق عليه الخناق ، وهو معسر لايملك السداد . فهنا كان الأمر - فى صورة شرط وجواب - بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء . وكان بجانبه التحبيب فى التصدق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار .

على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظا من مصارف الزكاة ، ليؤدى دينه . وييسر حياته : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . . والغارمين . . . » وهم أصحاب الديون . الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم . إنما أنفقوها فى الطيب النظيف . ثم قعدت بهم الظروف !

ثم يجىء التعقيب العميق الإيحاء ، الذى ترجف منه النفس المؤمنة ، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله ، ثم تمضى ناجية من الله يوم الحساب :

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لايظلمون » . .

واليوم الذى يرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير ، له فى القلب المؤمن وقع ؛ ومشهده حاضر فى ضمير المؤمن، وله فى ضمير المؤمن هول . والوقوف بين يدى الله فى هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات . جو الأخذ والعطاء . جو الكسب والجزاء . . إنه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل مافيه . والقضاء الأخير فى اللفتين بين كل من فيه . فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه .

إن التقوى هى الحارس القابع فى أعماق الضمير ؛ يقيمه الإسلام هناك لايملك القلب فرارا منه لأنه فى الأعماق هناك !

Marfat.com

إنه الإسلام . . النظام القوى . . الحلم الذى الممثل فى واقع أرضى . . رحمة الله بالبشر . وتكريم الله للإنسان . والخير الذى تشرد عنه البشرية ؛ ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنسان !

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ؛ وَلْيَكْتُبْ
بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ؛ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ . فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ؛ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي
عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ .
وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ، فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ
تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ـ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ
الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ ـ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ـ إِلَىٰ أَجَلِهِ . ذَٰلِكُمْ
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا . إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا . وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا
يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ . وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ . وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ،
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ . فَإِنْ
أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ . وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ
وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ،
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ﴿٢٨٤﴾

Marfat.com

هـذه الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن تكملة للأحكام السابقة فى درسى الصدقة والربا . فقد استبعد التعامل الربوى فى الدرس السابق والديون الربوية والبيوع الربوية . . أما هنا فالحديث عن القرض الحسن بلا ربا ولا فائدة ، وعن المعاملات التجارية الحاضرة المبرأة من الربا . .

وإن الإنسان ليقف فى عجب وفى إعجاب أمام التعبير التشريعى فى القرآن ـ حيث تتجلى الدقة العجيبة فى الصياغة القانونية حتى مايدل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر . وحيث لاتطغى هـذه الدقة المطلقة فى الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته . وحيث يربط التشريع بالوجدان الدينى ربطا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوى التأثير ، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية . وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة فى موقف طرفى التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفى هـذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها . وحيث لاينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لايعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضى الإشارة إلى الرابطة بينهما . . .

إن الإعجاز فى صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز فى صياغة آيات الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى . لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ . ولولا الإعجاز ماحقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفنى المطلق على هـذا النحو الفريد .

ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامى بهـذه المبادىء للتشريع المدنى والتجارى بحوالى عشرة قرون ، كما يعترف الفقهاء المحدثون !

* * *

« يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » . .

هذا هو المبدأ العام الذى يريد تقريره . فالكتابة أمر مفروض بالنص ، غير متروك للاختيار فى حالة الدين إلى أجل . لحكمة سيأتى بيانها فى نهاية النص .

« وليكتب بينكم كاتب بالعدل » . .

وهذا تعيين للشخص الذى يقوم بكتابة الدين . فهو كاتب . وليس أحد المتعاقدين . وحكمة

Marfat.com

استدعاء ثالث – ليس أحد الطرفين فى التعاقد – هى الاحتياط والحيدة المطلقة . وهـذا الـكاتب مأمور أن يـكتب بالعـدل ، فلا يميل مع أحـد الطرفين ، ولا ينقص أو يزيد فى النصوص . .

« ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » . .

فالتـكليف هنا من الله – بالقياس إلى الـكاتب – كى لايتأخر ولا يأبى ولا يثقل العمل على نفسه . فتلك فريضة من الله بنص التشريع ، حسابه فيها على الله . وهى وفاء لفضل الله عليه إذ علمه كيف يـكتب . . « فليـكتب » كما علمه الله .

وهنا يكون الشارع قد انتهى من تقرير مبدأ الـكتابة فى الدين إلى أجل . ومن تعيين من يتولى الـكتابة . ومن تـكليفه بأن يـكتب . ومع التـكليف ذلك التذكير اللطيف بنعمة الله عليه ، وذلك الإيحاء بأن يلتزم العدل . .

وهنا ينتقل إلى فقرة تالية يبين فيها كيف يكتب . .

« وليملل الذى عليه الحق . وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لايستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل » . .

إن المدين – الذى عليه الحق – هو الذى يملى على الـكاتب اعترافه بالدين ، ومقدار الدين ، وشرطه وأجله . . ذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن ، فزاد فى الدين ، أو قرب الأجل ، أو ذكر شروطا معينة فى مصلحته . والمدين فى موقف ضعيف قد لايملك معه إعلان المعارضة رغبة فى إتمام الصفقة لحاجته إليها ، فيقع عليه الغبن . فإذا كان المدين هو الذى يملى لم يمل إلا مايريد الارتباط به عن طيب خاطر . ثم ليـكون إقراره بالدين أقوى وأثبت ، وهو الذى يملى . . وفى الوقت ذاته يناشد ضمير المدين – وهو يملى – أن يتقى الله ربه ولا يبخس شيئا من الدين الذى يقر به ولا من سائر أركان الإقرار الأخرى . . فإن كان المدين سفيها لايحسن تدبير أموره . أو ضعيفا – أى صغيرا أو ضعيف العقل – أو لايستطيع أن يمل هو إما لعى أو جهل أو آفة فى لسانه أو لأى سبب من الأسباب المختلفة الحسية أو العقلية . . فليملل ولى أمره القيم عليه . . « بالعدل » . . والعدل يذكر هنا لزيادة الدقة . فربما تهاون الولى – ولو قليلا – لأن الدين لايخصه شخصيا . كى تتوافر الضمانات كلها لسلامة التعاقد .

Marfat.com

وبهذا ينتهي الكلام عن الكتابة من جميع نواحيها ، فينتقل الشارع إلى نقطة أخرى في العقد ، نقطة الشهادة :

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ـ ممن ترضون من الشهداء ـ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . .

إنه لابد من شاهدين على العقد ـ « ممن ترضون من الشهداء » ـ والرضى يشمل معنيين : الأول أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين في الجماعة . والثاني أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد . . ولكن ظروفا معينة قد لاتجعل وجود شاهدين أمرا ميسورا . فهنا ييسر التشريع فيستدعي النساء للشهادة ، وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السوي ، الذي لاتحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش ، فتجور بذلك على أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية وهي الطفولة الناشئة الممثلة لجيل المستقبل ، في مقابل لقيمات أو دريهمات تنالها من العمل ، كما تضطر إلى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم ! فأما حين لايوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان . . ولكن لماذا امرأتان ؟ إن النص لا يدعنا نحدس ! ففي مجال التشريع يكون كل نص محددا واضحا معللا : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . . والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة . فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد ، مما يجعلها لاتستوعب كل دقائقه وملابساته ومن ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء ، فتذكرها الأخرى بالتعاون معاً على تذكر ملابسات الموضوع كله . وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية . فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعي مقابلا نفسياً في المرأة حتما . تستدعي أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لاترجع فيهما إلى التفكير البطيء . . وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة .. وهذه الطبيعة لاتتجزأ ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها ـ حين تكون امرأة سوية ـ بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ؛ ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيحاء . ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكر إحداهما الأخرى ـ إذا انحرفت مع أي انفعال ـ فتتذكر وتفيء إلى الوقائع المجردة .

Marfat.com

وكما وجه الخطاب فى أول النص إلى الكتاب ألا يأبوا الكتابة ، يوجهه هنا إلى الشهداء ألا يأبوا الشهادة :

« ولا يأب الشهداء إذا مادعوا » .

فتلبية الدعوة للشهادة إذن فريضة وليست تطوعا . فهي وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق . والله هو الذى يفرضها كى يلبيها الشهداء عن طواعية تلبية وجدانية ، بدون تضرر أو تلكؤ . وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على أحدهما ، إذا كانت الدعوة من كليهما أو من أحدهما .

وهنا ينتهى الكلام عن الشهادة ، فينتقل الشارع إلى غرض آخر . غرض عام للتشريع . يؤكد ضرورة الكتابة - كبر الدين أم صغر - ويعالج ماقد يخطر للنفس من استثقال الكتابة وتكاليفها بحجة أن الدين صغير لا يستحق ، أو أنه لا ضرورة للكتابة بين صاحبيه لملابسة من الملابسات كالتجمل والحياء أو الكسل وقلة المبالاة ! ثم يعلل تشديده فى وجوب الكتابة تعليلا وجدانياً وتعليلا عملياً :

« ولا تسأموا أن تكتبوه - صغيراً أو كبيراً - إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » .

لا تسأموا . . فهو إدراك لانفعالات النفس الإنسانية حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته . . « ذلكم أقسط عند الله » . . أعدل وأفضل . وهو إيحاء وجدانى بأن الله يحب هذا ويؤثره . « وأقوم للشهادة » . فالشهادة على شيء مكتوب أقوم من الشهادة الشفوية التى تعتمد على الذاكرة وحدها . وشهادة رجلين أو رجل وامرأتين أقوم كذلك للشهادة وأصح من شهادة الواحد ، أو الواحد والواحدة . « وأدنى ألا ترتابوا » : أقرب لعدم الريبة . الريبة فى صحة البيانات التى تضمنها العقد ، أو الريبة فى أنفسكم وفى سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد .

وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ؛ ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع ، ودقة أهدافه ، وصحة إجراءاته . إنها الصحة والدقة والثقة والطمأنينة .

ذلك شأن الدين المسمى إلى أجل . أما التجارة الحاضرة فإن بيوعها مستثناة من قيد الكتابة . وتكفى فيها شهادة الشهود تيسيراً للعمليات التجارية التى يعرقلها التعقيد ، والتى تتم

Marfat.com

فى سرعة ، وتتكرر فى أوقات قصيرة . ذلك أن الإسلام وهو يشرع للحياة كلها قد راعى كل ملابساتها ؛ وكان شريعة عملية واقعية لاتعقيد فيها ، ولا تعويق لجريان الحياة فى مجراها :

« إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم » .

وظاهر النص أن الإعفاء من الكتابة رخصة لاجناح فيها . أما الإشهاد فموجب . وقد وردت بعض الروايات بأن الإشهاد كذلك للندب لا للوجوب . ولكن الأرجح هو ذاك .

والآن – وقد انتهى تشريع الدين المسمى ، والتجارة الحاضرة ، والتقى كلاهما عند شرطى الكتابة والشهادة – على الوجوب وعلى الرخصة – فإنه يقرر حقوق الكتاب والشهداء كما قرر واجباتهم من قبل . . لقد أوجب عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة . فالآن يوجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب فى أداء التكاليف العامة .

« ولا يضار كاتب ولا شهيد . وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم . واتقوا الله ويعلمكم الله . والله بكل شيء عليم » .

لا يقع ضرر على كاتب أو شهيد ، بسبب أدائه لواجبه الذى فرضه الله عليه . وإذا وقع فإنه يكون خروجاً منكم عن شريعة الله ومخالفة عن طريقه . وهو احتياط لابد منه . لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط احد الفريقين المتعاقدين فى أحيان كثيرة . فلابد من تمتعهم بالضمانات التى تؤمنهم على أنفسهم ، وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والنشاط فى أداء الواجبات ، والحيدة فى جميع الأحوال . ثم – وعلى عادة القرآن فى إيقاظ الضمير ، واستجاشة الشعور كلما هم بالتكليف ، ليستمد التكليف دفعته من داخل النفس ، لا من مجرد ضغط النص – يدعو المؤمنين إلى تقوى الله فى النهاية ؛ ويذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم ، وهو الذى يعلمهم ويرشدهم ، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيء أرواحهم للتعليم ، ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان :

« واتقوا الله . ويعلمكم الله . والله بكل شيء عليم » .

ثم يعود المشرع إلى تكملة فى أحكام الدين ، أخرها فى النص لأنها ذات ظروف خاصة ، فلم يذكرها هناك فى النص العام . . ذلك حين يكون الدائن والمدين على سفر فلا يجدان كاتباً .

Marfat.com

تيسيراً للتعامل ، مع ضمان الوفاء ، رخص الشارع فى التعاقد الشفوى بلا كتابة مع تسليم رهن مقبوض للدائن ضامن للدين :

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة » .

وهنا يستجيش الشارع ضمائر المؤمنين للأمانة والوفاء بدافع من تقوى الله . فهذا هو الضمان الأخير لتنفيذ التشريع كله ، ولرد الأموال والرهائن إلى أصحابها ، والمحافظة الكاملة عليها :

« فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه » .

والمدين مؤتمن على الدين ، والدائن مؤتمن على الرهن ؛ وكلاهما مدعو لأداء ما اؤتمن عليه باسم تقوى الله ربه . والرب هو الراعى والمربى والسيد والحاكم والقاضى . وكل هذه المعانى ذات إيحاء فى موقف التعامل والائتمان والأداء . . وفى بعض الآراء أن هذه الآية نسخت آية الكتابة فى حالة الائتمان . ونحن لانرى هنا ، فالكتابة واجبة فى الدين إلا فى حالة السفر . والائتمان خاص بهذه الحالة . والدائن والمدين كلاهما ـ فى هذه الحالة ـ مؤتمن .

وفى ظل هذه الاستجاشة إلى التقوى ، يتم الحديث عن الشهادة ـ عند التقاضى فى هذه المرة لاعند التعاقد ـ لأنها أمانة فى عنق الشاهد وقلبه :

« ولا تكتموا الشهادة . ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

ويتكىء التعبير هنا على القلب . فينسب إليه الإثم . تنسيقاً بين الإضمار للإثم ، والكتمان للشهادة . فكلاهما عمل يتم فى أعماق القلب . ويعقب عليه بتهديد ملفوف . فليس هناك خاف على الله .

« والله بما تعملون عليم » .

وهو يجزى عليه بمقتضى علمه الذى يكشف الإثم الكامن فى القلوب !

ثم يستمر السياق فى توكيد هذه الإشارة ، واستجاشة القلب للخوف من مالك السماوات والأرض ومافيهما ، العليم بمكنونات الضمائر خفيت أم ظهرت ، المجازى عليها ، المتصرف فى مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب ، القدير على كل شىء تتعلق به مشيئته بلا تعقيب !

« لله مافى السماوات وما فى الأرض . وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ،

Marfat.com

فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير » .

وهكذا يعقب على التشريع المدنى البحت بهـذا التوجيه الوجدانى البحت ؛ ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة ، بذلك الرباط الوثيق ، المؤلف من الخوف والرجاء فى مالك الأرض والسماء . فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية . . وهى الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام فى قلوب المسلمين فى المجتمع المسلم . . وهى والتشريع فى الإسلام متكاملان . فالإسلام يصنع القلوب التى يشرع لها ؛ ويصنع المجتمع الذى يقنن له . صنعة إلهية متكاملة متناسقة . تربية وتشريع . وتقوى وسلطان . . ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان . فأنى تذهب شرائع الأرض ، وقوانين الأرض ، ومناهج الأرض ؟ أنى تذهب نظرة إنسان قاصر ، محدود العمر ، محدود المعرفة ، محدود الرؤية ، يتقلب هواه هنا وهناك ، فلا يستقر على حال ، ولا يكاد يجتمع اثنان منه على رأى ، ولا على رؤية ، ولا على إدراك ؟ وأنى تذهب البشرية شاردة عن ربها . ربها الذى خلق ، والذى يعلم من خلق ، والذى يعلم مايصلح لخلقه ، فى كل حالة وفى كل آن ؟

ألا إنها الشقوة للبشرية فى هذا الشرود عن منهج الله وشرعه . الشقوة التى بدأت فى الغرب هربا من الكنيسة الطاغية الباغية هناك ؛ ومن إلهها الذى كانت تزعم أنها تنطق باسمه وتحرم على الناس أن يتفكروا وأن يتدبروا ؛ وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر . . فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس ، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها . ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال ، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه ! ثم تخلصوا من كل دين يقودهم فى حياتهم الأرضية بمنهج الله . . وكانت الشقوة وكان البلاء (١) ! !

فأما نحن ـ نحن الذين نزعم الإسلام ـ فما بالنا ؟ مابالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه ؟ مابالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل مايرفع عنا الأغلال ، ويحط عنا الأثقال ، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليسر والاستقامة على الطريق المؤدى إليه وإلى الرقى والفلاح ؟ !

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » وكتاب : « معركة التقاليد » لمحمد قطب .

Marfat.com

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ . كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا . أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » ﴿٢٨٦﴾

هـذا ختام السورة الكبيرة . . الكبيرة بحجمها التعبيرى إذ هى أطول سور القرآن ، والكبيرة بموضوعاتها التى تمثل قطاعا ضخماً رحيباً من قواعد التصور الإيمانى ، وصفة الجماعة المسلمة ، ومنهجها ، وتكاليفها ، وموقفها فى الأرض ، ودورها فى الوجود ؛ وموقف أعدائها المناهضين لها ، وطبيعتهم ، وطبيعة وسائلهم فى حربها ؛ ووسيلتها هى فى دفع غائلتهم عنها من جهة ، وتوقى مصيرهم النكود من جهة أخرى . . كما شرحت السورة طبيعة دور الإنسان فى الأرض ، وفطرته ، ومزالق خطاه ، ممثلة فى تاريخ البشرية وقصصها الواقعى . . إلى آخر ماسبق تفصيله فى أثناء استعراض نصوصها الطويلة .

هذا ختام السورة الكبيرة . . فى آيتين اثنتين . . ولكنهما تمثلان بذاتهما تلخيصاً وافياً لأعظم قطاعات السورة . يصلح ختاماً لها . ختاماً متناسقاً مع موضوعاتها وجوها وأهدافها .

لقد بدأت السورة بقوله تعالى : « الم . ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » . . وورد فى ثناياها إشارات إلى هـذه الحقيقة ، وبخاصة حقيقة الإيمان بالرسل جميعاً . . وهاهى ذى تختم بقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله ... »

وهو ختام يتناسق مع البدء كأنهما دفتا كتاب !

Marfat.com

وقد حوت السورة الكثير من تكاليف الأمة المسلمة ، وتشريعاتها فى شتى شؤون الحياة .. كما ورد فيها الكثير عن نكول بنى إسرائيل عن تكاليفهم وتشريعاتهم .. وفى ختامها يجيء هذا النص المفصح عن الحد الفاصل بين النهوض بالتكاليف والنكول عنها ، المبين أن الله ـ سبحانه ـ لايريد إعنات هذه الأمة ولا إثقالها ، وأنه كذلك لا يحابيها ـ كما زعمت يهود عن ربها ـ ولا يتركها سدى : « لايكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . .

وقد تضمنت السورة بعض قصص بنى إسرائيل ؛ وما أنعم الله عليهم به من فضل وما قابلوا به هذا الفضل من جحود ؛ وما كلفهم من كفارات بلغ بعضها حد القتل : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » . . وفى ختامها يرد ذلك الدعاء الخاشع من المؤمنين : « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ... » .

وقد فرض فى السورة على المؤمنين القتال ؛ وأمروا بالجهاد والإنفاق فى سبيل الله لدفع الكفر والكافرين .. وهى تختم بالتجاء المؤمنين إلى ربهم يستمدون منه العون على ما كلفهم ، والنصر على عدوهم : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

إنه الختام الذى يلخص ويشير ويتناسق مع خط السورة الأصيل . .

وفى هاتين الآيتين كل كلمة لها موضعها ، ولها دورها ، ولا دلالتها الضخمة . وهى قائمة فى العبارة لتمثيل ما وراءها ـ وهو كبير ـ من حقائق العقيدة . . من طبيعة الإيمان فى هذا الدين وخصائصه وجوانبه . ومن حال المؤمنين به مع ربهم ، وتصورهم لما يريده ـ سبحانه ـ بهم ، وبالتكاليف التى يفرضها عليهم . ومن التجائهم إلى كنفه واستسلامهم لمشيئته وارتكانهم إلى عونه .. نعم.. كل كلمة لها دورها الضخم . بصورة عجيبة . عجيبة حتى فى نفس من عاش فى ظلال القرآن ، وعرف شيئاً من أسرار التعبير فيه ؛ وطالع هذه الأسرار فى كل آية من آياته !

فلننظر فى هذه النصوص بشىء من التفصيل :

* * *

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا وإليك المصير » ..

Marfat.com

إنها صورة للمؤمنين ، للجماعة المختارة التى تمثلت فيها حقيقة الإيمان فعلا . ولكل جماعة تمثل فيها هذه الحقيقة الضخمة . . ومن ثم كرمها الله - سبحانه - وهو يجمعها - فى حقيقة الإيمان الرفيعة - مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو تكريم تدرك الجماعة المؤمنة حقيقته ؛ لأنها تدرك حقيقة الرسول الكبيرة ؛ وتعرف أى مرتقى رفعها الله إليه عنده ، وهو يجمع بينها وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى صفة واحدة ، فى آية واحدة ، من كلامه الجليل :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » . .

وإيمان الرسول بما أنزل إليه من ربه هو إيمان التلقى المباشر . تلقى قلبه النقى للوحى العلى . واتصاله المباشر بالحقيقة المباشرة . الحقيقة التى تتمثل فى كيانه بذاتها من غير كد ولا محاولة ؛ وبلا أداة أو واسطة . وهى درجة من الإيمان لامجال لوصفها فلا يصفها إلا من ذاقها ، ولا يدركها من الوصف - على حقيقتها - إلا من ذاقها كذلك ! فهذا الإيمان - إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم - هو الذى يكرم الله عباده المؤمنين فيجمعهم فى الوصف مع الرسول الكريم . على فارق مابين مذاقه فى كيان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بطبيعة الحال وكيان أى سواه ممن لم يتلق الحقيقة المباشرة من مولاه .

فما هى طبيعة هذا الإيمان وحدوده ؟

« كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لانفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا وإليك المصير » . .

إنه الإيمان الشامل الذى جاء به هذا الدين . الإيمان الذى يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله ، القائمة على دعوته فى الأرض إلى يوم القيامة ، الضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، السائرة فى موكب الدعوة وموكب الرسول وموكب الإيمان الممتد فى شعاب التاريخ البشرى ، الإيمان الذى يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفين اثنين : صف المؤمنين وصف الكافرين . حزب الله وحزب الشيطان . فليس هنالك صف ثالث على مدار الزمان .

« كل آمن بالله » . .

والإيمان بالله فى الإسلام قاعدة التصور . وقاعدة المنهج الذى يحكم الحياة . وقاعدة الخلق

Marfat.com

وقاعدة الاقتصاد . وقاعدة كل حركة يتحركها المؤمن هنا أو هناك .

الإيمان بالله معناه إفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والعبادة . ومن ثم إفراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه فى كل أمر من أمور الحياة .

ليس هناك شركاء ـ إذن ـ فى الألوهية أو الربوبية . فلا شريك له فى الخلق . ولا شريك له فى تصريف الأمور . ولا يتدخل فى تصريفه للكون والحياة أحد . ولا يرزق الناس معه أحد . ولا يضر أو ينفع غيره أحد . ولا يتم شيء فى هذا الوجود صغيراً كان أو كبيراً إلا ما يأذن به ويرضاه .

وليس هناك شركاء فى العبادة يتجه إليهم الناس . لا عبادة الشعائر ولا عبادة الخضوع والدينونة. فلا عبادة إلا لله . ولا طاعة إلا لله ولمن يعمل بأمره وشرعه ، فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذى لا سلطان إلا منه . فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم لله وحده بحكم هذا الإيمان . ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق ، ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى إلا من صاحب السيادة الواحد الأحد . . من الله . . فهذا هو معنى الإيمان بالله . . ومن ثم ينطلق الإنسان حراً إزاء كل من عدا الله ، طليقاً من كل قيد إلا من الحدود التى شرعها الله ، عزيزاً على كل أحد إلا بسلطان من الله .

« وملائكته » .

والإيمان بملائكة الله طرف من الإيمان بالغيب ، الذى تحدثنا عن قيمته فى حياة الإنسان فى مطلع السورة ـ فى الجزء الأول من الظلال ـ وهو يخرج الإنسان من نطاق الحواس المضروب على الحيوان ؛ ويطلقه يتلقى المعرفة مما وراء هذا النطاق الحيوانى ؛ وبذلك يعلن « إنسانيته » بخصائصها المميزة[1] . ذلك بينما هو يلبى فطرة الإنسان وشوقه إلى المجاهيل التى لا تحيط بها حواسه ، ولكنه يحس وجودها بفطرته . فإذا لم تلبَّ هذه الأشواق الفطرية بحقائق الغيب ـ كما منحها الله له ـ اشتطت وراء الأساطير والخرافات لتشبع هذه الجوعة ؛ أو أصيب الكيان الإنسانى بالخلخلة والاضطراب[2] .

---

(١) يراجع الجزء الأول الطبعة الثانية المنقحة ص ٤٠ .

(٢) يراجع كتاب : منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب . فصل : «خطوط متقابلة فى النفس البشرية» ؟

Marfat.com

والإيمان بالملائكة : إيمان بحقيقة غيبية ، لاسبيل للإدراك البشرى أن يعرفها بذاته ، بوسائله الحسية والعقلية المهيأة له .. بينما كيانه مفطور على الشوق إلى معرفة شيء من تلك الحقائق الغيبية . ومن ثم شاءت رحمة الله بالإنسان - وهو فاطره وهو العليم بتكوينه وأشواقه ومايصلح له ويصلحه - أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية هذه ، ويعينه على تمثلها - ولوكانت أدواته الذاتية قاصرة عن الوصول إليها - وبذلك يريحه من العناء ومن تبديد الطاقة فى محاولة الوصول إلى تلك الحقائق التى لايصلح كيانه وفطرته بدون معرفتها ، ولا يطمئن باله ولا يقر قراره قبل الحصول عليها ! بدليل أن الذين أرادوا أن يتمردوا على فطرتهم ، فينفوا حقائق الغيب من حياتهم ، استبدت ببعضهم خرافات وأوهام مضحكة ؛ أو اضطربت عقولهم وأعصابهم وامتلأت بالعقد والانحرافات !

وفضلا على ذلك كله فإن الإيمان بحقيقة الملائكة - شأنه شأن الإيمان بالحقائق الغيبية المستيقنة التى جاءت من عند الله - يوسع آفاق الشعور الإنسانى بالوجود ، فلا تنكمش صورة الكون فى تصور المؤمن حتى تقتصر على ماتدركه حواسه - وهو ضئيل - كما أنه يؤنس قلبه بهذه الأرواح المؤمنة من حوله ؛ تشاركه إيمانه بربه ، وتستغفر له ، وتكون فى عونه على الخير - بإذن الله - وهو شعور لطيف ندى مؤنس ولاشك .. ثم هنالك المعرفة : المعرفة بهذه الحقيقة وهى فى ذاتها فضل يمنحه الله للمؤمنين به وبملائكته ..

« وكتبه ورسله » .. « لانفرق بين أحد من رسله » .

والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعى الذى ينبثق من الإيمان بالله فى الصورة التى يرسمها الإسلام . فالإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بصحة كل ماجاء من عند الله ، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ووحدة الأصل الذى تقوم عليه رسالتهم ، وتتضمنه الكتب التى نزلت عليهم .. ومن ثم لاتقوم التفرقة بين الرسل فى ضمير المسلم . فكلهم جاء من عند الله بالإسلام فى صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم ؛ حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين - محمد صلى الله عليه وسلم - فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد ، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة .

وهكذا تلتقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله ؛ وتقوم على دين الله فى الأرض ، وهى الوارثة له

Marfat.com

كله ؛ ويشعر المسلمون ـ من ثم ـ بضخامة دورهم في هذه الأرض إلى يوم القيامة . فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل . وهم المختارون لحمل راية الله ـ وراية الله وحدها ـ في الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية . . إلى آخر شارات الجاهلية التي يرفعها الجاهليون في الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات واختلاف الزمان والمكان .

إن رصيد الإيمان الذي تقوم الأمة المسلمة حارسة عليه في الأرض ، ووارثة له منذ أقدم الرسالات ، هو أكرم رصيد وأقومه في حياة البشرية . إنه رصيد من الهدى والنور ، ومن الثقة والطمأنينة ، ومن الرضى والسعادة ، ومن المعرفة واليقين . . وما يخلو قلب بشرى من هذا الرصيد حتى يجتاحه القلق والظلام ، وتغمره الوساوس والشكوك ، ويستبد به الأسى والشقاء . ثم يروح يتخبط في ظلماء طاخية ، لايعرف أين يضع قدميه في التيه الكئيب !

وصرخات القلوب التي حرمت هذا الزاد ، وحرمت هذا الأنس ، وحرمت هذا النور ، صرخات موجعة في جميع العصور[1] . . هذا إذا كان في هذه القلوب حساسية وحيوية ورغبة

---

(١) يقول عمر الخيام :

أحس في نفسي دبيب الفناء ... ولم أصب في العيش إلا الشقاء
ياحسرتا إن حان حيني ولم ... يتح لفكري حل لغز القضاء

تروح أيامي ولا تغتدي ... كما تهب الريح في الفدفد
وما طويت النفس هما على ... يومين : أمس المنقضي والغد

غد بظهر الغيب واليوم لي ... وكم يخيب الظن في المقبل
ولست بالغافل حتى أرى ... جمال دنياي ولا أجتلي

سمعت في حلمي صوتا أهاب ... ماذاق النوم كام الشباب
أفق فإن النوم صنو الردى ... واشرب فنواك فراش التراب

سأنتحي الموت حثيث الورود ... وينمحي اسمي من سجل الوجود
هات اسقنيها يامنى خاطري ... فغاية الأيام طول الهجود

* * *

ويقول الجامعة بن داود في « العهد القديم » :

باطل الأباطيل . الكل باطل . ماالفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي=

Marfat.com

في المعرفة ولهفة على اليقين . فأما القلوب البليدة الميتة الجاسية الغليظة ، فقد لاتحس هذه اللهفة ولا يؤرقها الشوق إلى المعرفة .. ومن ثم تمضي في الأرض كالبهيمة تأكل وتستمتع كما تأكل الأنعام وتستمتع . وقد تنطح وترفس كالبهيمة ، أو تفترس وتنهش كالوحش ؛ وتزاول الطغيان والجبروت والبغي والبطش ، وتنشر الفساد في الأرض . . ثم تمضي ملعونة من الله ملعونة من الناس !

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة مجتمعات بائسة ـ ولو غرقت في الرغد المادي ـ خاوية ـ ولو تراكم فيها الإنتاج ـ قلقة ـ ولو توافرت لها الحريات والأمن والسلام الخارجي ـ وأمامنا في أمم الأرض شواهد على هذه الظاهرة لا ينكرها إلا مراوغ يتنكر للحس والعيان !

والمؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم ، ويعرفون أنهم صائرون إليه ، فيطلبون مغفرته من التقصير :

« وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير » .

ويتجلى في هذه الكلمات أثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . يتجلى في السمع والطاعة ، السمع لكل ماجاءهم من عند الله ، والطاعة لكل ما أمر به الله . فهو إفراد الله بالسيادة كما ذكرنا من قبل ، والتلقي منه في كل أمر . فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله ، وإنفاذ لمنهجه في الحياة . ولا إيمان حيث يعرض الناس عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم ؛ أو حيث لاينفذون شريعته ، أو حيث يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير مصدره . فالإيمان ماوقر في القلب وصدقه العمل .

ومع السمع والطاعة . . الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء الله حق شكرها ؛ وفرائض الله حق أدائها . والالتجاء إلى رحمة الله لتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها :

= ودور يجيء . والأرض قائمة إلى الأبد . الشمس تشرق والشمس تغرب ، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب . وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دورانا ، وإلى مداراتها ترجع . كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر ، ولا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع . فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال له : انظر ، هذا جديد ، فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا . ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم . . . » .

Marfat.com

« غفرانك ربنا » ..

ولكن طلب الغفران إنما يجيء بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداء بلا عناد أو نكران .. وإنما يعقبه كذلك اليقين بأن المصير إلى الله . المصير إليه فى الدنيا والآخرة . المصير إليه فى كل أمر وكل عمل . فلا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ولا عاصم من قدره ، ولا مرد لقضائه ولا نجوة من عقابه إلا برحمته وغفرانه :

« وإليك المصير » .

وهذا القول يتضمن الإيمان باليوم الآخر ـ كما رأينا ـ والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامى ؛ الذى يقوم على أساس أن الله خلق الإنسان ليستخلفه فى الأرض بعهد منه وشرط ، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه فى هذه الأرض ؛ وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه فى حياته الدنيا ، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء .. فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامى .. وهذا الإيمان على هذا النحو هو الذى يكيف ضمير المسلم وسلوكه ، وتقديره للقيم والنتائج فى هذه العاجلة . فهو يمضى فى طريق الطاعة ، وتحقيق الخير ، والقيام على الحق والاتجاه إلى البر سواء كانت ثمرة ذلك ـ فى الأرض ـ راحة له أم تعباً . كسباً له أم خسارة . نصراً له أم هزيمة . وجداناً له أو حرماناً حياة له أو استشهاداً . لأن جزاءه هناك فى الدار الآخرة بعد نجاحه فى الابتلاء ، واجتيازه للامتحان .. لا يزحزحه عن الطاعة والحق والخير والبر أن تقف له الدنيا كلها بالمعارضة والأذى والشر والقتل .. فهو إنما يتعامل مع الله ؛ وينفذ عهده وشرطه ؛ وينتظر الجزاء هناك !

إنها الوحدة الكبرى . طابع العقيدة الإسلامية . ترسمه هذه الآية القصيرة : الإيمان بالله وملائكته . والإيمان بجميع كتبه ورسله ، بلا تفريق بين الرسل ، والسمع والطاعة ، والإنابة إلى الله . واليقين بيوم الحساب .

إنه الإسلام . العقيدة اللائقة بأن تكون ختام العقائد ، وآخر الرسالات . العقيدة التى تصور موكب الإيمان الواصب من مبتدى الخليقة إلى منتهاها . وخط الهداية المتصل الموصول بأيدى رسل الله جميعاً . المتدرج بالبشرية فى مراقى الصعود . الكاشف لها عن الناموس الواحد

Marfat.com

بقدر ماتطيق . حتى يجيء الإسلام ، فيعلن وحدة الناموس كاملة ، ويدع للعقل البشرى التفصيل والتطبيق .

ثم هي العقيدة التي تعترف بالإنسان إنساناً ، لاحيواناً ولا حجراً ، ولا ملكاً ولا شيطاناً . تعترف به كما هو ، بما فيه من ضعف ومافيه من قوة ، وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق . . وتفرض عليه من التكاليف مايطيق ؛ وتراعى التنسيق بين التكليف والطاقة بلامشقة ولا إعنات ؛ وتلبي كل حاجات الجسد والعقل والروح فى تناسق يمثل الفطرة . . ثم تحمل الإنسان ـ بعد ذلك ـ تبعة اختياره للطريق الذى يختار :

« لايكلف الله نفساً إلا وسعها . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله فى التكاليف التي فرضها الله عليه فى خلافته للأرض ؛ وفى ابتلائه فى أثناء الخلافة ؛ وفى جزائه على عمله فى نهاية المطاف . ويطمئن إلى رحمة الله وعدله فى هذا كله ؛ فلا يتبرم بتكاليفه ، ولايضيق بها صدراً ، ولا يستثقلها كذلك ، وهو يؤمن أن الله الذى فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن فى طاقته مافرضها عليه . ومن شأن هذا التصور ـ فضلا عما يسكبه فى القلب من راحة وطمأنينة وأنس ـ أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه ؛ وهو يحس أنها داخلة فى طوقه ؛ ولو لم تكن داخلة فى طوقه ما كتبها الله عليه ؛ فإذا ضعف مرة أو تعب مرة أو ثقل العبء عليه ، أدرك أنه الضعف لافداحة العبء ! واستجاش عزيمته ونفض الضعف عن نفسه وهم همة جديدة للوفاء ، مادام داخلا فى مقدوره ! وهو إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق ! فهى التربية كذلك لروح المؤمن وهمته وإرادته ؛ فوق تزويد تصوره بحقيقة إرادة الله به فى كل مايكلفه .

ثم الشطر الثانى من هذا التصور :

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

فردية التبعة ، فلا تنال نفس إلا ما كسبت ؛ ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت . . فردية التبعة ، ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه . فلا يحيل على

Marfat.com

أحد ، ولا ينتظر عون أحد . . ورجعة النـاس إلى ربهم فرادى من شأنها ـ حين يستيقنها القلب ـ أن تجعل كل فرد وحدة إيجابية لاتنزل عن حق الله فيها لأحد من عباده إلا بالحق . وتقف كل إنسان مدافعاً عن حق الله فيه تجاه كل إغراء ، وكل طغيان ، وكل إضلال ، وكل إفساد . فهو مسؤول عن نفسـه هذه وعن حق الله فيها ـ وحق الله فيها هو طاعته فى كل ما أمر به وفى كل ما نهى عنه ، وعبوديتها له وحده شعوراً وسلوكا ـ فإذا فرط فى هذا الحق لأحد من العبيد تحت الإغراء والإضلال ، أو تحت القهر والطغيان ـ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ فما أحد من تلك العبيد بدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له ؛ وما أحد من تلك العبيد بحامل عنه شيئاً من وزره ولاناصر له من الله فى اليوم الآخر . . ومن ثم يستأسد كل إنسان فى الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ؛ مادام هو الذى سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً ! ولاخوف من هذه الفردية ـ فى هذا المقام ـ فمن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد فى الجماعة بحق الجماعة عليه ، بوصفه طرفاً من حق الله فى نفسه . فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة فى ماله وكسبه ، وفى جهده ونصحه ، وفى إحقاق الحق فى المجتمع وإزهاق الباطل ، وفى تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر . . وكل أولئك يحسب له أو عليه فى صحيفته يوم يلقى الله فرداً فيتلقى هنالك جزاءه !

وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها . . فهاهو ذا ينطلق من قلوبهم دعاء خافق واجف ؛ يذكره النص القرآنى بطريقة القرآن التصويرية ؛ فكأنما نحن أمام مشهد الدعاء ، وصفوف المؤمنين قائمة تردده فى خشوع ؛ عقب إعلان حقيقة التكاليف وحقيقة الجزاء :

« ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به . واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » . .

وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم ؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم ؛ وحاجتهم إلى رحمته وعفوه ، وإلى مدده وعونه ؛ وإلصاق ظهورهم إلى ركنه ، والتجاءهم إلى كنفه ، وانتسابهم إليه وتجردهم من كل من عداه ؛ واستعدادهم للجهاد فى سبيله واستمدادهم النصر منه . . كل أولئك فى نغمة وادعة واجفة تصور بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح . .

Marfat.com

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .

فدائرة الخطأ والنسيان هى التى تحكم تصرف المسلم حين ينتابه الضعف البشرى الذى لا حيلة له فيه . وفى مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح . وليس هو التبجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر ، أو التعالى عن الطاعة والتسليم ؛ أو الزيغ عن عمد وقصد . . ليس فى شىء من هذا يكون حال المؤمن مع ربه ؛ وليس فى شىء من هذا يطمع فى عفوه أو سماحته . . إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينيب . . وقد استجاب الله لدعاء عباده المؤمنين فى هذا ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] .

« ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » .

وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله ، ومعرفتهم – كما علمهم ربهم فى هذا القرآن – بما كان من سلوك الأمم التى جاءتها الرسالات قبلهم ؛ وما حملهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم . فقد حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات بعملهم . وفى آية الأنعام : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم »[2] .. وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيراً عن عبادتهم للعجل كما سبق فى أول هذه السورة . وحرم عليهم « السبت » أن يبتغوا فيه تجارة أو صيداً . . وهكذا فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالا كالتى حملها على الذين من قبلهم . وقد بعث الله النبى الأمى يضع عن المؤمنين به من البشر كافة : « إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . . فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة ، هينة لينة ، تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة ، وقيل للرسول – صلى الله عليه وسلم – « ونيسرك لليسرى » .

على أن الإصر الأكبر الذى رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة ، والذى حمله الله على عاتق الأمم التى استخلفها فى الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه .. هذا الإصر الأكبر هو إصر العبودية للبشر . عبودية العبد للعبد . ممثلة فى تشريع العبد للعبد . وفى خضوع العبد

---

(١) رواه الطبرانى وغيره .

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٦

Marfat.com

للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه .. فهذا هو الإصر الأكبر الذى أطلق الله عباده المؤمنين منه ، فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده ، وتلقى الشريعة منه وحده . وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد !

إن العبودية لله وحده - متمثلة فى تلقى الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده - هى نقطة الانطلاق والتحرر البشرى . الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة ، ومن سلطان السدنة والكهنة ، ومن سلطان الأوهام والخرافات ، ومن سلطان العرف والعادة ، ومن سلطان الهوى والشهوة . ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذى يلوى أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار .

ودعاء المؤمنين : « ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا » : يمثل شعورهم بنعمة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد ؛ كما يمثل خوفهم من الارتداد إلى ذلك الدرك السحيق .

« ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به » ..

وهو دعاء يشى بحقيقة الاستسلام . فالمؤمنون لا ينوون نكولا عن تكليف الله أياً كان . ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم مالا يطيقون . كى لايعجزوا عنه ويقصروا فيه . . وإلا فهى الطاعة المطلقة والتسليم . . إنه طمع الصغير فى رحمة الكبير . ورجاء العبد الضعيف فى سماحة المالك المتصرف . وطلب ماهو من شأن الله فى معاملته لعباده من كرم وبر وود وتيسير .

ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير ، الذى لايمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور :

« واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا » . .

فهذا هو الضمان الحقيق لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان . فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء . ومن رحمة الله به أن يعامله بالعفو والمرحمة والغفران . . عن عائشة رضى الله عنها ،

Marfat.com

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لايدخل أحدكم الجنة بعمله » . . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا . إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

وهذا هو قوام الأمر فى حس المؤمن : عمل بكل مافى الوسع . وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز . ورجاء ـ بعد ذلك ـ فى الله لاينقطع . وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح .

وأخيراً يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله ، وهم يهمون بالجهاد فى سبيله ، لإحقاق الحق الذى أراده ، وتمكين دينه فى الأرض ومنهجه ، « حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » . . يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله الركين ؛ ويرفعون رايته على رؤوسهم فينتسبون إليه وحده ، إذا انتسبت الجاهلية إلى شتى الشعارات والعنوانات ؛ ويطلبون نصره لأوليائه بما أنه هو مولاهم الوحيد ؛ وهم باسمه يقاتلون الكفار الخارجين :

« أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » . .

إنه الختام الذى يلخص السورة . ويلخص العقيدة . ويلخص تصور المؤمنين ، وحالهم مع ربهم فى كل حين . .

(١) أخرجه البخارى .

Marfat.com

سورة آل عمران مدنية
وآياتها ٢٠٠ نزلت بعد الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها . وهو قوامها وكيانها . وهو حارسها وراعيها . وهو بيانها وترجمانها . وهو دستورها ومنهجها . وهو فى النهاية المرجع الذى تستمد منه الدعوة ـ كما يستمد منه الدعاة ـ وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق . .

ولكن ستظل هنالك فجوة عميقة بيننا وبين القرآن مالم نتمثل فى حسنا ، ونستحضر فى تصورنا أن هذا القرآن خوطبت به أمة حية ، ذات وجود حقيق ؛ وووجهت به أحداث واقعية فى حياة هذه الأمة ؛ ووجهت به حياة إنسانية حقيقية فى هذه الأرض ؛ وأديرت به معركة ضخمة فى داخل النفس البشرية وفى رقعة من الأرض كذلك . معركة تموج بالتطورات والانفعالات والاستجابات .

وسيظل هنالك حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ، طالما نحن نتلوه أو نسمعه كأنه مجرد تراتيل تعبدية مهوّمة ، لاعلاقة لها بواقعيات الحياة البشرية اليومية التى تواجه هذا الخلق المسمى بالإنسان ، والتى تواجه هذه الأمة المسماة بالمسلمين ! بينماهذه الآيات نزلت لتواجه نفوساً ووقائع وأحداثاً حية ، ذات كينونة واقعية حية ؛ ووجهت بالفعل تلك النفوس والوقائع والأحداث توجيهاً واقعياً حياً ، نشأ عنه وجود ، ذو خصائص فى حياة « الإنسان » بصفة عامة ، وفى حياة الأمة المسلمة بوجه خاص .

ومعجزة القرآن البارزة تكمن فى أنه نزل لمواجهة واقع معين فى حياة أمة معينة ، فى فترة

Marfat.com

من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كله معها ، ولكنه ـ مع هذا ـ يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة ، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة فى شؤونها الجارية ، وفى صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها ، وفى معركتها كذلك فى داخل النفس ، وفى عالم الضمير ، بنفس الحيوية ، ونفس الواقعية التى كانت له هناك يومذاك .

ولكى نحصل نحن من القرآن على قوته الفاعلة ، وندرك حقيقة ما فيه من الحيوية الكامنة ، ونتلقى منه التوجيه المدخر للجماعة المسلمة فى كل جيل . . ينبغى أن نستحضر فى تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى التى خوطبت بهذا القرآن أول مرة . . كينونتها وهى تتحرك فى واقع الحياة ، وتواجه الأحداث فى المدينة وفى الجزيرة العربية كلها ؛ وتتعامل مع أعدائها وأصدقائها ؛ وتصارع مع شهواتها وأهوائها ؛ ويتنزل القرآن حينئذ ليواجه هذا كله ، ويوجه خطاها فى أرض المعركة الكبيرة : مع نفسها التى بين جنبيها ، ومع أعدائها المتربصين بها فى المدينة وفى مكة وفيما حولها . . وفيما وراءهما كذلك . .

أجل . . يجب أن نعيش مع تلك الجماعة الأولى ؛ ونتمثلها فى بشريتها الحقيقية ، وفى حياتها الواقعية ، وفى مشكلاتها الإنسانية ؛ ونتأمل قيادة القرآن لها قيادة مباشرة فى شؤونها اليومية وفى أهدافها الكلية على السواء ؛ ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة . وهى تعثر وتنهض . وتحيد وتستقيم . وتضعف وتقاوم . وتتألم وتحتمل . وترقى الدرج الصاعد فى بطء ومشقة ، وفى صبر ومجاهدة ، تتجلى فيها كل خصائص الإنسان ، وكل ضعف الإنسان ، وكل طاقات الإنسان .

ومن ثم نشعر أننا نحن أيضاً مخاطبون بالقرآن فى مثل ما خوطبت به الجماعة الأولى . وأن بشريتنا التى نراها ونعرفها ونحسها بكل خصائصها ، تملك الاستجابة للقرآن ، والانتفاع بقيادته فى ذات الطريق .

إننا بهذه النظرة سنرى القرآن حيا يعمل فى حياة الجماعة المسلمة الأولى ؛ ويملك أن يعمل فى حياتنا نحن أيضاً . وسنحس أنه معنا اليوم وغدا . وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهومة

Marfat.com

بعيدة عن واقعنا المجدد ، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية .

إن القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ذاته . الكون كتاب الله المنظور . والقرآن كتاب الله المقروء . وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع ؛ كما أن كليهما كائن ليعمل.. والكون بنواميسه مازال يتحرك ويؤدى دوره الذى قدره له بارئه . الشمس مازالت تجرى فى فلكها وتؤدى دورها ، والقمر والأرض ، وسائر النجوم والكواكب لايمنعها تطاول الزمان من أداء دورها ، وجدة هذا الدور فى المحيط الكونى . والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية ، ومازال هو هو . فالإنسان مازال هو كذلك . مازال هو هو فى حقيقته وفى أصل فطرته . وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان ـ فيمن خاطبهم الله به . خطاب لايتغير ، لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقاً آخر ، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله ، ومهما يكن هو قد تأثر وأثر فى هذه الظروف والملابسات[1] . والقرآن يخاطبه فى أصل فطرته وفى أصل حقيقته التى لاتبديل فيها ولاتغيير ؛ ويملك أن يوجه حياته اليوم وغداً لأنه معد لهذا ، بما أنه خطاب الله الأخير ؛ وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا : هذا نجم قديم « رجعى !» يحسن أن يستبدل به نجم جديد « تقدمى ! » أو أن هذا «الإنسان» مخلوق قديم « رجعى » يحسن أن يستبدل به كائن آخر « تقدمى » لعمارة هذه الأرض ! ! !

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هـذا هو الشان فى القرآن . خطاب الله الأخير للإنسان .

* * *

وهذه السورة تمثل قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة فى المدينة من بعد « غزوة بدر » ـ فى السنة الثانية من الهجرة ـ إلى مابعد « غزوة أحد » فى السنة الثالثة . وما أحاط بهذه

---

(١) يراجع كتاب معركة التقاليد لمحمد قطب .

Marfat.com

الحياة من ملابسات شتى فى خلال هذه الفترة الزمنية . وفعل القرآن - إلى جانب الأحداث - فى هذه الحياة ، وتفاعله معها فى شتى الجوانب .

والنصوص من القوة والحيوية بحيث تستحضر صورة هذه الفترة ؛ وصورة الحياة التى عاشتها الجماعة المسلمة ؛ وصورة الاشتباكات والملابسات التى أحاطت بهذه الحياة . مع استبطان السرائر والضمائر ، ومايدب فيها من الخواطر ، ومايشتجر فيها من المشاعر ، حتى لكأن قارئها يعيش هذه الأحداث ، ويعايش الأمة التى كانت تخوضها وتتفاعل وإياها . ولو أغمض الإنسان عينيه فلربما تراءت له - كما تراءت لى - شخوص الجماعة المسلمة رائحة غادية ، بسماتها الظاهرة على الوجوه ، ومشاعرها المستكنة فى الضمائر . ومن حولها أعداؤها يتربصون بها ، ويبيتون لها ، ويلقون بينها بالفرية والشبهة ، ويتحاقدون عليها ، ويجمعون لها ، ويلقونها فى الميدان ، وينهزمون أمامها - فى أحد - ثم يكرون عليها فيوقعون بها . . وكل مايجرى فى المعركة من حركة وكل مايصاحب حركاتها من انفعال باطن وسمة ظاهرة . . والقرآن يتنزل ليواجه الكيد والدس ، ويبطل الفرية والشبهة ، ويثبت القلوب والأقدام ، ويوجه الأرواح والأفكار ، ويعقب على الحادث ويبرز منه العبرة ، ويبنى التصور ويزيل عنه الغبش ، ويحذر الجماعة المسلمة من العدو الغادر والكيد الماكر ، ويقود خطاها بين الأشواك والمصايد والأحابيل ، قيادة الخبير بالفطرة العليم بما تكن الصدور . . .

ومن وراء هذا كله تبقى التوجيهات والتلقينات التى احتوتها السورة خالصة طليقة من قيد الزمان والمكان ، وقيد الظروف والملابسات ، تواجه النفس البشرية ، وتواجه الجماعة المسلمة - اليوم وغداً - وتواجه الإنسانية كلها ، وكأنها تتنزل اللحظة لها ، وتخاطبها فى شأنها الحاضر ، وتواجهها فى واقعها الراهن . ذلك أنها تتناول أموراً وأحداثاً ومشاعر وجدانية وحالات نفسية كأنما كانت ملحوظة فى سياق السورة . . بل هى ملحوظة قطعاً فى تقدير العليم الخبير بالنفوس والأشياء والأمور .

ومن ثم يتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة فى أى مكان وفى أى زمان . وهو دستور هذه الأمة فى أى جيل ومن أى قبيل . وهو حادى الطريق وهادى السبيل على توالى القرون . . ذلك أنه خطاب الله الأخير لهذا الإنسان فى جميع العصور . .

***

Marfat.com

فى هذه الفترة كانت الجماعة المسلمة فى المدينة قد استقرت بعض الاستقرار فى موطنها الجديد فى مدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومضت خطوة وراء الموقف الذى صورناه من قبل فى هذه الظلال فى مطلع استعراض « سورة البقرة »(1) .

كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت ؛ وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش . وكان هذا النصر بظروفه التى تم فيها والملابسات التى أحاطت به تبدو فيه رائحة المعجزة الخارقة . . ومن ثم اضطر رجل كعبد الله ابن أبى ابن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يكبت حقده وحسده للرسول الكريم ؛ وأن ينضم ـ منافقاً ـ للجماعة المسلمة ، وهو يقول : « هذا أمر قد توجه » .. أى ظهرت له وجهة هو ماض فيها لا يرده عنها راد !

بذلك وجدت بذرة النفاق فى المدينة ـ أو نمت وأفرخت ، فقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهليهم الذين دخلوا فى الإسلام ـ وأصبحت مجموعة من الرجال ، ومن ذوى المكانة فيهم ، مضطرة إلى التظاهر بالإسلام ، والانضمام إلى المجتمع المسلم ، بينما هى تضمر فى أنفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين ؛ وتتربص بهم الدوائر ؛ وتتلمس الثغرات فى الصف ؛ وتترقب الأحداث التى تضعضع قوى المسلمين أو تزعزع الصف المسلم ، ليظهروا كوامن صدورهم ، أو ليضربوا ضربة الإجهاز إذا كان ذلك فى مكنتهم !

وقد وجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم فى اليهود ، الذين كانوا يجدون فى أنفسهم من الحقد على الإسلام والمسلمين ، وعلى نبى الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثل ما يجد المنافقون بل أشد . وقد هددهم الإسلام تهديداً قوياً فى مكانتهم بين « الأميين » من العرب فى المدينة ؛ وسد عليهم الثغرة التى كانوا ينفذون منها للعب بين الأوس والخزرج ، بعد ما أصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وفى ظل الإسلام صفاً واحداً مرصوصاً .

وقد غص اليهود وشرقوا بانتصار المسلمين فى بدر ، وارتفع غليان حقدهم على الجماعة المسلمة ، وانطلقوا بكل ما يملكون من دس وكيد وتآمر يحاولون تفتيت الصف الإسلامى ، وإلقاء الحيرة

(1) ص ٣٢ ـ ص ٣٤ من الجزء الأول (الطبعة الثانية المنقحة) .

Marfat.com

فى قلوب المسلمين ، ونشر الشبهات والشكوك ، فى عقيدتهم وفى أنفسهم على السواء !

وفى هذه الفترة وقع حادث بنى قينقاع فوضح العداء وسفر . . على الرغم مما كان بين اليهود والنبي - صلى الله عليه وسلم - من مواثيق أبرمها معهم عقب مقدمه إلى المدينة .

كذلك كان المشركون موتورين من هزيمتهم فى بدر ، يحسبون ألف حساب لانتصار محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعسكر المدينة ، وللخطر الذى يتمثل إذن على تجارتهم وعلى مكانتهم وعلى وجودهم كذلك ! ومن ثم يتهيأون لدفع هذا الخطر الماحق قبل أن يصبح القضاء عليه مستحيلا .

وبينما كان أعداء المعسكر الإسلامى فى عنفوان قوتهم وفى عنفوان حقدهم كذلك ! كان الصف المسلم مايزال فى أوائل نشأته بالمدينة . غير متناسق تماماً . فيه الصفوة المختارة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد . والجماعة كلها على العموم لم تنل من التجارب الواقعية مايسوى التتوءات ، ويوضح حقيقة الدعوة وحقيقة الظروف الملابسة لها ، وحقيقة منهجها العملى وتكاليفه .

كان للمنافقين - وعلى رأسهم عبد الله ابن أبى - مكانتهم فى المجتمع ، وروابطهم العائلية والقبلية لم تنفصم بعد ؛ ولم ينضج فى نفوس المسلمين الشعور بأن عقيدتهم وحدها هى أسرتهم وهى قبيلتهم وهى وشيجتهم التى لاوشيجة معها . ومن ثم كانت هناك خلخلة فى الصف الإسلامى بسبب وجود مثل هذه العناصر مندمجة فى الصف ، مؤثرة فى مقاديره . (كما يتجلى ذلك فى أحداث غزوة أحد عند استعراض النصوص الخاصة بها فى السورة) .

وكان لليهود مكانتهم كذلك فى المدينة ، وارتباطاتهم الاقتصادية والتعهدية مع أهلها ولم يتبين عداؤهم سافراً . ولم ينضج فى نفوس المسلمين كذلك الشعور بأن عقيدتهم وحدها هى العهد وهى الوطن وهى أصل التعامل والتعاقد ؛ وأنه لابقاء لصلة ولا وشيجة إذا هى تعارضت مع العقيدة ! ومن ثم كانت لليهود فرصة للتوجيه والتشكيك والبلبلة . وكان هناك من يسمع لقولهم فى الجماعة المسلمة ويتأثر به . وكان هناك من يدفع عنهم مايريد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن ينزل بهم من إجراءات لدفع كيدهم عن الصف المسلم (كما حدث فى شفاعة عبد الله ابن أبى فى بنى قينقاع ، وإغلاظه فى هذا للرسول - صلى الله عليه وسلم -) .

Marfat.com

ومن ناحية أخرى كان المسلمون قد انتصروا فى بدر ذلك النصر الكامل الباهر بأيسر الجهد والبذل. فقد خرج ذلك العدد القليل من المسلمين، غير مزودين بعدة ولا عتاد - إلا اليسير - فلاقوا ذلك الجحفل الضخم من قريش فى عدتهم وعتادهم. ثم لم تلبث المعركة أن انجلت عن ذلك النصر المؤزر الباهر.

وكان هذا النصر فى الوقعة الأولى التى يلتقى فيها جند الله بجند الشرك قدراً من قدر الله. ندرك اليوم طرفا من حكمته. ولعله كان لتثبيت الدعوة الناشئة وتمكينها. بل لإثبات وجودها الفعلى على محك المعركة، لتأخذ بعد ذلك طريقها.

فأما المسلمون فلعلهم قد وقع فى نفوسهم - من هذا النصر - أنه الشأن الطبيعى الذى لا شأن غيره. وأنه لابد ملازمهم على أى حال فى كل مراحل الطريق! أليسوا بالمسلمين؟ أليس أعداؤهم بالكافرين؟ وإذن فهو النصر لامحالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين!

غير أن سنة الله فى النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة، فلهذه السنة مقتضياتها فى تكوين النفوس، وتكوين الصفوف، وإعداد العدة، واتباع المنهج، والتزام الطاعة والنظام، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان.. وهذ ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة فى «غزوة أحد» على النحو الذى تعرضه السورة عرضاً حياً مؤثراً عميقاً، وتعرض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين؛ وتوجه فى ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء.

وحين نراجع غزوة أحد نجد أن تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلفهم أهوالا وجراحات وشهداء من أعز الشهداء - على رأسهم حمزة رضى الله عنه وأرضاه - وكلفهم ماهو أشق من ذلك كله على نفوسهم.. كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تشج جبهته وتكسر سنه، ويسقط فى الحفرة، وينوص حلق المغفر فى وجنته - صلى الله عليه وسلم - الأمر الذى لايقوم بوزنه شىء فى نفوس المسلمين!

ويسبق استعراض «غزوة أحد» وأحداثها فى السورة قطاع كبير تستغرقه كله توجيهات متشعبة لتصفية التصور الإسلامى من كل شائبة؛ ولتقرير حقيقة التوحيد جلية ناصعة، والرد على الشبهات التى يلقيها أهل الكتاب - سواء منها ماهو ناشىء من انحرافاتهم هم فى معتقداتهم،

Marfat.com

وما يتعمدون إلقاءه فى الصف المسلم من شبهات ماكرة لخلخلة العقيدة وخلخلة الصف من وراء خلخلة العقيدة .

وتذكر عدة روايات أن الآيات من ١ – ٨٣ نزلت فى الحوار مع وفد نصارى نجران اليمن الذى قدم المدينة فى السنة التاسعة للهجرة. ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هى زمن نزول هـذه الآيات . فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت فى الفترة الأولى من الهجرة ، حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة . وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد فى كيانها وفى سلوكها .

وسواء صحت رواية أن الآيات نزلت فى وفد نجران أم لم تصح ؟ فإنه واضح من الموضوع الذى تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى وبخاصة مايتعلق منها بعيسى عليه السلام ، وتدور حول عقيدة التوحيـد الخالص كما جاء به الإسـلام . وتصحح لهم ما أصـاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه . وتدعوهم إلى الحق الواحد الذى تضمنته كتبهم الصحيحة التى جاء القرآن بصدقها .

ولـكن هـذا الفصل يتضمن كذلك إشارات وتقريعات لليهود وتحذيرات للمسلمين من دسائس أهل الـكتاب . وما كان يجاورهم فى المدينة من أهل الـكتاب ممن يمثـل مثل هـذا الخطر إلا اليهود .

وعلى أية حال فإن هذا الفصل الذى يستغرق حوالى نصف السورة يصور جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة فى الجزيرة كلها . . وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظرى من المعركة الـكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة الناشئة وكل أعدائها الذين كانوا يتربصون بها ، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون فى حربها كل الأسلحة وكل الوسائل . وفى أولها زعزعة العقيدة ! وهى فى صميمها المعركة التى ماتزال ناشبة إلى هـذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . . إنهم هم : الملحدون المنـكرون ، والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية ! ! !

ومن مراجعة نصوص السورة يتبين أن الوسائل هى الوسائل كذلك ؟ والأهداف هى الأهداف . ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هـذه الدعوة ، ومرجع هـذه الأمة – اليوم وغدا – كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس فى نشأتها الأولى . وأنه لايعرض عن استنصاح هذا

Marfat.com

الناصح واستشارة هذا المرجع فى المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول يعرض عن سلاح النصر فى المعركة؛ ويخدع نفسه أو يخدع الأمة، لخدمة أعدائها القدامى المحدثين فى غفلة بلهاء أو فى خبث لئيم!

* * *

ومن خلال المناقشات والجدل والاستعراض والتوجيه فى هذا المقطع الأول يتبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم، من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة، ممثلا فى أمثال هذه النصوص:

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . . . » . .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون؟ » . .

« ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . . . ؟ » . .

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . . » . .

« ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ » . .

« ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟ » . .

« وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم! . . » . .

« ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائما. ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل! . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب – وما هو من الكتاب – ويقولون: هو من عند الله وماهو من عند الله. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

« قل: ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون » . .

« قل: ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء؟ » .

Marfat.com

« هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا : آمنا . وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » . .

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » . .

وهكذا نرى أن أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب؛ ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب . . إنما كانوا يحاربونها أولا في عقيدتها . كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات وتدبير المناورات ! كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التي منها انبثق كيانها ، ومنها قام وجودها ، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين . ذلك أنهم كانوا يدركون - كما يدركون اليوم تماما - أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ؛ ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ؛ ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ؛ ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهي ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه ، حاملة رايته ، ممثلة لحزبه ، منتسبة إليه ، معتزة بهذا النسب وحده .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة .

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة . وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ، ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها . . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال ، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور !

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة ، والتشكيك فيها ، والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة . ولكن لنفس الغاية القديمة : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ! ! ! » . . فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة !

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولا . . كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه ؛ وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب ؛ ويجلو الحقيقة

Marfat.com

الكبيرة التى يتضمنها هـذا الدين ؛ ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هـذه الأرض ، ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة ، وأهدافهم الخطرة ، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين ، لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم . .

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود . فيبين لها هزال أعدائها ، وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء . كما يبين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك . وأنه سيأخذ الكفار (وهو تعبير هنا عن اليهود) بالعذاب والنكال ؛ كما أخذ المشركين فى بدر منذ عهد قريب .

وكانت هذه التوجيهات تتمثل فى أمثال هذه النصوص :

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . .

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . .

« إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » . .

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . .

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » . .

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله

Marfat.com

فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير » . .

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » . .

« أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ » . .

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ... » . .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا – إلا بحبل من الله وحبل من الناس – وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . .

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط » .

ومن هذه الحملة الطويلة التى اقتطفنا منها هذه الآيات ، وتنوع توجيهاتها وتلقيناتها تتبين عدة أمور :

Marfat.com

أولها : ضخامة الجهد الذى كان يبذله أهل الكتاب فى المدينة وغيرها ، وعمق الكيد وتنوع أساليبه ، واستخدام جميع الوسائل لزعزعة العقيدة وخلخلة الصف المسلم من ورائها .

وثانيها : ضخامة الآثار التى كان هذا الجهد يتركها فى النفوس وفى حياة الجماعة المسلمة ، مما اقتضى هذا البيان الطويل المفصل المنوع المقاطع والأساليب .

وثالثها : هو ما نلمحه اليوم من وراء القرون الطويلة . من أن هؤلاء الأعداء هم الذين يلاحقون هذه الدعوة وأصحابها فى الأرض كلها ؛ وهم الذين تواجههم هـذه العقيدة وأهلها . ومن ثم اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يقيم هذا المشعل الهادى الضخم البعيد المطارح لتراه الأجيال المسلمة قويا واضحا عميق التركيز على كشف الأعـداء التقليديين لهـذه الأمة ولهذا الدين !

* * *

أما القطاع الثانى فى السورة فهو خاص بغزوة أحد . وهو يشتمل كذلك على تقريرات فى حقائق التصور الإسلامى والعقيدة الإيمانية . وعلى توجيهات فى بناء الجماعة المسلمة على أساس تلك الحقائق . إلى جانب استعراض الأحداث والوقائع ، والخواطر والمشاعر ، استعراضا يتبين منه بجلاء حالة الجماعة المسلمة يومها وقطاعاتها المختلفة التى أشرنا إليها فى أول هذا التمهيد .

وعلاقة هـذا المقطع بالمقطع الأول فى السورة ظاهرة . فهو يتولى عملية بناء التصور الإسلامى وتجليته ـ فى مجال المعركة والحديد ساخن ! ـ كما يتولى عملية تثبيت هذه الجماعة على التكاليف المفروضة على أصحاب دعوة الحق فى الأرض . مع تعليمهم سنة الله فى النصر والهزيمة . ويربطهم بالتوجيهات القرآنية كما يربطهم بالأحداث الواقعية .

وإنه ليصعب استيفاء الحديث هنا عن طبيعة هذا المقطع ومحتوياته وقيمته فى بناء العقيدة وبناء الجماعة . . ولما كان هذا المقطع يقع بجملته فى الجزء الرابع (من الظلال) فلنرجىء الحديث عنه إلى هذا الجزء (إن شاء الله) . .

ونمضى إلى ختام السورة ـ بعد فصل غزوة أحد ـ فإذا هو تلخيص لموضوعاتها الأساسية ، يبدأ بإشارة موحية إلى دلالة هذا الكون (كتاب الله المنظور) وإيحاءاته للقلوب المؤمنة . . ويأخذ فى دعاء رخى ندى من هذه القلوب ، على مشهد الآيات فى كتاب الكون المفتوح :

Marfat.com

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته . وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لاتخلف الميعاد . . . » . . وهو يمثل نصاعة التصور ووضوحه وخشوع القلب وتقواه .

ثم تجىء الاستجابة من الله ـ سبحانه ـ فيذكر فيها الهجرة والجهاد والإيذاء فى سبيل الله :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب . . . » . . وفيه إشارة وعلاقة بغزوة أحد وأحداثها وآثارها .

ثم يذكر أهل الكتاب ـ الذين استغرق الحديث عنهم مقطع السورة الأول ـ ليقول للمسلمين إن الحق الذى بأيديهم لايجحده أهل الكتاب كلهم . فإن منهم من يؤمن به ويشهد بأحقيته : « وإن من أهل الكتاب لمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، خاشعين لله ، لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا . . . » .

وتختم السورة بدعوة المسلمين ـ بإيمانهم ـ إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى : « ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . . وهو ختام يناسب جو السورة وموضوعاتها جميعا . .

* * *

ولا يتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها ، تتناثر نقطها فى السورة كلها ، وتتجمع وتتركز فى مجموعها ، حتى ترسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد . .

Marfat.com

أول هذه الخطوط بيان معنى « الدين » ومعنى « لإسلام » . . فليس الدين ـ كما يحدده الله ـ سبحانه ـ ويريده ويرضاه ـ هو كل اعتقاد في الله . . إنما هي صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه ـ سبحانه ـ صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع : توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية . وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله . فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى . ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو « الإسلام » وهو في هذه الحالة : الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية ، والتلقي من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة ، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر ، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب . وهو في صميمه كتاب واحد ، وهو في صميمه دين واحد . . الإسلام . . بهذا المعنى الواقعي في ضمائر الناس وواقعهم العملي على السواء . والذي يلتقي عليه كل المؤمنين أتباع الرسل . . كل في زمانه . . متى كان معنى إسلامه هو الاعتقاد بوحدة الألوهية والقوامة ؛ والطاعة والاتباع في منهج الحياة كله بلا استثناء .

ويتكئ سياق السورة على هذا الخط ويوضحه في أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ظاهر ملحوظ . . نضرب له بعض الأمثلة في هذا التعريف المجمل :

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم » . . « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . . « إن الدين عند الله الإسلام » . . « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ... » . . « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . . « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ... » . . « قل : أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . . « قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . . « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . . « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » . . « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها

Marfat.com

وإليه يرجعون ؟ » .. « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » .. وغيرها كثير ..

فأما الخط الثانى الذى يركز عليه سياق السورة فهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ماياتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق .. ونضرب له كذلك بعض الأمثلة فى هذا التعريف بالسورة حتى نواجهه مفصلا عند استعراض النصوص بالتفصيل :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ـ وما يذكر إلا أولو الألباب ـ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لايخلف الميعاد » .. « الذين يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .. « قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .. « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .. « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » .. « وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .. « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح . للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .. « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لا تخلف الميعاد » ..

Marfat.com

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم خاشعين لله ، لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا » . . وغيرها كثير . .

والخط الثالث العريض فى سياق السورة هو التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لاإيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لايحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة . . وقد أشرنا إلى هذا الخط من قبل ولكنه يحتاج إلى إبراز هنا بقدر ماهو بارز وأساسى فى سياق السورة ،وهذه نماذج من هذا الخط العريض :

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء - إلا أن تتقوا منهم تقاة - ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل : إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السماوات ومافى الأرض . والله على كل شىء قدير » . . « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » . .

« ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . . . » الخ . . « لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا . . . » الخ . . « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا . ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ... » الخ . . « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار وما لهم من ناصرين » . . «لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » .. وغيرها كثير . .

وهذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة ، فى تقرير التصور الإسلامى ،

Marfat.com

وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه فى حياة البشر وفى شعورهم بالله ، وأثر ذلك فى موقفهم من أعداء الله الذى لاموقف لهم سواه .

والنصوص فى مواضعها من السياق أكثر حيوية وأعمق إيحاء . . لقد نزلت فى معمعان المعركة . معركة العقيدة ، ومعركة الميدان . المعركة فى داخل النفوس ، والمعركة فى واقع الحياة . . ومن ثم تضمنت ذلك الرصيد الحى العجيب ، من الحركة والتأثير والإيحاء . .

فلنمض إذن لنواجه نصوص السورة فى سياقها الحى القوى الأخاذ الجميل . .

Marfat.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الم ۞ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا : فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ۞

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ

Marfat.com

وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ : أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ - قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ : أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ؟ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ؛ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ؟

« قُلِ : اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ،

Marfat.com

وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ - إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً - وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ : إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ .

« قُلْ : إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« قُلْ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ . فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » ﴿٣٢﴾

إذا أخذنا بالروايات التي تقول : إن الآيات الأولى من هذه السورة إلى بضع وثمانين آية منها قد نزلت في مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن ، ومناظرته للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أمر عيسى عليه السلام ، فإن هذا الدرس بجملته يكون داخلا في إطار هذه المناسبة . لولا أن هذه الروايات توقت مجيء ذلك الوفد بالسنة التاسعة للهجرة ، وهي السنة المعروفة في السيرة باسم « عام الوفود » حيث كان الإسلام قد انتهى إلى درجة من القوة والشهرة في الجزيرة العربية كلها - وفيا وراءها كذلك - جعل الوفود من شتى بقاع الجزيرة تفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - تخطب وده ، أو تعرض التعاهد معه ، أو تستجلي حقيقة أمره .

Marfat.com

ونحن كما أشرنا فيما تقدم نحس أن الموضوع الذى تعالجه هذه الآيات ، وطريقة علاجها له ، كلاهما يرجح أن هذه الآيات نزلت مبكرة فى السنوات الأولى للهجرة . . ومن ثم فنحن أميل إلى اعتبار ماورد فى هذه السورة من حجاج وجدل مع أهل الكتاب ، ونفى للشبهات التى تضمنتها معتقداتهم المنحرفة ، أو التى تعمدوا نثرها حول صحة رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - وحقيقة عقيدة التوحيد الإسلامية ، وكذلك ما اقتضاه كيد أهل الكتاب من تحذير للجماعة المسلمة وتثبيت . . نحن أميل إلى اعتبار هذا كله غير مقيد بحادث وفد نجران فى السنة التاسعة ؛ وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة هى التى نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة .

ومن ثم سنمضى فى استعراض هذه النصوص بوصفها مواجهة لأهل الكتاب غير مقيد بهذا الحادث الخاص المتأخر فى التاريخ (١)

على أن هذه النصوص - كما قلنا فى التمهيد للسورة - تكشف عن الصراع الأصيل الدائم بين الجماعة المسلمة وعقيدتها ، وبين أهل الكتاب والمشركين وعقائدهم . . هذا الصراع الذى لم يفتر منذ ظهور الإسلام - وبخاصة منذ مقدمه إلى المدينة وقيام دولته فيها - والذى اشترك فيه المشركون واليهود اشتراكا عنيفا يسجله القرآن تسجيلا رائعا دقيقا .

ولا عجب أن يشاركهم بعض رجال الكنيسة فى أطراف الجزيرة العربية فى صورة من الصور . ليس بعيدا عن الواقع أن يفد أفراد منهم أو جماعات لمناظرة النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) يذكر الأستاذ محمد عزة دروزة فى كتابه القيم : (سيرة الرسول : صورة مقتبسة من القرآن الكريم) أنه « يستفاد من الروايات أن هذا الوفد قد قدم إلى المدينة فى الربع الأول من الهجرة » ولا أدرى إلى أى الروايات استند فى تحديد هذا التاريخ . فكل الروايات التى رجعت إليها تحدد العام التاسع أو لا تذكر إلا قصة وفد نجران مع بقية الوفود (ومعروف أن عام الوفود هو العام التاسع) .

نعم ذكر ابن كثير فى التفسير احتمال أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ولم يقل علام استند فى هذا الاحتمال ، ولم يحدد رواية عن السلف يستند إليها فى هذا الاحتمال .

وعلى أية حال . فإن احتمال نزول هذه الآيات فى وفد نجران متعلق باحتمال أن الوفد قدم قبل الحديبية . فإذا صح هذا صح ذلك . أما إذا اعتمدنا الروايات الكثيرة عن توقيت قدوم وفد نجران عام الوفود فى السنة التاسعة ، فإننا نجد أنفسنا مضطرين للفصل بين هذه الآيات والمناسبة التى تذكر الروايات أنها نزلت فيها .

Marfat.com

وجادلته فى المواضع التى يظهر فيها الاختلاف بين عقائدهم المنحرفة والعقيدة الجديدة القائمة على التوحيد الخالص الناصع ـ وبخاصة فيما يتعلق بصفة عيسى عليه السلام .

وفى هذا الدرس منذ ابتدائه تحديد لفرق الطريق بين عقيدة التوحيد الخالصة الناصعة والشبهات والانحرافات . وتهديد لمن يكفر بالفرقان وآيات الله فيه ، واعتبارهم كفارا ولو كانوا من أهل الكتاب ! وبيان لحال المؤمنين مع ربهم وموقفهم مما ينزل على رسله . وهو بيان يحدد الموقف ويحسمه : فللإيمان علاماته التى لاتخطىء وللكفر علاماته التى لاشبهة فيها كذلك !

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، ومايذكر إلا أولو الألباب » .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ والملائكة وأولو العلم ـ قائما بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . .

« إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم . بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » . .

كما أن هذا الدرس يحمل تهديدا ، لاخفاء فى أنه يتضمن تعريضا باليهود . وذلك فى قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » .. فحين يذكر قتل الأنبياء يتجه الذهن مباشرة إلى اليهود!

وكذلك النهى الوارد فى قوله تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... » الخ . فالغالب أن المقصود به هم اليهود . وإن كان من الجائز أن يشمل المشركين أيضا . ففى هذا التاريخ كان بعض المسلمين لايزالون يوالون أقاربهم من المشركين كما يوالون اليهود ، فنهوا عن ذلك كله ، وحذروا هذا التحذير العنيف . سواء كان الأولياء من اليهود أو من المشركين . فكلهم سواء « الكافرين » !

Marfat.com

وظاهر أن قوله تعالى : « قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ... » الخ . تتضمن الإشارة إلى أحداث غزوة بدر ، وأن الخطاب فيها موجه إلى اليهود . وقدوردت فى هذا رواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما أصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشا يوم بدر ، وقدم المدينة وجمع اليهود ، وقال : أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا ، قالوا : يامحمد : لايغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش أغمارا لايعرفون القتال . إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله تعالى فى ذلك : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم . . - إلى قوله : - « فئة تقاتل فى سبيل الله - أى ببدر - وأخرى كافرة » . . (أخرجه أبو داود) .

كذلك يبدو من التلقين الموجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى آية : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله - ومن اتبعن - وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » . . أنه وإن كان هذا التلقين فى صدد مناقشة حاضرة ، إلا أنه تلقين عام شامل ، ليواجه به النبى - صلى الله عليه وسلم - كل المخالفين له فى العقيدة .

وظاهر من قوله تعالى : « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى ذلك الحين لم يكن مأمورا بقتال أهل الكتاب ، ولا بأخذ الجزية منهم ، مما يرجح ماذهبنا إليه من نزول هذه الآيات فى وقت مبكر .

وهكذا نرى من طبيعة النصوص أنها مواجهة عامة غير مقيدة بمناسبة واحدة ، هى مناسبة وفد نجران . وقد تكون هذه إحدى المناسبات التى نزلت هذه النصوص لمواجهتها ، وهى المناسبات الكثيرة المكررة فى الصراع بين الإسلام وخصومه المتعددين فى الجزيرة . . وبخاصة اليهود فى المدينة . .

ثم يتضمن هذا الدرس الأول إيضاحات قوية لأسس التصور الإسلامى من ناحية العقيدة ، وإلى جانبها إيضاحات قوية كذلك فى طبيعة هذه العقيدة وآثارها فى الحياة الواقعية . هذه الآثار الملازمة للإيمان بها . فهى عقيدة التوحيد لله . ومن ثم تجعل الدين هو الإسلام لله .

Marfat.com

ولا دين سواه . . الإسلام بمعنى الاستسلام والطاعة والاتباع . الاستسلام لأمره ، والطاعة لشرعه ، والاتباع لرسوله ومنهجه . فمن لم يستسلم ويطع ويتبع فليس بمسلم ، ومن ثم فليس بصاحب دين يرضاه الله . فالله لا يرضى إلا الإسلام . والإسلام ـ كما قلنا ـ الاستسلام والطاعة والاتباع . . ومن ثم يرد التعجيب والتشهير بأهل الكتاب الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم « ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . . ويعتبر الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان . الإيمان بالله على الإطلاق !

والمقطع الثاني في هذا الدرس يدور كله حول هذه الحقيقة الكبيرة . .

فلنأخذ الآن في الاستعراض التفصيلي لنصوص هذا الدرس من السورة :

* * *

« الم » . .

هذه الأحرف المقطعة : ألف . لام . ميم . نختار في تفسيرها ـ على سبيل الترجيح لا الجزم ـ مااخترنا في مثلها في أول سورة البقرة : « إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ؛ وهي في متناول المخاطبين به من العرب . ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . . الخ [1] » . .

وهذا الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور ـ على سبيل الترجيح لا الجزم ـ يتمشى معنا بيسر في إدراك مناسبات هذه « الإشارة » في شتى السور . ففي سورة البقرة كانت الإشارة تتضمن التحدي الذي ورد في السورة بعد ذلك : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . . . الخ » . .

فأما هنا في سورة « آل عمران » فتبدو مناسبة أخرى لهذه « الإشارة » . . هي أن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو . وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه في هذا

---

(١) ص ٨ الجزء الأول الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

شأن ماسبقه من الكتب السماوية التي يعترف بها أهل الكتاب ـ المخاطبون في السورة ـ فليس هناك غرابة في أن ينزل الله هذا الكتاب على رسوله بهذه الصورة .

* * *

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذي أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ وما يعلم تأويله إلا الله ـ والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ـ وما يذكر إلا أولو الألباب ـ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد » . .

هكذا تبدأ السورة في مواجهة أهل الكتاب المنكرين لرسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم بحكم معرفتهم بالنبوات والرسالات والكتب المنزلة والوحي من الله ، كانوا أولى الناس بأن يكونوا أول المصدقين المسلمين . لو أن الأمر أمر اقتناع بحجة ودليل !

هكذا تبدأ السورة في مواجهتهم بهذا الشوط القاطع ، الفاصل في أكبر الشبهات التي تحيك في صدورهم ، أو التي يتعمدون نثرها في صدور المسلمين تعمدا . والكاشف لمداخل هذه الشبهات في القلوب ومساربها . والمحدد لموقف المؤمنين الحقيقيين من آيات الله وموقف أهل الزيغ والانحراف ! والمصور لحال المؤمنين من ربهم والتجائهم إليه ، وتضرعهم له ، ومعرفتهم بصفاته تعالى :

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم » . .

وهذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد سواء ، منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهودا أو نصارى . على اختلاف مللهم ونحلهم جميعا . كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في

Marfat.com

الأرض . فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدا كاملا دقيقا .

« الله لا إله إلا هو » .. فلا شريك له فى الألوهية .. « الحى » . . الذى يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد فلا شبيه له فى صفته . . « القيوم » .. الذى به تقوم كل حياة وبه يقوم كل وجود ؛ والذى يقوم كذلك على كل حياة وعلى كل وجود . فلا قيام لحياة فى هذا الكون ولا وجود إلا به سبحانه .

وهذا مفرق الطريق فى التصور والاعتقاد . ومفرق الطريق فى الحياة والسلوك .

مفرق الطريق فى التصور والاعتقاد . بين تفرد الله ــ سبحانه ــ بصفة الألوهية وذلك الركام من التصورات الجاهلية : سواء فى ذلك تصورات المشركين ــ وقتها فى الجزيرة ــ وتصورات اليهود والنصارى ــ وبخاصة تصورات النصارى .

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم كانوا يقولون : عزير ابن الله . كما أن الانحراف الذى سجله مايعتبره اليهود اليوم « الكتاب المقدس » يتضمن شيئا كهذا . كما جاء فى سفر التكوين : الإصحاح السادس(1) .

فأما انحرافات التصورات المسيحية فقد حكى القرآن منها قولهم : إن الله ثالث ثلاثة . وقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم . واتخاذهم المسيح وأمه إلهين من دون الله . واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . .

وقد جاء فى كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف أرنولد ، شىء عن هذه التصورات . .

« ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامى بمئة عام فى أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة . ولكن سرعان ماتصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى شعور قومى مشترك ، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا فى إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية . ولكن مااتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه . ولم يكن ثمة

---

(1) « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناءالله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل مااختاروا . فقال الرب لايدين روحى فى الإنسان إلى الأبد . لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة . كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام . وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » .

Marfat.com

مايقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية . فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف مايمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ؛ وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ، وبينهم وبين الحكومة المركزية . . وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن فى سنة ٤٥١ ميلادية أن المسيح ينبغى أن يُعترف بأنه يتمثل فى طبيعتين لااختلاط بينهما ، ولا تغير ، ولا تجزؤ ، ولا انفصال . ولا يمكن أن ينتفى خلافهما بسبب اتحادهما . بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها ؛ وتجتمع فى أقنوم واحد ، وجسد واحد . لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة فى أقنومين . بل متجمعة فى أقنوم واحد هو ذلك الابن والله والكلمة . . وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع ، وكانوا لايعترفون فى المسيح إلا بطبيعة واحدة . وقالوا : إنه مركب الأقانيم . له كل الصفات الإلهية والبشرية ولكن المادة التى تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية . بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم . . وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص فى مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الذى سعى فيه هرقل فى إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة . ففى الوقت الذى نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين ، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم فى حياة المسيح البشرية . وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة فى أقنوم واحد . فالمسيح الواحد ، الذى هو ابن الله ، يحقق الجانب الإنسانى والجانب الإلهى بقوة إلهية إنسانية واحدة . ومعنى هذا أنه لايوجد سوى إرادة واحدة فى الكلمة المتجسدة . . لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى إليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام . ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء (١) »

كذلك يقول باحث مسيحى آخر هو « كانون تايلور » عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية : « وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة » (٢)

---

(١) ترجمة حسن إبراهيم وزميليه ص ٥٢ ـ ٥٣ (٢) المصدر نفسه ص ٦٧ .

Marfat.com

أما انحرافات عقائد المشركين فقد حكى القرآن عنها : عبادتهم للجن والملائكة والشمس والقمر والأصنام . وكان أقل عقائدهم انحرافا عقيدة من يقولون عن هذه الآلهة : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » !

فأمام هذا الركام من التصورات الفاسدة والمنحرفة التي أشرنا إليها هذه الإشارات الخاطفة جاء الإسلام ـ في هذه السورة ـ ليعلنها ناصعة واضحة صريحة حاسمة :

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم » . .

فكانت مفرق الطريق في التصور والاعتقاد . . كذلك كانت مفرق الطريق في الحياة والسلوك . .

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذي لا إله إلا هو . الحي الواحد الذي لاحي غيره . القيوم الواحد الذي به تقوم كل حياة أخرى وكل وجود ، كما أنه هو الذي يقوم على كل حي وكل موجود . .

إن الذي يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذي هذه صفته . لابد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذي تغيم في حسه تلك التصورات التائهة المهوشة . فلا يجد في ضميره أثراً لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة في حياته !

إنه مع التوحيد الواضح الخالص لامكان لعبودية إلا لله . ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا من الله . لافي شريعة أو نظام ، ولا في أدب أو خلق . ولا في اقتصاد أو اجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله في شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة . . أما في تلك التصورات الزائغة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلامتجه ولا قرار ، ولا حدود لحرام أو حلال ، ولا لخطإ أو صواب : في شرع أو نظام ، في أدب أو خلق ، وفي معاملة أو سلوك . . فكلها . . كلها . . إنما تتحدد وتتضح عند ما تتحدد الجهة التي منها التلقي ، وإليها التوجه ، ولها الطاعة والعبودية والاستسلام .

ومن ثم كانت هذه المواجهة بذلك الحسم في مفرق الطريق :

« الله لاإله إلا هو الحي القيوم » . .

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية ـ لالطبيعة الاعتقاد وحده ـ فالحياة

Marfat.com

الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقا من حقيقة هذا التصور الإسلامى عن التوحيد الخالص الجازم . التوحيد الذى لا يستقيم عقيدةً فى الضمير مالم تتبعه آثاره العملية فى الحياة . من تلقى الشريعة والتوحيد من الله فى كل شأن من شؤون الحياة . والتوجه كذلك إلى الله فى كل نشاط وكل اتجاه .

وعقب هـذا الإيضاح الحاسم فى مفرق الطريق ، بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته ، يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التى تتنزل منها الأديان والـكتب والرسالات . أى التى يتنزل منها المنهج الذى يصرف حياة البشر فى جميع الأجيال :

« نزل عليك الـكتاب بالحق ـ مصدقا لما بين يديه ـ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل ـ هدى للناس ـ وأنزل الفرقان . إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام » .

وتتضمن هذه الآية فى شطرها الأول جملة حقائق أساسية فى التصور الاعتقادى ، وفى الرد كذلك على أهل الـكتاب وغيرهم من المنـكرين لرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحة ماجاء به من عند الله .

فهى تقرر وحدة الجهة التى تتنزل منها الـكتب على الرسل . فالله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، هو الذى نزل هذا القرآن ـ عليك ـ كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل . وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية . إنما هناك إله واحد ينزل الـكتب على المختارين من عباده . وهناك عبيد يتلقون . وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين .

وهى تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذى تتضمنه الـكتب المنزلة من عند الله . فهذا الـكتاب نزله ـ عليك ـ « بالحق » . . « مصدقا لما بين يديه » . . من التوراة والإنجيل . . وكلها تستهدف غاية واحدة : « هدى للناس » . . وهـذا الـكتاب الجديد « فرقان » بين الحق الذى تضمنته الـكتب المنزلة ، والانحرافات والشبهات التى لحقت بها بفعل الأهواء والتيارات الفـكرية والسياسية (التى رأينا نموذجا منها فيما نقلناه عن الـكاتب المسيحى سير ت . و . أرنولد فى كتاب الدعوة إلى الإسلام » .

Marfat.com

وهى تقرر ـ ضمنا ـ أنه لاوجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة . فهى سائرة على نمط الرسالات قبلها . وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة . ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر . وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله ، يضم جناحيه على « الحق » الذى تضم جوانحها عليه . وقد نزله من يملك تنزيل الكتب . . فهو منزل من الجهة التى لها « الحق » فى وضع منهاج الحياة للبشر ، وبناء تصوراتهم الاعتقادية ، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم فى الكتاب الذى ينزله على رسوله .

ثم تتضمن الآية فى شطرها الثانى التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه . . والذين كفروا بآيات الله هم الذين كذبوا بهذا الدين الواحد بإطلاقه . . وأهل الكتاب الذين انحرفوا عن كتاب الله الصحيح المنزل إليهم من قبل ، فقادهم هذا الانحراف إلى التكذيب بالكتاب الجديد ـ وهو فرقان واضح مبين ـ هم أول المعنيين هنا بصفة الكفر ، وهم أول من يتوجه إليهم التهديد الرعيب بعذاب الله الشديد وانتقامه الأكيد . .

وفى صدد التهديد بالعذاب والانتقام يؤكد لهم علم الله الذى لايند عنه شىء ، فلا خفاء عليه ولا إفلات منه :

« إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . .

وتوكيد العلم المطلق الذى لايخفى عليه شىء ، وإثبات هذه الصفة لله ـ سبحانه ـ فى هذا المقام . . هذا التوكيد يتفق أولا مع وحدانية الألوهية والقوامة التى افتتح بها السياق . كما يتفق مع التهديد الرعيب فى الآية السابقة . . فلن يفلت « شىء » من علم الله « فى الأرض ولا فى السماء » بهذا الشمول والإطلاق . ولن يمكن إذن ستر النوايا عليه ، ولا إخفاء الكيد عنه . ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق .

وفى ظلال العلم اللطيف الشامل الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء يلمس المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الإنسانية . النشأة المجهولة فى ظلام الغيب وظلام الأرحام ، حيث لاعلم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك :

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . . . .

Marfat.com

هكذا « يصوركم » . . يتحكم الصورة التي يشاء ؛ ويتحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة . وهو وحده الذي يتولى التصوير ، بمحض إرادته ، ومطلق مشيئته : « كيف يشاء » . . « لا إله إلا هو » .. « العزيز » .. ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير « الحكيم » .. الذي يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك .

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام ونشأته ومولده . فالله هو الذي صور عيسى . . « كيف يشاء » . . لا أن عيسى هو الرب . أو هو الله . أو هو الابن . أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي . إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة اليسيرة التصور القريبة الإدراك !

بعدئذ يكشف الذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتركون الحقائق القاطعة في آيات القرآن المحكمة ، ويتبعون النصوص التي تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ؛ ويصور سمات المؤمنين حقا وإيمانهم الخالص وتسليمهم لله في كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب . منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون : آمنا به . كل من عند ربنا ـ وما يذكر إلا أولو الألباب ـ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلف الميعاد » . .

وقد روى أن نصارى نجران قالوا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألست تقول عن المسيح : إنه كلمة الله وروحه ؟ يريدون أن يتخذوا من هذا التعبير أداة لتثبيت معتقداتهم عن عيسى ـ عليه السلام ـ وأنه ليس من البشر ، إنما هو روح الله ـ على ما يفهمون هم من هذا التعبير ـ بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التي تقرر وحدانية الله المطلقة ، وتنفي عنه الشريك والولد في كل صورة من الصور . . فنزلت فيهم هذه الآية ، تكشف محاولتهم هذه في استغلال النصوص المجازية المصورة ، وترك النصوص التجريدية القاطعة .

على أن نص الآية أعم من هذه المناسبة ؛ فهي تصور موقف الناس على اختلافهم من هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ متضمنا حقائق التصور الإيماني ،

Marfat.com

ومنهاج الحياة الإسلامية ؛ ومتضمنا كذلك أمورا غيبية لاسبيل للعقل البشرى أن يدركها بوسائله الخاصة ، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها .

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهى مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة ، مدركة المقاصد ـ وهى أصل هذا الكتاب ـ وأما السمعيات والغيبيات ـ ومنها نشأة عيسى عليه السلام ومولده ـ فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر « الحق » ويصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها ، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنسانى المحدود .

وهنا يختلف الناس ـ حسب استقامة فطرتهم أو زيغها ـ فى استقبال هذه الآيات وتلك . فأما الذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة ، فيتركون الأصول الواضحة الدقيقة التى تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملى للحياة ، ويجرون وراء المتشابه الذى يعوّل فى تصديقه على الإيمان بصدق مصدره ، والتسليم بأنه هو الذى يعلم « الحق » كله ، بينما الإدراك البشرى نسبي محدود المجال . كما يعول فيه على استقامة الفطرة التى تدرك بالإلهام المباشر صدق هذا الكتاب كله، وأنه نزل بالحق لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . يجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر ، نتيجة إقحامه فيما لامجال للفكر فى تأويله . . « وما يعلم تأويله إلا الله » . .

وأما الراسخون فى العلم ، الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشرى ، وحدود المجال الذى يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له . . أما هؤلاء فيقولون فى طمأنينة وثقة :

« آمنا به ، كل من عند ربنا » . .

يدفعهم إلى هذه الطمأنينة ، أنه من عند ربهم . فهو إذن حق وصدق . وما يقرره الله صادق بذاته . وليس من وظيفة العقل البشرى ولا فى طوقه أن يبحث عن أسبابه وعلله ، كما أنه ليس فى طوقه أن يدرك ماهيته وطبيعة العلل الكامنة وراءه .

والراسخون فى العلم يطمئنون ابتداء إلى صدق مايأتيهم من عند الله . يطمئنون إليه

Marfat.com

بفطرتهم الصادقة الواصلة . . ثم لايجدون من عقولهم شكا فيه كذلك ؛ لأنهم يدركون أن من العلم ألا يخوض العقل فيما لامجال فيه للعلم ، وفيما لاتؤهله وسائله وأدواته الإنسانية لعلمه . .

وهذا تصور صحيح للراسخين فى العلم . . فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم ، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شيء ، وأن مالم يدركوه لاوجود له ؛ أو يفرضون إدراكهم على الحقائق ، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التى أدركوها . ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقلية لهم ! صاغتها عقولهم المحدودة ! أما العلماء حقا فهم أكثر تواضعا ، وأقرب إلى التسليم بعجز العقل البشرى عن إدراك حقائق كثيرة تكبر طاقته وترتفع عليها . كما أنهم أصدق فطرة فما تلبث فطرتهم الصادقة أن تتصل بالحق وتطمئن إليه .

« وما يذكر إلا أولو الألباب » . .

وكأنه ليس بين أولى الألباب وإدراك الحق إلا أن يتذكروا . . فإذا الحق المستقر فى فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز ويتقرر فى الألباب .

عندئذ تنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى دعاء خاشع وفى ابتهال منيب : أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله . . ويتذكرون يوم الجمع الذى لاريب فيه ، والميعاد الذى لاخلف له :

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه . إن الله لايخلف الميعاد » . .

هذا هو حال الراسخين فى العلم مع ربهم ؛ وهو الحال اللائق بالإيمان ؛ المنبثق من الطمأنية لقول الله ووعده ؛ والثقة بكلمته وعهده ؛ والمعرفة برحمته وفضله ؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب ؛ والتقوى والحساسية واليقظة التى يفرضها الإيمان على قلوب أهله ، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى فى ليل أو نهار . .

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال . قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش . قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة . قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة . قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده . قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة

Marfat.com

الحقيرة . . ويدرك أن الله منحه بالإيمان كل هذا الزاد . . ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال ، كما يشفق السائر فى الدرب المستقيم المنير أن نعود إلى التخبط فى المنعرجات المظلمة . وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ والشواظ ! وفى بشاشة الإيمان حلاوة لايدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة . وفى طمأنينة الإيمان حلاوة لايدركها إلا من ذاق شقوة الشرود والضلال !

ومن ثم يتجه المؤمنون إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع :

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » . .

وينادون رحمة الله التى أدركتهم مرة بالهدى بعد الضلال ، ووهبتهم هذا العطاء الذى لايعدله عطاء :

« وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب » . .

وهم بوحى إيمانهم يعرفون أنهم لايقدرون على شىء إلا بفضل الله ورحمته . وأنهم لايملكون قلوبهم فهى فى يد الله . . فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة .

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرا مايدعو : « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قلت : يارسول الله ، ما أكثر ماتدعو بهذا الدعاء . فقال : « ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمان ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » . .

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله فى حرارة ، وأن يتشبث بحماه فى إصرار ، وأن يتجه إليه يناشده رحمته وفضله ، لاستبقاء الكنز الذى وهبه ، والعطاء الذى أولاه !

* * *

بعد هذا البيان يتجه إلى تقرير مصير الذين كفروا ، وسنة الله التى لاتتخلف فى أخذهم بذنوبهم ، وإلى تهديد الذين يكفرون من أهل الكتاب ، ويقفون لهذا الدين ؟ ويلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينذرهم ، ويذكرهم مارأوه بأعينهم فى غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين :

Marfat.com

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب . قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . .

إن هذه الآيات واردة فى صدد خطاب بنى إسرائيل ، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم . وفيها لفتة لطيفة عميقة الدلالة كذلك . . فهو يذكرهم فيها بمصير آل فرعون . . وكان الله سبحانه قد أهلك آل فرعون وأنجى بنى إسرائيل . ولكن هـذا لايمنحهم حقا خاصا إذا هم ضلوا وكفروا ، ولا يعصمهم أن يوصموا بالكفر إذا هم انحرفوا ، وأن ينالوا جزاء الكافرين فى الدنيا والآخرة كما نال آل فرعون الذين أنجاهم الله منهم !

كذلك يذكرهم مصارع قريش فى بدر - وهم كفار - ليقول لهم : إن سنة الله لاتتخلف . وإنه لايعصمهم عاصم من أن يحق عليهم ماحق على قريش . فالعلة هى الكفر . وليس لأحد على الله دالة ، ولا له شفاعة إلا بالإيمان الصحيح !

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار » . .

والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ؛ ولكنهما لايغنيان شيئا فى ذلك اليوم الذى لاريب فيه ، لأنه لا إخلاف لميعاد الله . وهم فيه : « وقود النار » . . بهـذا التعبير الذى يسلبهم كل خصائص « الإنسان » ومميزاته ، ويصورهم فى صورة الحطب والخشب وسائر « وقود النار » . .

لا بل إن الأموال والأولاد ، ومعهما الجاه والسلطان ، لاتغنى شيئا فى الدنيا :

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب » . .

وهو مثل مضى فى التاريخ مكرورا ، وقصه الله فى هذا الكتاب تفصيلا : وهو يمثل سنة الله فى المكذبين بآياته ، يجريها حيث يشاء . فلا أمان إذن ولا ضمان لمكذب بآيات الله .

Marfat.com

وإذن فالذين كفروا وكذبوا بدعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآيات الكتاب الذى نزله عليه بالحق ، معرضون لهذا المصير فى الدنيا والآخرة سواء . . ومن ثم يلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينذرهم هذا المصير فى الدارين ، وأن يضرب لهم المثل يوم بدر القريب ، فلعلهم نسوا مثل فرعون والذين من قبله فى التكذيب والأخذ الشديد :

« قل للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين . والله يؤيد بنصره من يشاء . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . .

وقوله تعالى : « يرونهم مثليهم رأى العين » يحتمل تفسيرين : فإما أن يكون ضمير « يرون » راجعا إلى الكفار ، وضمير « هم » راجعا إلى المسلمين ، ويكون المعنى أن الكفار على كثرتهم كانوا يرون المسلمين القليلين « مثليهم » . . وكان هذا من تدبير الله حيث خيل للمشركين أن المسلمين كثرة وهم قلة ، فتزلزلت قلوبهم وأقدامهم .

وإما أن يكون العكس ، ويكون المعنى أن المسلمين كانوا يرون المشركين «مثليهم» هم ـ فى حين أن المشركين كانوا ثلاثة أمثالهم ـ ومع هذا ثبتوا وانتصروا .

والمهم هو رجع النصر إلى تأييد الله وتدبيره . . وفى هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد . كما أن فيه تثبيتا للذين آمنوا وتهوينا من شأن أعدائهم فلا يرهبونهم . . وكان الموقف ـ كما ذكرنا فى التمهيد للسورة ـ يقتضى هذا وذاك . . وكان القرآن يعمل هنا وهناك . .

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة . وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة . . إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله ، قائم فى كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة ـ ولو قل عددها ـ قائم كذلك فى كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذى يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ ، وسنة ماضية لم تتوقف .

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق فى ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التى فى طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ؛ ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب فى علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذى يحقق هذه الحكمة .

Marfat.com

« إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . .

ولا بد من بصر ينظر وبصيرة تتدبر ، لتبرز العبرة ، وتعيها القلوب . وإلا فالعبرة تمر فى كل لحظة فى الليل والنهار !

* * *

وفى مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التى من عندها يبدأ الانحراف ؛ إذا لم تضبط باليقظة الدائمة ؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ؛ وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خير وأزكى .

إن الاستغراق فى شهوات الدنيا ، ورغائب النفوس ، ودوافع الميول الفطرية هو الذى يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ؛ ويدفع بالناس إلى الغرق فى لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ؛ ويحجب عنهم ماهو أرفع وأعلى ؛ ويغلظ الحس فيحرمه متعة التطلع إلى ماوراء اللذة القريبة ؛ ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم فى هذه الأرض ؛ واللائقة كذلك بمخلوق يستخلفه الله فى هذا الملك العريض .

ولما كانت هذه الرغائب والدوافع - مع هذا - طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارىء - جل وعلا - أن تؤدى للبشرية دورا أساسيا فى حفظ الحياة وامتدادها ، فإن الإسلام لايشير بكبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكا لها متصرفا فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامى فيه والتطلع إلى ماهو أعلى .

ومن ثم يعرض النص القرآنى الذى يتولى هذا التوجيه التربوى . . هذه الرغائب والدافع ، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألوانا من لذائذ الحس والنفس فى العالم الآخر ، ينالها من يضبطون أنفسهم فى هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق فى لذائذها المحببة ، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة .

وفى آية واحدة يجمع السياق القرآنى أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام . . وهى خلاصة للرغائب الأرضية . إما بذاتها ، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى . . وفى الآية

Marfat.com

التالية يعرض لذائذ أخرى فى العالم الآخر : جنات تجرى من تحتها الأنهار . وأزواج مطهرة . وفوقها رضوان من الله . . وذلك كله لمن يمد بصره إلى أبعد من لذائذ الأرض ، ويصل قلبه بالله ، على النحو الذى تعرضه آيتان تاليتان :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث . . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار — خالدين فيها — وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله . والله بصير بالعباد . الذين يقولون : ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » . .

« زين للناس » . وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطرى قد تضمن هذا الميل ؛ فهو محبب ومزين . . وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه . فنى الإنسان هذا الميل إلى هذه « الشهوات » ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لاحاجة إلى إنكاره ، ولا إلى استنكاره فى ذاته . فهو ضرورى للحياة البشرية كى تتأصل وتنمو وتطرد — كما أسلفنا — ولكن الواقع يشهد كذلك بأن فى فطرة الإنسان جانبا آخر يوازن ذلك الميل ، ويحرس الإنسان أن يستغرق فى ذلك الجانب وحده ؛ وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها . هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامى ، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه « الشهوات » . الحد البانى للنفس وللحياة ؛ مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذى تهتف إليه النفخة العلوية ، وربط القلب البشرى بالملإ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله . . هذا الاستعداد الثانى يهذب الاستعداد الأول ، وينقيه من الشوائب ، ويجعله فى الحدود المأمونة التى لايطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها القريبة ، على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة . . والاتجاه إلى الله ، وتقواه ، هو خيط الصعود والتسامى إلى تلك الأشواق البعيدة .

« زين للناس حب الشهوات » . . فهى شهوات مستحبة مستلذة ؛ وليست مستقذرة ولا كريهة . والتعبير لايدعو إلى استقذارها وكراهيتها ؛ إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها

Marfat.com

وبواعثها ، ووضعها فى مكانها لاتتعداه ، ولا تطغى على ماهو أكرم فى الحياة وأعلى . والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضرورى من تلك « الشهوات » فى غير استغراق ولا إغراق !

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها . . والذين يتحدثون فى هذه الأيام عن « الكبت » وأضراره ، وعن « العقد النفسية » التى ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسى للعقد هو « الكبت » وليس هو « الضبط » . . وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس ، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين : ضغط من شعوره ـ الذى كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف ـ بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لايجوز وجودها أصلا ، فهى خطيئة ودافع شيطانى ! وضغط هذه الدوافع التى لاتغلب لأنها عميقة فى الفطرة ، ولأنها ذات وظيفة أصيلة فى كيان الحياة البشرية ، لاتتم إلا بها ، ولم يخلقها الله فى الفطرة عبثا . . وعندئذ وفى ظل هذا الصراع تتكون « العقد النفسية » . . فحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذه النظريات النفسية ، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنسانى من هذا الصراع بين شطرى النفس البشرية . بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامى .. وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر فى حدود التوسط والاعتدال (١) .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . . » . .

والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية . . وقد قرن إليهما « القناطير المقنطرة » من الذهب والفضة . . ونهم المال هو الذى ترسمه « القناطير المقنطرة » ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال : والأموال . أو والذهب والفضة . ولكن القناطير المقنطرة تلقى ظلا خاصا هو المقصود . ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة . ذلك أن التكديس ذاته شهوة . بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى !

ثم قرن إلى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . الخيلَ المسومة .

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

Marfat.com

والخيل كانت ـ وما تزال حتى فى عصر الآلة المادى اليوم ـ زينة محببة مشتهاة . فنى الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة . وفيها ذكاء وألفة ومودة . وحتى الذين لايركبونها فروسية ، يعجبهم مشهدها ، مادام فى كيانهم حيوية تجيش لشهد الخيل الفتية !

وقرن إلى تلك الشهوات الأنعامَ والحرث . وهما يقترنان عادة فى الذهن وفى الواقع . . الأنعام والحقول المخصبة . . والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء . وإن تفتح الحياة فى ذاته لشهد حبيب فإذا أضيفت إليه شهوة الملك ، كان الحرث والأنعام شهوة .

وهذه الشهوات التى ذكرت هنا هىَ نموذج لشهوات النفوس ، يمثل شهوات البيئة التى كانت مخاطبة بهذا القرآن ؛ ومنها ماهو شهوة كل نفس على مدار الزمان . والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية ، لتبق فى مكانها هذا لاتتعداه . ولا تطغى على ماسواه :

« ذلك متاع الحياة الدنيا » . .

ذلك كله الذى عرضه من اللذائذ المحببة ـ وسائر مايماثله من اللذائذ والشهوات ـ متاع الحياة الدنيا . لاالحياة الرفيعة ، ولا الآفاق البعيدة . . متاع هذه الأرض القريب . . فأما من أراد الذى هو خير . . خير من ذلك كله . خير لأنه أرفع فى ذاته . وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق فى الشهوات ، والانكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء . . من أراد الذى هو خير فعند الله من المتاع ماهو خير . وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات :

« قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ـ خالدين فيها ـ وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » . .

وهذا المتاع الأخروىُ الذى تذكره الآية هنا ، ويؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبشر به المتقين ، هو نعيم حسى فى عمومه . . ولكن هنالك فارقا أساسيا بينه وبين متاع الدنيا . . إنه متاع لاينالهٌ إلا الذين اتقوا . الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم . وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعا . شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات ، وأن تنساق فيها كالبهيمة . فالذين اتقوا ربهم حين يتطلعون إلى هذا المتاع الحسى الذى يبشرون به يتطلعون إليه فى شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفى حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة !

Marfat.com

ويرتفعون بالتطلع إليه ـ وهم فى هذه الأرض ـ قبل أن ينتهى بهم المطاف إلى قرب الله . .

وفى هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا . . وفيه زيادة . .

فإذا كان متاعهم فى الدنيا حرثا مُعطيا مخصبا ، ففى الآخرة جنات كاملة تجرى من تحتها الأنهار . وهى فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها ، لا كالحرث المحدود الميقات !

وإذا كان متاعهم فى الدنيا نساء وبنين ، ففى الآخرة أزواج مطهرة . وفى طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض فى الحياة !

فأما الخيل المسومة والأنعام . وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . فقد كانت فى الدنيا وسائل لتحقيق متاع . فأما فى نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات !

ثم . . هنالك ماهو أكبر من كل متاع . . هنالك « رضوان من الله » . رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كلتيهما . . ويرجح . . رضوان . بكل ما فى لفظه من نداوة . وبكل ما فى ظله من حنان .

« والله بصير بالعباد » . .

بصير بحقيقة فطرتهم وما ركب فيها من ميول ونوازع . بصير بما يصلح لهذه الفطرة من توجيهات وإيحاءات . بصير بتصريفها فى الحياة وما بعد الحياة .

ثم وصف لهؤلاء العباد ، يصور حال المتقين مع ربهم ، الحال التى استحقوا عليها هذا الرضوان :

« الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين . والقانتين . والمنفقين . والمستغفرين بالأسحار » . .

وفى دعائهم مانيم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وشفاعة به عند الله ، وطلب للغفران ، وتوقٍ من النيران .

وفى كل صفة من صفاتهم تتحقق سمة ذات قيمة فى حياة الإنسانية وفى حياة الجماعة المسلمة :

فى الصبر ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف الدعوة ، وأداء

Marfat.com

لتكاليف الحق ، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر ، وقبول لحكمه ورضاء . .

وفى الصدق اعتزاز بالحق الذى هو قوام الوجود ، وترفع عن الضعف ؛ فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر أو اجتلابا لمنفعة .

وفى القنوت لله أداء لحق الألوهية وواجب العبودية ؛ وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله الواحد الذى لاقنوت لسواه .

وفى الإنفاق تحرر من استذلال المال ؛ وانفلات من ربقة الشح ؛ وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس !

والاستغفار بالأسحار بعد هذا كله يلقى ظلالا رفافة ندية عميقة . . ولفظة « الأسحار » بذاتها ترسم ظلال هذه الفترة من الليل قبيل الفجر . الفترة التى يصفو فيها الجو ويرق ويسكن ؛ وتترقرق فيها خواطر النفس وخوالجها الحبيسة ! فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المنسابة فى عالم النفس وفى ضمير الوجود سواء . وتلاقت روح الإنسان وروح الكون فى الاتجاه لبارئ الكون وبارئ الإنسان .

هؤلاء الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقون ، المستغفرون بالأسحار . . لهم « رضوان من الله » . . وهم أهل لهذا الرضوان : ظله الندى ومعناه الحانى . وهو خير من كل شهوة وخير من كل متاع . .

وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض . . وشيئا فشيئا يرف بها فى آفاق وأضواء ، حتى ينتهى بها إلى الملإ الأعلى فى يسر وهينة ، وفى رفق ورحمة . وفى اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها . وفى مراعاة لضعفها وعجزها ، وفى استجاشة لطاقاتها وأشواقها ، ودون ما كبت ولا إكراه . ودون ماوقف لجريان الحياة . . فطرة الله . ومنهج الله لهذه الفطرة . . « والله بصير بالعباد » . .

* * *

وإلى هنا كان سياق السورة يستهدف تقرير حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية والقوامة ، وتوحيد الكتاب والرسالة . . ويصور موقف المؤمنين حقا والمنحرفين الذين فى قلوبهم زيغ ، من آيات الله وكتابه .. ويهدد المنحرفين بمصير كمصير الذين كفروا فى الماضى وفى الحاضر .. ثم

Marfat.com

يكشف عن الدوافع الفطرية التى تلهى عن الاعتبار ؛ ويصور حال المتقين مع ربهم والتجاءهم إلى الله . .

فالآن ـ وإلى نهاية هـذا الدرس ـ نجـدنا أمام حقيقة أخرى . . هى مقتضى الحقيقة الأولى . . لحقيقة التوحيد تستلزم مصداقا لها فى واقع الحياة البشرية ، هو الذى يقرره الشطر الثانى من هذا الدرس .

ومن ثم يبدأ بإعادة تقرير الحقيقة الأولى ليرتب عليها آثارها اللازمة لها . . يبدأ بشهادة الله ـ سبحانه ـ « أنه لا إله إلا هو » وشهادة الملائكة وأولى العلم بهـذه الحقيقة . ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة ، وهى قيامه بالقسط فى أمر الناس وفى أمر الكون .

وما دام الله متفردا بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهـذه الحقيقة ، هو الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه فى شأن العبيد كله ؛ واستسلام العبيد لإلههم ، وطاعتهم للقيوم عليهم ، واتباعهم لكتابه ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ويضمن هـذه الحقيقة قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسـلام » . . فهو لا يقبل دينا سواه من أحد . . الإسلام الذى هو الاستسلام والطاعة والاتباع . . وإذن فليس الدين الذى يقبله الله من الناس هو مجرد تصور فى العقل ؛ ولا مجرد تصديق فى القلب . إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور . . هو تحكيم منهج الله فى أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، واتباعهم لرسوله فى منهجه .

وهكذا . . يعجب من أهل الكتاب ويشهر بأمرهم . . إذ يدّعون أنهم على دين الله . ثم « يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ! ! ! مما ينقض دعوى التدين من الأساس . فلا دين يقبله الله إلا الإسلام . ولا إسلام بغير استسلام لله وطاعة لرسوله ، واتباع لمنهجه ، وتحكيم لكتابه فى أمور الحياة . .

ويكشف عن علة هذا الإعراض ـ الذى هو التعبير الواقعى عن عدم الإيمان بدين الله ـ فإذا هى عدم الاعتقاد بجدية « القسط » فى الجزاء يوم الحساب : « ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » . . معتمدين على أنهم أهل كتاب « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » . . وهو غرور خادع . فما هم بأهل كتاب ، وماهم بمؤمنين أصلا . وما هم على دين

Marfat.com

الله إطلاقا ؛ وهم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون .

وبهذا الجزم القاطع يقرر الله سبحانه فى القرآن الكريم معنى الدين وحقيقة التدين . . فلا يقبل من العباد إلا صورة واحدة ناصعة قاطعة . . الدين : الإسلام . والإسلام : التحاكم إلى كتاب الله وطاعته واتباعه . . فمن لم يفعل فليس له دين ، وليس مسلما ؛ وإن ادعى الإسلام وادعى أنه على دين الله . فدين الله يحدده ويقرره ويفسره الله ، وليس خاضعا فى تعريفه وتحديده لأهواء البشر . . كل يحدده أو يعرّفه كما يشاء !

لا . بل إن الذى يتخذ الكفار أولياء ــ والكفار كما يقرر السياق هم الذين لايقبلون التحاكم إلى كتاب الله ــ « فليس من الله فى شىء » . . ولا علاقة له بالله فى شىء ولا صلة بينه وبين الله فى شىء . . بمجرد من يتولى وينصر أو يستنصر أولئك الكفار الذين يرفضون أن يتحاكموا إلى كتاب الله . ولو ادعوا أنهم على دين الله !

ويشتد التحذير من هذه الولاية التى تذهب بالدين من أساسه . ويضيف السياق إلى التحذير التبصير . تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة القوى التى تعمل فى هذا الوجود . فالله وحده هو السيد المتصرف ، مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء . . وهذا التصريف لأمر الناس ليس إلا طرفا من التصريف لأمر الكون كله . فهو كذلك يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . . وهذا هو القيام بالقسط فى أمر الناس وفى أمر الكون ، فلا داعى إذن لولاية غيره من العباد ، مهما يكن لهم من قوة ومن مال وأولاد .

ويشى هذا التحذير المؤكد المكرر بما كان واقعا فى الجماعة المسلمة يومذاك من عدم وضوح الأمر تماما ؛ ومن تشبث بعضهم بصلاته العائلية والقومية والاقتصادية مع المشركين فى مكة ومع اليهود فى المدينة ، مما اقتضى هذا التفسير والتحذير . كما أنه يشى بطبيعة ميل النفس البشرية إلى التأثر بالقوى البشرية الظاهرة ، وضرورة تذكيرها بحقيقة الأمر وحقيقة القوى ، إلى جانب إيضاح أصل العقيدة ومقتضياتها فى واقع الحياة .

ويختم الدرس بكلمة حاسمة قاطعة : إن الإسلام هو طاعة الله والرسول . وإن الطريق إلى الله هو طريق الاتباع للرسول . وليس مجرد الاعتقاد بالقلب ، ولا الشهادة باللسان : « قل :

Marfat.com

إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله . . . » « قل : أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . . فإما طاعة واتباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله .. وهذا هو مفرق الطريق الواضح المبين . .

فلنأخذ فى التفصيل بعد هذا الإجمال . .

* * *

« شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ والملائكة وأولو العلم ـ قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . .

هذه هى الحقيقة الأولى التى يقوم عليها التصور الاعتقادى فى الإسلام . حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية ، وتوحيد القوامة . . القوامة بالقسط .. وهى الحقيقة التى بدأت بها السورة : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » . . وهى تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة ، وجلاء الشبهات التى يلقيها أهل الكتاب من جهة . جلاءها عن أهل الكتاب أنفسهم وجلاءها عن المسلمين الذين قد تؤثر هذه الشبهات فى عقيدتهم .

وشهادة الله ـ سبحانه ـ أنه لا إله إلا هو . . هى حسب كل من يؤمن بالله . . وقد يقال : إنه لا يكتفى بشهادة الله إلا من يؤمن بالله . وأن من يؤمن بالله ليس فى حاجة إلى هذه الشهادة .. ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم فى نفس الوقت يجعلون له ابنا وشريكا . بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله ، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات ! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله ـ سبحانه ـ شهد أنه لا إله إلا هو ، فهذا مؤثر قوى فى تصحيح تصوراتهم .

على أن الأمر ـ كما يبدو من متابعة السياق كما تابعناه فيما تقدم ـ أعمق من هذا وأدق : فإن شهادة الله ـ سبحانه ـ بأنه لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ماهو من مستلزماتها ؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة فى الإسلام بمعنى الاستسلام ـ لا اعتقادا وشعورا فحسب ـ ولكن كذلك عملا وطاعة واتباعا للمنهج العملى الواقعى المتمثل فى أحكام الكتاب . . ومن هذه الناحية نجد كثيرين فى كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره فى الألوهية ، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين

Marfat.com

يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه ؛ وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله . ولا تستقيم مع شهادة الله ـ سبحانه ـ بأنه لا إله إلا هو .

وأما شهادة الملائكة وشهادة أولى العلم ، فهي متمثلة فى طاعتهم لأوامر الله وحدها ، والتلقى عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال ، متى ثبت لهم أنها من عنده . وقد سبق فى السورة بيان حال أولى العلم هؤلاء فى قوله : « والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا » . . فهذه شهادة أولى العلم وشهادة الملائكة : تصديق . وطاعة . واتباع . واستسلام .

وشهادة الله سبحانه وشهادة الملائكة وأولى العلم بوحدانية الله يصاحبها شهادتهم بأنه ـ تعالى ـ قائم بالقسط . بوصفها حالة ملازمة للألوهية .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو ـ والملائكة وأولو العلم ـ قائما بالقسط » . .

فهى حالة ملازمة للألوهية كما تفيد صياغة العبارة . وهذا إيضاح للقوامة التى وردت فى مطلع السورة : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » . . فهى قوامة بالقسط .

وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس متلبس دائما بالقسط ـ وهو العدل ـ فلا يتحقق العدل المطلق فى حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التى يؤدى كل كائن معها دوره فى تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . . لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذى اختاره لحياة الناس ، وبينه فى كتابه . وإلا فلا قسط ولا عدل ، ولا استقامة ولا تناسق ، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان . وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والضياع !

وها نحن أولاء نرى على مدار التاريخ أن الفترات التى حكم فيها كتاب الله وحدها هى التى ذاق فيها الناس طعم القسط ، واستقامت حياتهم استقامة دورة الفلك ـ بقدر ما تطيق طبيعة البشر المتميزة بالجنوح إلى الطاعة والجنوح إلى المعصية ، والتأرجح بين هذا وذاك ؛ والقرب من الطاعة كلما قام منهج الله ، وحُكم فى حياة الناس كتاب الله . وأنه حينما حكم فى حياة الناس منهج آخر من صنع البشر ، لازمه جهل البشر وقصور البشر . كما لازمه الظلم والتناقض فى صورة من الصور . ظلم الفرد للجماعة . أو ظلم الجماعة للفرد . أو ظلم طبقة لطبقة . أو ظلم أمة

Marfat.com

لأمة . أو ظلم جيل لجيل .. وعدل الله وحده هو المبرأ من الميل لأى من هؤلاء . وهو إله جميع العباد . وهو الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

« لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . .

يؤكد حقيقة وحدة الألوهية مرة أخرى فى الآية الواحدة ، مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة . والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط . فالقسط يقوم على وضع الأمور فى مواضعها مع القدرة على إنفاذها . وصفات الله سبحانه تصور وتوحى بالفاعلية الإيجابية . فلا سلبية فى التصور الإسلامى لله . وهو أكمل تصور وأصدقه لأنه وصف الله لنفسه سبحانه . وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله ، فتصبح العقيدة مؤثرا حيا دافعا لامجرد تصور فكرى بارد !

* * *

ويرتب على هذه الحقيقة التى عاد لتوكيدها مرتين فى الآية الواحدة ، نتيجتها الطبيعية . . ألوهية واحدة . فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة :

« إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم . بغيا بينهم . ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » . .

ألوهية واحدة . . وإذن فدينونة واحدة . . واستسلام لهذه الألوهية لايبقى معه شىء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجا عن سلطان الله . .

ألوهية واحدة . . وإذن فجهة واحدة هى صاحبة الحق فى تعبيد الناس لها ؛ وفى تطويعهم لأمرها ؛ وفى إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ؛ وفى وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ؛ وفى إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التى ترضاها . .

ألوهية واحدة . . وإذن فعقيدة واحدة هى التى يرضاها الله من عباده . عقيدة التوحيد الخالص الناصع . . ومقتضيات التوحيد هذه التى أسلفنا :

« إن الدين عند الله الإسلام » . .

Marfat.com

الإسلام الذى هو ليس مجرد دعوى ، وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ؛ ولا حتى تصورا يشتمل عليه القلب فى سكون ؛ ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد فى الصلاة والحج والصيام . . لا . فهذا ليس بالإسلام الذى لايرضى الله من الناس دينا سواه . إنما الإسلام الاستسلام . الإسلام الطاعة والاتباع . الإسلام تحكيم كتاب الله فى أمور العباد . . كما سيجىء فى السياق القرآنى ذاته بعد قليل .

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة . . بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله ـ سبحانه ـ وذات المسيح ـ عليه السلام ـ كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضا . . ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافا عنيفا يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال . . هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف :

« وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم . بغيا بينهم » .

إنه ليس اختلافا عن جهل بحقيقة الأمر . فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله ، وتفرد الألوهية . وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية . . ولكنهم إنما اختلفوا « بغيا بينهم » واعتداء وظلما ؛ حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذى تضمنه عقيدته وشريعته وكتبه .

وقد رأينا فيما نقلناه عن المؤلف المسيحى الحديث كيف كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية . وليس هذا إلا نموذجا مما تكرر وقوعه فى حياة اليهودية والمسيحية . وقد رأينا كيف كانت كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الرومانى سببا فى رفض المذهب الرومانى الرسمى والتمذهب بمذهب آخر ! كما كان حرص بعض القياصرة على التوفيق بين أجزاء مملكته سببا فى ابتداع مذهب وسط ، يظن أنه يوفق بين الأغراض جميعا ! ! كأنما العقيدة لعبة تستخدم فى المناورات السياسية والوطنية ! وهذا هو البغى أشنع البغى . عن قصد وعن علم !

ومن ثم يجىء التهديد القاصم فى موضعه المناسب :

« ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » . .

وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفرا ؛ وهدد الكافرين بسرعة الحساب ؛ كى لا يكون الإمهال ـ إلى أجل ـ مدعاة للجاجة فى الكفر والإنكار والاختلاف . .

Marfat.com

ثم لقن نبيه - صلى الله عليه وسلم - فصل الخطاب فى موقفه من أهل الكتاب والمشركين جميعا . ليحسم الأمر معهم عن بينة ، ويدع أمرهم بعد ذلك لله ، ويمضى فى طريقه الواضح متميزا متفردا :

« فإن حاجوك فقل : أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا . وإن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد » . .

إنه لاسبيل إلى مزيد من الإيضاح بعد ماتقدم . فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة ، وإذن فلابد من الإسلام والاتباع . وإما مماحكة ومداورة . وإذن فلاتوحيد ولاإسلام .

ومن ثم يلقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - كلمة واحدة تبين عقيدته كما تبين منهج حياته :

« فإن حاجوك » - أى فى التوحيد وفى الدين - « فقل : أسلمت وجهى لله » أنا « ومن اتبعن » . . والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا . فليس هو مجرد التصديق . إنما هو الاتباع . كما أن التعبير بإسلام الوجه ذو مغزى كذلك . فليس هو مجرد النطق باللسان أو الاعتقاد بالجنان . إنما هو كذلك الاستسلام . استسلام الطاعة والاتباع . . وإسلام الوجه كناية عن هذا الاستسلام . والوجه أعلى وأكرم مافى الإنسان . فهى صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع المستجيب .

هذا اعتقاد محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنهج حياته . والمسلمون متبعوه ومقلدوه فى اعتقاده ومنهج حياته . . فليسأل إذن أهل الكتاب والأميين سؤال التبين والتميز ووضع الشارة المميزة للمعسكرين على وضوح لااختلاط فيه ولااشتباه :

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ » . .

فهم سواء . هؤلاء وهؤلاء . المشركون وأهل الكتاب هم مدعوون إلى الإسلام بمعناه الذى شرحناه . مدعوون للإقرار بتوحيد ذات الله ، ووحدة الألوهية ووحدة القوامة . مدعوون بعد هذا الإقرار إلى الخضوع لمقتضاه . وهو تحكيم كتاب الله ونهجه فى الحياة .

« فإن أسلموا فقد اهتدوا » . .

فالهدى يتمثل فى صورة واحدة . هى صورة الإسلام . بحقيقته تلك وطبيعته . وليس هنالك

Marfat.com

صورة أخرى ، ولاتصور آخر ، ولاوضع آخر ، ولامنهج آخر يتمثل فيه الاهتداء .. إنما هو الضلال والجاهلية والحيرة والزيغ والالتواء . .

« وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » . .

فعند البلاغ تنتهي تبعة الرسول وينتهي عمله. وكان هذا قبل أن يأمره الله بقتال من لايقبلون الإسلام حتى ينتهوا : إما إلى اعتناق الدين والخضوع للنظام الذي يتمثل فيه . وإما إلى التعهد فقط بالطاعة للنظام في صورة أداء الجزية .. حيث لا إكراه على الاعتقاد ..

« والله بصير بالعباد » ..

يتصرف في أمرهم وفق بصره وعلمه . وأمرهم إليه على كل حال .

ولكنه لايدعهم حتى يبين لهم مصيرهم الذي ينتظرهم وينتظر أمثالهم وفق سنة الله الماضية أبدا في المكذبين والبغاة :

« إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فبشرهم بعذاب أليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . ومالهم من ناصرين » ..

فهذا هو المصير المحتوم : عذاب أليم . لايحدده بالدنيا أو بالآخرة . فهو متوقع هنا وهناك . وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور . فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموما ، توطئة لهلاكها . . وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين . ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك ! حيث لاينصرهم ناصر ولايدفع عنهم حام !

وذكر الكفر بآيات الله مصحوبا بقتل النبيين بغير حق – ومايمكن أن يقتل نبي ثم يكون هناك حق – وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس – أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المحقق وحده للقسط .. ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجها لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يعرفون بها متى ذكرت ! ولكن هذا لايمنع أن يكون الكلام موجها للنصارى كذلك . فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية – بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح عليه

Marfat.com

السلام ـ وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ماهم فى كل زمان . .

ويحسن أن نتذكر دائما ماذا يعنى القرآن بوصف « الذين يكفرون بآيات الله » . . فليس المقصود فقط من يعلن كلمة الكفر . إنما يدخل فى مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية ،وقصر العبودية عليها . وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التى تصرف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين .. فمن جعل لغير الله شيئا من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته . ولو قالها ألف مرة باللسان ! وسنرى فى الآيات التالية فى السياق مصداق هذا الكلام . .

***

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ؟ وهم لايظلمون » ..

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب . موقف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب . وهو التوراة لليهود ومعها الإنجيل للنصارى. وكل منهما « نصيب »من الكتاب باعتبار أن كتاب الله هو كل ماأنزل على رسله ، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته . فهو كتاب واحد فى حقيقته ، أوتى اليهود نصيبا منه ، وأوتى النصارى نصيبا منه ، وأوتى المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعا لأصول الدين كله ، ومصدقا لما بين يديه من الكتاب . . سؤال التعجيب من هؤلاء « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » . . ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فى خلافاتهم ، وليحكم بينهم فى شؤون حياتهم ومعاشهم ، فلايستجيبون جميعا لهذه الدعوة ، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته . الأمر الذى يتناقض مع الإيمان بأى نصيب من كتاب الله ؛ والذى لايستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب :

Marfat.com

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ » . .

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله فى أمور الاعتقاد وأمور الحياة . فكيف بمن يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها . ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضا كى يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ؛ ويحذروا أن يكونوا موضعا لتعجيب الله وتشهيره بهم . فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان « المسلمون » هم الذين يعرضون هذا الإعراض . . إنه العجب الذى لاينقضى ، والبلاء الذى لايقدر ، والغضب الذى ينتهى إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله !

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المستنكر المتناقض :

« ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » . .

هذا هو السبب فى الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب . . إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة ، وجدية القسط الإلهى الذى لا يحابى ولا يميل . يتجلى هذا فى قولهم :

« لن تمسنا النار إلا أياما معدودات » . .

وإلا فلماذا لاتمسهم النار إلا أياما معدودات ؟ لماذا وهم ينحرفون أصلا عن حقيقة الدين وهى الاحتكام فى كل شىء إلى كتاب الله ؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقا بعدل الله ؟ بل إذا كانوا يحسون أصلا بجدية لقاء الله ؟ إنهم لايقولون إلا افتراء ، ثم يغرهم هذا الافتراء :

« وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » . .

وحقا إنه لايجتمع فى قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله ، والشعور بحقيقة هذا اللقاء ، مع هذا التميع فى تصور جزائه وعدله . .

Marfat.com

وحقا إنه لايجتمع فى قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه فى كل شأن من شؤون الحياة . .

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون . ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين ! وأن لا ضرورة لإقحام الدين فى حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية ، بل العائلية ، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون ! ثم يعتقد بعضهم فى غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيرا من المعاصى ، ثم يساقون إلى الجنة ! أليسوا مسلمين ؟ إنه نفس الظن الذى كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء ، ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له فى الدين . . وهؤلاء وأولئك سواء فى تملصهم من أصل الدين ، وتملصهم من حقيقته التى يرضاها الله : الإسلام . . الاستسلام والطاعة والاتباع . والتلقى من الله وحده فى كل شأن من شؤون الحياة :

« فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ؟

كيف ؟ إنه التهديد الرعيب الذى يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدية هذا اليوم وجدية لقاء الله ، وجدية عدل الله ؛ ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأمانى الباطلة والمفتريات الخادعة . . وهو بعد تهديد قائم للجميع . . مشركين وملحدين ، وأهل كتاب ومدعى إسلام ، فهم سواء فى أنهم لا يحققون فى حياتهم الإسلام !

« فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه » . . وجرى العدل الإلهى مجراه ؟ « ووفيت كل نفس ما كسبت » . . بلا ظلم ولا محاباة ؟ « وهم لا يظلمون » . . كما أنهم لا يحابون فى حساب الله ؟

سؤال يلقى ويترك بلا جواب . . وقد اهتز القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب !

* * *

بعدئذ يلقن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكل مؤمن ، أن يتجه إلى الله ، مقررا حقيقة الألوهية الواحدة ، وحقيقة القوامة الواحدة ، فى حياة البشر ، وفى تدبير الكون .

Marfat.com

فهذه وتلك كلتاهما مظهر للألوهية وللحاكمية التي لاشريك لله فيها ولا شبيه :

« قل : اللهم مالك الملك : تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير . إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل . وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي . وترزق من تشاء بغير حساب » . .

نداء خاشع . . في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء . وفي ظلاله المعنوية روح الابتهال . وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس . وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة : حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس ؛ وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفا من شأن الكون الكبير الذي يصرفه الله ؛ وأن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ؛ وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف !

« قل : اللهم مالك الملك . تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . .

إنها الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة . . إله واحد فهو المالك الواحد . . هو « مالك الملك » بلا شريك . . ثم هو من جانبه يملك من يشاء مايشاء من ملكه . يملكه إياه تمليك العارية يستردها صاحبها ممن يشاء عندما يشاء . فليس لأحد ملكية أصيلة يتصرف فيها على هواه . إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعلماته ؛ فإذا تصرف المستعير فيها تصرفا مخالفا لشرط المالك وقع هذا التصرف باطلا . وتحتم على المؤمنين رده في الدنيا . أما في الآخرة فهو محاسب على باطله ومخالفته لشرط المملك صاحب الملك الأصيل . .

وكذلك هو يعز من يشاء ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه ، وبلا مجير عليه ، وبلا راد لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله بما أنه — سبحانه — هو الله . . وما يجوز أن يتولى هذا الاختصاص أحد من دون الله .

وفي قوامة الله هذه الخير كل الخير . فهو يتولاها سبحانه بالقسط والعدل . يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بالقسط والعدل . ويعز من يشاء ويذل من يشاء بالقسط

Marfat.com

والعدل . فهو الخير الحقيقي فى جميع الحالات ؛ وهى المشيئة المطلقة والقدرة المطلقة على تحقيق هذا الخير فى كل حال : « بيدك الخير » . . « إنك على كل شيء قدير » . .

وهذه القوامة على شؤون البشر ، وهذا التدبير لأمرهم بالخير ، ليس إلا طرفا من القوامة الكبرى على شؤون الكون والحياة على الإطلاق :

« تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ؛ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ؛ وترزق من تشاء بغير حساب » . .

والتعبير التصويرى لهذه الحقيقة الكبيرة ، يملأ بها القلب والمشاعر والبصر والحواس : هذه الحركة الخفية المتداخلة . حركة إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل ؛ وإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى . . الحركة التى تدل على يد الله بلا شبهة ولا جدال ، متى ألقى القلب إليها انتباهه ، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق .

وسواء كان معنى إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل هو أخذ هذا من ذاك وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . أو كان هو دخول هذا فى هذا عند دبيب الظلمة ودبيب الضياء فى الأمساء والأصباح . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهى تحرك الأفلاك ، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ، وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء . . شيئا فشيئا يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار . وشيئا فشيئا يتنفس الصبح فى غيابة الظلام . . شيئا فشيئا يطول الليل وهو يأكل من النهار فى مقدم الشتاء . وشيئا فشيئا يطول النهار وهو يسحب من الليل فى مقدم الصيف . . وهذه أو تلك حركة لا يدعى الإنسان أنه هو الذى يمسك بخيوطها الخفية الدقيقة ؛ ولا يدعى كذلك عاقل أنها تمضى هكذا مصادفة بلا تدبير !

كذلك الحياة والموت ، يدب أحدهما فى الآخر فى بطء وتدرج . كل لحظة تمر على الحى يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة ! خلايا حية منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل . وما ذهب منه ميتا يعود فى دورة أخرى إلى الحياة . وما نشأ فيه حيا يعود فى دورة أخرى إلى الموت . . هذا فى كيان الحى الواحد . . ثم تتسع الدائرة فيموت الحى كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل فى تركيب آخر ثم

Marfat.com

تدخل فى جسم حى فتدب فيها الحياة . . وهكذا دورة دائبة فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . . ولا يدعى الإنسان أنه هو الذى يصنع من هذا كله شيئا . ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير !

حركة فى كيان الكون كله وفى كيان كل حى كذلك . حركة خفية عميقة لطيفة هائلة . تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للقلب البشرى والعقل البشرى ؛ وهى تشى بيد القادر المبدع اللطيف المدبر . . فأنى يحاول البشر أن ينعزلوا بتدبير شأنهم عن اللطيف المدبر ؟ وأنى يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع أهوائهم وهم قطاع من هذا الكون الذى ينظمه الحكيم الخبير ؟

ثم أنى يتخذ بعضهم بعضا عبيدا ، ويتخذ بعضهم بعضا أربابا ، ورزق الجميع بيد الله وكلهم عليه عيال :

« وترزق من تشاء بغير حساب » . .

إنها اللمسة التى ترد القلب البشرى إلى الحقيقة الكبرى . حقيقة الألوهية الواحدة . حقيقة القوامة الواحدة . وحقيقة الفاعلية الواحدة وحقيقة التدبير الواحد . وحقيقة المالكية الواحدة وحقيقة العطاء الواحد . ثم حقيقة أن الدينونة لاتكون إلا لله القيوم ، مالك الملك ، المعز المذل ، المحيي المميت ، المانح المانع ، المدبر لأمر الكون والناس بالقسط والخير على كل حال .

* * *

هذه اللمسة تؤكد الاستنكار الذى سبق فى الفقرة الماضية لموقف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، ثم هم يتولون ويعرضون عن التحاكم إلى كتاب الله ، المتضمن لمنهج الله للبشر ، بينما منهج الله يدبر أمر الكون كله وأمر البشر . . وفى الوقت ذاته تمهد للتحذير الوارد فى الفقرة التالية من تولى المؤمنين الكافرين من دون المؤمنين . مادام أن لاحول للكافرين فى هذا الكون ولا طول . والأمر كله بيد الله . وهو ولى المؤمنين دون سواه :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء – إلا أن تتقوا منهم تقاة – ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل : إن تخفوا مافى

Marfat.com

صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، والله على كل شيء قدير . يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » . .

لقد استجاش السياق القرآنى فى الفقرة الماضية الشعور بأن الأمر كله لله ، والقوة كلها لله ، والتدبير كله لله ، والرزق كله بيد الله .. فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟ إنه لايجتمع فى قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . . ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لايرتضى أن يحكم كتاب الله فى الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره ، أو باستنصاره سواء :

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء » . .

هكذا . . ليس من الله فى شيء . لافى صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية . . فهو بعيد عن الله ، منقطع الصلة تماما فى كل شيء تكون فيه الصلات .

ورخص فقط بالتقية لمن خاف فى بعض البلدان والأوقات . . ولكنها تقية اللسان لاولاء القلب ولا ولاء العمل . قال ابن عباس – رضى الله عنهما – « ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان » . . فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر – والكافر هو الذى لايرضى بتحكيم كتاب الله فى الحياة على الإطلاق ، كما يدل السياق هنا ضمنا وفى موضع آخر من السورة تصريحا – كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل فى صورة من الصور باسم التقية . فما يجوز هذا الخداع على الله !

ولما كان الأمر فى هذه الحالة متروكا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب ، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه فى صورة عجيبة من التعبير حقا :

« ويحذركم الله نفسه . وإلى الله المصير » . .

ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب ، وإشعارها أن عين الله عليها ، وأن علم الله يتابعها :

Marfat.com

« قل : إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم مافى السماوات ومافى الأرض والله على كل شيء قدير » . .

وهو إمعان فى التحذير والتهديد ، واستجاشة الخشية واتقاء التعرض للنقمة التى يساندها العلم والقدرة ، فلا ملجأ منها ولا نصرة !

ثم يتابع السياق التحذير ولمس القلوب خطوة أخرى كذلك باستحضار اليوم المرهوب ؛ الذى لاينِد فيه عمل ولا نية ؛ والذى تواجه فيه كل نفس برصيدها كله :

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » . .

وهى مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشرى ، وتحاصره برصيده من الخير والسوء . وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد ، ويود ـ ولكن لات حين مودة ! ـ لو أن بينه وبين السوء الذى عمله أمدا بعيدا . أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمدا بعيدا . بينما هو فى مواجهته ، آخذ بخناقه ، ولات حين خلاص ، ولات حين فرار !

ثم يتابع السياق الحملة على القلب البشرى ، فيكرر تحذير الله للناس من نفسه ـ سبحانه ـ :

« ويحذركم الله نفسه » . .

ويذكرهم رحمته فى هذا التحذير والفرصة متاحة قبل فوات الأوان :

« والله رؤوف بالعباد » . . .

ومن رأفته هذا التحذير وهذا التذكير . وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد . .

وتشى هذه الحملة الضخمة المنوعة الإيماءات والإيحاءات والأساليب والإشارات ، بما كان واقعا فى حياة الجماعة المسلمة من خطورة تميع العلاقات بين أفراد من المعسكر المسلم وأقربائهم وأصدقائهم وعملائهم فى مكة مع المشركين وفى المدينة مع اليهود . تحت دوافع القرابة أو التجارة . . على حين يريد الإسلام أن يقيم أساس المجتمع المسلم الجديد على قاعدة العقيدة

Marfat.com

وحدها ، وعلى قاعدة المنهج المنبثق من هـذه العقيدة . . الأمر الذى لا يسمح الإسلام فيه بالتميع والأرجحة إطلاقا . .

كذلك يشى بحاجة القلب البشرى فى كل حين إلى الجهد الناصب للتخلص من هـذه الأوهاق ، والتحرر من تلك القيود ، والفرار إلى الله والارتباط بمنهجه دون سواه .

والإسلام لا يمنع أن يعامل المسلم بالحسنى من لا يحاربه فى دينه ، ولو كان على غير دينه . . ولـكن الولاء شىء آخر غير المعاملة بالحسنى . الولاء ارتباط وتناصر وتواد . وهذا لا يكون ـ فى قلب يؤمن بالله حقا ـ إلا للمؤمنين الذين يرتبطون معه فى الله ؛ ويخضعون معه لمنهجه فى الحياة ؛ ويتحاكمون إلى كتابه فى طاعة واتباع واستسلام .

* * *

وأخيرا يجىء ختام هـذا الدرس قويا حازما ، حاسما فى القضية التى يعالجها ، والتى تمثل أكبر الخطوط العريضة الأساسية فى السورة . يجىء ليقرر فى كلمات قصيرة حقيقة الإيمان ، وحقيقة الدين . ويفرق تفريقا حاسما بين الإيمان والـكفر فى جلاء لا يحتمل الشبهات :

« قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل : أطيعوا الله والرسول : فإن تولوا فإن الله لا يحب الـكافرين » . .

إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياما بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه فى الحياة . . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام . ولـكنه طاعة لله والرسول ، وعمل بمنهج الله الذى يحمله الرسول . .

يقول الإمام ابن كثير فى التفسير عن الآية الأولى : « هذه الآية الـكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية . فإنه كاذب فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . .

ويقول عن الآية الثانية : « قل أطيعوا الله والرسول . فإن تولوا » . . أى تخالفوا عن

Marfat.com

أمره ـ « فإن الله لايحب الـكافرين » . . فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر ، والله لايحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه محب لله . .

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية فى كتابه : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » :

« ومن تأمل فى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الـكتاب والمشركين له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسالة وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسـلام . . علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط . ولا المعرفة والإقرار فقط . بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا . . » .

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لايوجد إلا بوجودها . . حقيقة الطاعة لشريعة الله ، والاتباع لرسول الله ، والتحاكم إلى كتاب الله . . وهى الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . توحيد الألوهية التى لها وحدها الحق فى أن تعبد الناس لها ، وتطوعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التى يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها . ومن ثم توحيد القوامة التى تجعل الحاكمية لله وحده فى حياة البشر وارتباطاتها جميعا . كما أن الحاكمية لله وحده فى تدبير أمر الـكون كله . وما الإنسان إلا قطاع من هذا الـكون الـكبير .

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هـذه الحقيقة ـ كما رأينا ـ فى صورة ناصعة كاملة شاملة ، لامهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يـكون مسلما . إن الدين عند الله الإسلام . . وهـذا ـ وحده ـ هو الإسـلام كما شرعه الله ، لا كما تصوره المفتريات والأوهام . . .

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ : رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ، فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ • فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّى

Marfat.com

وَضَعْتُهَا أُنْثَى ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ـ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ـ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ـ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ : كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً . قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا ، وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ .

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ قَالَ : كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ : أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ،

Marfat.com

فَأَنفُخُ فِيهِ ، فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ ، آمَنَّا بِاللهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ : يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ، وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ، وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ . وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

« ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ

Marfat.com

سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ . فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » ⑭

تقول الروايات التى تصف المناظرة بين النبي – صلى الله عليه وسلم – ووفد نجران اليمن : إن هذا القصص الذى ورد فى هذه السورة عن مولد عيسى عليه السلام ، ومولد أمه مريم ، ومولد يحي ، وبقية القصص جاء ردا على ما أراد الوفد إطلاقه من الشبهات ؛ وهو يستند إلى ماجاء فى القرآن عن عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله إلى مريم وروح منه ؛ وأنهم كذلك سألوا عن أمور لم ترد فى سورة مريم وطلبوا الجواب عنها . .

وقد يكون هذا صحيحا . . ولكن ورود هذا القصص فى هذه السورة على هذا النحو يمضى مع طريقة القرآن العامة فى إيراد القصص لتقرير حقائق معينة يريد إيضاحها . وغالبا ما تكون هذه الحقائق هى موضوع السورة التى يرد فيها القصص ؛ فيساق القصص بالقدر وبالأسلوب الذى يركز هذه الحقائق ويبرزها ويحييها . . فما من شك أن للقصص طريقته الخاصة فى عرض الحقائق ، وإدخالها إلى القلوب ، فى صورة حية ، عميقة الإيقاع ؛ بتمثيل هذه الحقائق فى صورتها الواقعية وهى تجرى فى الحياة البشرية . وهذا أوقع فى النفس من مجرد عرض الحقائق عرضا تجريديا .

وهنا نجد هذا القصص يتناول ذات الحقائق التى يركز عليها سياق السورة ، وتظهر فيها ذات الخطوط العريضة فيها . ومن ثم يتجرد هذا القصص من الملابسة الواقعة المحدودة التى ورد فيها ؛ ويبقى عنصرا أصيلا مستقلا ؛ يتضمن الحقائق الأصيلة الباقية فى التصور الاعتقادى الإسلامى .

إن القضية الأصيلة التى يركز عليها سياق السورة كما قدمنا هى : قضية التوحيد . توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . . وقصة عيسى – وما جاء من القصص مكملا لها فى هذا الدرس – تؤكد هذه الحقيقة ، وتنفى فكرة الولد والشريك ، وتستبعدها استبعادا كاملا ؛ وتظهر

Marfat.com

زيف هذه الشبهة وسخف تصورها ؛ وتبسط مولد مريم وتاريخها ، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها ، بطريقة لاتدع مجالا لإثارة أية شبهة فى بشريته الكاملة ، وأنه واحد من سلالة الرسل ، شأنه شأنهم ، وطبيعته طبيعتهم ، وتفسر الخوارق التى صاحبت مولده وسيرته تفسيرا لاتعقيد فيه ولا غموض ، من شأنه أن يريح القلب والعقل ، ويدع الأمر فيهما طبيعيا عاديا لاغرابة فيه . . حتى إذا عقب على القصة بقوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن . فيكون » . . وجد القلب برد اليقين والراحة ؛ وعجب كيف ثارت تلك الشبهات حول هذه الحقيقة البسيطة ؟

والقضية الثانية التى تنشأ من القضية الأولى فى سياق السورة كله هى قضية حقيقة الدين وأنه الإسلام . ومعنى الإسلام وأنه الاتباع والاستسلام . . وهذه ترد كذلك فى ثنايا القصص واضحة . . ترد فى قول عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » . . . وفى هذا القول تقرير لطبيعة الرسالة ، وأنها تأتى لإقرار منهج ، وتنفيذ نظام ، وبيان الحلال والحرام ، ليتبعه المؤمنون بهذه الرسالة ويسلموا به . . ثم يرد معنى الاستسلام والاتباع على لسان الحواريين : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . .

ومن الموضوعات التى يركز عليها سياق السورة تصوير حال المؤمنين مع ربهم . . وهذا القصص يعرض جملة صالحة من هذه الحال فى سير هذه النخبة المختارة من البشر ، التى اصطفاها وجعلها ذرية بعضها من بعض . وتتمثل هذه الصور الوضيئة فى حديث امرأة عمران مع ربها ومناجاته فى شأن وليدتها . . وفى حديث مريم مع زكريا . وفى دعاء زكريا ونجائه لربه . وفى رد الحواريين على نبيهم ، ودعائهم لربهم . . . وهكذا . .

حتى إذا انتهى القصص جاء التعقيب متضمنا وملخصا هذه الحقائق ، معتمدا على وقائع القصص فى تقرير الحقائق التى يقررها . . فيتناول حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وطبيعة الخلق والإرادة الإلهية . والوحدانية الخالصة . ودعوة أهل الكتاب إليها . ودعوتهم إلى المباهلة عليها : . وينتهى الدرس ببيان جامع شامل لأصل هذه الحقيقة ليتوجه به النبى ـ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم - إلى أهل الكتاب عامة . . من حضر منهم المناظرة ومن لم يحضر ، ومن كان من ذلك الجيل ومن يجيء بعده إلى آخر الزمان : « قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . .

بهذا ينتهي الجدل ؛ ويتبين ماذا يريد الإسلام من الناس ، وماذا يضع لحياتهم من أساس . ويحدد معنى الدين ومعنى الإسلام ؛ وتنتفى كل صورة مشوهة أو مدخولة يدعى لها أصحابها أنها دين . أو أنها إسلام . . وهذا هو الهدف النهائى للدرس الماضى ، وللسورة كلها كذلك ، تولاها القصص بالبيان والإيضاح فى الصورة القصصية الجميلة الجذابة العميقة الإيحاء . . وهذه وظيفة القصص القرآنى وطبيعته التى تحكم أسلوبه وطريقة عرضه فى شتى السور على نهج خاص .

وقد عرضت قصة عيسى فى سورة مريم ، وعرضت هنا . وبمراجعة النصوص هنا وهناك تبدو زيادة بعض الحلقات هنا ، مع اختصار فى بعض الحلقات . . فقد كان هناك تفصيل مطول فى سورة مريم لحلقة مولد عيسى . ولم تكن هناك حلقة مولد مريم . وهنا تفصيل فى رسالة عيسى والحواريين واختصار فى قصة مولده . كما أن التعقيب هنا أطول لأنه جاء بصدد مناظرات حول قضية أشمل ، وهى قضية التوحيد والدين والوحى والرسالة ، مما لم يكن موجودا فى سورة مريم . . مما يكشف عن طبيعة الأسلوب القرآنى فى عرض القصص ، مساوقا لجو السورة التى يعرض فيها ، ولمناسبته فيها (١) .

والآن نأخذ فى استعراض النصوص تفصيلا .

* * *

يبدأ هذا القصص ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ، ليكونوا طلائع للموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون . فيقرر أنهم ذرية بعضها من بعض . وليس من الضرورى أن تكون ذرية

---

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

النسب ـ وإن كان نسب الجميع يلتقي في آدم ونوح ـ فهي أولا رابطة الاصطفاء والاختيار الإلهي ؛ ونسب هذه العقيدة الموصول في ذلك الموكب الإيماني الكريم :

« إن الله اصطفى آدم ونوحا ، وآل إبراهيم وآل عمران ، على العالمين . ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم » . .

ولقد ذكر السياق آدم ونوحا فردين ؛ وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين . إشارة إلى أن آدم بشخصه ونوحا بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء . فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ـ على القاعدة التي تقررت في سورة البقرة عن آل إبراهيم : قاعدة أن وراثة النبوة والبركة في بيته ليست وراثة الدم ، إنما هي وراثة العقيدة : « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لاينال عهدي الظالمين (١) » . .

وبعض الروايات تذكر أن عمران من آل إبراهيم . فذكر آل عمران إذن تخصيص لهذا الفرع لمناسبة خاصة ، هي عرض قصة مريم وقصة عيسى عليه السلام . . كذلك نلاحظ أن السياق لم يذكر من آل إبراهيم لاموسى ولا يعقوب (وهو إسرائيل) كما ذكر آل عمران . . ذلك أن السياق هنا يستطرد إلى الجدل حول عيسى ابن مريم وحول إبراهيم ـ كما سيأتي في الدرس التالي ـ فلم تكن هناك مناسبة لذكر موسى في هذا المقام أو ذكر يعقوب . .

* * *

ومن هذا الإعلان التمهيدي ينتقل السياق مباشرة إلى آل عمران ومولد مريم :

« إذ قالت امرأة عمران : رب إني نذرت لك مافي بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب : إني وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ؛ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

---

(١) الجزء الأول ص ١٥٣ ـ ١٥٤ من الطبعة الثانية المزيدة المنقحة .

Marfat.com

وقصة النذر تكشف لنا عن قلب « امرأة عمران » - أم مريم - وما يعمره من إيمان ، ومن توجه إلى ربها بأعز ماتملك . وهو الجنين الذى تحمله فى بطنها . خالصا لربها ، محررا من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه . والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر تعبير موح . فما يتحرر حقا إلا من يخلص لله كله ، ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة ، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده . . فهذا هو التحرر إذن . . وما عداه عبودية وإن تراءت فى صورة الحرية !

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر . فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء مافى ذات نفسه ، أو فى ما جريات حياته ، أو فى الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التى تصرف هذه الحياة . . لاتحرر وفى قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله . وفى حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله . . وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر فى عالم الإنسان . .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران ، بأن يتقبل ربها منها نذرها - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله ، والتوجه إليه كلية ، والتحرر من كل قيد ، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه :

« رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى . إنك أنت السميع العليم » . .

ولكنها وضعتها أنثى ؛ ولم تضعها ذكرا !

« فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى . وإنى سميتها مريم . وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . .

لقد كانت تنتظر ولدا ذكرا ؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفا إلا للصبيان ، ليخدموا الهيكل ، وينقطعوا للعبادة والتبتل . ولكن هاهى ذى تجدها أنثى . فتتوجه إلى ربها فى نغمة أسيفة :

« رب . إنى وضعتها أنثى » . .

« والله أعلم بما وضعت » . .

Marfat.com

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت ؛ وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة .

« وليس الذكر كالأنثى » . .

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر فى هذا المجال :

« وإنى سميتها مريم » . .

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة . مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه . يحدثه بما فى نفسه ، وبما بين يديه ، ويقدم له ما يملك تقديما مباشرا لطيفا . وهى الحال التى يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم . حال الود والقرب والمباشرة ، والمناجاة البسيطة العبارة ، التى لا تكلف فيها ولا تعقيد . مناجاة من يحس أنه يحدث قريبا ودودا سميعا مجيبا .

« وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . .

وهى الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدى ربها ، وتدعها لحمايته ورعايته ، وتعيذها به هى وذريتها من الشيطان الرجيم . .

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص ، ورغبة القلب الخالص . فما تود لوليدتها أمرا خيرا من أن تكون فى حياطة الله من الشيطان الرجيم !

« فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا » . .

جزاء هذا الإخلاص الذى يعمر قلب الأم ، وهذا التجرد الكامل فى النذر . . وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح ، وكلمة الله ، وأن تلد عيسى ـ عليه السلام ـ على غير مثال من ولادة البشر .

« وكفلها زكريا » . .

أى جعل كفالتها له ، وجعله أمينا عليها . . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودى . من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل .

ونشأت مباركة محدودة . يهيئ لها الله من رزقه فيضا من فيوضاته :

Marfat.com

« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يامريم أنى لك هـذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

ولا نخوض نحن فى صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة . فيكفى أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل مايسمى رزقا . حتى ليعجب كافلها - وهو نبى - من فيض الرزق . فيسألها : كيف ومن أين هـذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقـول فى خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضـله ، وتفويض الأمر إليه كله :

« هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . .

وهى كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، واحتفاظه بالسر الذى بينه وبينه . والتواضع فى الحديث عن هذا السر ، لاالتنفج به والمباهاة ! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التى تثير عجب نبى الله زكريا . هى التمهيد للعجائب التى تليها فى ميلاد يحيى وميلاد عيسى . .

* * *

عندئذ تحركت فى نفس زكريا ، الشيخ الذى لم يوهب ذرية ، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية فى النفس البشرية . الرغبة فى الذرية . فى الامتداد . فى الخلف . . الرغبة التى لا تموت فى نفوس العباد الزهاد ، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل . إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لحكمة عليا فى امتداد الحياة وارتقائها :

« هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة . إنك سميع الدعاء . . فنادته الملائكة - وهو قائم يصلى فى المحراب - أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيدا وحصورا ، ونبيا من الصالحين . . قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . قال : كذلك الله يفعل مايشاء . قال : رب اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ؛ واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشى والإبكار » . .

وكذلك . . نجدنا أمام حادث غير عادى . يحمل مظهرا من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذى يحسبه البشر قانونا لاسبيل إلى إخلافه ؛ ومن ثم يشكون

Marfat.com

فى كل حادث لايجىء فى حدود هذا القانون ! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه ،لأنه واقع، صاغوا حوله الخرافات والأساطير !

فهاهوذا « زكريا » الشيخ الكبير وزوجه العاقر التى لم تلد فى صباها . . هاهو ذا تجيش فى قلبه الرغبة الفطرية العميقة فى الخلف ـ وهو يرى بين يديه مريم البنية الصالحة المرزوقة ـ فيتوجه إلى ربه يناجيه ، ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة :

« هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة . إنك سميع الدعاء » . .

فما الذى كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب ؟

كانت الاستجابة التى لاتتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس ؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقةالتى تفعل ماتريد :

« فنادته الملائكة ـ وهو قائم يصلى فى المحراب ـ أن الله يبشرك بيحي ، مصدقا بكلمة من الله . وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » . .

لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذى علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ؛ ويملك الإجابة حين يشاء . وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر ، اسمه معروف قبل مولده ؛ « يحي » ؛ وصفته معروفة كذلك : سيدا كريما ، وحصورا يحصر نفسه عن الشهوات ، ويملك زمام نزعاته من الانفلات . ومؤمنا مصدقا بكلمة تأتيه من الله [1] . ونبيا صالحا فى موكب الصالحين .

لقد استجيبت الدعوة ، ولم يحل دونها مألوف البشر الذى يحسبونه قانونا . ثم يحسبون أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ مقيدة بهـذا القانون ! وكل مايراه الإنسان ويحسبه قانونا لايخرج عن أن يكون أمرا نسبيا ـ لامطلقا ولا نهائيا ـ فما يملك الإنسان وهو محـدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه ، أن يصل إلى قانون نهائى ولا أن يدرك حقيقة مطلقة . . فـما أجدر الإنـسان أن يتأدب فى جناب الله . وما أجدره أن يلتزم حـدود

(١) تذكر بعض التفاسير أن المقصود بتصديقه بكلمة من الله تصديقه بعيسى ـ عليـه السلام ـ وليس هناك مايحتم هذا الفهم .

Marfat.com

طبيعته وحدود مجاله ، فلا يخبط فى التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل ، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطارا من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل !

ولقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا نفسه ـ وهل زكريا إلا إنسان على كل حال ـ واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر ؟

« قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ » . .

وجاءه الجواب . . جاءه فى بساطة ويسر . يرد الأمر إلى نصابه . ويرده إلى حقيقته التى لاعسر فى فهمها ، ولا غرابة فى كونها :

« قال : كذلك الله يفعل مايشاء » . .

كذلك ! فالأمر مألوف مكرور معاد حين يرد إلى مشيئة الله وفعله الذى يتم دائما على هذا النحو ؛ ولكن الناس لايتفكرون فى الطريقة ، ولا يتدبرون الصنعة ، ولا يستحضرون الحقيقة !

كذلك . بهذا اليسر . وبهذه الطلاقة . يفعل الله مايشاء . . فماذا فى أن يهب لزكريا غلاما وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ؟ إنما هذه مألوفات البشر التى يقررون قواعدهم عليها ، ويتخذون منها قانونا ! فأما بالقياس إلى الله ، فلا مألوف ولا غريب . . كل شىء مرده إلى توجه المشيئة ، والمشيئة مطلقة من كل القيود !

ولكن زكريا لشدة لهفته على تحقق البشرى ، ولدهشة المفاجأة فى نفسه ، راح يطلب إلى ربه أن يجعل له علامة يسكن إليها :

« قال : رب اجعل لى آية . . . » . .

هنا يوجهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيق ؛ فيخرجه من مألوفه فى ذات نفسه . . إن آيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتجه إلى الناس ؛ وأن ينطلق إذا توجه إلى ربه وحده يذكره ويسبحه :

« قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا . واذكر ربك كثيرا . وسبح بالعشى والإبكار » . .

ويسكت السياق هنا . . ونعرف أن هذا قد كان فعلا . فإذا زكريا يجد فى ذات نفسه

Marfat.com

غير المألوف فى حياته وحياة غيره . . لسانه هذا هو لسانه . . ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق لمناجاة ربه . . أى قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية . . فبدونه لايمكن تفسير هذه الغريبة . . كذلك رزقه بيحي وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ! ! !

* * *

وكأنما كانت هذه الخارقة تمهيدا – فى السياق – لحادث عيسى الذى انبثقت منه كل الأساطير والشبهات . . وإن هو إلا حلقة من سلسلة فى ظواهر المشيئة الطليقة . . فهنا يبدأ فى قصة المسيح عليه السلام . وإعداد مريم لتلقى النفخة العلوية بالطهارة والقنوت والعبادة . .

« وإذ قالت الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » . .

وأى اصطفاء ؟ ! وهو يختارها لتلقى النفخة المباشرة ، كما تلقاها أول هذه الخليقة : « آدم » ؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد فى تاريخ البشرية . . وهو بلا جدال أمر عظيم . .

ولكنها – حتى ذلك الحين – لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم !

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى . وذلك لما لابس مولد عيسى – عليه السلام – من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة ، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له فى عالم الناس فزعموا أن وراءه سرا لايشرف . . قبحهم الله ! !

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ؟ ويتبين مصدره عن يقين . فهاهوذا محمد – صلى الله عليه وسلم – رسول الإسلام الذى يلقى من أهل الكتاب – ومنهم النصارى – مايلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات . . هاهوذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذى يرفعها إلى أعلى الآفاق . وهو فى معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبررا لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد !

أى صدق ؟ وأية عظمة ؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين ، وصدق صاحبه الأمين !

Marfat.com

إنه يتلقى « الحق » من ربه ؛ عن مريم وعن عيسى عليه السلام ؛ فيعلن هذا الحق ، فى هذا المجال . . ولو لم يكن رسولا من الله الحق ماأظهر هذا القول فى هذا المجال بحال !

« يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » . .

طاعة وعبادة ، وخشوع وركوع ، وحياة موصولة بالله تمهيدا للأمر العظيم الخطير . .

* * *

وعند هذا المقطع من القصة ، وقبل الكشف عن الحدث الكبير . . يشير السياق إلى شىء من حكمة سياق القصص . . إنه إثبات الوحى ، الذى ينبئ النبى – صلى الله عليه وسلم – بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب ، فى هذا الأمر :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ وما كنت لديهم إذ يختصمون » . .

وهى إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم ، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل ، وفاء لنذرها وعهدها مع ربها . والنص يشير إلى حادث لم يذكره « العهد القديم » ولا « العهد الجديد » المتداولان ؛ ولكن لابد أنه كان معروفا عند الأحبار والرهبان . حادث إلقاء الأقلام . . أقلام سدنة الهيكل . . لمعرفة من تكون مريم من نصيبه . والنص القرآنى لايفصل الحادث – ربما اعتمادا على أنه كان معروفا لسامعيه ، أو لأنه لايزيد شيئا فى أصل الحقيقة التى يريد عرضها على الأجيال القادمة – فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة – بواسطة إلقاء الأقلام – لمعرفة من هى من نصيبه ، على نحو مانصنع فى « القرعة » مثلا . وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم فى نهر الأردن . فجرت مع التيار إلا قلم زكريا فثبت . وكانت هذه هى العلامة بينهم . فسلموا بمريم له .

وكل ذلك من الغيب الذى لم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حاضره ، ولم يبلغ إلى علمه . فربما كان من أسرار الهيكل التى لاتفشى ولا تباح للإذاعة بها ، فاتخذها القرآن – فى مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها – دليلا على وحى من الله لرسوله الصادق . ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة . ولو كانت موضع جدال لجادلوه ؛ وهم قد جاءوا للجدال !

* * *

Marfat.com

والآن نجيء إلى مولد عيسى : العجيبة الكبرى فى عرف الناس ، والشأن العادى للمشيئة الطليقة :

« إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم . وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ؛ ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء . إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون . . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم : أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ؛ وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ؛ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

لقد تأهلت مريم ـ إذن ـ بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقى هذا الفضل ، واستقبال هذا الحدث ، وهاهى ذى تتلقى ـ لأول مرة ـ التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير :

« إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم . وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » . .

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم . . فالمسيح بدل من الكلمة فى العبارة . وهو الكلمة فى الحقيقة . فماذا وراء هذا التعبير ؟

إن هذه وأمثالها ، من أمور الغيب التى لامجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد . . ربما كانت من الذى عناه الله بقوله : « نزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . . . » الخ .

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفهم الذى يصل القلب بالله ، وصنعته وقدرته ، ومشيئته الطليقة :

Marfat.com

لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب ـ وسواء كان قد جبله مباشرة من التراب أو جبل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب، فإن هذا لا يقدم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله. سر الحياة التي لابست أول مخلوق حي، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت! وهذه كتلك في صنع الله. وليست واحدة منهما بأولى من الأخرى في الوجود والكينونة ... [١].

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعا شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض.. شيء زائد. وشيء مغاير. وشيء ينشىء آثارا وظواهر لا توجد أبدا في التراب ولا في مادة ميتة على الإطلاق..

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي ننكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلا عن عالم!

نحن لا نعلم. وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلناها ـ نحن البشر ـ بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها. أو لإنشائها بأيدينا من الموات!

نحن لا نعلم.. ولكن الله الذي وهب الحياة يعلم.. وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه. وإن الأمر قد تم بكلمة منه. «كن. فيكون»..

ماهي هذه النفخة؟ وكيف تنفخ في الموات فينشأ فيه هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ماهي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري لإدراكه، لأنه ليس من شأنه. إنه لم يوهب القدرة على إدراكه. إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يجديه شيئا في وظيفته التي خلقه الله لها ـ وظيفة الخلافة في الأرض ـ إنه لن يخلق حياة من موات.. فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية؟

والله ـ سبحانه ـ يقول: إن النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز

---

(١) نحن نتكلم هنا جدلا ولا نناقش نظرية النشوء والارتقاء، فقد كادت تفقد ركائزها العلمية . وهي مجرد نظرية!

Marfat.com

والكرامة ـ حتى على الملائكة ـ فلا بد إذن أن تكون شيئا آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب ! وهذا مايقودنا إلى اعتبار الإنسان جنسا نشأ نشأة ذاتية ، وأن له اعتبارا خاصا فى نظام الكون ، ليس لسائر الأحياء !

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا ، إنما هى لمحة فى سياق العرض للتحرز من شبهة قد تقوم فى نفس القارىء لما عرضناه جدلا حول نشأة الإنسان !

المهم هنا أن الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة ؛ وإن لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه فى الموات . .

وقد شاء الله ـ بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة ـ أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقا معينا . طريق التقاء ذكر وأنثى . واجتماع بويضة وخلية تذكير . فيتم الإخصاب ، ويتم الإنسال . والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة .

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة . . حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة فى فرد من بنى الإنسان . فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى . وإن لم تكن مثلها تماما . أنثى فقط . تتلقى النفخة التى تنشىء الحياة ابتداء . فتنشأ فيها الحياة !

أهذه النفخة هى الكلمة ؟ آلكلمة هى توجه الإرادة ؟ آلكلمة : « كن » التى قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن توجه الإرادة ؟ والكلمة هى عيسى ، أو هى التى منها كينونته ؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات . . وخلاصتها هى تلك : أن الله شاء أن ينشىء حياة على غير مثال . فأنشأها وفق إرادته الطليقة التى تنشىء الحياة بنفخة من روح الله . ندرك آثارها ، ونجهل ماهيتها . ويجب أن نجهلها . لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة فى الأرض ، مادام إنشاء الحياة ليس داخلا فى تكليف الاستخلاف !

والأمر هكذا سهل الإدراك . ووقوعه لا يثير الشبهات !

وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم . . فتضمنت البشارة نوعه ، وتضمنت اسمه ونسبه . وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه . . ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » . .

Marfat.com

كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده « ويكلم الناس فى المهد » . . ولمحة من مستقبله : « وكهلا » . . وسمته والموكب الذى ينتسب إليه : « ومن الصالحين » . .

فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر فى الحياة ، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة . واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هـذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان :

« قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ » . .

وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل ، ومألوفهم المحدود :

« قال : كذلك الله يفعل مايشاء . إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون » . .

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب ؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها فى عجب : كيف عجبت من هـذا الأمر الفطرى الواضح القريب ! !

وهكذا كان القرآن ينشىء التصور الإسلامى لهـذه الحقائق الكبيرة بمثل هـذا اليسر الفطرى القريب . وهكذا كان يجلو الشبهات التى تعقدها الفلسفات المعقدة ، ويقر الأمر فى القلوب وفى العقول سواء . . .

ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هـذا الخلق الذى اختارها الله لإنجابه على غير مثال ؛ وكيف ستمضى سيرته فى بنى إسرائيل . . وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح ؛ ويلتقيان فى سياق واحد ، كأنما يقعان اللحظة ، على طريقة القرآن :

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » . .

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة ؛ وقد يكون هو التوراة والإنجيل ، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان . والحكمة حالة فى النفس يتأتى معها وضع الأمور فى مواضعها ، وإدراك الصواب واتباعه . وهى خير كثير . والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل . فهى أساس الدين الذى جاء به . والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ، ولروح الدين التى طمست فى قلوب بنى إسرائيل . وهـذا مايخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون

Marfat.com

التوراة ، وهي قاعدة دين المسيح ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ؟ ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل . أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص . هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء .

« ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله . وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآية لكم . إن كنتم مؤمنين » . .

ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ كانت لبني إسرائيل ، فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية ، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم ، هي كتاب عيسى كذلك، مضافا إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير .

والآية التي بشر الله أمه مريم أنها ستكون معه ، والتي واجه بها بالفعل بني إسرائيل هي معجزة النفخ في الموات فيدخله سر الحياة ، وإحياء الموتى من الناس ، وإبراء المولود أعمى ، وشفاء الأبرص ، والإخبار بالغيب ـ بالنسبة له ـ وهو المدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل ، وهو بعيد عن رؤيته بعينه . .

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح عليه السلام ـ كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم ، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى ـ أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها ، إنما جاءهم بها من عند الله . وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلا وتحديدا ؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط !

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها ، أو رد العافية وهي فرع عن الحياة . ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية . . وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى ؛ ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم ـ عليه السلام ـ وإذا كان الله قادرا أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال .. ولا حاجة إذن

Marfat.com

لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هـذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسانُ اللهَ - سبحانه - بمألوف الإنسان !

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

وهذا الختام فى دعوة عيسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة فى طبيعة دين الله ، وفى مفهوم هذا الدين فى دعوة الرسل جميعا - عليهم الصلاة والسلام - وهى حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى - عليه السلام - بالذات ، وهو الذى ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات ، التى نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التى لا تتبدل بين رسول ورسول .

فهو إذ يقول : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » . .

يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة . فالتوراة التى نزلت على موسى - عليه السلام - وهى تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان ، وملابسات حياة بنى إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر فى فترة من الزمان) - هـذه التوراة معتمدة فى رسالة المسيح عليه السلام ؛ وجاءت رسالته مصدقة لها ، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم ، وكان تحريمه فى صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات ، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم . ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام ، فيحل لهم بعض الذى حرم عليهم .

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أى دين - أن يتضمن تنظيما لحياة الناس بالتشريع ؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبى الأخلاقى وحده ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك . فهذا لا يكون دينا . فما الدين إلا منهج الحياة الذى أراده الله للبشر ؛ ونظام الحياة الذى يربط حياة الناس بمنهج الله .

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية ، عن الشعائر التعبدية ، عن القيم الخلقية ، عن الشرائع التنظيمية ، فى أى دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهى . وأى

Marfat.com

انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين فى النفوس وفى الحياة ؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله .

وهذا ماحدث للمسيحية . فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية ؛ ولكونها جاءت موقوتة لزمن ـ حتى يجىء الدين الأخير ـ ثم عاشت بعد زمنها من ناحية . . قد انفصل فيها الجانب التشريعى التنظيمى عن الجانب الروحانى التعبدى الأخلاقى . . فقد حدث أن قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وأنصاره ومن اتبع دينه فيما بعد ؛ فأنشأ هذا انفصالا بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحى والتهذيب الأخلاقى . . كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة . وكان فى تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجىء فى موعدها المقدور .

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة . وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التى عاشت عليها . فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضى تصورا اعتقاديا يفسر الوجود كله ، ويفسر حياة الإنسان ومكانه فى الوجود ؛ وتقتضى نظاما تعبديا وقيما أخلاقية . ثم تقتضى ـ حتما ـ تشريعات منظمة لحياة الجماعة ، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادى ، ومن هذا النظام التعبدى ، ومن هذه القيم الأخلاقية . وهذا القوام التركيبى للدين هو الذى يضمن قيام نظام اجتماعى ، له بواعثه المفهومة ، وله ضماناته الممكنة . . فلما وقع ذلك الانفصال فى الدين المسيحى عجزت المسيحية عن أن تكون نظاما شاملا للحياة البشرية ، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية فى حياتهم كلها ، ومن بينهما النظام الاجتماعى الذى تقوم عليه هذه الحياة . وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها الطبيعية الوحيدة . فقامت معلقة فى الهواء . أو قامت عرجاء !

ولم يكن هذا أمرا عاديا فى الحياة البشرية ، ولا حادثا صغيرا فى التاريخ البشرى . . إنما كان كارثة : كارثة ضخمة ، تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذى تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم . سواء فى البلاد التى لاتزال تعتنق المسيحية ـ وهى خالية من النظام الاجتماعى لخلوها من التشريع ـ أو التى نفضت عنها المسيحية وهى فى الحقيقة لم تبعد كثيرا عن الذين يدعون أنهم مسيحيون . . فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح ، وكما هى طبيعة كل دين

Marfat.com

يستحق كلمة دين ، هى الشريعة المنظمة للحياة ، المنبثقة من التصور الاعتقادى فى الله ، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور . . وبدون هذا العوام الشامل المتكامل لاتكون مسيحية . ولا يكون دين على الإطلاق ! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لايقوم نظام اجتماعى للحياة البشرية يلبى حاجات النفس البشرية ، ويلبى واقع الحياة البشرية ، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله .

وهذه الحقيقة هى أحد المفاهيم التى يتضمنها قول المسيح عليه السلام :

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » . . الخ » . .

وهو يستند فى تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى : حقيقة التوحيد الذى لاشبهة فيه :

« وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » . .

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادى التى قام عليها دين الله كله : المعجزات التى جاءهم بها لم يجئ بها من عند نفسه ، فماله قدرة عليها وهو بشر . إنما جاءهم بها من عند الله . ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله . . ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء — فما هو رب وإنما هو عبد — وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب ، فلا عبودية إلا لله . . ويختم قوله بالحقيقة الشاملة . . فتوحيد الرب وعبادته ، وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به : « هذا صراط مستقيم » . . وما عداه عوج وانحراف . وما هو قطعا بالدين . .

* * *

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر ، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته ، هذه التى ذكرت ملحقة بالبشارة . . ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه — عليه السلام — بالكفر من بنى إسرائيل ، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

Marfat.com

وهنا فجوة كبيرة فى السياق . فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد بالفعل ؛ ولا أن أمه واجهت به القوم فكلمهم فى المهد ؛ ولا أنه دعا قومه وهو كهل ؛ ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التى ذكرت فى البشارة لأمه (كما جاء فى سورة مريم) .. وهذه الفجوات ترد فى القصص القرآنى ، لعدم التكرار فى العرض من جهة ؛ وللاقتصار على الحلقات والمشاهد المتعلقة بموضوع السورة وسياقها من جهة أخرى . .

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بنى إسرائيل ــ بعد ماأراهم كل تلك المعجزات التى لاتتهيأ لبشر ؛ والتى تشهد بأن الله وراءها ، وأن قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده . ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بنى إسرائيل بعض القيود والتكاليف . .

عندئذ دعا دعوته :

« قال : من أنصارى إلى الله ؟ » . .

من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله لأبلغ إليه ، وأؤدى عنه ؟

ولابد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها ، ويبلغونها إلى من يليهم ، ويقومون بعده عليها . .

« قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »

فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى ــ عليه السلام ــ على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله . . أى نصرة رسوله ودينه ومنهجه فى الحياة .

ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به فى هذا الأمر الذى يقومون عليه :

« ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين » .

وفى هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة . . إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه ، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد ؛ وانعقدت البيعة مع الله ، فهى باقية فى عنق المؤمن بعد الرسول . . وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول . فليس الأمر مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولكنه اتباع لمنهج ، والاقتداء فيه بالرسول . وهو المعنى الذى يركز عليه سياق هذه السورة ــ كما رأينا ــ ويكرره بشتى الأساليب .

Marfat.com

ثم عبارة أخرى تلفت النظر فى قول الحواريين :

« فاكتبنا مع الشاهدين » . .

فأى شهادة وأى شاهدين ؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى شهادة لهذا الدين . شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء ؛ وتؤيد الخير الذى يحمله هذا الدين للبشر . . وهو لا يؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلا رفيعا ، يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود ، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لا يؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ، ونظام مجتمعه ، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله ، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم . . وجهاده لقيام هـذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية . . هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يدعى « شهيدا » . .

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه . . أى أن يوفقهم ويعينهم فى أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين ؛ وأن يعنهم للجهاد فى سبيل تحقيق منهجه فى الحياة ، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج . ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من « الشهداء » على حق هذا الدين .

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعى لنفسه الإسلام . . فهذا هو الإسلام ، كما فهمه الحواريون . وكما هو فى ضمير المسلمين الحقيقيين ! ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار فى نفسه غير سيرة الإسلام ؛ أو حاولها فى نفسه ، ولكنه لم يؤدها فى المجال العام ، ولم يجاهد لإقامة منهج الله فى الحياة إيثارا للعافية ، وإيثاراً لحياته على حياة الدين ، فقد قصر فى شهادته أو أدى شهادة ضد هـذا الدين . شهادة تصد الآخرين عنه . وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين ، وما هو من المؤمنين ! (1)

* * *

(1) يراجع البحث القيم للأستاذ المودودى بعنوان : « شهادة الحق » .

Marfat.com

ويمضى السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى ـ عليه السلام ـ وبنى إسرائيل :

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين . إذ قال الله : ياعيسى إنى متوفيك ، ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ؛ ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ، ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لايحب الظالمين » . .

والمكر الذى مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم ـ عيسى عليه السلام ـ مكر طويل عريض . فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذى لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل . . وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ؛ ووشوا به إلى الحاكم الرومانى « بيلاطس » وادعوا أنه « مهيج » يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة ! وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير ! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم ، لأنه لم يجرؤ ـ وهو وثنى ـ على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة . . وهذا قليل من كثير . .

« ومكروا ومكر الله . والله خير الماكرين » . .

والمشاكلة هنا فى اللفظ هى وحدها التى تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله . . والمكر التدبير . . ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذى يواجهه هو تدبير الله . فأين هم من الله ؟ وأين مكرهم من تدبير الله ؟

لقد أرادوا صلب عيسى ـ عليه السلام ـ وقتله . وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه ، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . وكان ماأراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين :

« إذ قال الله : ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه . . فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى

Marfat.com

لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا فى عقيدة ولا فى شريعة . والذين يجرون وراءها ، ويجعلونها مادة للجدل ، ينتهى بهم الحال إلى المراء ، وإلى التخليط ، وإلى التعقيد . دون ماجزم بحقيقة ، ودون ماراحة بال فى أمر موكول إلى علم الله .

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . فلا يصعب القول فيه . فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح . . الإسلام . . الذى عرف حقيقته كل نبى ، وجاء به كل رسول ، وآمن به كل من آمن حقا بدين الله . . وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة فى ميزان الله . كما أنهم كذلك فى واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان ، وحقيقة الاتباع . . ودين الله واحد . وقد جاء به عيسى ابن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول . والذين يتبعون محمدا – صلى الله عليه وسلم – هم فى الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم . من لدن آدم – عليه السلام – إلى آخر الزمان .

وهذا المفهوم الشامل هو الذى يتفق مع سياق السورة ، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق .

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين ، فيقررها السياق فى صدد إخبار الله لعيسى عليه السلام :

« ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم . والله لا يحب الظالمين » . .

وفى هذا النص تقرير لجدية الجزاء ، وللقسط الذى لا يميل شعرة ، ولا تتعلق به الأمانى ولا الافتراء . .

رجعة إلى الله لامحيد عنها . وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لامرد له . وعذاب شديد فى الدنيا والآخرة للكافرين لاناصر لهم منه . وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لامحاباة فيه ولا بخس . . « والله لا يحب الظالمين » . . فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين . .

وكل مايقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات . وكل

Marfat.com

مارتبوه على هذا التميع فى تصور عدل الله فى جزائه من أمانى خادعة . . باطل باطل لايقوم على أساس .

* * *

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى التى تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل ، يبدأ التعقيب الذى يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص، وينتهى إلى تلقين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تنهى الحوار والجدل ؛ وتستقر على حقيقة ماجاء به ، وما يدعو إليه ، فى وضوح كامل وفى يقين :

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . ثم قال له : كن . فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . .

وهكذا نجد هـذا التعقيب يتضمن ابتداء صدق الوحى الذى يوحى إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم :

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » . .

ذلك القصص . وذلك التوجيه القرآنى كله . فهو وحى من الله . يتلوه الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى التعبير معنى التكريم والقرب والود . . فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه ؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم . . وإنه لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى فى النفس والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتتلطف فى الدخول عليها واللصوق بها بشكل غير معهود فيما يصدر عن غير هذا المصدر الفريد .

ثم يحسم التعقيب فى حقيقة عيسى عليه السلام ، وفى طبيعة الخلق والإرادة التى تنشئ كل شىء كما أنشأت عيسى عليه السلام :

Marfat.com

« إن مثل عيسى عنـد الله كمثل آدم . خلقه من تراب . ثم قال له : كن فيـكون » . .

إن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر . ولـكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر ؟ وأهل الـكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى ـ بسبب مولده ـ ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب . . أهل الـكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب . وأن النفخة من روح الله هى التى جعلت منه هذا الـكائن الإنسانى . . دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التى صاغوها حول عيسى . ودون أن يقولوا عن آدم : إن له طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذى به صار آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذى به ولد عيسى من غير أب : عنصر النفخة الإلهية فى هـذا وذاك ! وإن هى إلا الـكلمة : « كن » تنشىء ماتراد له النشأة « فيـكون » !

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم ، وحقيقة الخلق كله . وتدخل إلى النفس فى يسر وفى وضوح ، حتى ليعجب الإنسان : كيف ثار الجدل حول هـذا الحادث ، وهو جار وفق السنة الـكبرى . سنة الخلق والنشأة جميعا !

وهـذه هى طريقة « الذكر الحـكيم » فى مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطرى الواقعى البسيط ، فى أعقد القضايا ، التى تبدو بعد هذا الخطاب وهى اليسر الميسور !

وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثبته على الحق الذى معه ، والذى يتلى عليه ، ويؤكده فى حسه ؛ كما يؤكده فى حس من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر فى بعضهم شبهات أهل الـكتاب ، وتلبيسهم وتضليلهم الخبيث :

« الحق من ربك فلا تـكن من الممترين » . .

وما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممتريا ولا شاكا فيما يتلوه عليه ربه ، فى لحظة من لحظات حياته . . وإنما هو التثبيت على الحق ، ندرك منه مدى ما كان يبلغه كيد أعداء الجماعة المسلمة من بعض أفرادها فى ذلك الحين . كما ندرك منه مدى ماتتعرض له الأمة المسلمة فى كل

Marfat.com

جيل من هذا الكيد ؛ وضرورة تثبيتها على الحق الذى معها فى وجه الكائدين والخادعين ؛ ولهم فى كل جيل أسلوب من أساليب الكيد جديد .

وهنا ـ وقد وضحت القضية وظهر الحق جليا ـ يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البين ؛ وأن يدعوهم إلى المباهلة كما هى مبينة فى الآية التالية :

« فمن حاجك فيه ـ من بعد ماجاءك من العلم ـ فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . .

وقد دعا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كانوا يناظرونه فى هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين . فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة . وتبين الحق واضحا . ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يسلموا احتفاظا بمكانتهم من قومهم ، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم ! ! ! وما كانت البينة هى التى يحتاج إليها من يصدون عن هذا الدين ؛ إنما هى المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذى لاخفاء فيه .

ثم يمضى التعقيب بعد الدعوة إلى المباهلة ـ وربما كانت الآيات التالية قد نزلت بعد الامتناع عنها ـ يقرر حقيقة الوحى ، وحقيقة القصص ، وحقيقة الوحدانية التى يدور حولها الحديث ؛ ويهدد من يتولى عن الحق ويفسد فى الأرض بهذا التولى :

« إن هذا لهو القصص الحق . ومامن إله إلا الله . وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » .

والحقائق التى تقررها هذه النصوص سبق تقريرها . وهى تذكر هنا للتوكيد بعد الدعوة إلى المباهلة وإبائها . . إنما الجديد هو وصف الذين يتولون عن الحق بأنهم مفسدون ، وتهديدهم بأن الله عليم بالمفسدين . .

والفساد الذى يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد فساد عظيم . وما ينشأ فى الأرض الفساد ـ فى الواقع ـ إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة . لااعتراف اللسان . فاعتراف اللسان لاقيمة له . ولا اعتراف القلب السلبى . فهذا الاعتراف لاينشئ آثاره الواقعية فى حياة

Marfat.com

الناس . . إنما هى الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التى تلازمها فى واقع الحياة البشرية . . وأول مايلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية ، فتتوحد العبودية . . لاعبودية إلا لله . ولا طاعة إلا لله . ولا تلقى إلا عن الله . فليس إلا لله تكون العبودية . وليس إلا لله تكون الطاعة . وليس إلا عن الله يكون التلقى . . التلقى فى التشريع ، والتلقى فى القيم والموازين ، والتلقى فى الآداب والأخلاق . والتلقى فى كل مايتعلق بنظام الحياة البشرية . . وإلا فهو الشرك أو الكفر . مهما اعترفت الألسنة ، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبى الذى لاينشئ آثاره فى حياة الناس العامة فى استسلام وطاعة واستجابة وقبول .

إن هذا الكون بجملته لايستقيم أمره ولا يصلح حاله ، إلا أن يكون هناك إله واحد ، يدبر أمره : و « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . . وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية : تعبد العبيد ؛ والتشريع لهم فى حياتهم ، وإقامة الموازين لهم . فمن ادعى لنفسه شيئا من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية ؛ وأقام نفسه للناس إلها من دون الله .

وما يقع الفساد فى الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة فى الأرض على هذا النحو . عندما يتعبد الناسُ الناس . عندما يدعى عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته ؛ وأن له فيهم حق التشريع لذاته ؛ وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته . فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون : « أنا ربكم الأعلى » . . والإقرار به هو الشرك بالله أو الكفر به . . وهو الفساد فى الأرض أقبح الفساد .

ومن ثم يتلو ذلك التهديد فى السياق دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء : إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله . . وإلا فهى المفاصلة التى لامصاحبة بعدها ولا مجادلة :

« قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . .

وإنها لدعوة منصفة من غير شك . دعوة لايريد بها النبى – صلى الله عليه وسلم – أن

Marfat.com

يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين . . كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد . لايعلو بعضهم على بعض ، ولا يتعبد بعضهم بعضا . دعوة لايأباها إلا متعنت مفسد ، لايريد أن يفيء إلى الحق القويم .

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئا . لابشرا ولا حجرا . ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا من دون الله أربابا . لانبيا ولا رسولا . فكلهم لله عبيد . إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته فى الألوهية والربوبية .

« فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » .

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك . والعبودية لله وحده دون شريك . وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية .. إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ..

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون. المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده ؛ ويُتعبدون لله وحده ؛ ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . . هذه هى خصيصتهم التى تميزهم من سائر الملل والنحل ؛ وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا . وإما أن تتحقق هذه الخصيصة فهم مسلمون ، وإما ألا تتحقق فما هم بمسلمين مهما ادعوا أنهم مسلمون !

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد . والنظام الإسلامى هو وحده من بين سائر النظم الذى يحقق هذا التحرر . .

إن الناس فى جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.. يقع هذا فى أرقى الديمقراطيات كما يقع فى أحط الديكتاتوريات سواء . . إن أول خصائص الربوبية هو حق تعبد الناس . حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين . . وهذا الحق فى جميع الأنظمة الأرضية يدعيه بعض الناس ــ فى صورة من الصور ــ ويرجع الأمر فيه إلى مجموعة من الناس ــ على أى وضع من الأوضاع ــ وهذه المجموعة التى تخضع الآخرين لتشريعها وقيمها وموازينها وتصوراتها هى الأرباب الأرضية التى يتخذها بعض الناس أربابا من دون الله ؛ ويسمحون لها بادعاء خصائص الألوهية والربوبية ، وهم بذلك يعبدونها من دون الله ، وإن لم يسجدوا لها ويركعوا . فالعبودية عبادة لايتوجه بها إلا لله .

Marfat.com

وفى النظام الإسلامى وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة . . ويصبح حرا . حرا يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من الله وحده ، شأنه فى هذا شأن كل إنسان آخر مثله . فهو وكل إنسان آخر على سواء . كلهم يقفون فى مستوى واحد ، ويتطلعون إلى سيد واحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

والإسلام – بهذا المعنى – هو الدين عند الله . وهو الذى جاء به كل رسول من عند الله . . لقد أرسل الله الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله . ومن جور العباد إلى عدل الله .. فمن تولى عنه فليس مسلما بشهادة الله . مهما أول المؤولون ، وضلل المضللون . . « إن الدين عند الله الاسلام » . .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ ﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهَذَا النَّبِيُّ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ، وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ – قُلْ : إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ – أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ . قُلْ : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ

Marfat.com

يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ، وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا . أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ؟

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ : لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ . قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ؟ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟

« قُلْ : آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

Marfat.com

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ.

« لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » (٩٢)

هذا الشوط من السورة مايزال يجرى مع الخط الأول الأساسى العريض فيها . . خط المعركة بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة . . معركة العقيدة ، وما يبذل أعداء هذا الدين من جهد ومن حيلة ومن مكيدة ومن خداع ، ومن كذب ، ومن تدبير ، للبس الحق بالباطل ، وبث الريب والشكوك ، وتبييت الشر والضر لهذه الأمة بلا وناة ولا انقطاع . . ثم . . مواجهة القرآن لهذا كله ، بتبصير المؤمنين بحقيقة ماهم عليه من الحق ؛ وحقيقة ماعليه أعداؤهم من الباطل ؛ وحقيقة مايبيته لهم هؤلاء الأعداء . . وأخيرا بتشريح هؤلاء الأعداء . . طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ونياتهم . . على مشهد من الجماعة المسلمة ، لتعريفها حقيقة أعدائها ، وفضح مايضفونه على أنفسهم من مظاهر العلم والمعرفة ، وتبديد ثقة المخدوعين من المسلمين فيهم ،

Marfat.com

وتنفيرهم من حالهم ، وإسقاط دسائسهم بتركها مكشوفة عوراء ، لاتخدع أحدا ولا تنطلى على أحد !

ويبدأ هذا الشوط بمواجهة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بسخف موقفهم وهم يحاجون فى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيزعم اليهود أنه كان يهوديا ، ويزعم النصارى أنه كان نصرانيا . على حين أن إبراهيم سابق لليهودية والنصرانية ، سابق للتوراة والإنجيل . والحجاج فيه على هذا النحو مراء لايستند إلى دليل . . ويقرر حقيقة ما كان عليه إبراهيم . . لقد كان على الإسلام . . دين الله القويم . وأولياؤه هم الذين يسيرون على نهجه . والله ولى المؤمنين أجمعين . . ومن ثم تسقط ادعاءات هؤلاء وهؤلاء ؛ ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالى القرون : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا . والله ولى المؤمنين » . .

يلى ذلك فى السياق كشف الهدف الأصيل الكامن وراء مماراة أهل الكتاب فى إبراهيم وغير إبراهيم ـ مما سبق فى السورة ومما سيجىء ـ فهو الرغبة الملحة فى إضلال المسلمين عن دينهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم . . ومن ثم يتجه بالتقريع إلى الضالين : « ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » . .

ثم يطلع الجماعة المسلمة على لون من تبييت أعدائهم وتدبيرهم ، لزعزعة ثقتهم فى عقيدتهم ودينهم ، بطريقة خبيثة ماكرة لئيمة . ذلك أن يعلنوا إيمانهم بالإسلام أول النهار ، ثم يكفروا بالإسلام آخره . . كى يلقوا فى روع غير المتثبتين فى الصف المسلم ـ ومثلهم موجود دائما فى كل صف ـ أنه لأمر ارتد أهل الكتاب ، الخبيرون بالكتب والرسل والديانات : « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » . . وهو كيد خبيث لئيم !

ثم يكشف عن طبيعة أهل الكتاب وأخلاقهم ونظرتهم للعهود والمواثيق ـ على أمانة فى بعضهم لاينكرها عليهم ـ فأما البعض الآخر فلا أمانة له ولا عهد ولا ذمة ؛ وهم يفلسفون جشعهم وخيانتهم ويدّعون لها سندا من دينهم ، ودينهم من هذا الخلق برىء : « ومن أهل

Marfat.com

الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

وفى هذا الموضع يبين طبيعة نظرة الإسلام الأخلاقية ومبعثها وارتباطها بتقوى الله : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » . .

ويمضى يعرض نموذجا آخر من التواء أهل الكتاب وكذبهم الرخيص فى أمر الدين ، ابتغاء مكاسب الأرض وهى كلها ثمن قليل : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب . ويقولون : هو من عند الله . وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

ومن هذا الذى يلوون ألسنتهم فيه مايدعونه من ألوهية للمسيح وللروح القدس . . وينفى الله ـ سبحانه ـ أن يكون المسيح ـ عليه السلام ـ قد جاءهم بهذا فى الكتاب أو أمرهم به : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . .

وبهذه المناسبة يذكر حقيقة الصلة بين موكب الرسل المتتابعة . . وهى عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصره : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين : لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » . . ومن ثم يتعين على أهل الكتاب أن يؤمنوا بالرسول الأخير وينصروه . ولكنهم لايوفون بعهد الله معهم ومع رسلهم الأولين .

وفى ظل هذا العهد السارى يقرر أن الذى يبتغى دينا غير دين الله . . الإسلام . . يخرج فى الحقيقة على نظام الكون كله كما أراده الله : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى

Marfat.com

السماوات والأرض طوعا وكرها ؟ وإليه يرجعون ؟ » . . فيبدو هؤلاء الذين يخرجون عن إسلام أمرهم لله كله ، والطاعة والاتباع لمنهج الله فى خضوع واستسلام . . يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على نظام الوجود الكبير !

هنا يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه إلى إعلان الإيمان بدين الله الواحد ، ممثلا فى كل ماجاء به الرسل أجمعين . وأن الله لايقبل من البشر جميعا إلا هذا الدين : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . .

فأما الذين لايؤمنون بهذا الدين فلا مطمع لهم فى هداية الله . ولا فى النجاة من عقابه . إلا أن يتوبوا . وأما الذين يموتون وهم كفار فلن ينفعهم أن يكونوا قد بذلوا مابذلوا ، ولن ينجيهم أن يفتدوا بملء الأرض ذهبا !

وبمناسبة البذل والفداء يحبب للمسلمين أن ينفقوا مما يحبون من مال فى هذه الدنيا ، ليجدوه عند الله مدخرا يوم القيامة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . .

وهكذا يستعرض هذا الشوط الواحد هذا الحشد من الحقائق والتوجيهات . وهو شوط فى المعركة الضخمة التى تعرضها السورة ، دائرة بين الجماعة المسلمة وأعداء هذا الدين . من وراء القرون . وهى ذاتها المعركة الدائرة اليوم ، لا تختلف فيها الأهداف والغايات ، وإن اختلفت أشكال الوسائل والأدوات . . وهى هى فى خطها الطويل المديد . .

فلننظر فى النصوص - بعد هذا الإجمال - نظرة استيعاب وتفصيل :

* * *

« ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا . والله ولى المؤمنين » . .

قال محمد ابن إسحاق : حدثنى محمد ابن أبى - مولى زيد ابن ثابت - حدثنى سعيد ابن جبير

Marfat.com

ـ أو عكرمة ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتنازعوا عنده .. فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا . وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا . فأنزل الله تعالى : « ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم . . . » الآية .

وسواء كانت هذه هى مناسبة نزول الآية أو لم تكن ، فظاهر من نصها أنها نزلت ردا على ادعاءات لأهل الكتاب ، وحجاج مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع بعضهم البعض فى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعل فى بيته النبوة ؛ واحتكار الهداية والفضل كذلك . ثم ـ وهذا هو الأهم ـ تكذيب دعوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه على دين إبراهيم ، وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى ؛ وتشكيك المسلمين فى هذه الحقيقة ، أوبث الريبة فى نفوس بعضهم على الأقل . .

ومن ثم يندد الله بهم هذا التنديد ؛ ويكشف مراءهم الذى لايستند إلى دليل . فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل . فكيف إذن يكون يهوديا ؟ أو كيف إذن يكون نصرانيا ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ :

« ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون ؟ » .

ثم يمضى فى التنديد بهم ؛ وإسقاط قيمة مايدلون به من حجج ، وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطق سليم فى الجدل والحوار :

« هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لاتعلمون ؟ » .

وقد جادلوا فى أمر عيسى عليه السلام ؛ كما يبدو أنهم جادلوا فى بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم تولوا وهم معرضون . . وكان هذا وذاك فى دائرة مايعلمون من الأمر ، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم ، ووجود كتبهم ودياناتهم . . فهو الأمر الذى لاسند له ولوكان سندا شكليا . . فهو الجدل إذن لذات الجدل . وهو المراء الذى

Marfat.com

لا يسير على منهج ، وهو الغرض إذن والهوى . . ومن كان هذا حاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول . بل غير جدير بالاستماع أصلا لما يقول !

حتى إذا انتهى السياق من إسقاط قيمة جدلهم من أساسه ، ونزع الثقة منهم ومما يقولون ، عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله . فهو – سبحانه – الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد ؛ وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم . وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول ؛ إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل :

« ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن كان حنيفا مسلما . وما كان من المشركين » . .

فيؤكد ماقرره من قبل ضمنا من أن إبراهيم – عليه السلام – ما كان يهوديا ولا نصرانيا . وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده . ويقرر أنه كان مائلا عن كل ملة إلا الإسلام . فقد كان مسلما . . مسلما بالمعنى الشامل للإسلام الذي مر تفصيله وبيانه . .

« وما كان من المشركين » . .

وهذه الحقيقة متضمنة في قوله قبلها « ولكن كان حنيفا مسلما » . . ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولا إلى أن اليهود والنصارى – الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة – مشركون . . ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن حنيفا مسلما !

ويشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر . فلا يلتقيان . الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه ، وكل مقتضياته . ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلا .

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم ، وسدنة بيته في مكة . . فهو حنيف مسلم ، وهم مشركون . « وما كان من المشركين » !

ومادام أن إبراهيم – عليه السلام – كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، فليس لأي من اليهود أو النصارى – أو المشركين أيضا – أن يدعي وراثته ، ولا الولاية على دينه ، وهم بعيدون عن عقيدته . . والعقيدة هي الوشيجة الأولى التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام . حين

Marfat.com

لايلتقون على نسب ولا أرومة ولا جنس ولا أرض ، إذا انبتت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان . فالإنسان فى نظر الإسلام إنسان بروحه . بالنفخة التى جعلت منه إنسانا . ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه . ولا يلتقى على مثل ماتلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ! والولاية بين فرد وفرد ، وبين مجموعة ومجموعة ، وبين جيل من الناس وجيل ، لاترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة . يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن . والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة . والجيل المسلم والأجيال المسلمة من وراء حدود الزمان والمكان ، ومن وراء فواصل الدم والنسب ، والقوم والجنس ؛ ويتجمعون أولياء – بالعقيدة وحدها – والله من ورائهم ولى الجميع :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهـذا النبى ، والذين آمنوا . والله ولى المؤمنين » . .

فالذين اتبعوا إبراهيم – فى حياته – وساروا على منهجه ، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه . ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين . ثم الذين آمنوا بهذا النبى – صلى الله عليه وسلم – فالتقوا مع إبراهيم – عليه السلام – فى المنهج والطريق .

« والله ولى المؤمنين » . .

فهم حزبه الذين ينتمون إليه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحدا غيره . وهم أسرة واحدة . وأمة واحدة . من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ؛ ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت !

وهذه الصورة هى أرقى صورة للتجمع الإنسانى تليق بالكائن الإنسانى . وتميزه من القطيع ! كما أنها هى الصورة الوحيدة التى تسمح بالتجمع بلا قيود . لأن القيد الواحد فيها اختيارى يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهى الأمر . على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه – إن كانت رابطة التجمع هى الجنس – ولا يملك أن يغير قومه – إن كانت رابطة التجمع هى القوم – ولا يملك أن يغير لونه – إن كانت رابطة التجمع هى اللون – ولا يملك بيسر أن يغير لغته إن كانت رابطة التجمع هى اللغة – ولا يملك بيسر أن يغير طبقته – إن كانت رابطة التجمع هى الطبقة – بل قد لايستطيع

Marfat.com

أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما فى الهند مثلا . ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنسانى ، مالم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور . . الأمر المتروك للاقتناع الفردى ، والذى يملك الفرد بذاته ، بدون تغيير أصله أو لونه أو لغته أو طبقته أن يختاره ، وأن ينضم إلى الصف على أساسه .

وذلك فوق مافيه من تكريم للإنسان ، بجعل رابطة تجمعه مسألة تتعلق بأكرم عناصره ، المميزة له من القطيع !

والبشرية إما أن تعيش — كما يريدها الإسلام — أناسىّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور . . وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية ، أو حدود الجنس واللون . . وكلها حدود مما يقام للماشية فى المرعى كى لايختلط قطيع بقطيع ! ! !

* * *

ثم يكشف للجماعة المسلمة عما يريده بها أهل الكتاب من وراء كل جدال وكل مراء . ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة أيضا . وهو يعزق عنهم الأردية التى يتخفون تحتها ، فيقفهم أمام الجماعة المسلمة عراة مفضوحين :

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم — قل : إن الهدى هدى الله — أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم — قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

إن الإحنة التى يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هى الإحنة المتعلقة بالعقيدة . إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدى . يكرهون لها أن تفىء إلى عقيدتها الخاصة فى قوة وثقة ويقين. ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هـذا المنهج ، والإلواء بها عن هـذا الطريق :

Marfat.com

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » ..

فهو ود النفس ورغبة القلب والشهوة التي تهفو إليها الأهواء من وراء كل كيد ، وكل دس ، وكل مراء ، وكل جدال ، وكل تلبيس .

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر ، ضلال لاشك فيه . فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى . فهم يوقعون أنفسهم في الضلالة في اللحظة التي يودون فيها إضلال المسلمين . فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم في الضلال البهيم :

« وما يضلون إلا أنفسهم . وما يشعرون » ..

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم هؤلاء ما استقاموا على إسلامهم . ومالهم عليهم من سبيل . والله سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين ، وأن يرتد عليهم كيدهم مابقي المسلمون مسلمين .

هنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب :

« ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » ..

ولقد كان أهل الكتاب وقتها ــ وما يزالون حتى اليوم ــ يشهدون الحق واضحا في هذا الدين . سواء منهم المطلعون على حقيقة ماجاء في كتبهم عنه من بشارات وإشارات ــ وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله وبعضهم يسلم بناء على هذا الذي يجده في كتبه ويشهده متحققا أمامه ــ وسواء كذلك غير المطلعين ، ولكنهم يجدون في الإسلام من الحق الواضح مايدعو إلى الإيمان .. غير أنهم يكفرون .. لالنقص في الدليل . ولكن للهوى والمصلحة والتضليل .. والقرآن يناديهم : « ياأهل الكتاب » .. لأنها الصفة التي كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد .

كذلك يناديهم مرة أخرى ليفضح مايقومون به من لبس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل ، على علم وعن عمد وفي قصد .. وهو أمر مستنكر قبيح !

وهذا الذي ندد الله به ــ سبحانه ــ من أعمال أهل الكتاب حينذاك ، هو الأمر الذي

Marfat.com

درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة . . فهذا طريقهم على مدار التاريخ . . اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى . ثم تابعهم الصليبيون !

وفى خلال القرون المتطاولة دسوا ـ مع الأسف ـ فى التراث الإسلامى مالاسبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون ! ولبسوا الحق بالباطل فى هذا التراث كله ـ اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذى تكفل الله بحفظه أبد الآبدين ـ والحمد لله على فضله العظيم .

دسوا ولبسوا فى التاريخ الإسلامى وأحداثه ورجاله . ودسوا ولبسوا فى الحديث النبوى حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه إلا ماند عن الجهد الإنسانى المحدود . ودسوا ولبسوا فى التفسير القرآنى حتى تركوه تيها لايكاد الباحث يفىء فيه إلى معالم الطريق . ودسوا ولبسوا فى الرجال أيضا . فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامى ـ وما يزالون فى صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم فى البلاد التى يقول أهلها : إنهم مسلمون . والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة فى صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية ، ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات مالا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين !

وما يزال هذا الكيد قائما ومطردا . وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هى اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ ؛ والعودة إليه لاستشارته فى المعركة الناشبة طوال هذه القرون .

كذلك يعرض بعض المحاولات التى يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة فى دينها ، وردها عن الهدى ، من ذلك الطريق الماكر اللئيم :

« وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . . . » . .

وهى طريقة ماكرة لئيمة كما قلنا . فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنه ، يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته . . يوقعهم فى بلبلة واضطراب . وبخاصة العرب الأميين ، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب . فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون ، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص فى هذا الدين . وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال .

Marfat.com

وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم . فى شتى الصور التى تناسب تطور الملابسات والناس فى كل جيل . .

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلى اليوم هذه الخدعة ، فلجأت القوى الناهضة للإسلام فى العالم إلى طرق شتى ، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة .

إن لهذه القوى اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى جيشا جرارا من العملاء فى صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين ـ وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين ـ يحملون أسماء المسلمين ، لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة ! وبعضهم من « علماء » المسلمين !

هذا الجيش من العملاء موجه لخلخلة العقيدة فى النفوس بشتى الأساليب ، فى صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة . وتوهين قواعدها من الأساس . والتهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء . وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق . والدق المتصل على « رجعيتها » ! والدعوة للتفلت منها . وإبعادها عن مجال الحياة إشفاقا عليها من الحياة أو إشفاقا على الحياة منها ! وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها . وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية . وإطلاق الشهوات من عقالها وسحق القاعدة الخلقية التى تستوى عليها العقيدة النظيفة لتخر فى الوحل الذى ينثرونه فى الأرض نثرا ! ويشوهون التاريخ كله ويحرفونه كما يحرفون النصوص !

وهم بعد مسلمون ! أليسوا يحملون أسماء المسلمين ؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار . وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره . . ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم . لا يتغير إلا الشكل والإطار فى ذلك الدور القديم !

وكان أهل الكتاب يقول بعضهم لبعض : تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم . وليكن هذا سرا بينكم لاتبدونه ولا تأمنون عليه إلا أهل دينكم :

« ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » . .

وفعل الإيمان حين يعدى باللام يعنى الاطمئنان والثقة . أى ولا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين !

Marfat.com

وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك . . إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر . . هو الإجهاز على هذه العقيدة فى الفرصة السانحة التى قد لاتعود . . وقد لايكون هذا التفاهم فى معاهدة أو مؤامرة . ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل ! ويأمن بعضهم لبعض فيفضى بعضهم إلى بعض . . ثم يتظاهرون ـ بعضهم على الأقل ـ بغير مايريدون وما يبيتون . . والجو من حولهم مهيأ ، والأجهزة من حولهم معبأة . . والذين يدركون حقيقة هذا الدين فى الأرض كلها مغيبون أو مشردون !.

« ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » . .

وهنا يوجه الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لايفيء إليه لن يجد الهدى أبدا فى أى منهج ولا فى أى طريق :

« قل : إن الهدى هدى الله » . .

ويجيء هذا التقرير ردا على مقالتهم : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » تحذيرا للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم . فهو الخروج من هدى الله كله . فلا هدى إلا هداه وحده . وإنما هو الضلال والكفر مايريده بهم هؤلاء الماكرون .

يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهى السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها . . ثم يمضى يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير المعترض :

« أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم » . .

بهذا يعللون قولهم : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » .. فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتى الله أحدا من النبوة والكتاب ماآتى أهل الكتاب . وهو الخوف أن يكون فى الاطمئنان للمسلمين وإطلاعهم على الحقيقة التى يعرفها أهل الكتاب ، ثم ينكرونها ، عن هذا الدين ، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله ! ـ كأن الله سبحانه لايأخذهم بحجة إلا حجة القول المسموع ! ـ وهى مشاعر لاتصدر عن تصور إيمانى بالله وصفاته ؛ ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والنبوات ، وتكاليف الإيمان والاعتقاد !

Marfat.com

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم ـ ويعلم الجماعة المسلمة ـ حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول :

« قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

وقد شاءت إرادته أن يجعل الرسالة والكتاب فى غير أهل الكتاب ؛ بعد ماخاسوا بعهدهم مع الله ؛ ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم ؛ وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل ؛ وتخلوا عن الأمانة التى ناطها الله بهم ؛ وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم ؛ وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله بينهم . وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين . . عندئذ سلم القيادة ، وناط الأمانة ، بالأمة المسلمة . فضلا منه ومنة . « والله واسع عليم » . . « يختص برحمته من يشاء » . . عن سعة فى فضله وعلم بمواضع رحمته . . « والله ذو الفضل العظيم » . . وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا فى كتاب . وبالخير ممثلا فى رسالة . . وبالرحمة ممثلة فى رسول .

فإذا سمع المسلمون هذا أحسوا مدى النعمة وقيمة المنة فى اختيار الله لهم ، واختصاصه إياهم بهذا الفضل . واستمسكوا به فى إعزاز وحرص ، وأخذوه بقوة وعزم ، ودافعوا عنه فى صرامة ويقين ، وتيقظوا لكيد الكائدين وحقد الحاقدين . وهذا ما كان يربيهم به القرآن الكريم والذكر الحكيم . وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة فى كل جيل .

* * *

ثم يمضى السياق يصف حال أهل الكتاب ؛ ويبين مافى هذه الحال من نقائص ؛ ويقرر القيم الصحيحة التى يقوم عليها الإسلام دين المسلمين . ويبدأ فيعرض نموذجين من نماذج أهل الكتاب فى التعامل والتعاقد :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد

Marfat.com

الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » . .

إنها خطة الإنصاف والحق وعدم البخس والغبن يجرى عليها القرآن الكريم فى وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك ؛ والتى لعلها حال أهل الكتاب فى جميع الأجيال . ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم ، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين . . كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم ، حتى فى معرض الجدل والمواجهة . فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسا أمناء ، لايأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » . .

ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين الماطلين ، الذين لايردون حقا ـ وإن صغر ـ إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة . ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم ، بالكذب على الله عن علم وقصد :

« ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

وهذه بالذات صفة يهود . فهم الذين يقولون هذا القول ؛ ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودى واليهودى . أما غير اليهود ويسمونهم الأميين وكانوا يعنون بهم العرب (وهم فى الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم ، وغشهم وخداعهم ، والتدليس عليهم ، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم !

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا . وهم يعلمون أن هذا كذب . وأن الله لايأمر بالفحشاء ، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتا وبهتانا ، وألا يرعوا معهم عهدا ولا ذمة ، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم . ولكنها يهود ! يهود التى اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدنا ودينا :

« ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . .

Marfat.com

هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلق الواحد . ويربط نظرته هذه بالله وتقواه :

« بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم . ولهم عذاب أليم » . .

فهى قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعورا بتقواه أحبه الله وأكرمه . ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمنا قليلا ـ من عرض هذه الحياة الدنيا أو بالدنيا كلها وهى متاع قليل ـ فلا نصيب له فى الآخرة ، ولا رعاية له عند الله ولا قبول ، ولا زكاة له ولا طهارة . وإنما هو العذاب الأليم .

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى . ومن ثم لايتغير فى التعامل مع عدو أو صديق . فليس هو مسألة مصلحة . إنما هو مسألة تعامل مع الله أبدا . دونما نظر إلى من يتعامل معهم .

وهذه هى نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . فى الوفاء بالعهد وفى سواه من الأخلاق : التعامل هو أولا تعامل مع الله ، يلحظ فيه جناب الله ، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه . فالباعث الأخلاقى ليس هو المصلحة ؛ وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة . فإن الجماعة قد تضل وتنحرف ، وتروج فيها المقاييس الباطلة . فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء . ولابد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى . . أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة . . ومن ثم ينبغى أن تستمد القيم والمقاييس من الله ؛ بمعرفة مايرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه . . بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السامق الوضىء .

ومن ثم يجعل الذين يخيسون بالعهد ويغدرون بالأمانة . . « يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » . . فالعلاقة فى هذا بينهم وبين الله قبل أن تكون بينهم وبين الناس . . ومن هنا فلا نصيب لهم فى الآخرة عنده ، أن كانوا يبغون بالغدر والنكث بالعهد ثمنا قليلا هو هذه

Marfat.com

المصالح الدنيوية الزهيدة ! ولا رعاية لهم من الله فى الآخرة جزاء استهانتهم بعهده – وهو عهدهم مع الناس – فى الدنيا .

ونجد هنا أن القرآن قد سلك طريقة التصوير فى التعبير . وهو يعبر عن إهمال الله لهم وعدم رعايتهم ، بأنه لايكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم . . وهى أعراض الإهمال التى يعرفها الناس . . ومن ثم يتخذها القرآن وسيلة لتصوير الموقف صورة حية تؤثر فى الوجدان البشرى أعمق مما يؤثر التعبير التجريدى . على طريقه القرآن فى ظلاله وإيحاءاته الجليلة (١)

* * *

ثم يمضى فى عرض نماذج من أهل الكتاب ؛ فيعرض نموذج المضللين ، الذى يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة ، ويشترون بهذا كله ثمنا قليلا . . عرضا من عرض هذه الحياة الدنيا : ومن بين مايلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويؤولونه مايختص بمعتقداتهم التى ابتدعوها عن المسيح عيسى ابن مريم ، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء :

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون : هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس . كونوا عبادا لى من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . .

وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال التى يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب ، نعرفها نحن جيدا فى زماننا هذا . فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليا ، ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ماأراده الله منها . بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله فى أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لاتستطيع التفرقة

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

ن حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك القررات المفتعلة المكذوبة التى يلجئون إليها النصوص إلجاء !

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيدا فى بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلما ! الذين يحترفون الدين ، ويسخرونه فى تلبية الأهواء كلها ؛ ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضا من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ، ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة ؛ ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية . ويبذلون جهدا لاهثا فى التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التى يهمهم تمليقها . . « ويقولون هو من عندالله . وما هو من عندالله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . . كما يحكى القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء . فهى آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم . إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوى إرضاء هوى من الأهواء التى يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض ! وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتحريف كلماته عن مواضعها لتملق عبيد الله ، ومجاراة أهوائهم المنحرفة ، التى تصادم دين الله . . وكأنما كان الله - سبحانه - يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبىء ، الذى انتهى بنزع أمانة القيادة من بنى إسرائيل .

هذا النموذج من بنى إسرائيل - فيما يبدو من مجموع هذه الآيات - كانوا يتلمسون فى كتاب الله الجمل ذات التعبير المجازى ؛ فيلوون ألسنتهم بها - أى فى تأويلها واستخراج مدلولات منها هى لا تدل عليها بغير ليها وتحريفها - ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هى من كتاب الله ؛ ويقولون بالفعل : هذا ماقاله الله ، وهو مالم يقله - سبحانه - وكانوا يهدفون من هذا إلى إثبات ألوهية عيسى عليه السلام ومعه « روح القدس » . . وذلك فيما كانوا يزعمون من الأقانيم : الأب والابن وروح القدس . باعتبارها كائنا واحدا هو الله - تعالى الله عما يصفون - ويروون عن عيسى - عليه السلام - كلمات تؤيد هذا الذى يدعونه ، فرد الله عليهم هذا

Marfat.com

التحريف وهـذا التاويل ، بأنه ليس من شأن نبي يخصه الله بالنبوة ويصطفيه لهـذا الأمر العظيم أن يأمر الناس أن يتخذوه إلها هو والملائكة . فهذا مستحيل :

« ما كان لنبي أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ » . .

إن النبي يوقن أنه عبد ، وأن الله وحده هو الرب ، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم . فما يمكن أن يدعى لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية . فلن يقول نبي للناس : « كونوا عبادا لي من دون الله » . . ولكن قوله لهم : « كونوا ربانيين » . . منتسبين إلى الرب ، عبادا له وعبيدا ، توجهوا إليه وحده بالعبادة ، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم ، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا « ربانيين » . . كونوا « ربانيين » بحكم علمكم الكتاب وتدارسكم له . فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته .

والنبي لايأمر الناس أبدا أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، فالنبي لايأمر الناس بالكفر بعد أن يسلموا لله ويستسلموا لألوهيته، وقدجاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم ، وليقودهم إلى الإسلام لاليكفرهم !

ومن ثم تتجلى استحالة هذا الذي ينسبه ذلك الفريق إلى عيسى ـ عليه السلام ـ كما يتجلى الكذب على الله في ادعائهم أن هذا من عند الله . . وتسقط في الوقت ذاته قيمة كل مايقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك في الصف المسلم . وقد عرّاهم القرآن هـذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة !

ومثل هذا الفريق من أهل الكتاب فريق ممن يدعون الإسلام ، ويدعون العلم بالدين كما أسلفنا . وهم أولى بأن يوجه إليهم هذا القرآن اليوم . وهم يلوون النصوص القرآنية ليا ، لإقامة أرباب من دون الله في شتى الصور . وهم يتصيدون من النصوص ما يلوونه لتمويه هذه المفتريات . « ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » !

***

بعد ذلك يصور حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات ، على عهد من الله وميثاق ، ينبني عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات ، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق :

Marfat.com

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين : لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ » . .

لقد أخذ الله ــ سبحانه ــ موثقا رهيبا جليلا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله . موثقا على كل رسول . أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة ، ثم جاء رسول بعده مصدقا لما معه ، أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه . وجعل هذا عهدا بينه وبين كل رسول .

والتعبير القرآنى يطوى الأزمنة المتتابعة بين الرسل ؛ ويجمعهم كلهم فى مشهد . والله الجليل الكبير يخاطبهم جملة : هل أقروا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل :

« قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ » . .

وهم يجيبون :

« قالوا أقررنا » . .

فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويشهدهم عليه :

« قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » :

هذا المشهد الهائل الجليل ، يرسمه التعبير ، فيجف له القلب ويجب ؛ وهو يتمثل المشهد بحضرة البارىء الجليل ، والرسل مجتمعين . .

وفى ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلا متساندا مستسلما للتوجيه العلوى ، ممثلا للحقيقة الواحدة التى شاء الله ــ سبحانه ــ أن تقوم عليها الحياة البشرية ، ولا تنحرف ، ولا تتعدد ، ولا تتعارض ، ولا تتصادم . . إنما ينتدب لها المختار من عباد الله ؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده ، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به . فما للنبى فى نفسه من شىء ؛ وماله فى هذه المهمة من أرب شخصى ، ولا مجد ذاتى . إنما هو عبد مصطفى ، ومبلغ مختار . والله ــ سبحانه ــ هو الذى ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر ؛ ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء .

ويخلص دين الله ــ بهذا العهد وبهذا التصور ــ من العصبية الذاتية . عصبية الرسول لشخصه . وعصبيته لقومه . وعصبية أتباعه لنحلتهم . وعصبيتهم لأنفسهم . وعصبيتهم لقوميتهم . . ويخلص الأمر كله لله فى هذا الدين الواحد ، الذى تتابع به وتوالى ذلك الموكب السنى الكريم .

Marfat.com

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومناصرته وتأييده ، تمسكا بدياناتهم ـ لا بحقيقتها لحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته ، ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم فى صورة التعصب لها ! ـ مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلا غليظا مع ربهم فى مشهد مرهوب جليل . . فى ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون فسقة عن تعليم أنبيائهم . فسقة عن عهدالله معهم . فسقة كذلك عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه ، الخاضع لناموسه ، المدبر بأمره ومشيئته :

« فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ » . .

إنه لايتولى عن اتباع هذا الرسول إلا فاسق . ولا يتولى عن دين الله إلا شاذ . شاذ فى هذا الوجود الكبير . ناشز فى وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب .

إن دين الله واحد ، جاءت به الرسل جميعا ، وتعاقدت عليه الرسل جميعا . وعهد الله واحد أخذه على كل رسول . والإيمان بالدين الجديد واتباع رسوله ، ونصرة منهجه على كل منهج ، هو الوفاء بهذا العهد . فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين الله كله ، وقد خاس بعهد الله كله .

والإسلام ـ الذى يتحقق فى إقامة منهج الله فى الأرض واتباعه والخلوص له ـ هو ناموس هذا الوجود . وهو دين كل حى فى هذا الوجود .

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام . صورة كونية تأخذ بالمشاعر ، وترتجف لها الضمائر . . صورة الناموس القاهر الحاكم ، الذى يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد وشرعة واحدة ، ومصير واحد .

« وإليه يرجعون » . .

فلا مناص لهم فى نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل . .

ولا مناص للإنسان حين يبتغى سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله ، من الرجوع إلى منهج الله فى ذات نفسه ، وفى نظام حياته ، وفى منهج مجتمعه ، ليتناسق مع النظام الكونى كله . فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه ، لايتناسق مع ذلك النظام الكونى من صنع بارئه ، فى

Marfat.com

حين أنه مضطر أن يعيش فى إطار هذا الكون ، وأن يتعامل بجملته مع النظام الكونى . . والتناسق بين نظامه هو فى تصوره وشعوره ، وفى واقعه وارتباطاته ، وفى عمله ونشاطه ، مع النظام الكونى هو وحده الذى يكفل له التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلا من التصادم معها . وهو حين يصطدم بها يتمزق وينسحق ؛ أو لا يؤدى - على كل حال - وظيفة الخلافة فى الأرض كما وهبها الله له . وحين يتناسق ويتفاهم مع نواميس الكون التى تحكمه وتحكم سائر الأحياء فيه ، يملك معرفة أسرارها ، وتسخيرها ، والانتفاع بها على وجه يحقق له السعادة والراحة والطمأنينة ، ويعفيه من الخوف والقلق والتناحر . . الانتفاع بها لا ليحترق بنار الكون ، ولكن ليطبخ بها ويستدفئ ويستضىء !

والفطرة البشرية فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون ، مسلمة لربها إسلام كل شىء وكل حى . فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب ، إنما يصطدم أولا بفطرته التى بين جنبيه ، فيشقى ويتمزق ، ويحتار ويقلق . ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم فى عذاب من هذا الجانب - على الرغم من جميع الانتصارات العلمية ، وجميع التسهيلات الحضارية المادية !

إن البشرية اليوم تعانى من الخواء المرير . خواء الروح من الحقيقة التى لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها . . حقيقة الإيمان . . وخواء حياتها من المنهج الإلهى . هذا المنهج الذى ينسق بين حركتها وحركة الكون الذى تعيش فيه .

إنها تعانى من الهجير المحرق الذى تعيش فيه بعيدا عن ذلك الظل الوارف الندى . ومن الفساد المقلق الذى تتمرغ فيه بعيدا عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق !

ومن ثم تجد الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب ؛ وتحس الخواء والجوع والحرمان ؛ وتهرب من واقعها هذا بالأفيون والحشيش والمسكرات ؛ وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء ، والشذوذ فى الحركة واللبس والطعام ! وذلك على الرغم من الرخاء المادى والإنتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير . . لا بل إن الخواء والقلق والحيرة لتتزايد كلما تزايد الرخاء المادى والإنتاج الحضارى واليسر فى وسائل الحياة ومرافقها .

إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف . يطاردها فتهرب منه . ولكنها تنتهى كذلك إلى الخواء المرير !

Marfat.com

ومامن أحد يزور البلاد الغنية الثرية فى الأرض حتى يكون الانطباع الأول فى حسه أن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم . هاربون من ذوات أنفسهم . . وسرعان مايتكشف الرخاء المادى والمتاع الحسي الذى يصل إلى حد التمرغ فى الوحل ، عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة . وفراغ الحياة من كل تصور كريم !

إنهم لايجدون أنفسهم لأنهم لايجدون غاية وجودهم الحقيقية . . إنهم لايجدون سعادتهم لأنهم لايجدون المنهج الإلهى الذى ينسق بين حركتهم وحركة الكون ، وبين نظامهم وناموس الوجود . . إنهم لايجدون طمأنينتهم لأنهم لايعرفون الله الذى إليه يرجعون . .

***

ولما كانت الأمة المسلمة – المسلمة حقا لاجغرافية ولا تاريخا ! – هى الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله . وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه ، وحقيقة الموكب السنى الكريم الذى حمل هذا المنهج وبلغه ، فإن الله يأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يعلن هذه الحقيقة كلها ؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات ، واحترامها لجميع الرسل ، ومعرفتها بطبيعة دين الله ، الذى لايقبل الله من الناس سواه :

« قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط (١) ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم . لانفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . .

هذا هو الإسلام فى سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفى ولائه لكافة الرسل حملته . وفى توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد ، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده .

ومما هو جدير بالالتفات فى الآية القرآنية الأولى هنا هو ذكرها الإيمان بالله وما أنزل على المسلمين – وهو القرآن – وما أنزل على سائر الرسل من قبل ، ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله :

(١) الأسباط هم أحفاد يعقوب عليه السلام وهم آباء الاثنى عشر سبطا التى يتألف منها شعب إسرائيل .

Marfat.com

« ونحن له مسلمون » . .

فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه . بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس . كما يتجلى فى الآية قبلها « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . . فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر ، واتباع النظام ، وطاعة الناموس . . ومن ثم تتجلى عناية الله - سبحانه - ببيان معنى الإسلام وحقيقته فى كل مناسبة . كى لايتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان ، أو تصديق يستقر فى القلب ، ثم لاتتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله ، وتحقيق هذا المنهج فى واقع الحياة .

وهى لفتة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد :

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » . .

إنه لاسبيل - مع هذه النصوص المتلاحقة - لتأويل حقيقة الإسلام ، ولا للىّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ماعرفه به الله ، الإسلام الذى يدين به الكون كله . فى صورة خضوع للنظام الذى قرره الله له ودبره به .

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها . وهى توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول الله معناها وحقيقتها . وهى التقيد بالمنهج الذى جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع الشريعة التى أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذى حمله إلى العباد .

ولن يكون الإسلام إذن تصديقا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله . . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملى ، وحقيقته الواقعية التى أسلفنا . .

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات ، أو إشراقات وسبحات ، أو تهذيبا خلقيا وإرشادا روحيا . . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة فى منهج للحياة موصول بالله الذى تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والإشراقات والسبحات ، والذى تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد . . فإن هذا كله يبقى معطلا لاأثر له فى حياة البشر مالم تنصب آثاره فى نظام جتماعى يعيش الناس فى إطاره النظيف الوضىء .

* * *

Marfat.com

هذا هو الإسلام كما يريده الله؛ ولا عبرة بالإسلام كما تريده أهواء البشر في جيل منكود من أجيال الناس! ولا كما تصوره رغائب أعدائه المتربصين به، وعملائهم هنا أو هناك!

فأما الذين لا يقبلون الإسلام على النحو الذي أراده الله، بعد ماعرفوا حقيقته، ثم لم تقبلها أهواؤهم، فهم في الآخرة من الخاسرين. ولن يهديهم الله، ولن يعفيهم من العذاب:

«كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات. والله لايهدي القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون»..

وهي حملة رعيبة يرجف لها كل قلب فيه ذرة من إيمان؛ ومن جدية الأمر في الدنيا وفي الآخرة سواء. وهو جزاء حق لمن تتاح له فرصة النجاة، ثم يعرض عنها هذا الإعراض.

ولكن الإسلام - مع هذا - يفتح باب التوبة، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب؛ ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب. بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب. وإلا أن يفيء إلى الحمى الآمن، ويعمل صالحا. فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب:

«إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم»..

فأما الذين لايتوبون ولا يثوبون. الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفرا. والذين يلجون في هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة، وينتهي أمد الاختبار، ويأتي دور الجزاء. هؤلاء وهؤلاء لاتوبة لهم ولا نجاة. ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهبا فيما يظنون هم أنه خير وبر، مادام مقطوعا عن الصلة بالله. ومن ثم فهو غير موصول به ولا خالص له بطبيعة الحال. ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهبا ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة. فقد أفلتت الفرصة وأغلقت الأبواب:

«إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به. أولئك لهم عذاب أليم. ومالهم من ناصرين»..

وهكذا يحسم السياق القضية بهذا التقرير المروع المفزع، وبهذا التوكيد الواضح الذي لايدع ريبة لمستريب..

***

Marfat.com

وبمناسبة الإنفاق على غير درب الله ، وفى غير سبيله ، وبمناسبة الافتداء يوم لاينفع الفداء ، يبين البذل الذى يرضاه :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » . .

وقد فقه المسلمون وقتها معنىهذا التوجيه الإلهى ، وحرصوا على أن ينالوا البر - وهو جماع الخير - بالنزول عما يحبون ، وببذل الطيب من المال ، سخية به نفوسهم فى انتظار ماهو أكبر وأفضل .

روى الإمام أحمد - بإسناده - عن أبى إسحاق ابن عبد الله ابن أبى طلحة : سمع أنس ابن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بير « حاء » . وكانت مستقبلة المسجد . وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . . قال أبو طلحة : يارسول الله ، إن الله يقول : «لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى إلىّ بير « حاء » وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى . فضعها يارسول الله حيث أراك الله . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « بخ بخ . ذاك مال رابح . ذاك مال رابح . وقد سمعت . وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يارسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه » . . (وأخرجه الشيخان) .

وفى الصحيحين أن عمر - رضى الله عنه - قال : « يارسول الله لم أصب مالا قط ، هوأنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر . فما تأمرنى به ؟ قال : « احبس الأصل ، وسبل الثمرة » . .

وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذى هداهم إلى البر كله ، يوم هداهم إلى الإسلام . ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال ، ومن شح النفس ، ومن حب الذات ؛ ويصعدون فى هذا المرتقى السامق الوضىء أحرارا خفافا طلقاء . .

انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع
مبدوءا بقوله تعالى : كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل . . .

Marfat.com

فهرس المجلد الأول

السورة		مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
المقدمة			٣ – ١٢	
سورة الفاتحة		مكية وهي ٧ آيات	١٣ – ٢١	الجزء الأول
سورة البقرة		مدنية وآياتها ٢٨٦ آية	٢٢ – ٥١٠	
الآية :	١ – ٢٩	الم ، ذلك الكتاب	٣٥ – ٦٢	
»	٣٠ – ٣٩	وإذ قال ربك للملائكة...	٦٣ – ٧٤	
»	٤٠ – ٧٤	يا بني اسرائيل اذكروا ...	٧٥ – ١٠٣	
»	٧٥ – ١٠٣	أفتطمعون أن يؤمنوا	١٠٤ – ١٣٠	
»	١٠٤ – ١٢٣	يا ايها الذين آمنوا لا	١٣١ – ١٤٨	
»	١٢٤ – ١٤٠	وإذ ابتلى ابراهيم ربه	١٤٩ – ١٦٤	
»	١٤١ – ١٥١	سيقول السفهاء من الناس ..	١٦٥ – ١٩٦	الجزء الثاني
»	١٥٢ – ١٥٧	فاذكروني اذكركم واشكروا لي	١٩٧ – ٢٠٥	
»	١٥٨ – ١٧٧	إن الصفا والمروة	٢٠٥ – ٢٢٩	
»	١٧٨ – ١٨٨	يا ايها الذين آمنوا كتب ...	٢٣٠ – ٢٥٣	
»	١٨٩ – ٢٠٣	يسألونك عن الاهلة	٢٥٣ – ٢٩٢	
»	٢٠٤ – ٢١٤	ومن الناس من يعجبك ...	٢٩٢ – ٣١٨	
»	٢١٥ – ٢٢٠	يسألونك ماذا ينفقون	٣١٨ – ٣٣٨	
»	٢٢١ – ٢٤٢	ولا تنكحوا المشركات حتى..	٣٣٨ – ٣٧٩	
»	٢٤٣ – ٢٥٢	الم ترإلى الذين خرجوا ...	٣٧٩ – ٣٩٨	
»	٢٥٣ – ٢٥٧	تلك الرسل فضلنا بعضهم ...	٤٠٥ – ٤٣٣	الجزء الثالث
»	٢٥٨ – ٢٦٠	الم ترى إلى الذي حاج ...	٤٣٣ – ٤٤٣	

Marfat.com

السورة		مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
«	٢٦١ - ٢٧٤	مثل الذين ينفقون	٤٤٣ - ٤٦٥	
«	٢٧٥ - ٢٨١	الذين يأكلون الربا	٤٦٥ - ٤٩٠	
«	٢٨٢ - ٢٨٤	يا أيها الذين آمنوا إذا . . .	٤٩٠ - ٤٩٧	
«	٢٨٥ - ٢٨٦	آمن الرسول بما انزل	٤٩٦ - ٥١٠	
سورة آل عمران		مدنيه واياتها ٢٠٠	٥١١ - ٦٢٩	
الآية	١ - ٣٢	الم. الله لا إله	٥٢٩ - ٥٧١	
«	٣٣ - ٦٤	إن الله اصطفى آدم	٥٧١ - ٦٠٢	
«	٦٥ - ٩٢	يا اهل الكتاب لم	٦٠٣ - ٦٢٩	

Marfat.com